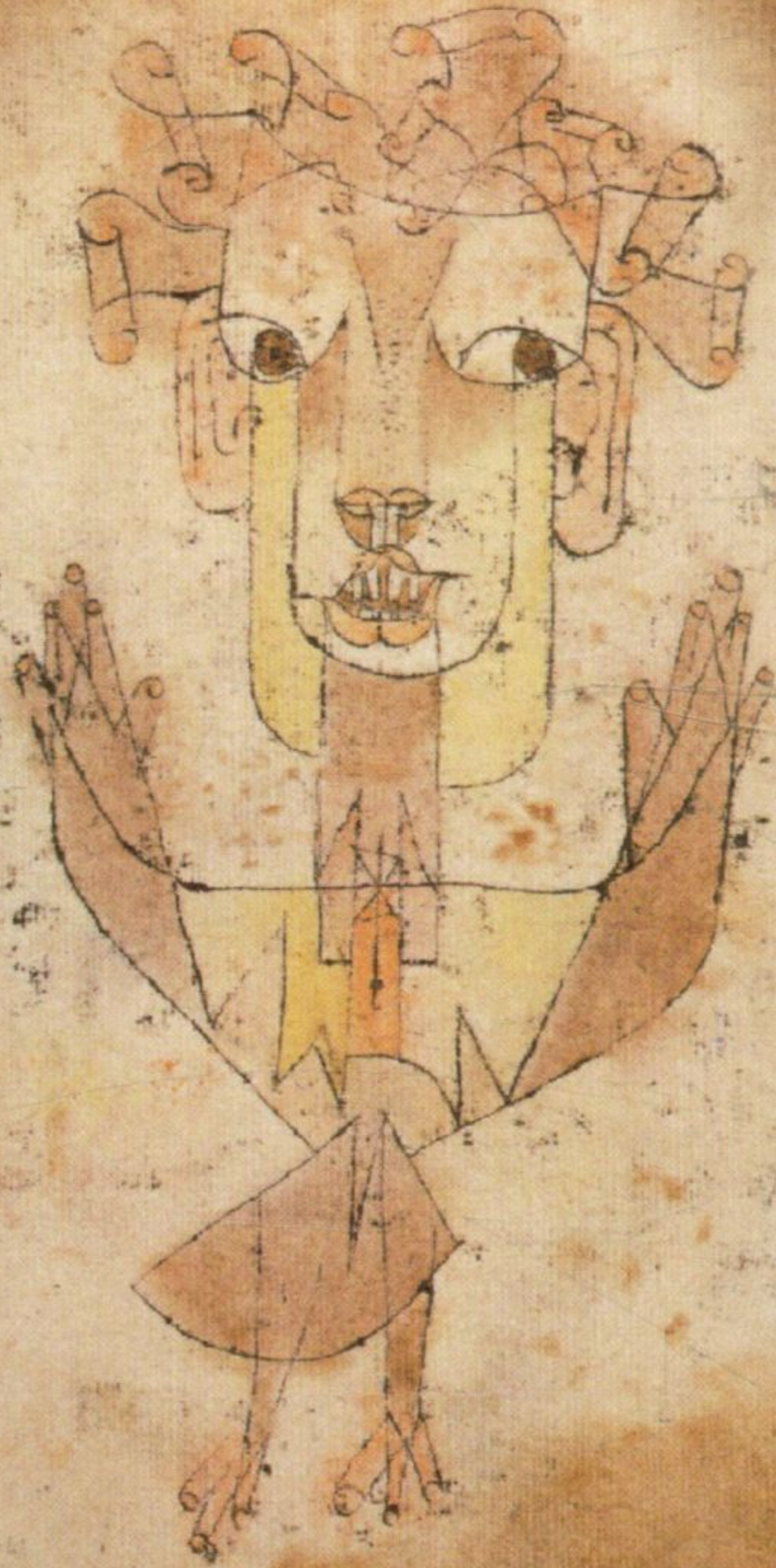


بندكت أندرسن

الجماعات المتخيلة

تأملات في أصل القومية وانتشارها



تقديم
عزمي بشارة

ترجمة
ثائر ديب

الجماعات المُتَخَيِّلَة
تأملاتٌ في أضلِّ القومية وانتشارها

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية بالإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، عن طريق الترجمة الآمنة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بأراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديدة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب على السواء، من الافتقار إلى التناج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى الإسهام في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

سلسلة ترجمان
الهيئة الاستشارية

عزمي بشارة
فايز الصياغ
وجيه كوثراني
سعود المولى
أبو بكر باقادر
ثائر ديب
فالح عبد الجبار
محمد المصري

الجماعاتُ المتخيلةُ تأملاتٌ في أصلِ القوميةِ وانتشارِها

طبعة مُنقَّحة ومزودة

بِنْدِكْتْ أُنْدِرْسِن

ترجمة
ثائر ديب

تقديم
عزمي بشارة

الغلاف: «الملاك الجديد»، بول كينسب
(مُشَدِّد)



الفهرسة أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

أندرسن، بِنْدِكْت

الجَمَاعَات المُنْتَخِلة: تأملات في أَصْل القومية وانتشارها / بِنْدِكْت أندرسن؛ ترجمة

ثائر ديب؛ تقديم عزمي بشارة.

384 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على بيليوغرافية (ص. 359 - 368) وفهرس عام.

ISBN 978-9953-0-3011-1

1. القومية - تاريخ. أ. ديب، ثائر ب. بشارة، عزمي. ج. العنوان د. السلسلة.

320.54

هذه الترجمة مأذون بها حصرياً من الناشر لكتاب

Imagined Communities

Reflections on the Origin and

Spread of Nationalism

by Benedict Anderson

عن دار النشر

Verso, London. New York, revised edition, 2006

ISBN-1 3: 978-1-84467-086-4

ISBN-1 0: 1-84467-086-4

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



شارع رقم: 826 - منطقة 66

المنطقة الدبلوماسية - الدفنة، ص. ب: 10277 - الدوحة - قطر

هاتف: 44199777 - 00974 فاكس: 44831651 - 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب - شارع سليم تقلا - بناية الصيفي 174

ص. ب: 4965 - 11 - رياض الصلح - بيروت 2180 1107 - لبنان

هاتف: 8 - 1 991837 - 00961، فاكس: 1 991839 - 00961

البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org

الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

الطبعة الأولى عن المركز

بيروت، نيسان/أبريل 2014

المحتويات

7	مقدمة الترجمة العربية..... عزمي بشارة
47	كلمة المؤلف بخصوص الترجمة العربية.....
49	إقرارًا بالفضل.....
51	تصدير الطبعة الثانية.....
57	1- مدخل.....
67	2- جذور ثقافية.....
101	3 - أصول الوعي القومي.....
115	4 - رواد كريوليون.....
137	5 - لغات قديمة، نماذج جديدة.....
155	6 - القومية الرسمية والإمبريالية.....
189	7 - الموجة الأخيرة.....
223	8 - الوطنية والعنصرية.....
245	9 - ملاك التاريخ.....
255	10 - التعداد والخريطة والمتحف.....
283	11- الذاكرة والنسيان.....

12-	القومية الغربية والقومية الشرقية هل ثمة فرق مهم؟	309
	ترحال وتجارة: في السيرة الجغرافية لكتاب الجماعات المتخيلة	325
	ثبت المصطلحات	355
	المراجع	359
	فهرس عام	369

مقدمة الترجمة العربية

عزمي بشارة

أولاً: من دون مبالغة

كيف أصبح كتابٌ يغطي هذا الكمّ الواسع من الموضوعات في عدد متواضع من الصفحات، سهلة القراءة، مصدرًا جامعيًا وفكريًا لا غنى عنه في دراسة ظاهرة القوميات الحديثة؟ لا شكّ في أن عنوانه كان أحد عوامل شهرته. لكن العنوان يساعد في نشر الكتاب لا في تحويله إلى مصدر أكاديمي جدي تُرجمَ إلى 30 لغة. ولقد غدا هذا الكتاب مصدرًا جامعيًا مع أنه لم تطبعه دار نشر جامعية (تبقى دار النشر الإنكليزية فيرسو دارًا محترمة بالطبع)، بل إنّ ترجماته أيضًا لم تُطبع في دور نشر جامعيّة إلّا في حالتين، إحداهما الجامعة المفتوحة في تل أبيب (التي طلبَ مني محاضر يساري أن أكتب مقدّمتها قبل أكثر من عقد). وعمومًا، اهتمّت بطباعة الكتاب دور نشر من خارج المؤسسة الأكاديميّة في «الغرب» و«الشرق» ومن خارج المؤسسة بشكل عام. ومع ذلك قلما حظي كتاب بأن يصبح بحقّ مقررًا جامعيًا بدهيًا على قوائم الأساتذة والطلبة في الجامعات.

لدينا كتاب يقول عنه أحد مراجعيه، ويوافق على ذلك مؤلفه، إنّ منهجه أكثر ليبراليّة من أن يكون ماركسيًا، وأكثر ماركسية من يُعدّ ليبراليًا. وهذا الالتباس، في رأيي، هو بالضبط مصدر غنى الكتاب وقوّته.

عُرف كتاب بندكت أندرسن في ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته، في مرحلة تصاعد النقاش في شأن القوميات في وسط أوروبا وشرقها، مع أن دافع كتابته، كما يوضح الكاتب، كان نشوب حروب أخرى بين دول اشتراكية في الهند الصينية. هكذا، عاد التاريخ القريب المتمثل بانحلال الاتحاد السوفياتي والمنظومة الأوروبية الشرقية ليؤكد منطق الجماعات المتخيّلة على

نحو يفوق ما توقعه كاتبه. وسبق لي أن تناولتُ تلازم موضوعي القومية والمجتمع المدني في تلك الفترة ورأيت، في فصل خاص من كتابي الصادر في عام 1996 بعنوان المجتمع المدني: دراسة نقدية، أن هذا التلازم ليس بالتلازم المفارق، وليس بالتاريخي فحسب، بل هو تلازم نظري ومفهومي. وتطوّرتُ هناك إلى النظريات عن القومية ومن بينها نظرية أندرسن، لذلك لن تكون هذه النظريات، قبل أندرسن وبعده، موضوع مقدماتي هذه، وأكتفي بالإشارة إلى الفصل الذي يتناول الفكرة القومية في كتابي ذاك⁽¹⁾.

حين يضع أندرسن كتابه في السياق التاريخي لا يكفي بتواضع الباحث الجدي. وهو يقول عن كتابه بنبرة نقدية إن أهميته العالمية أو عالمية انتشاره تعود إلى صدوره أولاً بالإنكليزية التي تعمل حالياً كنوع من لاتينية ما بعد عهد الكنيسة. ويرى أنّه لو ظهر في هانوي أو تيرانا للفقه النسيان. ومن المفيد أن يقرأ بعض المثقفين العرب هذه الملاحظة حين يسارعون إلى الاحتفاء بأي كتاب صادر بالإنكليزية وإلى التقليل من شأن ما يصدر بالعربية. لم يفوت أندرسن هذه المناسبة ليضع حتى الشهرة الأكاديمية لكتابته في سياق هيمنة اللغة الإنكليزية، مع أنّه كتاب جاد ومجدّد لو صدر بأيّ لغة كانت.

سدّ هذا الكتاب ثغرة كبيرة بين النظريات التي تعتبر القومية إثنية محدثة، كما هو الحال لدى أمثال أنطوني سميث حالياً؛ وتلك التي تعتبرها مجرد أيديولوجية برجوازية، كما يفعل ذلك منظرون ماركسيون لا يحصرهم العدّ؛ وثالثة تعتبرها نتاج المجتمع الصناعي، كما في حالة إرنست غلنر؛ ورابعة تضع لها تعريفات حديثة منزوعة من سياقاتها التاريخية ومعّمة على العالم بأسره، كما فعل جوزيف ستالين مثلاً في كتيبه عن مسألة القوميات؛ وخامسة ترى فيها مجرد اختراع عابر، كما فعل إيلي خدوري من اليمين وهوبسباوم من اليسار. ونحن هنا أمام عمل بحثي تخصّصي أمين، ورؤية نظرية ثابتة لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة القومية والهوية في العصر الحديث.

لو وقع كتاب عربي بعدد متواضع من الصفحات التي تغطّي هذا الكمّ من

(1) انظر: عزمي بشارة: «الأمة والقومية والمجتمع المدني»، في: المجتمع المدني: دراسة نقدية (مع إشارة إلى المجتمع المدني العربي) (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998) ص 211 - 257.

الموضوعات بين يدي ناقد عربي متوسط لما رحمه حتى قبل أن يقرأه. أما الآن فشهرة هذا الكتاب حصّته من موقف مسبق كهذا، ونأمل أن تساهم هذه المقدمة في تحصينه أكثر ضد الآراء المسبقة التي تذرّ أو تمجّد بناءً على موقف سياسي أيديولوجي، أو حتى شخصي، من دون أن تقرأ. وسوف نتطرّق هنا إلى نقاط القوة الكثيرة وإلى نقاط الضعف القليلة، وإلى المهمّ فحسب من هذه النقاط الأخيرة.

ثانيًا: الجماعات المتخيّلة وكتاب «الجماعات المتخيّلة»

1 - عن التعريف

حين تُناقش مسألة القومية، غالبًا ما يتمحور الحديث حول تعريفات القومية. ومجرّد انتشار هذه العادة، عند مناقشة مثل هذه المواضيع، يوضح، للأسف، مقدار الفقر النظري في الإنتاج عن القومية. وكما سبق أن أوضح المفكر الليبرالي أشعيا برلين في مقالة مهمة له تناولت القومية⁽²⁾، فإنّ هذا الفقر النظري لا يتلاءم مع كون القومية إحدى أهمّ ظواهر العصر الحديث الاجتماعية والسياسية. يقول مؤلّف الكتاب: «في كلّ عام تقريبًا تعترف الأمم المتحدة بأعضاء جدد. وكثيرٌ من «الأمم القديمة» التي كانت تُحسب أنّها متماسكة تمامًا، تجد نفسها إزاء تحدٍّ تُطلقه قوميات «فرعية» داخل حدودها، قوميات تحلم بأن تخلع عنها هذه الفرعية في يوم سعيد من الأيام. والواقع واضحٌ تمامًا: إنّ «نهاية عصر القومية» التي لطالما جرى التبشير بها، لا تلوح في الأفق ولو من بعيد. بل إنّ الانتماء إلى أمّة هو القيمة التي تحظى بأكبر قدرٍ من الشرعية الشاملة في حياة عصرنا السياسية».

الأهم من ذلك أنّ القومية لا تعرّف ذاتها فحسب، أي لا تعرّف تلك الظواهر المحدّدة ذاتيًا على أنها ظواهر قومية، مثل الدولة القومية والسياسة القومية والأدب واللغة... إلخ، بل لا توجد ثورة حديثة ناجحة إلا وعرفت نفسها في النهاية بأدوات قومية. ينطبق ذلك على الثورة الصينية وعلى الثورة

Isaiah Berlin: «Two Concepts of Nationalism, An Interview with Fardels,» *New York Review* (2) of Books (November 1991), and *Against the Current: Essays on History of Ideas* (Harmondsworth; Middlessex, NY: Penguin, 1979), pp. 249-250.

الفرنسية وغيرهما، وثبت أنه ينطبق أيضًا على الاتحاد السوفياتي والدول التي تعرّف نفسها بأنها استمرار لملكيات سلافية قديمة، مثل بريطانيا التي تثبت في القرنين الأخيرين وقبلهما، وكذلك في كتابتها تاريخها وتعريفها لغتها وإسقاطها على التاريخ، أنّها ربما تكون الأكثر قومية، على الرغم من أنّ منظريها المحافظين هم الأكثر إنكارًا لقوميّتها. وحتى ماركس عندما دعا كل بروليتاريا إلى أن تحسم الأمور مع برجوازيّتها الخاصّة، ما الذي قصده بنعت برجوازيّتها بـ «الخاصّة»، ألم يقصد برجوازيّتها الوطنية أو القومية؟

يستخدم الكاتب، للتدليل على الضعف النظري في دراسة القومية، مأزق التعريفات الذي يعبر عن شبه استحالة تعريف القومية، مع أنّها ظاهرة قائمة وموجودة يدركها الجميع لكنهم لا يتفقون على تعريفها في الوقت ذاته. ومع حفظ الفارق في الموضوع والسياق، ولغرض تصوير الإشكالية هذه نقول: إن صعوبة تعريف الدين، مثلاً، لا تقلل من أهميته، ولا من أهميّة نقد أساطيره عند نقاد الدين.

يستعين أندرسن بِمُنْظَرَيْنِ بريطانيين عالجا الموضوع من منطلقين منهجين مختلفين وبذلا جهدًا نظريًا كبيرًا. يقول أندرسن: «وها هو هيو سيتن واتسون، مؤلف أفضل نصّ عن القومية في اللغة الإنكليزية وأشمله، ووريث تقليد ضخم من التأريخ وعلم الاجتماع الليبراليين، ها هو يلاحظ بحزن أنّه يجد نفسه منساقًا إلى استنتاج مفاده أنّ من غير الممكن تدبّر أيّ «تعريف علمي» للأمة، مع أنّ الظاهرة كانت موجودة ولا تزال. أمّا توم نايرن، مؤلف كتاب تفكك بريطانيا الذي شقّ سبيلًا جديدًا في تناول هذا الموضوع، ووريث تقليد لا يقلّ ضخامة من التأريخ وعلم الاجتماع الماركسيين، فيلاحظ صراحةً «أنّ نظرية القومية تمثّل إخفاق الماركسيّة التاريخي الكبير».

لا يقبل أندرسن ما يكتبه دارسٌ ماركسي متعاطف مع القومية مثل توم نايرن من أنّ «القومية» مرض التاريخ التطوّري الحديث... شأنها شأن «العصاب» لدى الفرد، حيث يكتنفها إلى حدّ بعيد الإبهام الجوهرية ذاته، وتتمتع بالقدرة الأساس ذاتها على التدهور والتحوّل إلى ضَرْبٍ من الخبل الذي يضرب بجذوره في معضلات الضعف والعجز المنتشرة في معظم أرجاء العالم... والتي لا دواء لها بوجه عام. ويرد أندرسن، في نهاية الكتاب، على

مثل هذه الادعاءات غير الصحيحة أولاً، وغير المفيدة في فهم القومية ثانياً، كما يرد على تحميلها ما لا تحتمل، بقوله: «غير أنه لن يكون بالإمكان القيام بأي شيء مفيد للحيلولة دون مثل هذه الحروب (يتحدث هنا عن الحرب بين فيتنام والصين على أثر اجتياح الصين كمبوديا) أو الحد منها ما لم نتخل عن خرافات مثل الخرافة التي تقول إن «الماركسيين كماركسيين ليسوا قوميين»، أو «إن القومية مرض من أمراض التطور التاريخي الحديث»، ونبدل بدلاً من ذلك ما بوسعنا كي نتعلم تجربة الماضي الواقعية والمتخيلة».

لذلك يقول أندرسن: «وإنه لما يجعل الأمور أسهل، في اعتقادي، أن نتعامل مع القومية على أنها من قبيل «القراية» و«الدين»، وليس «الليبرالية» أو «الفاشية»... إليكم، إذاً، هذا التعريف للأمة الذي يقترحه أندرسن كما يقول بروح أنثروبولوجية: الأمة جماعة سياسية متخيلة، حيث يشمل التخيل أنها محدّدة وسيّدة أصلاً.

هذا التعريف هو عنوان الكتاب وهو أحد أسباب جاذبيته وانتشاره أيضاً، وغالباً ما تُشتهر كتب بسبب عناوينها المصاغة كأنها خرجت من يدي «كوبي رايت» موهوب. لكن هذا الكتاب القصير والنقدي يقدم جديداً من الناحية النظرية ولا يكتفي بجاذبية العنوان. إنه مؤلف من مئتي صفحة لا حشو فيها، وفي كل جملة مضمون يساهم في توضيح فكرة. لذلك ينجح في معالجة هذا القدر من المواضيع بهذا الإيجاز. ومع أنه ليس كتاباً شاملاً عن الظاهرة القومية، لا بالمعنى النظري ولا التاريخي، فإنه يعج باللمعات الفكرية. ويعتبر ذلك التعريف من أهم هذه اللمعات. وعلينا، هنا، أن نفحص المفاهيم، أو العناصر المفهومية، المكوّنة لهذا التعريف: (1) جماعة، (2) متخيلة، (3) يشمل تخيلها أن لها حدوداً، وأنها سيّدة أو ذات سيادة.

الغريب أن أندرسن لا يتوقّف طويلاً هنا كي يشرح للقارئ، ربّما لأن اهتماماته ليست نظرية أساساً (خلافًا لاهتمامات كاتب هذه المقدمة)، وربّما لأن الفرق بين مفاهيم مثل «جماعة» و«مجتمع» تُعتبر عنده أمراً مفروغاً منه. والحال، إنه كان يمكن ترجمة «الجماعة» (Community) إلى «أهل» (هكذا استخدمها شخصياً في كتابتي منذ عام 1996، فأقول «ديمقراطية أهلية»، مثلاً) لولا أن «أهل» العربية تعني الوالدين أيضاً وليس فقط العائلة بالمعنى

الموسّع القريب من مفهوم Community أو Gemeinschaft السوسيولوجي. لكن كلمة «أهل» أقرب إلى المفهوم من كلمة «جماعة» العربية التي لا تحمل بالضرورة دلالات المفهوم، لذلك يلزمها بعض التوضيح عند استخدامها بالعربية للتدليل عليه، لأن المقصود هو جماعة أولانية وشائجية (Primordial) يولد الإنسان ويُعرّف بصفته عضواً فيها. وهكذا يتعرّف إلى جزء كبير من وظائفه ومراحل حياته باعتبارها مشتقة من الجماعة التي يحملها في داخله وتحمله في داخلها. والأمر الأهم في تعريفها التاريخي يتمثل في أن الإنسان عضو فيها وليس فرداً مستقلاً بقراراته الذاتية، خلافاً لما تبلورت إليه لاحقاً شخصية الفرد القادر على تشكيل اتحاد أو مجتمع أو جمعية بالتعاقد، أو بافتراض التعاقد، إذ يُعتبر انتماءه إلى الجماعة المكوّن الأساس في شخصيته. وهذا، بالطبع، تعريف نظري يصلح لأنموذج؛ فلا توجد ظاهرة تاريخية نقية كما المفهوم. ويمكن، هنا، أن نفكر بالعشيرة والقبيلة من بقايا هذه الظواهر في عصرنا على الرغم من كلّ التغيرات التي اعترتها واعترت علاقة الفرد بها.

أمّا المفهوم المقابل، «المجتمع» (Society أو Gesellschaft)، فهو الذي يفترض الوجود التاريخي للشخصية الفردية القادرة على الاتحاد والتعاقد بين أفراد لا تنظمهم علاقة تراتبية أو غير تراتبية «طبيعية» بالولادة والانتماء. ولا نريد الخوض هنا في مدى إمكانية وجود مجتمع بالتعاقد المفترض فحسب، من دون جماعة أو انتماء أهلي للمجتمع ذاته. لكن علينا أن نتذكر أن الظاهرة ليست نقيّة كأنموذجها النظري الذي لا غنى عنه ليس في فهم الظاهرة كلّها فحسب، بل في فهم ما يميّزها من غيرها أيضاً.

ما يهّمنا هنا هو أن الانتماء إلى القومية، بموجب هذا التعريف، هو انتماء من نوع الانتماءات إلى «جماعة»، إلى «أهل». إنّه من نوع الانتماءات التي تتضمّن تعريفاً للذات والهوية وولاء شخصياً ومحبة واستعداداً للتضحية... بل إنّ أندرسن يتطرّق لمقولة «المصلحة القومية» في نهاية الكتاب على نحوٍ ساخر، مؤكّداً أن ما يميّز مثل هذه العلاقات هو المحبة وليس المصلحة. ولذلك لا يخطئ المنظّرون القوميون بصياغتهم المحبة كرابط قومي، فهي كلمة أخرى تعبّر عن الانتماء. وهذا ليس وصفاً رومانسياً ولا أدبياً، بل وصف لطبيعة الانتماء إلى جماعة أهلية. غير أنّه من هنا، من عدم الارتياح لطبيعة

علاقة الأفراد الحديثين بالقومية، بوصفها علاقة بجماعة وليس بمجتمع، تنبع أغلبية النقد الموجّه للقومية والأيديولوجية القومية، حتى من دون أن يدري النقاد، لأنّ القومية تستثمر هذه الظاهرة غير الفردية، إذا جاز القول، في الهيمنة على الأفراد. وسوف نعود إلى هذا الموضوع لاحقاً. لكننا ننوّه منذ البداية، إلى أن الرابط القومي، مثل أي رابط آخر، يمكن أن يُستخدم، مثلاً، في التحشيد للمشاريع الوطنية الكبرى وللسلام وللحرب أيضاً، من القوميين وغير القوميين الذين يصبحون فجأة قوميين في مثل هذه المفاصل. ومن المفيد، على سبيل المثال لا الحصر، أن نتذكر الخطاب الستاليني، إبان الحرب العالمية الثانية، عن «الوطن الأم»، و«روسيا الأم» الثانية، من دون أن ندخل في مزيد من التفاصيل.

لا يضحّي الشخص من أجل تعاقد. قد يُقتل من أجل تعاقد، أو من أجل مصلحة، وهذا من الأمور الدارجة في التصور اليومي للقتلة... لكنه لا يُقتل من أجلها، ولا يذهب إلى الحرب والتضحية دفاعاً عن اتحاد أو نقابة أو جمعية أو حزب... (إلا إذا توافرت علاقة انتماء إليها أيضاً). والعلاقة الرفاقية الأفقية التي تفرضها القومية كجماعة (وفرضتها الطبقة في بعض الأحيان قبل أن يصبح النضال مطلبياً ومصلحياً خالصاً؛ أي حين كان يعبر عن الانتماء إلى طبقة تتشارك الإيمان بقيم معينة)، تلك العلاقة التي تفرض نوعاً من المساواة في الأمة، حتى حيث لا تسود مثل هذه المساواة، هي حقيقة القومية وخداها في آن معاً، وهي الحقيقة والضباب الأيديولوجي الذي يغلفها في الوقت ذاته، وهذا أصل التوتر الدائم بينهما.

يتضمّن الانتماء إلى القومية نوعاً من المساواة المفترضة بين البشر في إطار غير متساوٍ. وبذلك تغدو أداة ديمقراطية تدفع نحو الطموح إلى المساواة، كما قد تتحوّل إلى غطاء ديماغوجي شعبي لانعدام المساواة. هذه جاذبية القومية، هذه فرصتها، وهذا خطرها.

يستغرب كثير من الماركسيين أنّ استعداد الناس للتضحية يقلّ عندما يُفكّك البعد الإيماني الأيديولوجي، وحين يكثّر الحديث عن المنهج العلمي في الماركسية. لكن أحداً، في الحقيقة، ليس مستعداً أن يناضل، فضلاً عن أن يضحّي من أجل منهج. وهذا أمر طبيعي وغير محير في رأينا، ذلك أنّ المنهج

العلمي موجود في الماركسية ويدفع إلى البحث عن القوانين والنظريات لفهم المجتمع والتاريخ، كما توجد مناهج علمية غير ماركسية أيضًا، لكن المنهج يمنح فهمًا ولا يمنح معنى للحياة، فما بالك أن يمنح معنى للموت.

بيد أن القومية ليست جماعة صغيرة يعرف الفرد أفرادها شخصيًا، أو يعتقد أنه يعرفهم كامتداد لشيء يعرفه بموجب قرابة الدم، مثلًا، كما يفترض بجماعة العائلة الممتدة والقبيلة أو الحارة. القومية، إذا، جماعة متخيلة، يتصورها المرء فينتهي إلى الآلاف والملايين من الناس المنتمين إليها أيضًا من دون أن يعرفهم أو يرتبط بهم برابطة طبيعية، لكنه قادر على تخيل رباط كهذا. وكونها متخيلة لا يقلل من انتمائه إليها، بل على العكس ربّما يضطره التخيل، أو تضطره ضرورة التخيل، إلى تقوية هذا الانتماء وشحذه بخيال أرفع وبوسائل أرقى. قد ينتج الانتماء المباشر (غير المتخيل) إلى جماعة مباشرة (غير متخيلة) تعبيرات فنية وجمالية في إطار هذا الانتماء، مثل ممارسة المواسم والاحتفاليات والطقوس والشعائر وغيرها، لكنه لا ينتج أدبًا رفيعًا ولا موسيقى راقية مثلًا، ولا ينتج علاقات حقوقية... لا يعالج أندرسن هذا التأسيس النظري لحقيقة التخيل، كما لا يعالج كيف تزداد الجماعة المتخيلة أهمية وواقعية كلما تفككت الجماعة المباشرة المحلية. لأنه حين تتفكك جماعة الانتماء المباشر تقوم الجماعة المتخيلة بالمهمتين: المهمة التعويضية عن الجماعات الحميمية الأهلية التي اندثرت، ومهمتها الحديثة المتمثلة بإقامة جماعة سياسية تسعى نحو الوحدة والسيادة بتأسيس الكيانية السياسية كما سوف نرى.

ليست الجماعة المتخيلة جماعة خيالية، بل حقيقية وواقعية، لا لأن فعلها وتأثيرها حقيقي وواقعي فحسب، بل لأن تخيلها يجري بأدوات واقعية، قائمة. والناس في هذه الحالة لا يتخيلون شيئًا من العدم وبوساطته. بل يحتاج تخيل هذه الجماعة إلى أدوات ناشئة تاريخيًا، كما يتشكل المُتخيل بهذه الأدوات من عناصر قائمة.

يجدد أندرسن إذ يُثبت أن هذه الأدوات قد تكون هي التمايز اللغوي وقد تكون أمورًا أخرى، أي أن العناصر والأدوات المكونة للجماعة المتخيلة ولعملية تخيلها تختلف. لكن اللغة المطبوعة كانت شرطًا ضروريًا. ومنذ تمّ تخيلها، أي

صنعها، بواسطة اللغة المطبوعة أولاً، أي من خلال اللقاء التاريخي بين اكتشاف المطابع والرأسمالية التي تستثمر في طباعة الكتب والصحف وتسويقها، ومنذ نهوض اللغات المحلية المطبوعة بدلاً من اللاتينية المقدسة، نشأت اللغة القومية. ومنذ أن نشأت الوحدات الجمهورية الأميركية التي تعتمد على الحدود الإدارية الكولونيالية في تخيل ذاتها كجماعة في حدود سياسية، نشأ أنموذج معياري، قابل للنسخ والقرصنة. وأصبح أنموذجاً قابلاً للتفاعل الثقافي والسياسي وللمساهمة في تخيل الجماعة القومية في مناطق أخرى من العالم.

كي يوضح أندرسن ما يقصده بـ «متخيلة» يضعها في تعارض مع فهم غلنر لاختراع الأمم والشعوب بمعنى الخداع، فيقول: «يقدم غلنر بشيء من الحدة ما يمكن مقارنته بما يقدمه رينان، حيث يقرر أن «القومية ليست يقظة الأمم على وعي ذاتها: إنها تخلق الأمم حيث لا وجود لها». غير أن العيب في هذه الصياغة يتمثل فيما بيده غلنر من قلق شديد لأن يبين أن القومية تتخفى وراء مزاعم زائفة، وهو ما يدفعه لأن يحول «الاختراع» إلى «تلفيق» و«زيف»، لا إلى «تخيل» و«خلق». وبذلك يكون ما يعنيه أن هنالك جماعات تمتاز عن الأمم بأنها «حقيقية» إذا قورنت معها. والحال، أن كل الجماعات التي تفوق في حجمها حجم أبسط القرى القائمة على التماس والاتصال المباشرين (وربما هذه القرى أيضاً) هي جماعات متخيلة».

لا يقتصر ما لدينا هنا على التمييز بين المتخيل والخيالي، بل يتعداه إلى توضيح مهم لأغراض الكتاب. ويتلخص هذا التوضيح بأنه إذا كانت القومية جماعة متخيلة، فليست كل جماعة متخيلة هي قومية. ذلك أن الطائفة الدينية إذا عبرت حدود القرية أو البلدة، وكان ممكناً تصوّر الانتماء إليها كما لو أنه انتماء إلى جماعة، فهي جماعة متخيلة. والجماعة الدينية أو الطائفة كجماعة عابرة للقارات والحدود هي أيضاً جماعة متخيلة عند أندرسن، لكنها في حالة أوروبا انهارت بانهيأ أدوات تخيلها: من انحسار اللاتينية كأداة تواصل للإنليجنسيا إلى تراجع سلطة الإكليروس على خيال العامة وزمنهم وأجندتهم... المسألة إذاً ليست الفرق بين جماعة متخيلة وأخرى غير متخيلة، بل الموضوع هو ما الفرق بين جماعة متخيلة وأخرى متخيلة أيضاً، أو: ما أنواع الجماعات المتخيلة؟

ما يهمنا أن نؤكد هنا هو أن اعتبار القومية جماعة متخيلة لا يكفي لتعريفها، أي للتعبير عن خصوصيتها. ويلزم للتخصيص والتعيين أمران أساسان آخران: أولهما أدوات التخيل التي يورد أندرسن فيما بعد أمثلة عليها، وثانيهما تخيل حدود الجماعة. لا يمكن تخيل القومية كجماعة بلا حدود. والحدود، أي تخيل الحدود، هو بداية تعريف الخصوصية، حدود سياسية إدارية، حدود لغوية، حدود جغرافية... لكن أكثر التعريفات خصوصية للقومية هو تخيلها سيّدة، أي ذات سيادة، وذات إرادة سياسية. وهذا هو البعد الكفيل بتعريف القومية وإعادة تعريف الأمة، وهو البعد الذي يجعل اللقاء بين فكرة الأمة وفكرة القومية أمراً طبيعياً. ونحن نضيف هذه الإشكالية هنا مع أنها ليست من موضوعات الكتاب، ونعتبر غيابها إحدى نقاط ضعفه. وربما يعود سبب الاهتمام عندنا إلى الفارق اللغوي بين القومية والأمة، وإلى الفارق بينهما كظاهرتين تاريخيتين وكيف أصبحت القومية شرط تكوّن الأمة الحديثة ذات السيادة.

أمّا الأدوات التي تهّمنا لفهم الكتاب وموضوعه فأدوات حديثة: رأسمالية الطباعة وفكرة الحدود والسيادة. كلّها أفكار حديثة، ذلك أن تخيل إرادة سياسية للشعوب لم يكن ممكناً في عصر الإمبراطوريات، ولا في عصر الملكيات المطلقة التي بدأت تتّضح في عهدها حدود بعض القوميات الأولى (السابقة على القوميات الإمبراطورية وتلك التي نشأت في ظلّها على حدّ سواء). بل لم يكن ممكناً تخيل مفاهيم الأمة السيّدة من دون مفاهيم الحرية ومن دون الإطاحة بفكرة السلالات الملكية ذات السيادة.

من أهمّ مآثر الكتاب للقارئ العربي أن ميدان بحثه وأمثله لا تأتي من مناطق مألوفة في تشكّل الوعي القومي، مثل أوروبا والبلقان والحالات العربية والتركية. ومع أنّه يُمضي بحقّ بعض الوقت الثمين في تحليل مجريات التفكك القومي لإرث إمبراطورية آل هابسبورغ وتشكّل القومية المجرية كعملية انفصالية (لا بد أن تذكّر القارئ العربي النبيه بالعلاقة العربية العثمانية) داخل بنية الإمبراطورية المقدّسة مع وجه الشبه بين التتريك والألمنة في الإمبراطوريتين، لكنّه سرعان ما يعود إلى مجال اختصاصه: شرق آسيا، حيث يعرض نشوء القومية في سيام (تايلند) وإندونيسيا والهند الصينية. والأهم من

ذلك كله، وقبل ذلك كله، يحلّ نشوء قومية المستوطنين ضد الدولة الأم في أميركا الشمالية، وفي أميركا الجنوبية بشكل خاص، ويعتبرها بشكل مفاجئ نموذجًا مبكرًا لقيام القوميات والأمم الحديثة في الجمهوريات، ذلك خلافًا لما هو مألوف من ارتباك في استخدام مصطلح القومية لوصف حركات هذه الشعوب في العادة.

وخلافًا للنظريات الأوروبية عن القومية التي تعتبر قوميات وسط أوروبا وشرقها رائدة، يعتبر الكاتب القوميات الهنغارية والتشيكية والبولندية جيلًا ثانيًا وثالثًا من القوميات، وأن قوميات أميركا الشمالية والجنوبية قد سبقتها إلى التشكل. ومن هنا يعنون أحد الفصول الرئيسة في الكتاب أي فصله الرابع بـ «رواد كريوليون».

من الطبيعي أن يصعب التمييز بين القومية والأيديولوجيا القومية بعدة أندرسن الفكرية. لكننا نرى أن ما يقوله عن قوميات أميركا اللاتينية يصحّ على الأيديولوجية القومية، أيديولوجية الحركة، ثم الدولة المعبرة عن جماعة متخيلة بأدوات مختلفة مثل اللغة أو الإقليم وغيرها، وهي مصاغة كيانيًا/سياسيًا. لكن قوميات مبكرة نشأت قبل ذلك وساهمت في صوغ القوميات الأميركية، هي القوميات في الدول التي تطوّرت فيها الرأسمالية باكراً وفعل السوق وتوحيد اللهجات والطباعة فعله في توحيدها في أمم. هنا كان دور الأيديولوجيا القومية أقل أهمية من دورها في الجيل الثاني من القوميات، وهي في الواقع قوميات مبكرة التشكل.

يرى الكاتب هذه السياقات لكنه لا يبلورها كما في هذا النموذج الذي نطرحه أعلاه، والذي يفرّق بين قوميات أدّت فيها الأيديولوجيا القومية (الواعية لذاتها) دورًا مهمًا في بلورة القومية والأمة، والقوميات التي قامت بفعل الدولة الرأسمالية الباكرة القائمة على دولة الملكية المطلقة، ذات الحدود السياسية الواضحة، وعلى السوق والطباعة. وهو لا يقوم بمثل هذا التمييز لأنّه لا يميّز بين القومية باعتبارها ظاهرة أيديولوجية ثقافية فكرية (من المتخيل) من جهة، والأيديولوجيا القومية الواعية لذاتها باعتبارها أيديولوجيا سياسية. وحتى لو كانت الظاهرتان متخيلتين، إلّا أن الفرق كبير في رأينا. وهذا هو البعد الأساس الذي يفتقر إليه الكتاب، ولا يمكنه، تاليًا، من الرد على ادّعاءات منظرين ذوي

نزعة أرسقراطية أنكلوساكسونية مثل أشعيا برلين وإرنست غلنر، خصوصًا إيلي خدوري⁽³⁾ الذين ينفون تعرض الشعب الإنكليزي والأميركي للقومية. إنهم، في رأينا، يُعبّرون بذلك، وربما من دون أن يدروا، عن أكثر أشكال القومية صلفًا وغرورًا في بريطانيا وأميركا وأستراليا وغيرها من مصانع الأساطير القومية في الأدب والمسرحيات والمسلسلات التلفزيونية عن وليم الفاتح وإليزابيث وهنري الثامن وعصري اليزابيث وفكتوريا وتنمية الكبرياء القومي الإنكليزي (قلة من تلامذة المدارس الإنكليز الذين يُعلّمون أن البارونات الذين فرضوا الماغناكارتا هم الوطنيون الأوائل، هي التي تعرف أن هؤلاء البارونات ما كانوا يتكلمون الإنكليزية أصلًا)... وفي كتابة التاريخ الأميركي القومي الخرافي، من الآباء المؤسسين والحرب الأهلية إلى هوليوود واعتبار نمط الحياة الأميركي قائمًا على المواطنة في الوقت الذي يزداد تشددًا في تعريف ذاته دينيًا وثقافيًا.

القومية والهوية القومية (بمعنى الانتماء إلى الأمة) عند أندرسن هما نتاج تقاطع معقد بين قوى تاريخية متعددة في نهاية القرن الثامن عشر، فلا يوجد تعريف جامد لهما إذا. وما يهمنّاهو أنه لا يميّز مفهومًا، أو للدقة لا يتطرق إلى الفرق، بين مفهوم الأمة (Nation) باعتباره مفهومًا تاريخيًا أقدم من مفهوم القومية، وكان يُعرّف في العصور السابقة بالدين أو القبيلة أو كليهما أو سواهما، لكنه يحمل بعدًا سياسيًا على الدوام، من جهة، ومفهوم القومية (وأفضل شخصيًا هنا ترجمتها إلى Nationality لا إلى Nationalism، بشرط تمييزها من المصطلح المتداول رسميًا الذي يعني الجنسية، أي الانتماء إلى دولة بعينها والمتمثل بالمواطنة وجواز السفر) وظاهرة الأيديولوجيا والحركة القوميتين، أي Nationalism، من جهة أخرى. هكذا تكون القومية من منظور أندرسن إما Nation أو Nationalism. وبالطبع، فإن الظاهرة القومية ذاتها تبقى الأساس في هذه الحالة، فوجودها أعاد تعريف الأمة في عصرها، كما أعاد

(3) يرى إيلي خدوري أن الوطنية الإنكليزية صفة وطنية طبيعية، لكنه ينفي القومية بشكل عام.

انظر: Elie Kedourie, *Nationalism*, 3rd ed. (London: Hutchinson University Library, 1966), pp. 73-75, and Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Ithaca, NY: Cornell University, 1983).

والأخير، على الرغم من نزعة الاستشراقية، هو الأقرب إلى روح كتابنا هذا في تأكيده دور التصنيع في نشوء القوميات.

تعريف الهوية والأيدولوجيا، والعكس صحيح. أمّا نحن فتحدث، خلافاً له، عن مثلث - الأمة والقومية والأيدولوجيا/ الهوية - تشكّل رؤوسه سوية الظاهرة القومية وتساعد الخطوط الممدودة بين تميزاته في عملية التعريف. لكن التعريف هنا هو تطوير نظري مفهومي لتطور تاريخي لهذه الخطوط.

نقول ذلك لأننا نجد أندرسن في بعض الأحيان يستخدم القومية باعتبارها أيدولوجيا والقومية باعتبارها جماعة متخيّلة بالمعنى نفسه. حين يقول إن منظري القومية «كثيراً ما ارتبكوا، كي لا نقول اغتاضوا، أمام المتناقضات الثلاث التالية: (1) الحداثة الموضوعية التي تبدو عليها الأمم في عين المؤرخ مقابل القِدَم الذاتي الذي تبدو عليه في أعين القوميين. (2) الكونية الشكلية التي تتسم بها الهوية القومية باعتبارها مفهوماً اجتماعياً ثقافياً - حيث يمكن لكل أحد في العالم الحديث أن تكون «له» هوية قومية، ولا بدّ من أن تكون له مثل هذه الهوية، مثلما أنّ «له» أو «لها» نوعاً جنسياً - مقابل الخصوصية العضال التي تتسم بها تجلّياتها الملموسة، حيث تبدو الهوية القومية... بالتعريف فريدة وفذة. (3) القدرة «السياسية» التي تتمتع بها القوميات مقابل فقرها الفلسفي، بل وعدم تماسكها». هنا، أيضاً، لا يميّز أندرسن بين القومية والأيدولوجيا القومية؛ فأن تقول إن القومية فقيرة فلسفياً كأن تقول إن العائلة أو الدين فقيرة فلسفياً. وهو يصحّو لذلك في مكان آخر في معرض المقارنة بين الماركسية والليبرالية من جهة والقومية من جهة أخرى، مؤكّداً أنّها مقارنة لا تجوز. ويمكن للمرء مثلاً أن يكون قومياً ليبرالياً أو ماركسياً.

لا بدّ إذا من أنّه يقصد الأيدولوجيا القومية. أليست القومية ظاهرة أيدولوجية ما دامت متخيّلة، أي بحكم تعريفها؟ بلا، هذا صحيح. غير أنّه يبقى هنالك مكان ومعنى للتمييز بين الانتماء إلى جماعة متخيّلة كظاهرة عاطفية وفكرية وثقافية، أي أيدولوجيا، وتحويلها إلى نسق أيدولوجي يعي نفسه ويجب أن تكون لديه طموحات لتفسير الظواهر الاجتماعية متبنياً فلسفة ما. عندها يُمكن الحكم أنّ فلسفتها تلك فقيرة أو غنية، وتحمل هي مسؤولية هذا الحكم بتحويلها القومية من ظاهرة أيدولوجية اجتماعية ثقافية سياسية إلى أيدولوجيا. صحيح أن المرء لا يجد منظراً قومياً من طراز هوبز أو ماركس أو توكفيل، لكن جزءاً من المنظّرين الكبار كان يتمي بوعي إلى قومية، من

دون أن يكون بالضرورة داعية قومياً. والقومية ليست فلسفة، وإذا ما ادّعت ذلك فلا بد أنها ستكون فقيرة. وقد يكون الإنسان قومياً بمعنى الشعور الكامل بالانتماء إلى جماعة متخيّلة حتى لو فهمها باعتبارها جماعة معاصرة وانتمى إليها بوصفها كذلك، وقد يكون قومياً بمعنى تحويلها إلى أيديولوجيا، كأن يفهم التاريخ برمته بوصفه تاريخاً قومياً يقود إليها. وقد يكون الفرد الحديث قومياً في انتمائه، ونقدياً تجاه القومية باعتبارها أيديولوجيا.

لا تجيب النظريات الفكرية عن أسئلة المعنى: لماذا الحياة، لماذا الموت، لماذا هذا المصير؟ في حين عُنيت الميثولوجيا وعُنِيَ الدين، بشكل أكثر عينية، بالإجابة عنها. وربما كانت هذه هي نقطة ضعف الليبرالية والماركسية وغيرهما بالنسبة إلى الإنسان الباحث عن معنى. ذلك أن الليبرالية والماركسية تتجنبان الخوض في هذه الأسئلة. لكن القومية نشأت مع العلمنة وانحسار عملية التدنّ، ومن الواضح أنها استلمت من الدين بعض مهمّات الإجابة عن المعنى وأسئلة الخلود وغيرها. يقول أندرسن: «لكنَّ قَرْنَ التنوير والعلمانية العقلانية هذا جلب معه ظلامه الحديث الخاص. والمعاناة التي أدّى الإيمان الديني دوراً في تكوينها لم تختفِ بانحسار هذا الإيمان. وإذا ما كان الفردوس قد تفكّك، فإن ذلك جعل القضاء اعتباطياً عليّ نحو لا يفوقه فيه أيّ شيء آخر. وإذا ما كان الخلاص سخفاً وتخاريف، فإن ذلك جعل قيام نمط آخر من أنماط الديمومة أمراً ضرورياً على نحو لا يفوقه فيه أيّ شيء آخر. وما كان مطلوباً عندئذٍ هو تحويل علمانيّ للقضاء إلى ديمومة، والاعتباط إلى معنى. وسوف نرى أن قلة من الأشياء وحسب هي التي كانت (ولا تزال) تلائم هذه الغاية أكثر من فكرة الأمة. فإذا ما كانت الدول - الأمم تُعدُّ على نطاقٍ واسعٍ «جديدة» و«تاريخية»، إلا أن الأمم التي تعبّر عنها هذه الدول - الأمم سياسياً تبدو على الدوام من ماضيٍ موغل في القَدَم، والأهم من ذلك أنها تبدو منزلةً إلى مستقبلٍ لا حدَّ له. وسحر القومية هو ما يحوّل المصادفة إلى مصير».

نضيف، تصويراً لذلك وتدليلاً عليه، أن الصراعات الحقيقية للحركات الدينية الأصولية لم تجر بينها وبين اليسار والليبرالية، بل جرت مع الأنظمة والحركات القومية العلمانية. وذلك لم يأت صدفة، فالأخيرة هي القادرة على

منافسة الحركات الدينية على مستوى الهوية والمعنى. وهي قادرة على احتواء المتدين والعلماني والليبرالي والديمقراطي في إطار الهوية القومية الواحدة ذاتها إذا كانت ديمقراطية، أما إذا كانت غير ديمقراطية فيعتقد ممثلو القومية أن الولاء والانتماء لها لا يوضع فوق أي حزبية فحسب، بل ضد أي حزبية، بما فيها الحزبية الدينية.

2 - شروط تاريخية

كان يجب أن تحدث ثلاثة تغييرات أساسية في الثقافة والنظرة إلى العالم كي يصبح ممكناً تخيل الجماعة القومية:

- تراجع اللغة المقدسة باعتبارها لغة علم وثقافة ثم أفولها، مع بقائها لغة الصلاة، على نحو ما جرى للاتينية. (ومع بقاء العربية لغة قومية، بالطبع، فإنها لم تختلط بالقداسة فحسب بل بقيت مصدرًا حيًا للثقافة الدينية الإسلامية لدارسي القرآن والسنة والفقه والشريعة من غير العرب أيضًا).

- تراجع ثم أفول شريعة حكم السلالات الملكية غير الوطنية التي تحكم بالمصاهرة والقرابة والنسب دولًا وبلدانًا وشعوبًا عدة في الوقت ذاته.

- نشوء مفهوم جديد للزمن، يفصل زمن التكوين والخطيئة والخلاص الديني عن الزمن اليومي المعاش. ونشوء زمن تاريخي جديد في الأذهان. وهو زمن فارغ ومتجانس، ويمكن ملؤه بالمعنى. ويمكن خلاله تخيل ما يجري في الحاضر أفقيًا، مثل تخيل أفراد جماعة يعيشون وتخيّل ما يقومون به في الوقت ذاته، أو تخيلهم يفعلون الفعل نفسه في الوقت ذاته. وما من نشاط ثقافي يكرّس ويتج مثل هذا الشعور في منشئه التاريخي أكثر من تحرير الجريدة وقراءتها بلغة محلية. فهي وحدت وتوحد الزمن والأجندات والحوادث والفعل المتزامن لمجموعة محدّدة من البشر. أمّا أدبيًا، فانعكس مفهوم الزمن الفارع المتجانس هذا أكثر ما انعكس في أدب الرواية الذي تطوّر في هذه المرحلة نفسها، والذي صوّر، ويصوّر تزامنًا حاضرًا أفقيًا بين فاعلين عدة في الفضاء اللغوي الواحد ذاته.

- نضيف من جهتنا، شرطاً رابعاً هو تفكك الجماعة المحلية بفعل الهجرة من الريف إلى المدينة وتفكك الجماعة المهنية الحرفية في المدينة بفعل تطورات سياسية وحروب دينية وتطور الصناعة الرأسمالية... ونشوء الفرد البرجوازي إزاء جماهير (الأفراد نظرياً) العمال المتحررين من علاقات التبعية الشخصية للأرض والسيد مالك الأرض، والتابعين، تالياً، للجماعة المباشرة.

في حالة اللاتينية في أوروبا، لغة القداسة هي لغة نخبة من محتكري الوساطة مع قيادة الكنيسة وبين الناسوت واللاهوت. كانت هذه الإنجليجيسيا من رجال الدين ثنائية اللغة أساساً، تعرف لغة محلية إضافة إلى اللاتينية. وبتوسط هذه النخبة ثنائية اللغة بين اللغتين، فإنها عملياً تتوسط لعالم المؤمنين ذاك بين السماء والأرض. لكن الجماعة الإكليريكية التي تضمهم هي جماعة تراتبية، تبدأ في السماء وتنتهي بأبسط الكهنة ورعيته، ولا تشكل انتماءً أفقياً بأي شكل. ولا تعكس اللاتينية تصورات شعبية محلية حاضرة وجارية، وليس بوسعها صياغتها كما فعل شعر فرجيل في عصر آخر.

لم تكن اللاتينية لغة التعليم فحسب، بل كانت أيضاً اللغة الوحيدة التي تُعَلَّم، ولاحقاً اللغة الوحيدة التي تُطَبَّع. وحصل التحول بين بداية القرن السادس عشر ونهايته، حين صارت أغلبية الكتب تطبع باللغة المحلية في البلاد التي تنتشر فيها الطباعة. وحالما دخل رأس المال في عملية الطباعة ضاقت بها سوق اللاتينية. وبعد إشباع سوق ثنائي اللغة الذين تكلموا اللاتينية إضافة إلى اللغة المحلية، انتقلت صناعة الكتاب إلى سوق أوسع عدداً بما لا يقاس، وأضيق انتشاراً على مستوى القارة. ذلك أن أغلبية البشر كانت آنئذ أحادية اللغة، كما هي أحادية اللغة في أيامنا على الرغم من «أممية البروليتاريا» والعولمة. وما زالت وسائل الإعلام والاتصال الحديثة تقوّي اللغة المحلية وتوحد لهجاتها، كما تفعل وسائل الإعلام العربية المتلفزة حالياً، إذ توحد اللهجات والأجندات، وبمعنى ما توحد الزمن أو التزامن العربي بشكل لا سابق له في الماضي. تندثر لغات أو تنصهر في غيرها لكن ليس ممكناً، كما يبدو، لا في عصر الرأسمالية ولا غيره أن تتكلم البشرية كلها لغة واحدة. «غير

أنّ هذا الاستغلاق المتبادل بين البشر لم يحظَ بأهمّية تاريخية كبيرة إلا بعد أن عملت الرأسمالية والطباعة على خلقِ ضروبٍ من جماهير القراء الذين يقرأ كلّ جمهور منهم بلغته الواحدة».

القومية هي إذاً وأوّلًا شكلٌ جديدٌ من الجماعة المتخيّلة هيّأ له لقاء تعدّدية اللغات البشرية مع الرأسمالية وتكنولوجيا الطباعة. فرّقت رأسمالية الطباعة بين الناطقين باللاتينية على قلة عددهم، لكنّها نشرت اللغة المحليّة ووحدتها بين أعداد أكبر بكثير من البشر. وأنجزت ذلك أكثر من أي شيء آخر بوساطة جمع اللهجات في مجال أقل اتّساعًا من اللاتينية وأكثر اتّساعًا من اللهجة العادية. وبسبب تثبيت اللغة واستنساخ الكتاب كشفت إمكانية تخيل ملايين القراء، كما أضافت استقرارًا على اللغة وقواعدها، وثباتًا على الكلاسيكيات والرموز والوطنية الأولى المُصاغة فيها من شعر وملاحم وغيرها. وبات هذا الثبات يُمكن من العودة قرونًا إلى الوراء في تاريخ متواصل، كما يُمكن من إجراء المقارنات بشكل لم يكن مُتاحًا قبل الطباعة. وكذلك، أدّت الطباعة وتوحيد اللهجات وقواعد اللغة في إطار محدّد إلى بدء تبين اللغة باعتبارها لغةً إداريّة بوساطة الدولة، لغة الألقاب والمراسم والقوانين والأوامر والوثائق والمحاكم.

تزامن ذلك مع الإصلاح الديني في ألمانيا، ومع تحوّل دوليّة الانفصال الكنسي إلى قومية الانفصال الكنسي الإنكليزي عن الفاتيكان. ولم يكن ممكنًا تخيل انتشار الإصلاح الديني من دون الطباعة. فحين علّق مارتن لوثر أطروحاته على باب الكنيسة في ويتنبرغ في عام 1517، طُبعت بترجمة ألمانية، وانتشرت في كلّ ركن من أركان البلاد في غضون خمسة عشر يومًا. وفي العقد بين عامي 1520 و 1540 كان عدد الكتب المنشورة في ألمانيا ثلاثة أضعاف ما نُشر في العقد بين عامي 1500 و 1520، وكان ذلك تحوّلًا مذهلاً أدّى فيه لوثر الدور المركزي المطلق. وشكّلت أعماله ما يزيد على ثلث مجموع الكتب المكتوبة بالألمانية والمباعة بين عامي 1518 و 1525. كما ظهر في الفترة بين عامي 1522 و 1546 ما مجموعه 430 طبعة (كاملة أو جزئية) من ترجمته الكتاب المقدّس إلى الألمانية. «وهذه أول مرّة نكون فيها إزاء قراءة جماهيرية حقيقية وإزاء أدب شعبي في متناول

الجميع. بل إنّ لوثر بات أول كاتب رائج يُعرّف بهذه الصفة. بعبارة أخرى، بات أول كاتب يُمكنه بيع كتبه الجديدة لمجرّد أن اسمه عليها.

تزامن ذلك تاريخيًا مع بدأ انهيار شرعيّة السلالات الملكية التي لا ترتبط بشعب أو مكان بقدر ما ترتبط بعضها ببعض عبر أوروبا، ولا تتكلّم لغة المكان بقدر ما تتكلّم اللاتينية أو لغتها الأصليّة التي قد لا تكون لها علاقة بالمكان الذي تحكمه وبالشعوب الخاضعة لها. هكذا، انصهرت لغتان لتشكّلا الإنكليزية الباكّة في البلاط الإنكليزي، تلك الإنكليزية التي تُرجم إليها الكتاب المقدّس في أواخر القرن الرابع عشر، في عام 1382 على وجه التحديد. وفي القارة الأوروبيّة، وعلى الرغم من بقاء اللاتينية لغة «رسمية» أو عليا للكنيسة والنخب، صُعّب على الممالك الوارثة للإمبراطوريّة الرومانيّة الغربيّة المنهارة، ثم الملكيات المطلقة من بعدها، أن تحتكر اللاتينية ضمن حدودها، وكان لا بد من بروز وترقية لهجة محلّيّة أو لهجات محلّيّة إلى مصاف اللغة. وفي النصف الأول من القرن السادس عشر بدأت الفرنسية التي كانت تعتبر «لاتينية فاسدة» تتصدّر لغة البلاط وتحوّلت إلى لغة رسمية للمحاكم.

ساهمت الطباعة في توحيد اللهجة المحليّة ووضع مقاييس اللغة المكتوبة بالنسبة إلى لغات لم تكن مكتوبة سابقًا، وكذلك في نشر هذه اللغة قراءةً وكتابةً حالما تحوّلت إلى صناعة. يقول أندرسن: «بمعنى ما، كان الكتاب أول سلعة صناعيّة تُنتج إنتاجًا جماهيريًا ضخماً على الطريقة الحديثة. ويمكن إيضاح المعنى الذي يدور في ذهني إذا ما عقدنا مقارنة بين الكتاب والمنتجات الصناعيّة الأسبق، مثل النسيج، أو الآجر، أو السكر. ذلك أنّ هذه السلع تُقاس بمقاديرها الرياضيّة (بالأرطال أو الأحمال أو القطع). ورطل السكر هو مجرّد كمّيّة، أو وزن ملائم، وليس شيئاً بحدّ ذاته. أمّا الكتاب فشيء مميّز، مستقل، يُعاد إنتاجه هو ذاته بمقادير ضخمة، وبذلك يستبق السلع المعمّرة في أيامنا».

لا بد من أن نشير هنا، مرّة أخرى، إلى أنّ العربية التي جرى التدرّج بتحديثها طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثم جرت طباعتها وجرى نشرها، بقيت لغة قومية (على نحو يفوق العبرية التي حُدّثت ووُضعت قواعدها كجزء من مشروع رأى نفسه مشروعًا قوميًا هو المشروع الصهيوني) ولم تُستحدث، كما الفرنسية، من اللاتينية، كما لم تتحوّل اللهجات المحليّة

العربية إلى لغات. وفي حالة العرب والعربية، أصبحت اللغة المقدسة لغة قومية. ولا شك في أن هذه الخصوصية هي من عوامل اختلاط المتخيل العلماني بالديني، وإصرار أوساط واسعة نسبيًا على استخدام العربية لتخيّل أمة دينية لا أمة قومية. ويبقى هذا الأمر سهل الحدوث طالما لم يصادف العربي شعوبًا أخرى إسلامية لا تتكلّم العربية، ولا يوحّدها الخيال ولا الأجندة والزمن مع المتخيل العربي إلا في المواسم المقدسة مثل الحج والأعياد (وهي بقية ما يوحد المسيحيين في العالم أيضًا، مع أنّ الطابع الوطني طغى على طريقة الاحتفال بالأعياد المسيحية بتبنيه شبه الرسمي لأنماط من التدين الشعبي والفولكلوري، وتبعته، بفعل جارٍ حاليًا، عملية أمركة في ظلال العولمة الاستهلاكية لأعياد الميلاد ورأس السنة). وتتوحد الأمة مع الدين في الحركات الدينية الأيديولوجية التي تتصرّف وتفكر بمفاهيم أمة دينية واحدة. وهذا بالضبط أحد أسباب عدم تمكّنها من أن تصبح تيارًا رئيسًا في مجتمعاتها، وهو أمر لن يكون بمقدورها ما لم تتحوّل بالتدريج إلى حركات وطنية تضع أهدافها داخل حدود الدولة، وتتصرّف في سلوكها السياسي البراغماتي كأنّ الأمة ذات العلاقة تقع ضمن حدود الدولة، أو تشترك مع القومية العربية في التعامل مع واقع الأمة العربية ومفهومها.

بعد قرنين على هزيمة اللاتينية بوساطة اللغات المحلية، حتى على مستوى الإنتليجنسيا، في الموجة الأولى من نشوء الوعي القومي الأوروبي، تطوّرت الموجة الثانية التي خلقت الانطباع القوي بأن القومية تقوم على اللغة أساسًا. إذ تطوّرت بعض اللغات القومية المكتوبة مثل التشيكية والهنغارية مقابل الألمانية، والنرويجية في وجه السويدية، والأوكرانية والبلغارية إزاء الروسية... أي في البلاد التي سادت فيها لغة إمبراطورية مثل الألمانية والروسية. ووُضعت قواعد اللغة القومية المحلية في مواجهة اللغة الإمبراطورية، وصدرت معاجمها الرئيسة متأخرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وترافقت مع حركة إحياء قومي، خصوصًا في المراكز التعليمية والجامعية (هنا ينتبه أندرسن إلى أن يشير إلى مساهمة جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت التي أسست في عام 1875 وغيرها من الأديرة والمراكز التبشيرية في تحديث اللغة العربية وإحيائها. ولنا في الموضوع رأي آخر، أو للدقّة إضافي، ليس من متّسع لشرحه هنا وله علاقة بتراط هذه النهضة الحقيقية في المراكز

التبشيرية بنهضة الإصلاح الديني الإسلامي أيضًا، وبيدء تأسيس المدارس العربية في مصر منذ عهد محمد علي).

ترافقت مرحلة الإحياء اللغوي التي اعتبرها هيردر أساس هوية الشعب، مع أبحاث اللغويات السامية واللاتينية والسنسكريتية التي نزعَت القداسة والسماوية عن اللغات المقدسة، مكتشفةً أنّها لغات ناشئة تاريخيًا من عائلات أقدم، الأمر الذي زاد في أهمية اللغة المحلية ومساواتها مع ما اعتُقد أنّها لغة مقدسة وثبت أنّها تاريخية. وهذا ما مكن لاحقًا حتى من إضفاء قدسية شعورية عاطفية على اللغة المحلية باجتماعها مع التاريخ وإنشاء الأساطير في الخطابة والشعر والنثر، وافترضها لغةً للآباء المفترضين. وأصبحت اللغة المحلية لغةً قوميةً عندما صار بوسعها أن تولّد هذه المشاعر ذات العلاقة بالانتماء إلى جماعة متخيّلة.

لكن كيف تُفسّر الانفصال بين اللغات الطباعية والوعي القومي في العالم الأنكلوساكسوني وفي أميركا اللاتينية، حيث تتكلّم شعوب عدة متفاوتة الوعي القومي اللغة الإنكليزية أو الإسبانية ذاتها، وكيف نفسّر وعيًا قوميًا متعدّد اللغات، كما في سويسرا مثلاً؟ يلجأ أندرسن في تفسير ذلك إلى دول النصف الغربي الأميركية التي نشأت بين عامي 1776 و 1838 باعتبارها أنموذجًا أوّل لهذا النوع من الجمهوريات، أو الكيانات السياسية الدولية غير السلافية التي ترى نفسها أممًا، بينما تجمعها اللغة نفسها بدول أخرى قريبة. وإلى جانب تعمّقه بنشوء القوميات في جنوب شرق آسيا فإن هذا المبحث هو من مآثر الكتاب، كما أسلفنا.

قاد تحرّر هذه البلدان الوطني أبناء المستوطنين الذين يعيشون في هذه البلاد منذ قرون ويتكلّمون لغة البلد الأم ذاتها، أي الإسبانية (والبرتغالية في حالة البرازيل). ويمكن القول إن اللغة هنا لم تشكّل عاملًا انفصاليًا منذ البداية. وهذا هو الفرق الأول عمّا عرفناه في شأن بلورة الرعيل الأول من القوميات. أمّا الفرق الثاني فيتلخص في أنّ القومية، على الرغم من نزعتها غير الديمقراطية في كثير من الحالات، تقوم عادةً على إشراك الطبقات الدنيا، ومجمل الأمة في السياسة وتبلور إنتليجنسيا ناطقة باسمها، إضافةً إلى الطبقة الدنيا، بخلاف الحال في هذه البلدان التي غالبًا ما كان تمردها الكريولي الذي

قام به المستوطنون وأرستقراطية الأرض من كبار المزارعين، موجّهاً ضد السكان المحليين بل وضد مبادرة الدولة المستعمرة لتحسين وضعهم القانوني نتيجة تغيّرات في العاصمة: حين أصدرت مدريد في عام 1789 قانوناً جديداً أكثر إنسانية، وفصلت فيه حقوق الأسياد والعبيد وواجباتهم، رفض الكريول تدخّل الدولة بحجّة أنّ العبيد مفطورون على الرذيلة... وأنّهم ضروريون للاقتصاد. وفي فنزويلا، بل في الكاريبي الإسباني برمّته، قاوم ملاك المزارع القانون وتوصّلوا إلى إيقاف العمل به في عام 1794. بل إنّ المحرّر بوليفار نفسه صرّح ذات مرّة بأنّ تمرّداً يقوم به الزوج أسوأ ألف مرّة من غزو تقوم به إسبانيا. وينبغي ألا ننسى أنّ كثيراً من قادة حركة الاستقلال في المستعمرات الثلاث عشرة في أميركا الشمالية كانوا من كبار المزارعين ملاك العبيد. وكان توماس جيفرسون نفسه من بين أصحاب المزارع في فرجينيا الذي أثار سخطهم في سبعينيات القرن الثامن عشر إعلان الحاكم الموالي تحرير أولئك العبيد الذين لم يمثلوا لأوامر ساداتهم المشاغبين. إنّها ثورات ملاك العبيد ضد قانون الدولة الأم الذي قد يقيّدُهم. ونجحت مدريد في العودة إلى فنزويلا بين عامي 1814 و 1816 لأنّها حظيت بدعم العبيد في الحالة الأولى، والهنود في الحالة الثانية، في صراعاتها مع الكريول المتمرّدين.

غيّرت حركة التمرد والاستقلال رأي بوليفار في العبيد، وأعلن زميله في التحرّر سان مارتين في عام 1821 أنّ «السكّان الأصليين لن يُطلق عليهم في المستقبل اسم الهنود أو المحليين؛ فهم أبناء البيرو ومواطنوها وسوف يُدعَوْنَ بالبيروفيين». هنا نجد خليطاً بين نزعة تحرّرية تسعى في مرحلة نضجها الوطني السياسي إلى وحدة وطنية ضد المستعمر وتشكّل أمة وتبنيها في خضم ذلك، ونزعة مستوطنين ملاك للعبيد، هم أحفاد الذين أبادوا الهنود الحمر ويبحثون في حاضرهم عن المشترك مع طبيعة البلاد وحتى مع تاريخها السّابق في حضارة الأزتيك وغيرها. ورافقت هذا الخليط - الذي تمثّل أحياناً برومانسية تجاه طبيعة البلاد، بمن فيها السكّان الأصليون بوصفهم جزءاً من الطبيعة - تعبيرات القومية كلها التي وجدناها في تلك البلاد في حالات الثورات الانفصالية عن الدولة الأم، والتي قادها أبناء مجتمع المستوطنين. هكذا تعلم هؤلاء المستوطنون، خلال بلورة الهوية القومية المحلية وفي خضم الصراع من أجل الحرية والاستقلال، أن يؤكّدوا المشترك بين سكان الإقليم

المتمرّد بصفّتهم فنزوييلين أو بيروفيين أو أرجنتيين أو كولومبيين أو غيره، بغض النظر عن الأصل واللون، أمّا اللغة فكانت مشتركة مع البلد الأم. لذلك كان الرابط إقليميًّا بموجب حدود الإدارة الكولونiale وإمكانات التواصل، في بلاد شديدة التنوع الجغرافي والوعورة الجبلية والنهرية وكثيرة الغابات. كانت الوحدة الإدارية الكولونiale هي وحدة التمرّد، وشكّلت تاليًا الوحدة السياسية ذات النزعة الاستقلالية. وهي محدّد هذه القوميات الحديثة التي كتبت تاريخها فيما بعد على نحوٍ يشمل السكان الأصليين.

يجب أن نضيف، بسبب سياقات تتعلّق بالقارئ العربي، أنّه لم يكن هنالك أساس ثقافي مشترك يجمع المستوطنين الإسبان والمستوطنين البيض من مصادر أخرى غير إسباني، من جهة، والسكان الأصليين من جهة أخرى، سوى مصلحة الإقليم المتبلورة في مواجهة الاستعمار التي تولّد خلالها المشترك الثقافي باللغة الإسبانية. ومن ناحية أخرى، لم تجتمع قبائل السكان الأصليين على ثقافة أو حضارة أو رابط ما قبل قومي عابر لأميركا اللاتينية، لذلك سهّلت بلورة المشترك في الوحدات الكولونiale الإقليمية المحلية أكثر مما بينها، على الرغم من حدوث محاولات توحيد واتّحاد ما لبثت أن انحلت.

كانت دوافع التمرّد قضايا متعلّقة بدفع الضرائب وتضاؤل الحصّة المستثمرة في البلد من هذه الضرائب، وقضايا متعلّقة بالتعامل مع السكان كأنهم مستعمرون، إذ كانوا مواطنين من الدرجة الثانية مقارنة مع المولودين في إسبانيا والبرتغال مع أنّهم يشبهون المستعمر دينًا ولغةً ومسلّكًا. كما أنّهم لم يعترفوا بتفوّق المستعمر وامتيازاته. وكانت الإدارة الاستعمارية قد خلقت منهم أصحاب كفاءات ومطامح رفيعة وشعور بالشراكة مع أمثالهم من موظفي المستعمرات الذين يتلقّون تعليمًا حديثًا في العاصمة أو في المدارس والكلّيات. هناك كانوا يفهمون أنّ اللغة والدين والثقافة لا تفيد في تقدّمهم على مستوى المتروبول، وأنّ هويّتهم المحلية المشتركة التي يتعرّفون إليها حين يلتقون في هذه المدارس والكلّيات، تحول هي أيضًا دون تقدّمهم في إدارة الإمبراطورية فيبقون تابعين للقادم من مدريد أو لندن. وبالطبع، تصبح هذه الهوية المحلية المشتركة محرّك التمرّد والتوق إلى الاستقلال في إطار الوحدات الإدارية القائمة.

توحي صفة «الجديدة» المقرونة إلى أسماء المدن الأوروبية والأميركية بالتوازي، لا بالتتابع، بين أوروبا ومستوطناتها في أميركا. لدينا هنا مشروعان أوروبيان لا يمكن لأحدهما أن يسيطر على الآخر على المدى البعيد بسبب القوة والمسافة الفاصلة. كما لا يمكن أن يخاف الثوار من الإبادة فهم ليسوا السكان الأصليين، ليسوا هنودًا كما سُمّي الآخرون زورًا وبهتانًا. إنهم أوروبيون، وهم مسيحيون وبيضا. وعلى الرغم من العنف والشراسة المتبدّين في حرب أهلية بين الأقرباء، إلّا أنّه لا بد من التصالح في النهاية إذا ما أرادت أوروبا أن تضمن سيطرتها على المدى البعيد، ولو بوسائل أخرى.

بالطبع، تفعل آلية الذاكرة الجماعية التي تشكّلها الأسطورة والرواية الرسمية والتاريخ المدرسي وتكرّس في الأعمال الأدبية والفنية ويعاد تمثيلها على المسرح خصوصًا ولاحقًا في السينما، فعلها لا في التذكّر فحسب، بل في تحديد ما يجب أن يُنسى أيضًا، ويُنسى بالفعل. كان الأوروبيون العقلانيون سباقين إلى ذلك بالطبع. التذكّر من أجل النسيان، أو تذكّر النسيان، آلية عظيمة في بناء الوعي القومي المدرسي. هكذا، كان على الفرنسيين أن ينسوا عداوات معينة لأنّها كانت حروبًا أهليّة داخل ما أصبح (ولم يكن في حينه) الأمة الواحدة. وهذه المطالبة بالنسيان تنطوي بشكل خفي على إعادة كتابة هذا التاريخ بوصفه صراعًا داخل أمة قديمة ونزاعًا داخل العائلة، وهو لم يكن كذلك. يسري هذا على الحرب الأهلية الأميركية (1865 - 1961) كأنّها كانت صراعًا داخل العائلة، أو داخل الأمة (ولم تكن كذلك). ولو حافظت فدرالية الجنوب على استقلالها بعد الحرب الأهلية لما كُتب التاريخ بهذا الشكل، ولما صُنعت الأفلام والكتب المدرسية ليُربّى النشء على هذا النوع من التذكّر من أجل النسيان. وربّما يصحّ القول إن الحرب الأهلية الأميركية لم تجر داخل الأمة، ولم تكن أهلية إذًا، لأنّها هي التي شكّلت بداية الأمة الأميركية.

بعد أن قامت هذه الجمهوريات على أساس الحدود السياسية والإقليمية إثر تجارب من الوحدة وانحلالها بين بعض دولها، بقيت الحدود الإدارية الاستعماريّة في عام 1810 هي الأساس لتقسيم الدول. وتحوّلت هذه القوميات إلى أنموذج لدول عدة في آسيا وأفريقيا. وهي دول لم يقدها إلى الاستقلال مستوطنون كريوليون، بل سكان البلاد.

انتشر هذا النمط الجمهوري الأمريكي، من خلال الطباعة والاتصال والقرصنة والنسخ، إلى أنحاء العالم كلها بشكل انتقائي أسطوري، كأن تلك الدول قامت كجمهوريات ضد ملكيات وإقطاع وسلالات، مع حذف معاناة العبيد وتاريخهم ولغات الجنوب الأمريكي. وقدم هذا النمط كأنموذج صافٍ ضد نموذج قائم... نُسخ إلى مناطق صعود الموجة الثانية الأوروبية (والثالثة عالمياً) من القوميات، خصوصاً مع اضطرار الأشراف المحليين في هنغاريا أو بولندا أو بلغاريا والبلقان المتفضين ضد الإمبراطوريات أن يضموا فقراء الشعب إلى مفهوم الأمة، كما سبق أن جرى مع البيروفيين: «فإذا ما كان «الهنغار» يستحقون دولة قومية، فذلك يعني الهنغار جميعهم؛ يعني دولة يجب أن يكون محلّ سيادتها الأساس جميع من ينطقون الهنغارية ويتكلمون بها؛ ثم، في الوقت الملائم، تصفية السخرة، والارتقاء بالتعليم الشعبي، وتوسيع حقّ التصويت... وهلمجرًا. هكذا كان طابع القوميات الأوروبية الباكرة «الشعبي»، حتى حين قادتها على نحو ديماغوجي تلك الجماعات الاجتماعية الأشدّ تخلفاً، أعمق من مثيله في البلدان الأميركية: كان على السخرة أن تمضي، ولم تكن العبودية القانونية قابلة للتخيّل، خصوصاً لأنّ النموذج المفهوميّ كان قد تبوّأ مكانةً يتعذّر اجتثاثه منها».

صحيح أنّ أندرسن يقوم بخطوة كبرى إلى الأمام مقارنة بغلنر وغيره من مدّعي براءة الأميركيين والإنكليز والعالم الأنكلوساكسوني من القومية، إذ يجعل حركات الاستقلال فيها قومية أنموذجية، لكنّه لا يواصل لإقامة التمييز الذي نقوم به هنا بين قومية دول الاستيطان ومفهوم الأمة فيها، من جهة، والدول التي قامت في القارات القديمة على أسس غير الهجرة والاستيطان والإبادة ثم تشكيل الأمة على أساس المواطنة، من جهة أخرى.

3 - الإمبراطوريات والقومية الرسمية

يؤكد أندرسن تمييزاً نظرياً وتاريخياً مهمّاً بين القومية الرسمية التي تنشأ بتبيين الإمبراطوريات القوميّة هوية لها عبر محاولة فرض لغة وهويّة على مناطق متعدّدة القوميات، من جهة، والقوميّة الشعبية الصاعدة بتحالف الطبقة الوسطى والانتليجنسيا والطبقات الفقيرة، والمتشكّلة باللغة وبغيرها من خلال

السعي إلى تحقيق حرية الأمة وسيادتها، ضد الإمبراطورية غالبًا، من جهة أخرى. وهذا ليس بعيدًا عن تمييزات ماركس وإنغلز، في سياق مختلف، بين القوميّة البولندية والإيرلندية، من جهة، والقومية الروسية، من جهة أخرى. لكنّه لا يذكرهما في هذا السياق.

مع ازدياد انتشار اللغة القوميّة ومدّ المشاعر القوميّة على مستوى شعوب الإمبراطوريات، خصوصًا الشعوب الكبرى والأكثر قربًا من مقاليد الحكم، وتضعف شرعيّة السلالات غير القوميّة الحاكمة التي كانت تعتبر الولاء لها هو الولاء للوطن، في حين لم يكن لها وطن، أصبح لزامًا على أبناء هذه السلالات الذين يحكمون شعوبًا أن يتبنّوا قوميّة هذه الشعوب ولغتها التي لم يكونوا يتكلمونها في بعض الأحيان. وكما هو معروف، كانت الفرنسية لغة بلاط آل رومانوف في سان بطرسبورغ القرن الثامن، وكانت الألمانية لغة كثير من نبلاء الريف في روسيا وبولندا وأوكرانيا. ولا شكّ في أنّ القرن التاسع عشر، مع بدء نشوء الحركات الشعبيّة والاشتراكيّة الرومانسيّة، شهد نشوء خطر التطابق، أو على الأقل خطر التداخل، بين الحقد الطبقي والمشاعر الوطنية والقومية الروسية. وبيات الموقف المعادي للطبقات الحاكمة موقفًا وطنيًا وقوميًا روسيًا يجد، أو يُوجد، جذورًا له في اللغة والتراث. وفي أعقاب غزو نابليون وحاجة القيصريّة إلى تضافر الشعب في الدفاع عن الوطن، نشأت الحاجة إلى أن تتبيّن الأرستقراطية الحاكمة القوميّة الروسية، واقترح الكونت سيرغي أوفاروف في تقرير رسمي في عام 1832 أن تقوم المملكة على ثلاثة مبادئ هي الأوتوقراطية والأرثوذكسية والقومية. وكان المبدأ الثالث جديدًا تمامًا، بل سابقًا لأوانه نوعًا ما في عصرٍ كان نصف «الأمة» لا يزالون أقنانًا، وأكثر من نصفها يحتفظون بلغة أمّ غير الروسية. ونرى هنا العلاقة القوميّة، مرّة تلو المرّة، بوصفها حالة من التساوي الأفقي المفترض، أو بوصفها حافزًا للتساوي الأفقي. وأبدى الموظفون من أمثال أوفاروف وعيًا بمصالح القيصرية أعمق من وعي القياصرة أنفسهم، إذ قاومت القيصرية تطبيق الرّوسنة التي اقترحتها أوفاروف طيلة نصف القرن التالي، إلى أن أصبحت سياسة رسمية في عهد ألكسندر الثالث (1881 - 1894)، بعد زمن من ظهور القوميّات الأوكرانية والفنلندية والليتوانية وسواها ضمن الإمبراطوريّة. لذلك ساعدت على نحوٍ غير مسبوق في توحيد أمة عظيمة مثل الأمة الروسية وتشكيلها،

لكنها أيضًا أدت إلى صراعات سيكون لها أثر كبير فيما بعد حتى في نشوء قوميات أخرى. واقتضى فرضُ الروسية باعتبارها لغة تدريس على مناطق بكاملها تحديث الألمانية أو البولندية، بل إن الأمر يصل بسيتين واتسون حدّ المجازفة بالقول إن ثورة عام 1905 كانت «ثورة غير الروس على الروسية» بقدر ما كانت ثورة عمّال وفلاحين ومثقفين جذريين على الأوتوقراطية. وكانت هاتان الثورتان مرتبطتين بالطبع: فالثورة الاجتماعية كانت أعنف في المناطق غير الروسية حيث كان أبطالها العمال البولنديين والفلاحين اللاتفيين والفلاحين الجورجيين».

ما جرى في روسيا في عصر ألكسندر الثالث هو ما قامت بتطبيقه أيضًا فيكتوريا فون ساكس - كوبرج - غوتا، بلقبها المثير من حيث مدى تدليله على قوميتها. كان حكم ملكة إنكلترا وإمبراطورة الهند لاحقًا، مفصليًا في انطلاق «قومية رسمية» على الطريقة اللندنية. وكانت تبدي كثيرًا من أوجه التشابه القوي مع الروسية التي تبنّاها القيصر الروسي. كما أقدمت إمبراطورية آل هابسبورغ هي الأخرى على تبني متأخر للقومية في عملية الألمنة التي تمّت، وقبلهم تبنّت الألمنة بنجاح أكبر سلالة آل هوينزولرن في بروسيا، فساهمت في دعم بسمارك في توحيد ألمانيا. أمّا الألمنة في الإمبراطورية النمساوية الهنغارية فساهمت في تفكيك الإمبراطورية، كما حصل أيضًا في حالة تبني آل عثمان التتريك، طبعًا بدرجة أقل مما طالبت به تركيا الفتاة. وكان مصير الإمبراطور في الأستانة، كما في فيينا، أن اتهمته الشعوب المحكومة التي كانت تقبل شرعية حكمه الوراثي، بأنه مع التتريك أو الألمنة ضد مصادر الشرعية الدينية والتعددية الأولى، في حين اتهمته البرجوازية الصاعدة وجزء من الضباط أنه يمنع التتريك أو الألمنة، فوقع ضحية الازدواجية هذه، حاله مثل حال من خسر العالمين، عالم الإمبراطورية الآفلة وعالم القومية الصاعدة... يصح هذا على أباطرة آل هابسبورغ، كما يصح على سلاطين آل عثمان.

لا يميّز أندرسن بشكل واضح بين إمبراطوريات تُخضع شعوبًا أوروبية وتؤدي عملية الروسية أو الألمنة فيها إلى الاصطدام مع وعي قومي محلي متمرد عليها، وبين الأنكلاة، مثلًا، في الإمبراطورية البريطانية التي تُخضع

شعوبًا غير أوروبية، فلا تنجح سوى في اسكتلندا. أمّا في الهند وغيرها فتتخذ مسارًا استعماريًا، إذ تُفلح في تنمية نخب موالية تساهم في إدارة الهند ويمكن أيضًا أن تُرسل إلى بعض المستعمرات الأخرى في رتب دنيا. وهي نخب تتبنى الإنكليزية لغةً ومسلکًا، لكنّها تصطدم بحدودها بين مواطنيها في بلدها وعند الإنكليز. وتكتشف أنّ الإنكليزية لا تكفي كي تنتمي إلى المتروبول، وهي لا تتحوّل إلى نخب بريطانية إمبراطورية فعلاً، فتتقلب في الجيل الثاني والثالث إلى نخب قومية ضد الإمبراطورية، أو تحيّدتها في الداخل القومية الشعبية الصاعدة، كما حصل مع النخب العربية التي مرّت بعملية فرنسة أو أنكلية بدرجة أقلّ من النخب الهندية ماعدا في حالة دول شمال أفريقية، وجرى تحييدها في الموجة العربية القومية الثانية في الستينيات. لكن أندرسن يفصّل في أن لقاء هذه النخب في المدارس والكليات التي تخرّج فيها أبناءها في الهند أو في بريطانيا ساهم في تشكّل نخبة تعي نفسها على المستوى القومي لا المحلي فحسب، ومن جهة أخرى تعي نفسها كغير إنكليزية.

أمّا اليبّنة في الإمبراطورية اليابانية، ف وقعت على مناطق منسجمة إثنيًا ولغويًا، لذلك نجحت القومية الرسمية إلى حد بعيد وبقي الإمبراطور رمزها بعد تبني القومية والإصلاح الذي جرى في أثر وصول الميجي إلى العرش. وعندما طبقت اليابان الأنموذج القومي الإمبراطوري على كوريا والفيليبين وبورما وتايوان، واجه الميّبّنون مشكلة المثقفين الهنود وغيرهم أنفسهم في المستعمرات، وانتهت التجربة إلى فشل ذريع. إذ نجح الأنموذج الرسمي الرجعي القومي الإمبراطوري في المستعمرات، وانتهت التجربة إلى فشل ذريع. لم ينجح الأنموذج الرسمي الرجعي القومي الإمبراطوري الخاص بالمستعمرات سوى في اليابان، وحين طبقته اليابان على نفسها فحسب. ولا يوجد متّسع لتطوير الفرضية التي لا بد من طرحها في هذا المكان، أي في مقدّمة كتاب كهذا، تلك الفرضية التي أخاطر كثيرًا حين أطرحها قائلًا: إنّ تبني القومية الرسمية الإمبراطورية ونشرها هي العملية الجارية حاليًا في الصين على نحو صريح بعد أن جرت طويلاً بشكل مستتر من دون عناوين قومية واضحة في ظل المرحلة الشيوعية، إذ تجري حاليًا عملية فرض قومية واحدة على الصين برمتها في ظل رأسمالية الدولة والتصنيع الجاري حاليًا هناك... وسوف يؤدّي ذلك لاحقًا إلى انتفاضات.

يُميّز أندرسن في هذا الكتاب، بالتدرّج ومن خلال تطوير فرضياته ومن دون أن يخصّص فصلاً لذلك، بين أنماط ثلاثة من القومية: القومية الرسمية والقومية الشعبية وجمهوريات المواطنين التي جاءت بها الجمهوريات الأميركية إلى العالم كنوع من القومية. ويعني ذلك أنّه أصبح لقوميات القرن العشرين طابع قياسي نمطي، إذ باتت تستطيع أن تستند إلى هذه التجارب الإنسانية. وقبل ذلك كلّها، كانت فكرة «الأمة» قد عشت بقوة وثبات في اللغات الطباعية كلها؛ ولم يعد بإمكان الانتماء القومي أن ينفصل عن السياسة، ولم يعد الوعي القومي ينفصل عن الوعي السياسي.

تبنت الدول الناشئة بعد الحرب العالمية الثانية أنموذج الدولة الجمهورية القائمة على التقسيمات الإدارية الاستعمارية في أميركا من جهة، ونمط القومية الشعبية المتبلور في أوروبا من جهة أخرى. ومن إيجابيات هذا الكتاب أن هذه هي المعادلة النظرية الوحيدة التي يضعها بخصوص موجة الدول والقوميات الناشئة بعد الحرب العالمية الثانية. وفيما عدا ذلك يتبع نشوء اللغة وتبلورها تاريخياً ونوع الوحدات الإدارية الاستعمارية التي صمدت والتي لم تصمد متفحصاً حالات عينية في سيام (تايلند) وإندونيسيا وبتفصيل أقل حالات الهند الصينية. وكانت الوحدة الإندونيسية قد صمدت على الرغم من أنّ ما قام هناك لم يكن سوى آخر تقسيم استعماري هولندي. لكن إدارة باتاما ومدارسها لم تميّز في النهاية بين الأصول القبلية واللغوية واستوعبت الجميع في إدارة إندونيسية واحدة وفي جزيرة تشكّل مركزاً تنافسياً للأرخبيل.

أمّا الهند الصينية فلم تصمد، على الرغم من الوعي بكيان كهذا، وانقسمت إلى لاوس وكمبوديا وفيتنام. كان المتخيّل في المنهاج التعليمي الكولونيالي والمدرسة في سايجون وهانوي وحتى في بنوم بنه، حين فتحت في وقت لاحق، هو هندصينية. غير أنّه ثبت أنّ هذا المتخيّل كان متخيلاً عابراً، إذ ظهرت في النهاية فيتنام ولاوس وكمبوديا. أمّا المتخيّل المسمى إندونيسيا الذي لم تخلُ أيّ مقاطعة فيه من التمرد والعداوات الإثنية، فصمد، وصارت إندونيسيا دولة يتم التنافس فيها على الحصص والتأثير، لكن ليس لغرض الانفصال، وتكوّنت لغة إندونيسية بشكل واع، وتشكّلت لأغراض إدارية انطلاقاً من لغة قديمة مشتركة بين الجزر من نوع العثمانية والألمانية الإدارية

في إمبراطورية آل هابسبورغ متعددة اللغات. وبعد أن تبنتها دور النشر وتبناها الصحفيون وتحولت إلى لغة مطبوعة تبنتها أيضًا إندونيسيا الفتاة في عام 1928، زاعمة أن لها تاريخًا قديمًا وسلفًا مزعومًا في جزر الرياوا، وأنها اللغة القومية. وفي الواقع، تبقى إندونيسيا دولة متعددة الجزر واللغات والإثنيات.

قد لا تكون اللغة أساس القومية، هذا صحيح، فحتى اللغات تتشكل تشكلاً. لكن هنالك قوميات لغوية، مثل القومية العربية، وهنالك قوميات أخرى لا تستند إلى لغة أصلية، بل تشكلت ومعظم سكانها يتبنون لغة استعمارية. وهنا كلام أندرسن صحيح. «لا شيء يوحى بأن القومية الغانية أقل واقعية من الإندونيسية لمجرد أن لغتها القومية هي الإنكليزية لا الأشانتي». ولا يجوز التعامل مع اللغة من منطلق أيديولوجي كما يفعل بعض القوميين في التعامل مع الرايات والأزياء والرقصات الشعبية... وغيرها. وامتحان اللغة باعتبارها لغة قومية هو قدرتها على تشكيل جماعة متخيلة وعلى بناء التضامن. واللغات الإمبراطورية هي في النهاية لغات محلية، وهي بذلك لغات محلية محددة بين لغات كثيرة. وإذا ما كانت موزمبيق الراديكالية تتكلم البرتغالية فهذا يدل على أن البرتغالية هي الوسيط الذي يجري عبره تخيل الموزمبيق (ويوقف حدود الموزمبيق في الوقت ذاته عند كل من تنزانيا وزامبيا). وعند أندرسن «اللغة الطباعية هي ما يتدع القومية، لا لغة محددة بحد ذاتها. وإشارة الاستفهام الوحيدة التي تقف إزاء لغات مثل البرتغالية في موزامبيق والإنكليزية في الهند هي ما إذا كان النظامان الإداري والتعليمي، خصوصًا الأخير، يمكنهما أن يولدا انتشارًا كافيًا سياسيًا للشائبة اللغوية. ومنذ ثلاثين عامًا مضت لم يكن هناك تقريبًا أي إندونيسي يتكلم الـ bahasa Indonesia (الإندونيسية، اللغة القومية) بوصفها لغته أو لغتها الأم؛ حيث كانت لكل امرئ لغته «الإثنية» الخاصة وكان لبعضهم، خصوصًا أولئك الذين كانوا في الحركة القومية bahasa Indonesia/dienstmaleisch علاوة على ذلك. واليوم ربما كان هناك ملايين من الإندونيسيين الشباب، من عشرات الخلفيات الإثنية اللغوية، يتحدثون الإندونيسية بوصفها لغتهم الأم».

يثابر أندرسن على نهجه، فلا يقارن حالة سويسرا كأمة متعددة اللغات، في رأينا، بفرنسا أو ألمانيا بل يقارنها بإندونيسيا. واتخذ القرار السويسري

بجعل عام 1291 سنة تأسيس سويسرا، ما يعني أن عام اتخاذ القرار 1891، هو عام التأسيس أكثر مما يعني أن ذلك العام هو 1291. والمهم أنه تاريخياً كان الدين قبل ذلك إلزامياً في الكانتونات، أما اللغة فكانت مسألة خيار شخصي، وأصبح الدين بعد عام 1848 مسألة خيار شخصي، أما اللغة فباتت رسمية لكل كانتون. وهوية الكانتون باعتبارها هوية لغوية هي قضية علمنة. أما حياد سويسرا بين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وهي دول جارة قوية، فيراه أندرسن وجهاً أول لتعدد اللغات في البلد، ولعدم فرض لغة على أخرى. فالتعدد اللغوي ضمن الأمة الواحدة تطوّر تاريخياً كوجه ثانٍ لعملية حياد الدولة والحفاظ عليها بين جيران أقوىاء.

تمكّن قوّة الدولة الحديثة الكليّة الحضور وطرائق الاتصال من تمثيل الجماعة المتخيّلة بوسائل غير اللغة الواحدة، خصوصاً في بلد لم تقم في تاريخه الحديث قوميّة رسمية تقابلها قومية شعبية كما في أوروبا، أو كما في مثال سيام في الشرق الذي عالجه المؤلّف بتوسّع. ومن الأمثلة على ذلك أيضاً إندونيسيا والهند بدرجة كبيرة. ولا بد هنا من إضافة أنه حيث تقوم القومية على اللغة باعتبارها أداة تخيل الجماعة تاريخياً ووجدانياً وثقافياً، فإن تهميش الهوية القومية بتهميش اللغة يؤدّي إلى أزمة في الوعي القومي ونشوء جماعات متخيّلة أخرى، لا تقل تخيلاً لكنها تقل اتّساعاً وقدرة على ترسيخ الدولة الحديثة، مثل الطائفة والعشيرة وغيرها. وقد يؤدّي تهميش اللغة أيضاً إلى انقسام الانتماء إلى اللغة طبقياً، كما يحصل لبعض الطبقات الميسورة في بعض الدول العربية التي تميل إلى إدخال الفرنسية والإنكليزية باعتبارها لغة تدريس لأبنائها فتزيد على الهوية الطبقيّة هوة ثقافية تحوّل صراع الطبقات إلى نوع من الاحتراب الأهلي على هوية البلد.

في نهاية الكتاب فحسب يتطرّق أندرسن إلى مؤسسات السلطة التي تهّمه هنا في إعادة تشكيل المكان والسكان والإقليم: التعداد أو الإحصاء السكاني والخارطة والمتحف (حدود وتضاريس الجماعة في المكان والزمان المتخيّلين). وساهمت هذه كلها في صوغ القومية والدولة في أوروبا. لكنها عدّلت من دورها في المستعمرات، فاستخدمت هناك لصوغ المكان الذي تستعمره، وصاغت كيفية تخيّل كي تكون قادرة على حكمه. ورسمت طبيعة

المكان وحتى طبيعة البشر الذين تحكمهم وطبيعة أسلافهم وصنفت كل ذلك كي تحكمهم، وتمّ استنساخ هذه الأنواع من المؤسسات بوساطة الدولة المستقلة وبآليات الاستنساخ الحديثة.

المهم في الإحصاء السكاني الكولونيالي أنّه يحدّد التصنيف ويغيّره مرّات عدة تحت مفاهيم رؤيته هو للناس وليس كما يرون أنفسهم. هكذا يُعوّد الإحصاءُ الناسَ على فهم أنفسهم كطوائف وديانات أو كأعراق بمجرد إبلاغ الملاء عن نسب كهذه من السكان، وبمجرد تعامل الدولة معهم على هذا الأساس على مستوى التمثيل، أو على مستوى التوظيف أو سوى ذلك. وهكذا تجعل الدولة الاستعمارية هذه النسب هي العناصر التي يتألف منها البلد، أو التي تريد أن يتألف منها البلد. وبهذا المعنى، فإننا إزاء اختراع لم يكن قائماً قبل الاستعمار بأيّ معنى شبيه أو مشابه.

رأى الإسبان الذين استعمروا الأرخبيل الذي أطلق عليه اسم الفيليبين، نسبةً إلى فيليب الثاني ملك إسبانيا، القرى باعتبارها عزباً إسبانية، ورأوا زعماءها على أنّهم نبلاء وأمراء، وسكّانها على أنّهم عامة وعبيد. رأوهم بمصطلحات وتصنيفات إسبانية، مع أنّ طرفاً غالباً ما كان يجهل الكثير عن الطرف الآخر. وما أجراه المستعمر من تصنيف الناس بموجب أعراقهم كان أمراً يجهله هؤلاء الآخرون الذين ما كانوا يرون الدنيا بهذه المفاهيم ولم يكن العرق قائماً لديهم على مستوى اصطلاحي. ولا شكّ في أن التجّار الذين جاءوا للتجارة في إندونيسيا لم يروا أنفسهم كصينيين. وسمّوا أنفسهم تجاراً. لكن الإحصاء والمستعمر الذي كان يجوب المحيط بسفنه رأهم كصينيين وصنّفهم كذلك إزاء إثنيات أخرى.

تصوّر الخريطة التي جاء بها المستعمرون الأرض والطبيعة في تجريد مسطح من زاوية نظر الطائر. وهي زاوية نظر لم تكن مألوفة ولا معروفة في هذه البلدان. رسم المستعمر حدوداً إقليمية لم تكن على الدوام ذات صلة بالجماعات واللغات التي تقطنها، ولا حتى بالتضاريس الطبيعية. وهذه الحدود قطعت التواصل. ومُسّحت الأرض والبحار بعين واحدة، هي عين النفوذ الكولونيالي مقابل قوى كولونيالية أخرى فحسب. وما لبث أن أصبح ممكناً إخراج البلد المعني من سياقه على هيئة خارطة منفصلة وتثيته وحده على

اللوح أو في الكتاب كوطن متخيّل، لا يلبث أن يُكتب له تاريخٌ متخيّل أيضًا. ونقول «متخيّل» لأن هذا الجزء الذي اقتُطِعَ من الخريطة لم يشهد مطلقًا، بشكله هذا وبحدوده هذه، تاريخًا خاصًا به يجمعه سوية ويفصله عن غيره. وأخيرًا، يتحوّل هذا الشكل المتعرّج المقتطع من الخريطة، والمثبت في كتاب أو على اللوح أو بدبوس على الصدر، إلى رمز وشعار، أو إلى «لوغو». ولنتمعن، بعد هذه الجملة، ما الذي يعنيه تاريخ الأردن، أو للدقّة شرق الأردن. ذلك أنّ الأردن هو تاريخيًا اسم نهر لا اسم بلد. ما الذي يعنيه تاريخ فلسطين بخريطتها الحالية، وما الذي يعنيه تاريخ لبنان، إلّا إذا كان جبل لبنان منذ أن تحوّل من منطقة جغرافية طبيعية إلى منطقة إدارية، وما الذي يعنيه حتى تاريخ سورية كقطر منفصل بحدوده الحالية.

أمّا علم الآثار الكولونيالي ففصل الآثار عن السكّان المحليين، ولم يعد ثمة علاقة للماضي المجيد بهم وبحاضرهم. ولم يلبث أن فصل الآثار العظيمة، خصوصًا العمرانية، عن الناس ومناطق السكن وحولها إلى منتزهات. وهناك، في النهاية، محاولة لتوطين الأجانب الذي بقوا وتوطيد أركانهم في ثقافة البلد المحلية وتاريخها الذي يمكن الاعتزاز به خلافًا لحاضرها البائس، إلى أن يأتي دور الدولة الوطنية في الاستنساخ وإنشاء التاريخ الوطني ووضع الكتب المدرسية وتحويل خارطة البلد إلى «لوغو»، وصولًا إلى إنشاء السياحة أخيرًا، وإقامة تواصل بين الحاضر والماضي لغرض السياحة.

4 - ملاحظة في شأن القومية والعنصرية

يُعيد أندرسن الحركات العنصرية وغيرها ليس إلى القومية التي يعلن براءتها منها، بل إلى إدخال الطبقات الأرستقراطية في الإمبراطوريات تراتبيةً طبيعيةً تبرر حكمها. يجري ذلك في سياق تبرير علاقة الحاكم والمحكوم بالشعوب في الإمبراطوريات، بفرض نوع من التراتب الطبيعي الناجم عن التفاوت بين ألوان البشرة واللغات والطبائع وغيرها. كان ذلك قائمًا عند هذه الطبقات الأرستقراطية حين كانت ضد القومية تتبنّى تراتبية طبيعية ضد الفقراء من شعوبها، وظلّ قائمًا بعد تبنيها المصطنع والمتأخّر للأفكار القومية.

في عصرٍ انتشرت فيه تقليعة تحرّر المثقفين التقدميين من القومية، على مستوى الخطاب فحسب (خصوصًا في أوروبا القائمة على القوميات، وهي أكثر القارّات قوميّة)، وفي عصرٍ يجري فيه تأكيد طابع القوميّة شبه المرضي وتُرْجَع أصولها إلى الخوف من الآخر وكرهيته، «من المفيد أن نذكر أنفسنا بأنّ الأمم تُلهِم الحب الذي غالبًا ما يكون حبًّا عميقًا منطويًا على التضحية بالنفس». وكما أكدنا في البداية فإنّ مقولة المنظرين القوميين عن القوميّة ليست كلامًا أيديولوجيًا فارغًا، بل وصف لطبيعتها. وإذا ما كانت القوميّة علاقة انتماء إلى جماعة متخيّلة فمن الطبيعي أن تتضمّن الحبّ. و«تُظهِرُ مُنتجاتُ القومية الثقافية - من شعر ونثر قصصي وموسيقى وفنون تشكيلية - هذا الحبّ بوضوح شديد في آلاف الأشكال والأساليب. بالمقابل، من النادر حقًا أن نجد منتجات قومية مماثلة تُعبّر عن الخوف والنفور. حتى في حالة الشعوب المستعمرة التي لديها مبرّر فعلي لأن تشعر بالكراهية تجاه حكّامها الإمبرياليين، من المدهش أن نرى مدى الضلالة التي يتّسم بها عنصر الكراهية في هذه الضروب من التعبير عن الشعور القومي»، وذلك في مقابل الكم الهائل من أدب وفكر وفن الكراهية للآخر غير الأوروبي والمختلف (أو المسلم في عصرنا) لدى فئات متنوّرة تدّعي التحرّر من القومية، في حين أنّها تتبنّى باسم نقد القومية أحد أسوأ أنماط القومية الرسمية الإمبراطورية، الأميركية مثلاً، وتعلن نفسها وصية على الآخرين من دون أن يتوفّر لها الحد الأدنى من المعرفة، فضلًا عن التعاطف، عبر الصحافة ومؤسسات الدعم المشروط والمؤسسات غير الحكومية... وغيرها. «وبالمثل، فإنه إذا ما كان المؤرّخون والدبلوماسيون والسياسيون وعلماء الاجتماع على ألفة تامة بفكرة «المصلحة القومية»، فإنّ الميزة الأساس للأمة بالنسبة إلى معظم البشر العاديين مهما تكن طبقاتهم هي أنها بعيدة عن المصلحة. ولهذا السبب على وجه التحديد، يمكن لها أن تطالب بالتضحيات». التضحية والشهادة تنبع من الحب لا من القوة والمصلحة. وكما قلنا أعلاه في فهم أهمية الحب والانتماء، ليس في حالة القومية وحدها بل في حالتَي الليبرالية والماركسية أيضًا، فإنّ كون الليبرالية والماركسية من المناهج سرعان ما يجعلها تكتشف أنّ أحدًا لا يضحى ويناضل من أجل منهج علمي، وأنّ أهم ما فيها هو الإيمان بها كقيم أو الانتماء إلى جماعة. وهذا الإيمان هو الذي يدفع للنضال. وعندما يضيع، فإنّ المنهج

يصلح لتأسيس مركز أبحاث أو حلقة نقاش للتحليل والتشخيص في خدمة هدف، لكنه من دون قيم وجماعة تؤمن بهذه القيم وتنتمي إليها لا يصلح لتأسيس حركة تسعى إلى تحسين المجتمع، فضلاً عن السعي إلى عالم أفضل.

هذه اللاعقلانية القائمة في الانتماء ليست أساس العنصرية. فهي قائمة في كل انتماء أكان لقيم متنوّرة أم غير متنوّرة. بالمقابل، اتخذت النزعة الأرستقراطية المحافظة أشكالاً علمية أو شبه علمية عندما بحثت عن نظريات لتبرير ذاتها في عصر تطور الداروينية وعلم الأنساب والبيولوجيا والإثنوغرافيا... وغيرها. وهذه النزعة الأرستقراطية المتعالية هي أساس العنصرية ضد الفقراء محلياً، وضد السكان الأصليين في المستعمرات، وضد الشعوب الأخرى. وكانت قائمة عند غير القوميين ممن يُظهرون مشاعر الاستعلاء على الآخرين عند الحكم عليهم، وما زالت قائمة عند مدّعي التحرر من القومية لكنهم ينضوون في المعسكر القومي الشوفيني الإمبراطوري الأميركي من ليبراليين جدد ومحافظين جدد وغيرهم، أو ممن يدّعون أن العلمانية ليست مجرد خصخصة للقرار الديني وتحييد للدولة في الشأن الديني بل أيديولوجيا شمولية تكفي لإشعار صاحبها بالتفوق، كما توجد عند قوميين حولوا القومية إلى أيديولوجية شمولية واستعاروا من النظريات العنصرية لتبريرها... وغير ذلك أصناف كثيرة.

ليست العنصرية قومية ولا صيغة من صيغ القومية، بل إنها غالباً ما تنفي القومية عن الخصم أو العدو أو الآخر وتختزله إلى قسماته البيولوجية. فهي تُنكر «الفيتنامي» وتحلّ محله مفهوم «السلانت»، اختصار لـ «سلانت آيز»، أي الذي عيونُه مائلة. كما تحل «راتون» محل «الجزائري» بحلولها محل هذه الكلمة الأخيرة.

تفكّر القومية بلغة التاريخ والمصائر التاريخية، في حين تفكّر العنصرية بلغة الطبيعة الأبدية. فطبيعة الأفارقة، أو «الزنوج» باللغة العنصرية، هي طبيعة سوداء خارج التاريخ والتطور التاريخي. ولليهود أيضاً طبيعتهم الفاسدة غير المتغيّرة عبر التاريخ. تنفي العنصرية القومية عن الآخرين، بل تنفيهم خارج التاريخ وتغرقهم في الطبيعة والتلوث والفساد، وتجعلهم كيانات غير تاريخية تمتصه التضاريس والطبيعة والملاحم ولون البشرة وفصيلة الدم. «والحال، أن

أصل الأحلام العنصرية هو في أيديولوجيات الطبقة، وليس في أيديولوجيات الأمة: خصوصًا في مزاعم الألوهة بين الحكّام ومزاعم النّسل والدم «الأزرقين» أو «الأبيضين» بين الأرستقراطيات»، وبينها وبين عامة الشعب. وبدأت العنصرية من التسويغ «الطبيعي» النظري أو «العلمي» للسلاطات الحاكمة والعائلات الأرستقراطية، وانتقلت إلى تبرير «طبيعي» و«علمي» لتفوّق السلالات العرقية والإثنية واللغوية.

بوجه عام، لا تتجلى العنصرية ومعاداة السامية عبر الحدود القومية بدايةً، بل ضمن هذه الحدود وفي إطارها. تبدأ العنصرية كأرستقراطية الدم والمصدر الطبيعي للسلطة والحكمة والقوة، وتضرب بجذورها في تأسيس التفوق الطبيعي الداخلي أكثر مما تضرب بها في العلاقة بين القوميات. ومن هنا أرستقراطية صاحب نظرية الأعراق الكونت دي غوبينو الذي أخذت عنه نظرية الأعراق الألمانية ما قبل النازية الكثير، وأسست عليه. يبدأ التمييز العنصري بالتمييز داخل الشعب الواحد ذاته، ومن هنا شراسة العداء للسامية، لأنها داخلية تحديدًا وضد عدو داخلي قبل أن تنتقل إلى الخارج، إلى المستعمرات.

ليس مصادفةً أنّ القومية الرسمية التي نتجت من تبني سلالات أرستقراطية للفكرة القومية، هي الأقرب إلى الفكر العنصري من القومية الشعبية التي أسستها الإنتليجنسيات والطبقات الوسطى. وكانت العنصرية الكولونيالية واحدًا من العناصر الرئيسة في ذلك التصرّو لـ «إمبراطورية» حاولت أن تجمع بين الشرعية السلالية وشرعية تمثيل الجماعة القومية... في بريطانيا والنمسا وروسيا. وما كان بوسعها أن تفعل ذلك إلا بتعميم مبادئها وأدواتها، وعلى رأسها التفوّق المولود الموروث الذي كان يقوم عليه وضعها وشرعيتها الداخلية. وعُمّم المبدأ وراء البحار، وهذا هو سرّ الانتشار الضمني للفكرة التي مفادها أنّه «إذا ما كان اللوردات الإنكليز، مثلاً، متفوقين بصورة طبيعية على بقية الإنكليز، فذلك ليس مهمًا: بقية الإنكليز هؤلاء لا يقلّون تفوقًا على أهل البلد المستعمر الخاضعين»، إذ بدت هذه الفكرة كأنّها فكرة قومية.

ثمّة دلائل منتشرة على أنّ العنصرية بدأت غالبًا بتبني الكولونيالية، بما في ذلك الرأسمالية البرجوازية منها، رداء أرستقراطيًا في الخارج لا يشبه القومية البيئية. من هذه الدلائل أنّ القومية البيئية الشعبية تمرّدت على

امتيازات الأرستقراطية والأكليروس ودعت إلى فكرة الأمة المتساوية، وانسجمت عمومًا مع الانتفاضات الديمقراطية المطالبة بحقوق الشعب. لكن الجيش الذي قام على العداء للامتيازات الفروسية كما هو حال الجيش الجمهوري الفرنسي، لا يعود في المستعمرات ذلك الجيش القومي الحديث، بل يتبنى رونقًا أرستقراطيًا ومظاهر أرستقراطية في الملبس والزركشة ولغة المراءة والتصنع بين ضباطه، على نحو ما بدا الجيش البريطاني حتى خمسينيات القرن الماضي. وكانت تجمع جيوش المستعمرين البيض من قوميات مختلفة علاقات أخوة بين ضباط وسادة، ولو كانوا أسرى حرب، خلافًا للتعامل الذي كان يلقاه حتى الضباط من المحليين الذين يخدمون في الجيش المستعمر، فضلًا عن المدنيين المستعمرين أو حركاتهم المسلحة التي لم يحظ سجناءها يومًا بحقوق أسرى الحرب، وغالبًا ما كانوا يُقتلون بدلًا من أن يؤسروا⁽⁴⁾.

ليس صحيحًا أن القوميات المناهضة للكلونيالية في المستعمرات طوّرت عنصرية مضادة إلا في الهوامش. لكن اللغة خداعة. وجرى وسم البيض بصفات معينة لأنّ المستعمر لم يرَ من البيض إلا المستعمرين، لكنه لم يؤدّج، ولم يبنِ نظريات عنصرية تستهدف البيض عمومًا في أيديولوجية أو لغة تحطّ من قدرهم مثلًا.

على العكس، كانت روح القومية المناهضة للكلونيالية دائمًا معادية للعنصرية وتحاول أن تستند إلى أفضل ما في التراث الغربي التنويري كي تخرجه به. وهي تصدّق فعلًا، أو تتظاهر بتصديق، الديمقراطية وحقوق الإنسان في الغرب وتحاول أن تشي بالفجوة بينها وبين الممارسة الغربية في المستعمرات. وهذا ما دفع أندرسن إلى استخدام دستور جمهورية كاتاغالوغان (1902) «الذي يفطر القلوب» في توقيه إلى المساواة في مقابل فكر المستعمر وثقافته، والمقصود هو جمهورية ماكاريو ساكاي قصيرة الأجل، الذي نصّ، من بين أشياء أخرى، على أنّه «لن يرفع أيُّ تاغالوغي، وُلد في هذا الأرخبيل التاغالوغي، أيّ شخصٍ فوق البقية بسببٍ من عرقه أو لون بشرته؛ فالأشقر

Eric Hobsbawm, *On Empire* (New York: Pantheon Books, 2008), p. 67.

(4)

والأسمـر والغني والفقير والمتعلّم والجاهل متساوون تمامًا جميعهم، ويجب أن يكونوا قلبًا واحدًا. وقد تكون هنالك فروق في التعليم أو الثروة أو المظهر، غير أنه ما من فروق قطّ في الطبيعة الجوهرية والقدرة على العمل من أجل قضيةٍ ما».

بهذا الاقتباس الجميل والشاعري من دستور حالم وطموح في مستعمرة بعيدة نختم هذه المقدمة.

الإهداء

إلى ماما وتانتيت
بحبّ وامتنان

إهداء الترجمة

إلى المرحوم أبو عبّود، إبراهيم عبّود،
تلك الروح القومية اليسارية الحانية، دليل المتقلّبين في عتمة
الزنازين إلى ضرورة النوم «قوميًا» لا «قطريًا»

كلمة المؤلف بخصوص الترجمة العربية

إنَّه ليحملني على التواضع أنَّ أعلم أنَّ هذا الكتاب سوف يصدر بالعربية، وبغلاف جميل أيضًا، على الرغم من أنَّه - بسبب من جهل مؤلفه - لا يقول إلاَّ أقلَّ القليل سواء عن «العالم العربي» أم عن «الأمة العربية» بوجه عام. لذلك، أنا شديد الامتنان لكلِّ من المترجم والناشر. وأشعرُ، وأنا أكتب هذه الكلمات في جامعة ماليزيا الإسلامية الدولية في كوالا لامبور، أنَّ التوقيت موفَّقٌ كثيرًا، حيث يحتدم هنا، في شأن العلاقة المعقَّدة بين الدِّين والقومية، ذلك الجدال النظري والسياسي المثقَّف إلى أبعد الحدود، بالنسبة إليَّ، بالطبع، كما بالنسبة إلى الطلاب الماليزيين والصينيين والتشاميين والإيرانيين والبنغلاديشيين والنيجريين الملتحقين بهذه الجامعة.

تحياتي الحارة

بنُّ أندرسن

كوالا لامبور 2009 / 11 / 25

إقرارٌ بالفضل

سوف يتضح للقارئ أنَّ تفكيري في القومية تأثر أعمق التأثر بكتابات كل من إريك أورباخ وفالتر بنيامين وفيكتور ترنر. وأفدْتُ أيما إفادة في أثناء إعداد هذا الكتاب من نقد كل من أخي بيري أندرسن وأنطوني بارنيت وستيف هيدر. ج. أ. بالارد ومحمد شمباس وبيتر كاتزنشتين والراحل ريكس مورتايمر وفرانسيس مولهرن وتوم نايرن وشيرايشي تاكاشي وجيم سيغل ولورا سيمز ومن نصائحهم. كما قدّمت لي إيسا أنغار، بطرائق شتى العون الذي لا يُقدَّر بثمن. وبالطبع، فإنَّ أحدًا من هؤلاء النقاد الودودين ينبغي ألا يُعدَّ مسؤولاً عمّا في هذا النصّ من نقائص أتحمّل مسؤوليتها الكاملة. وربما كان عليّ أن أضيف أنني متخصصٌ بجنوب شرق آسيا من حيث دربتي ومهنتي، الأمر الذي قد يساعد في تفسير بعض من تحيزات هذا الكتاب وما يتخيره من أمثلة، وكذلك في الحدّ من مزاعمه العالمية المحتملة.

يرى <الماديّ التاريخيّ> أنّ مهمّته كنس التاريخ بخلاف طبيعته.

فالتربنيامين
إشراقات

هكذا، نشأ من خلأط شتّى،
ذلك الشيء المتغير الذي هو الإنكليزيّ،
ذريّة اغتصابات متلهّفة، وشهوة جامحة،
بين بريتونية متبرّجة واسكتلندي،
سرعان ما تعلّم نسلهما الوليد أن ينحني
ويقرّن عجالاته بالنير إلى محراث الرومان،
ليخرج ذلك العرق الخليط الهجين،
الذي لا اسم له ولا وطن، لا قول ولا صيت.
تجري الخلأط مسرعة في عروقه الحارّة،
موزعة بين ساكسونيّ ودانيّ.
أمّا بناته الفاحشات، كأهلنّ تامّا،
فقد استقبلن الأمم جميعاً بشهوة لا تُميّز.
هذا الفقس المُقرّف سرعان ما احتوى
دم الإنكليز المُقطّر...

دانييل ديفو
من قصيدة «الإنكليزيّ القحّ»

تصدير الطبعة الثانية

مَن الذي كان ليخطر له أَنَّ العاصفةَ يشتدُّ هبوبُها كلما ابتعدتُ عن الفردوس^(*)؟

تبدو الصراعات المسلَّحة في الهند الصينية في عامي 1978 - 1979، تلك الصراعات التي كانت السبب المباشر وراء الطبعة الأولى من الجماعات المُنخَيَّلَة، كما لو أَنَّها تنتمي إلى حقبة أخرى، مع أَنَّهُ لم يمرَّ عليها سوى اثني عشر عامًا. وكان قد لاحقني منذ ذلك الحين شبحُ نشوبٍ مزيدٍ من الحروب الشاملة بين الدول الاشتراكية. وها هو نصف هذه الدول التحق الآن بذلك الحطام عند قدمي الملاك، وتخشى البقية الناجية من أن تلحق بالنصف الأول دونما إبطاء نظرًا إلى ما تواجهه من حروب أهلية. وثمة احتمال قويّ ألا يبقى من اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية مع مطلع الألفية الجديدة سوى... الجمهوريات.

(*) يشير الكاتب هنا إلى ما قاله فالتر بنيامين في «أطروحات في مفهوم التاريخ» الذي سيعود إليه في الفصل التاسع المُعَنَّون «ملاك التاريخ»: «ثمة لوحة لبول كلي باسم الملاك الجديد. نجد فيها ملاكًا يبدو على وشك أن ينأى بنفسه عن شيء يحدث فيه. عيناه مفتوحتان على وسعهما، وقد فغر فاه وفرد جناحيه. لا بدّ من أن ملاك التاريخ يظهر على هذا النحو. وجهه ملتفتٌ صوب الماضي. وحيث نتصور سلسلة من الحوادث، يرى كارثة واحدة لا تني تكوّم الأنقاض فوق الأنقاض وتلقيها عند قدميه. والملاك يودّ أن يبقى، وأن يحيي الموتى، ويجمع ما تحطّم. لكنَّ عاصفة تهبّ من الفردوس؛ وقد أمسكت بجناحيه بتلك القوة حتى لم يعد بوسعه أن يضمّهما، وراحت تدفعه بصورة لا تُقاوم نحو المستقبل الواقع خلفه، في حين يعلو أمامه الحطام حتى يبلغ عنان السماء. ما ندعوه التقدم هو هذه العاصفة».

من المهم الإشارة إلى أن الهوامش كلها المُشار إليها بنجمة (*) وكلّ ما هو بين <>، في المتن أو في الهوامش، قد أضافه المترجم في حين بقيت هوامش المؤلف مرقّمة وبقيت إضافاته بين [].

هل كان يجب التنبؤ بكل هذا على نحوٍ ما؟ كتبتُ في عام 1983 أنَّ الاتحاد السوفياتي هو «وريث الدول الملكية السلالية قبل القومية التي عرفها القرن التاسع عشر بقدر ما هو طليعةُ نظام أممي يشهده القرن الواحد والعشرون». غير أنني، وقد تتبعتُ الانفجارات القومية التي دمّرت تلك الممالك الشاسعة متعددة اللغات والإثنيات التي كانت تُحكّم من فيينا ولندن والقسطنطينية وباريس ومدريد، لم أستطع أن أرى أنَّ الفتيل يمكن أن يكون قد وصل إلى موسكو ذاتها. وإنّه لمن العزاء المُوقّع للكآبة أن أجد التاريخ متمسكًا بـ «منطق» الجماعات المُتخيلة أفضل مما استطاع مؤلفه.

ما تغيّر خلال الاثني عشر عامًا الماضية لم يكن وجه العالم فحسب، بل تغيّرت دراسة القومية أيضًا ذلك التغيّر المذهل، في منهجها ومداها وإتقانها وكمّها المحض. وكان لكتبٍ مثل كتاب ج. أ. أرمسترونغ أممٌ قبل القومية (1982)، وكتاب جون برولي القومية والدولة (1982)، وكتاب إرنست غلنر الأمم والقومية (1983)، وكتاب ميروسلاف هروتش الشروط الاجتماعية للإحياء القومي في أوروبا (1985)، وكتاب أنطوني سميث الأصول الإثنية للأمم (1986)، وكتاب ب. شاترجي الفكر القومي والعالم الكولونيالي (1986)، وكتاب إريك هوبسباوم الأمم والقومية منذ العام 1788 (1990) (*)، في اللغة الإنكليزية وحدها، كان لها أن تجعل من الأدبيات التقليدية عن هذا الموضوع أمرًا باليًا قديم الطراز، سواء من حيث مداها التاريخي أم من حيث مقدرتها النظرية، مع أن هذه الكتب ليست سوى قلة فحسب من النصوص الأساسية. وقد ساهمت هذه الأعمال، جزئيًا على الأقل، في إطلاق كمٍّ هائل من الدراسات التاريخية والأدبية والأنثروبولوجية والاجتماعية والنسوية وسواها من الدراسات التي تربط بين موضوعات البحث التي تتولاها هذه الحقول، والقومية والأمة⁽¹⁾.

John A. Armstrong *Nations Before Nationalism* (Chapel Hill: University of North Carolina (*)) Press, 1982); John Breuilly, *Nationalism and the State* (Chicago: University of Chicago Press, 1982); Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Ithaca, NY: Cornell University, 1983); Miroslav Hroch, *Social Preconditions of National Revival in Europe* (New York: Cambridge University Press, 1985); Anthony D. Smith, *The Ethnic Origins of Nations* (Oxford: Blackwell Publishers, 1986); Partha Chatterjee, *Nationalist Thought and the Colonial World* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1986); Eric Hobsbawm, *Nations and Nationalism since 1780* (Cambridge: Cambridge University Press, 1990).

(1) كانت لدى هوبسباوم الشجاعة لأن يستنتج من هذا الانفجار البحثي أنَّ عصر القومية يدنو من نهايته؛ فبومة منيرفا تطير عند الغسق.

إنها لمهمة تفوق وسائل الراية أن أعدّل الجماعات المُتَخَيِّلَة بما يتلاءم مع مقتضيات هذه التغيرات الهائلة التي اعترت العالم والنصوص. ويبدو من الأفضل، إذا، أن أتركه قطعة من مرحلة «لا سبيل إلى استعادتها»، بأسلوبه الخاص المميّز وهيئته العامة ومزاجه. وما يعزّيني هو شيئان اثنان: أولهما، هو أنّ الغموض لا يزال يلفّ الحصيصة النهائية الكاملة لما يعترى العالم الاشتراكي القديم من تطورات. وثانيهما، هو أنّ منهج الجماعات المُتَخَيِّلَة الخاص واهتماماته لا تزال تبدو لي على حواف البحث الجديد في القومية، الأمر الذي يعني - على الأقل - أنّه لم يَجْرِ تجاوزها تمامًا.

يقتصر ما حاولتُ أن أقوم به في هذه الطبعة على تصويب أخطاء تتعلق بالوقائع والتصور والتأويل كان عليّ أن أتلافها لدى إعداد الطبعة الأصلية. وتشمل هذه التصويبات - التي تتم بروحية عام 1983، إذا جاز القول - تعديلات أجريتها على الطبعة الأولى، فضلًا عن فصلين جديدين لهما في الأساس طابع الملحقين المنفصلين المتميّزين^(*).

اكتشفتُ في النصّ الأساس اثنين من أخطاء الترجمة الفادحة، ووعداً واحداً على الأقل لم أف به، وتأكيذاً مضملاً. ففي عام 1983 لم أكن أعرف الإسبانية، واتكأتُ بشيء من التهور على الترجمة الإنكليزية التي قام بها ليون ما. غوريرو لرواية خوسيه ريزال^(**) لا تلمسني، على الرغم من توفر ترجماتٍ

(*) يقصد أندرسن الفصلين العاشر «التعداد والخريطة والمتحف»، والحادي عشر «الذاكرة والنسيان». وأضاف المترجم مقالة أندرسن «القومية الغربية والقومية الشرقية: هل ثمة فارق مهم؟» التي أتت في هذا الكتاب بوصفها الفصل الثاني عشر، وكانت قد نُشرت في: *New Left Review* (May-June 2001), pp. 31-42.

(**) خوسيه ريزال (1861 - 1896) (José Rizal) بطل الفيليبين الوطني الذي يُعَدُّ يوم وفاته مناسبة وطنية وباتت سيرته البطولية أقرب إلى الأسطورة. عاش ريزال حياة قصيرة نسبياً لكنها كانت حافلة ومثيرة. تميّز عن أقرانه منذ الصغر، إذ تعلّم الأبجدية في الثالثة من عمره، وتعلّم القراءة والكتابة في الخامسة، وكتب الشعر في الثامنة، وفي السادسة عشرة حصل على شهادة في الفنون، وتسجّل في السنة ذاتها في إحدى الجامعات كي يدرس الفلسفة. وفي عام 1882 سافر إلى إسبانيا ليدرس الطب في جامعة مدريد. كما درس في جامعات أخرى مثل جامعة باريس وجامعة هايدلبرغ. كان طليقاً في عشر لغات على الأقل، وتعددت مواهبه وتنوّعت المجالات التي برع بها، فهو فنان ورجل أعمال ومعلم ومعماري ومهندس زراعي ومؤرخ وصحفي وشاعر وروائي، إضافة إلى مهنة الطب. وضع مواهبه تلك وما اشتملت عليه من ذكاء ونباهة في خدمة قضيته التي آمن بها، ألا وهي تحرير بلاده. وبسبب ذلك، اتهمه =

أقدم. ولم أكتشف إلا في عام 1990 مدى الفساد الساحر الذي كانت عليه ترجمة غوريرو. أمّا في شأن ذلك المقبوس الطويل والمهم الذي اقتبسته من كتاب أوتو باور الديمقراطية الاجتماعية وقضية القوميات(*) فاتكأت بشيء من الكسل على ترجمة أوسكار ياسي(**). لكن عودة لاحقة إلى الأصل الألماني بيّنت لي كم تركت ميول ياسي السياسية على مقبوساته من آثار. وكنت قد وعدت في مقطعين على الأقل، من دون أن أفي بوعدتي، بأن أوضح الأسباب التي جعلت القومية البرازيلية تتطور متأخرة كثيرًا وعلى نحو متميّز وخاص قياسًا بقوميات البلدان الأميركية اللاتينية الأخرى. وسوف يحاول هذا النص أن يفي بذلك الوعد الذي نكثت به.

كان جزءًا من خطتي الأصلية أن أركز على ما للقومية من أصول في العالم الجديد. وكان لديّ شعورٌ بأنّ ضربًا من المحليّة ضيقة الأفق وغير المُدرّكة لطالما حرّف التنظير في هذا الموضوع وشوّهه. ولهذا، كان يسيرًا على الباحثين الأوروبيين الذين اعتادوا تصوّر أوروبا بوصفها أصل كلّ ما هو مهم في العالم الحديث، أن يعتبروا «الجيل الثاني» من القوميات الإثنية اللغوية (القوميات الهنغارية والتشيكية واليونانية والبولندية... إلخ) نقطة البدء في نمذجتهم، سواء كانوا «مع» القومية أم «ضدّها». وأجفّلني أن أكتشف، في كثير من التعليقات على الجماعات المُتخيّلة، إنّ هذه المحليّة المتّصفة بالمركزية الأوروبية بقيت على حالها من دون أدنى اهتزاز، وأنّ الفصل الحاسم في شأن نشوء الأمم الأميركية تمّ تجاهله إلى حدّ بعيد. ومن سوء الحظّ أنني لم أجد حلًا «مباشرًا» لهذه المشكلة أفضل من أن أعيد عنوان الفصل الرابع بـ «رواد كريوليون».

= الإسبان بالتجديف والهرطقة وعرف السجن (الذي استثمر سنواته في بناء مدرسة ومستشفى وإقامة نظام للري وأمور أخرى كثيرة) كما عانى النفي. غير أنّ ذلك لم يكف أعداءه، فالصقوا به تهمة التآمر، ليحكم عليه بالخيانة العظمى ويُعدم رميًا بالرصاص في الحديقة التي أطلق عليها فيما بعد اسم «حديقة ريزال». ويولي أندرسن رواية ريزال لا تلمسني (Noli Me Tangere) أهمية كبيرة، كما سنرى.

Otto Bauer: «Die Nationalitätenfrage und die Sozialdemokratie (1907),» in: Werkausgabe (*)

(Vienna: Europaverlag, 1975), vol. I, pp. 49-602.

(**) أوسكار ياسي (1875 - 1956) (Oszkár Jászi)، عالم اجتماع ومؤرخ وسياسي هنغاري.

من أبرز كتبه انحلال ملكية هابسبورغ.

يحاول «الملحقان» تصويب عيبين نظريين خطيرين في الطبعة الأولى⁽²⁾. أشار عدد من النقاد الأصدقاء إلى أن الفصل السابع («الموجة الأخيرة») يُفرط في تبسيط السيرورة التي صيغت من خلالها قوميات «العالم الثالث». وأنه، علاوة على ذلك، لم يتطرق على نحوٍ جدي إلى دور الدولة الكولونيالية المحلية في تشكّل هذه القوميات، مكتفياً بدور الحاضرة أو المتروبول. وأدركتُ، في هذه الأثناء، أن ما رأيتُ فيه مساهمةً جديدة ومهمة في التفكير في شأن القومية - ألا هو تغيّر فهم الزمن - كان مُفْتَقِدًا على نحو واضح نظيره الضروري: تغيّر فهم المكان. ودفعني أطروحة دكتوراه ألمعية قدّمتها ثونغشاي وينيشاكول، المؤرّخ التايلندي الشاب، إلى التفكير فيما قدّمه رسم الخرائط والمصوِّرات الجغرافية من مساهمة في تشكيل الخيال القومي.

هكذا، يعمد الفصل العاشر الذي يحمل عنوان «التعداد والخريطة والمتحف» إلى تحليل الطريقة الديالكتيكية وغير الواعية التي ولّدت فيها الدولة الكولونيالية في القرن التاسع عشر (والسياسات التي شجّعها جهازها الفكري) قواعد، أو نحو، القوميات التي نهضت في النهاية لمقارعة تلك الدولة. بل إنَّ بمقدور المرء أن يبلغ حدَّ القول إن تلك الدولة تخيلت خصومها المحليين، كما في حلم نبؤيٍّ مشؤوم، قبل أن يبرزوا إلى حيّز الوجود التاريخي بوقت طويل. وسأهم في تشكيل هذا التخيل ما ينطوي عليه التعداد من تكميم مجرّد للأشخاص أو سلسلة لهم، وما تمثله الخارطة من تحويل الفضاء السياسي إلى لوغو^(*) نهائيّ، وما يشير إليه المتحف من نسبٍ «مسكونيّ» مدنّس، وكانت تلك المساهمة من الترابط والتداخل بمكان.

يرجع «الملحق» الثاني في أصله إلى معرفتي المُدَلَّة أنني استشهدتُ برينان في عام 1983 من دون أن أفهم قطّ ما كان قد صدر عنه بالفعل: حيث اعتبرتُ ما كان غريبًا تمامًا في الحقيقة مجرّد شيءٍ منطويٍّ على مفارقة مضحكة. ودفعني الإذلال أيضًا إلى تبين أنني لم أقدم أيّ تفسيرٍ معقولٍ للكيفية التي

(2) أصل الملحق الأول ورقة بحثية أُعدّت لمؤتمر عُقد في كراتشي في كانون الثاني/يناير 1989، ورعاه المعهد العالمي لأبحاث اقتصاديات التنمية في جامعة الأمم المتحدة. أمّا الثاني فنُشِرَت تخطيطاته الأولية في ملحق التاييمز الأدبي في 13 حزيران/يونيو 1986، تحت عنوان «سرد الأمة». (*) رمز أو شعار.

تتخيل بها الأمم البازغة حديثاً أنها أممٌ قديمة أو الأسباب التي تدفعها إلى ذلك. ذلك أن ما تعتبره معظم الكتابات العلمية هراءً مكيفلياً، أو تهويماً برجوازيّاً، أو حقيقةً تاريخيةً ميتةً نُبِشت من القبر، بات يسترعي اهتمامي الآن بوصفه أشدّ عمقاً من ذلك وأكثر أهمية. ماذا لو كان «القدم»، في ظَرْفِ تاريخي معين، تلك العاقبة الضرورية لـ«الجِدَّة»؟ وإذا ما كانت القومية، كما أفترض، تعبيراً عن شكل من الوعي متغيّر ذلك التغيّر الجذري، أفلا يجب لإدراك تلك القطيعة، وللنسيان الضروري للوعي القديم، أن يخلقا سردهما الخاص؟ من هذا المنظور يبدو تهويم العودة إلى الأسلاف والأصول الذي يميّز معظم الفكر القومي بعد عشرينيات القرن التاسع عشر ظاهرةً ثانويةً مرافقةً؛ والمهمّ حقاً هو تلك المحاذاة البنيوية بين «الذاكرة» القومية ما بعد عشرينيات القرن التاسع عشر ومنطلقات السيرة والسيرة الذاتية الحديثتين وأعرافهما الضمنية.

بصرف النظر عن الفضائل أو العيوب التي قد يثبت «الملحقان» أنهما يشتملان عليها، فإن لكل منهما حدوده الخاصة. فمعطيات «التعداد والخريطة المتحف»، مُستمدّة كلها من جنوب شرق آسيا. وهذه المنطقة تتيح من بعض النواحي فرصاً مذهشةً أمام التنظير المقارن حيث تضمُّ أنحاء كانت قد استعمرتها في السابق القوى الإمبريالية العظمى كلها تقريباً (إنكلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال وإسبانيا والولايات المتحدة) كما تضمُّ سيام التي لم تُستعمر. ومع ذلك، يبقى أن نرى إن كان تحليلي يصحّ على بقية العالم، حتى لو كان مقبولا بالنسبة إلى هذه المنطقة. وما نجده في الملحق الثاني من مادة عملية تجريبية ضئيلة إنما يرتبط بأوروبا الغربية والعالم الجديد بصورة تكاد تكون حصرية، وهما منطقتان تُعدُّ معرفتي بهما تلك المعرفة السطحية تماماً. غير أن التركيز كان يجب أن يمضي في تلك الواجهة لأن أولى ضروب النسيان القومية كانت قد ظهرت في هاتين المنطقتين.

بندكت أندرسن

شباط/فبراير 1991

مدخل

ثمّة تحوّل جوهريّ يعتري تاريخ الماركسية والحركات الماركسية، ربما من دون أن يُلحَظ بعد كما يجب. أبرز علامات هذا التحوّل هي الحروب الحالية بين فيتنام وكمبوديا والصين. وهي حروب لها أهميتها التاريخية العالمية لأنّها الأولى التي تنشب بين أنظمة لا يمكن إنكار استقلالها ورصيدها الثوري، ولأنّ أحداً من المتحاربين لم يَقمْ بعدُ بأكثر من محاولات فاترة في تبرير هذه المذبحة من منظور نظريّ ماركسيّ جديرٍ بالتقدير. وبينما كان لا يزال من الممكن تفسير النزاعات الحدودية الصينية السوفياتية (1969)، والتدخلات العسكرية السوفياتية في ألمانيا (1953)، وهنغاريا (1956)، وتشيكوسلوفاكيا (1968)، وأفغانستان (1980) بأنّها «إمبريالية اشتراكية»، أو «دفاع عن الاشتراكية»... إلخ - بحسب ذائقة المُفسّر - فإنّ أحداً لا يُصدّق، كما أتصوّر، أنّ لمثل هذه المفردات كبيرَ صلةٍ بما حدث في الهند الصينية.

إذا ما كان الغزو الفيتنامي لكمبوديا واحتلالها في كانون الأول/ ديسمبر 1978 وكانون الثاني/ يناير 1979 قد مثّل أول حرب تقليدية واسعة النطاق يشنّها نظام ماركسي ثوري على نظام ماركسي ثوري آخر⁽¹⁾، فإنّ هجوم

(1) اخترت هذه الصياغة كي أشدّد على اتساع نطاق هذا الصراع والطريقة التي خيض بها، لا كي أنحو باللائمة على جهة معينة. ويجب القول، إذا ما أردنا أن نتفادى سوء الفهم الممكن، إنّ غزو عام 1978 تطوّر من صدامات مسلحة بين مقاتلي الحركتين الثورتين ربما تعود إلى عام 1971. وبعد نيسان/ أبريل 1977، تزايدت تلك الغارات الحدودية التي بدأها الكمبوديون ولم يلبث أن تبعهم فيها الفيتناميون، في حجمها ونطاقها إلى أن بلغت ذروتها في الغارة الفيتنامية الكبرى في كانون الأول/ ديسمبر 1977. غير أنّ أيّاً من هذه الغارات لم يكن يهدف إلى الإطاحة بنظام العدو أو احتلال مناطق =

الصين على فيتنام في شباط/ فبارير سرعان ما عزز تلك السابقة. ولا أحسب أن أحداً، سوى الشخص مفرط الثقة، يجرؤ على المراهنة أن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وجمهورية الصين الشعبية - دع عنك الدول الاشتراكية الأصغر - سوف يساندان الطرف ذاته، أو يقاتلان إلى جانبه إذا ما اندلع أي عمل عدائي خطير بين الدول في الأعوام الأخيرة الباقية من هذا القرن. ومن الذي يمكن أن يكون واثقاً بأن القتال لن ينشب يوماً بين يوغسلافيا وألبانيا؟ ويجب على تلك المجموعات المتعددة التي تسعى وراء انسحاب الجيش الأحمر من معسكراته في أوروبا الشرقية أن تتذكر كم حال حضوره الطاعني منذ عام 1945 دون نشوب نزاعات مسلحة بين الأنظمة الماركسية في تلك المنطقة.

تفيد مثل هذه الاعتبارات في التأكيد على واقعة مفادها أن كل ثورة ناجحة منذ الحرب العالمية الثانية فصاعداً عرفت ذاتها بمصطلحات قومية - جمهورية الصين الشعبية، جمهورية فيتنام الاشتراكية... وهلمجرأ - وأنها وطّدت أركانها، بذلك، في فضاء إقليمي واجتماعي موروث من الماضي قبل الثوري. بالمقابل، تشير واقعة أن الاتحاد السوفياتي يشاطر مملكة بريطانيا العظمى المتحدة وإيرلندا الشمالية تلك الميزة النادرة المتمثلة في غياب خانة الجنسية أو الانتماء القومي عن الهويات التي يمنحها إلى أنه وريث الدول الملكية السلالية ما قبل القومية التي عرفها القرن التاسع عشر بقدر ما هو طليعة نظام أممي يشهده القرن الواحد والعشرون⁽²⁾.

= واسعة، كما أن أعداد الفرق المغيرة لا يمكن مقارنتها بتلك التي حُشدت في كانون الأول/ ديسمبر 1978. ويمكن للقارئ أن يتابع الجدال العميق في شأن أسباب هذه الحرب في: Stephen p. Heder, «The Kampuchean-Vietnamese Conflict,» in: David W. p. Elliott, ed., *The Third Indochina Conflict* (Boulder: Westview Press, 1981), pp. 21-67. (Reprinted from Institute of Southeast Asian Studies, ed., *Southeast Asian Affairs* [London: Heinemann Educational Books, 1979]); Anthony Barnett, «Inter-Communist Conflicts and Vietnam,» *Bulletin of Concerned Asian Scholars*, vol. 11, no. 4 (October-December 1979), and Laura Summers, «In Matters of War and Socialism Anthony Barnett would Shame and Honour Kampuchea Too Much,» *Bulletin of Concerned Asian Scholars*, vol. 11, no. 4 (October-December 1979), pp. 10-18.

(2) على كل من يشك في مزاعم المملكة المتحدة أنها تماثل الاتحاد السوفياتي على هذا الصعيد أن يسأل نفسه عن الجنسية أو الهوية القومية التي يشير إليها اسم المملكة المتحدة: هل هي البريطانية - الإيرلندية العظمى؟

أصاب إريك هوبسباوم كبد الحقيقة بقوله: «لقد نزعت الحركات والدول الماركسية إلى أن تغدو قومية لا في الشكل وحسب بل في الجوهر أيضًا، أي إنها نزعت إلى أن تغدو قومية الفكر والمذهب. وما من شيء يشير إلى أن هذا الاتجاه لن يتواصل»⁽³⁾. لكن هذا النزوع لا يقتصر على العالم الاشتراكي. وفي كل عام تقريبًا تعترف الأمم المتحدة بأعضاء جدد. وكثير من «الأمم القديمة» التي كانت تحسب أنها متماسكة تمامًا، تجد نفسها إزاء تحدٍّ تطلقه قوميات «فرعية» داخل حدودها، قوميات تحلم بأن تخلع عنها هذه الفرعية في يوم سعيد من الأيام. والواقع واضح تمامًا: إن «نهاية عصر القومية» التي طالما جرى التبشير بها، لا تلوح في الأفق ولو من بعيد. بل إن الانتماء إلى أمة هو تلك القيمة التي تحظى بأكبر قدر من الشرعية الشاملة في حياة عصرنا السياسية.

لكن إذا كانت الوقائع واضحة، فإن تفسيرها لا يزال محل خلاف مقيم. وأثبتت الأمة والهوية القومية والقومية كلها أنها عصية على التعريف، علاوة على التحليل. وبخلاف النفوذ الهائل الذي مارسه القومية على العالم الحديث، لا يزال هزال النظريات التي تتناولها واضحًا وجليًا. وها هو هيو سيتن واتسون، مؤلف أفضل نص في شأن القومية في اللغة الإنكليزية وأشمله، ووريت تراث ضخمة من التأريخ وعلم الاجتماع الليبراليين، ها هو يلاحظ بحزن أنه يجد نفسه «منساقًا إلى استنتاج مفاده أن من غير الممكن تدبر أي تعريف علمي» للأمة؛ مع أن الظاهرة كانت موجودة ولا تزال⁽⁴⁾. أمّا توم نايرن، مؤلف كتاب تفكك بريطانيا الذي شق سبيلًا جديدًا في تناول هذا الموضوع، ووريت تراث لا يقل ضخامة من التأريخ وعلم الاجتماع الماركسيين، فيلاحظ صراحةً أن «نظرية القومية تمثل إخفاق الماركسية التاريخي الكبير»⁽⁵⁾. لكن هذا الإقرار ذاته مضمّل بعض الشيء، بقدر ما يمكن

Eric Hobsbawm, «Some Reflections on 'The Break-up of Britain',» *New Left Review*, no. 105 (3) (September-October 1977), p. 13.

Hugh Seton-Watson, *Nations and States. An Enquiry into the Origins of Nations and the Politics of Nationalism* (Boulder, Co: Westview Press, 1977), p. 5.

Tom Nairn, «The Modern Janus,» *New Left Review*, no. 94 (November-December 1975), pp. 3-29. (5)

وُضِّمَت هذه المقالة من دون تغيير في كتابه تفكك بريطانيا، *The Break-up of Britain*، حيث باتت تشكّل الفصل التاسع منه (ص 329 - 363). Tom Nairn, *The Break-up of Britain* (London: New Left Books, 1977).

أن يُؤخذ كإشارة إلى الحصيلة المؤسفة التي أسفر عنها بحثٌ طويلٌ وواعٌ عن الوضوح النظري. وكان من الأدق القول إن القومية مثلت بالنسبة إلى النظرية الماركسية خروجًا على القياس مزعجًا، وهذا على وجه التحديد ما دفع إلى تجاهلها بدلًا من مواجهتها. وإلا كيف لنا أن نفسر إخفاق ماركس في توضيح ذلك النعت الحاسم الذي ورد في صياغته اللافتة في عام 1848: «وبالطبع، فإنَّ على البروليتاريا في كلِّ بلد أن تحسم الأمور مع برجوازياتها الخاصة أولاً»⁽⁶⁾؟ وكيف لنا أن نفسر استخدام مفهوم «البرجوازية القومية» طوال أكثر من قرن من دون القيام بأيِّ محاولة نظرية جدية في تبرير أهمية هذا النعت؟ وما الدلالة النظرية التي ينطوي عليها تفرُّق البرجوازية هذا، مع أنها طبقة عالمية حين تُعرَّف من حيث علاقات الإنتاج؟

ما يهدف إليه هذا الكتاب هو تقديم بعض الاقتراحات غير النهائية بغية التوصل إلى تأويل أكثر إقناعًا لما تمثله القومية من «خروج على القياس». وما أحسَّ به هو أنَّ الجهد البطليموسي الذي بذلته كلُّ من النظرية الماركسية والليبرالية في محاولة لـ «إنقاذ الظواهر»^(*) سلب العافية منهما، وأنَّ ما نحتاجه

Karl Marx and Friedrich Engels, «The Communist Manifesto», in: *Selected Works* (Moscow: (6) Foreign Languages Publishing House, 1958), vol. I, p. 45.

التشديد لي. ولا بدَّ لكلمة «بالطبع»، في أيِّ تأويلٍ نظري، أن تومض بأضواء حمراء أمام القارئ المتشفي.

(*) إنقاذ الظواهر (save the phenomena)، يشير هذا التعبير في الأصل إلى ما ارتبط بتاريخ الفلك منذ القرن الرابع ق.م وحتى كوبرنيكوس في القرن السادس عشر من وجود اتجاهين رئيسين: الأول رياضي؛ والثاني طبيعي (فيزيقي). بدأ الاتجاه الأول بفيثاغورث وتزعمه أفلاطون الذي أطلق الدعوة الشهيرة «إنقاذ الظواهر»، إلى أن وصل ذروته مع بطليموس. وتتلخص مقولة هذا الاتجاه بتمثيل الكون تمثيلًا رياضيًا، بوضع فرضيات رياضية وهندسية تفضي إلى الفهم والتنبؤ بالأحداث الظاهرة في الكون. وفرض هذا الاتجاه هيئةً للسماء رياضية بحتة، ولم يعترف بواقعية الوجود المحسوس إلا من جهة كونه وجودًا ناقصًا. وباختصار، كان إنقاذ الظواهر، بمعنى التنظير على نحو ينصف أوجه الموضوع المدروس الظاهرية كلها ولا يفرط في التبسيط، هو هدف البحث لدى هذا الاتجاه الذي يقول بإمكانية التعبير عن الحقيقة أو الوصول إليها انطلاقًا من فرضيات كثيرة مختلفة، ولا يبحث في العلل أو الأسباب ولا في الماهية، فالموجودات من الأجرام السماوية هي كلها نقاط رياضية. أما الاتجاه الثاني فتزعمه أرسطو وبلغ ذروته مع كوبرنيكوس، ويقوم على إعطاء التمثيل الرياضي معنى فيزيقيًا (طبيعيًا)، ولا يعترف بشيء خارج الواقع المحسوس. وهو تجريبي للغاية يبحث في العلل والأسباب الكامنة وراء وجود الموجودات وماهية الموجودات، ولا يقبل فكرة الحقيقة اللازمة عن فروض كثيرة مختلفة.

بصورة ماسّة هو تغيير المنظور بنوع من الروح الكوبرنيكية، إذا ما جاز القول. وتتمثل نقطة الافتراق لديّ في أنّ الهوية القومية - أو الانتماء إلى أمة، كما قد يُفَضَّل القول نظرًا إلى تعدّد دلالات التعبير الأول - وكذلك القومية، هي نتاجات ثقافية من نوع محدّد. وكى نفهمها كما يجب نحتاج إلى أن نُمعّن النظر في كيفية بروزها إلى حيّز الوجود التاريخي، وكيفية تغيّر معانيها بمرور الزمن، وما يجعلها تحوز اليوم ما تحوزه من شرعية وجدانية عميقة. وسوف أحاول أن أُبين أنّ خُلِقَ هذه النتاجات حوالى نهاية القرن الثامن عشر⁽⁷⁾ كان الخلاصة العفوية التي نجمت عن «تقاطع» معقّد بين قوى تاريخية متعددة؛ لكنها ما إنْ خُلِقَتْ حتى غدت «قياسيّة»، قابلة لأن تُزْدَرَع، بدرجات مختلفة من وعي الذات، في ضروبٍ من التربة الاجتماعية متباينة أشدّ التباين، ولأنّ تندمج في تشكيلاتٍ سياسية وأيديولوجية مختلفة أشدّ الاختلاف. وسوف أحاول أن أُبين أيضًا تلك الأسباب التي جعلت هذه النتاجات الثقافية المحددة تثير ما تثيره من ضروب الارتباط العاطفي العميق.

مفاهيم وتعريفات

يبدو من الأفضل قبل أن نتناول الأسئلة التي سبق طرّحها أن ننظر بإيجاز في مفهوم «الأمة» ونقدّم له ذلك التعريف العملي القابل للاستخدام. والحال، أن منظري القومية كثيرًا ما ارتبكوا، كي لا نقول اغتاظوا، أمام المتناقضات الثلاث التالية:

- الحداثة الموضوعية التي تبدو عليها الأمم في عين المؤرّخ مقابل القِدَم الذاتي الذي تبدو عليه في أعين القوميين.

(7) تلاحظ آيرا كيميلانين أنّ هانز كوهن وكارلتون هايس، «الأبوان المؤسّسان» التوأمان للبحث الأكاديمي في شأن القومية، دافعا عن هذا التحديد التاريخي دفاعًا مقنعًا. واعتقادي أنّ النتائج التي توصلوا إليها لم تكن محلّ خلافٍ جدّي إلا لدى أيديولوجيين قوميين في بلدان محددة. وتلاحظ كيميلانين أيضًا أنّ كلمة «القومية» لم تُستخدَم على نطاق واسع وعام قبل نهاية القرن التاسع عشر، حيث لا ترد، مثلاً، في كثير من معاجم القرن التاسع عشر المُعتمَدة. وإذا ما كان آدم سميث قد استحضرها مع ثروة الأمم، فإنّه لم يَعرِّن بهذا المصطلح سوى «المجتمعات» أو «الدول». انظر: Aira Kemilainen, *Nationalism: Problems Concerning the Word, the Concept and Classification* (Jyväskylä: Kustantajat, 1964), pp. 10, 33 and 48-49.

- الكونية الشكلية التي تتسم بها الهوية القومية باعتبارها مفهومًا اجتماعيًا ثقافيًا - حيث يُمكن لكلِّ أحد في العالم الحديث أن تكون «له» هوية قومية، ولا بدّ من أن تكون له مثل هذه الهوية، مثلما أنّ «له» أو «لها» نوعًا جنسيًا - مقابل الخصوصية العضال التي تتسم بها تجلياتها الملموسة، حيث تبدو الهوية القومية «اليونانية»، بالتعريف، فريدة وفدّة.

- القدرة «السياسية» التي تتمتع بها القوميات مقابل فقرها الفلسفي، بل وعدم تماسكها. بعبارة أخرى، فإنّ القومية، بخلاف معظم الكلمات التي تشير إلى اتجاهات فكرية، لم تُنتج قطّ مفكرٍها الكبار: ليس لديها أمثال هوبز، أو توكفيل، أو ماركس، أو فيبر. ويسهل أن يفضي مثل هذا «الفراغ» إلى نوع من الشعور بالتفوّق بين المثقفين الكوزموبوليتانيين^(*) ومتعددي اللغات. وقد يسارع المرء إلى استنتاج أنّه «لا يجد أيّ هناك هناك»^(**)، كما قالت غرتروود شتاين عن أوكلاند. وإنّه لمن اللافت أن يكتب دارس للقومية مثل توم نايرن، متعاطفًا أشدّ التعاطف معها، أنّ «القومية» هي مرض التاريخ التطوري الحديث، فلا مفرّ منها شأنها شأن «العصاب» لدى الفرد، إذ يكتنفها إلى حدّ بعيد الإبهام الجوهرى ذاته، وتتمتع بالقدرة الأساس ذاتها على التدهور والتحول إلى نوع من العُته الذي يضرب بجذوره في معضلات الضعف والعجز المنتشرة في معظم أرجاء العالم (مكافئ الطفالة^(***) بالنسبة إلى المجتمعات) والتي لا دواء لها بوجه عام⁽⁸⁾.

(*) الكوزموبوليتانية، Cosmopolitanism، إيديولوجيا ترى أنّ المجموعات الإثنية البشرية جميعها تنتمي إلى جماعة واحدة قائمة على أخلاق مشتركة. وقد تقتضي الكوزموبوليتانية نوعًا من الحكومة العالمية أو تقتصر على الإشارة إلى علاقات أخلاقية و/أو اقتصادية، و/أو سياسية جامعة بين الأمم أو الأفراد من أمم مختلفة.

(**) عاشت الكاتبة الأميركية غرتروود شتاين قسطًا من طفولتها في أوكلاند، في كاليفورنيا، وحين مات أبوها، تركت أوكلاند لتعيش في مكان آخر عند أهل أمها، ثم في فرنسا كما هو معروف. وحين زارت أوكلاند بعد فترة طويلة قالت جملتها الشهيرة: «مشكلة أوكلاند أنك حين تذهب إلى هناك لا تجد أيّ هناك هناك».

(***) الطفالة، Infantilism، حالة من احتجاز التطور لدى البالغ، تتسم باستبقائه الذهنية الطفلية، ويكون ذلك مصحوبًا بنمو مشوّه وغياب النضج الجنسي، وبالقزامة غالبًا.

Nairn, *The Break-up of Britain*, p. 359.

(8)

يتمثل جزء من الصعوبة في أنَّ المرء يميل بصورة غير واعية إلى تشخيص وجود القومية فيعاملها معاملة الاسم العلم (كما يمكن أن يتعامل مع العصر) ثم يميل إلى أن يصنّف «ها» باعتبارها واحدة من الأيديولوجيات (لاحظوا أنَّه في حين أنَّ لكلِّ امرئٍ عصرًا، فإنَّ العصر كاسم علم هو مجرد تعبير تحليلي). وإنه لمما يجعل الأمور أسهل، في اعتقادي، أن نتعامل مع القومية على أنَّها من قبيل «القرابة» و«الدين»، لا «الليبرالية» أو «الفاشية».

إليكم، إذًا، هذا التعريف للأمة، الذي أقترحه بروح أنثروبولوجية: الأمة هي جماعة سياسية مُتَخَيَّلَة، حيث يشمل التخيل أنها محدّدة وسيّدة أصلاً.

هي متخيّلة لأنَّ أفراد أيِّ أمة، بما فيها أصغر الأمم، لن يمكنهم قطَّ أن يعرفوا معظم نظرائهم، أو أن يلتقوهم، أو حتى أن يسمعوهم، مع أنَّ صورة تشارِكهم تعيش حيّة في ذهن كلِّ واحد منهم⁽⁹⁾. وكان رينان قد أشار إلى هذا التخيل بطريقته المبطنّة المنمّقة حين قال: «والحال، إنَّ جوهر الأمة يتمثل في وجود كثير من الأشياء المشتركة بين سائر أفرادها، وفي أنَّ سائر هؤلاء قد نسوا أشياء عديدة»^(*). ويقدم غلنر، بشيء من الحدة، ما يمكن مقارنته بما يقدمه رينان، حيث يقرّر أنَّ «القومية ليست يقظة الأمم على وعي ذاتها: إنَّها تخترع الأمم حيث لا وجود لها»⁽¹⁰⁾. غير أنَّ العيب في هذا الصوغ يتمثل فيما يبيده غلنر من تلهّف شديد لأن يبيّن أنَّ القومية تتخفى وراء مزاعم زائفة مما

(9) Seton-Watson, p. 5: «كلُّ ما يمكن أن أتوافر على قوله هو أنَّ الأمة توجد حين يعتبر عدد كبير من البشر في جماعةٍ ما أنَّهم يشكّلون أمة، أو يسلكون كما لو أنَّهم قد شكّلوها». ويمكن أن نضع كلمة «يتخيّل» بدلًا من كلمة «يعتبر».

«Or, l'essence d'un nation est que tous les individus aient beaucoup de choses en commun, et aussi que tous aient oublié bien des choses».

Ernest Renan, «Qu'est-ce qu'une nation?» dans: Oeuvres Complètes (Paris: Calmann-Lévy, (*) 1947-1961), p. 892.

وهو يضيف: «tout citoyen français doit avoir oublié la Saint-Barthélemy les massacres du Midi au XIII-e siècle. Il n'y a pas en France dix Familles qui pussent fournir la preuve d'une origine Franque...». «لا بدَّ لكلِّ مواطن فرنسي من أن يكون قد نسي سانت بارتليمي، ومذابح ميدي في القرن الثالث عشر. لا يوجد في فرنسا عشر عائلات تستطيع أن تقدّم حجة دامغة على أصلها الإفرنجي...».

(10) التشديد لي. انظر: Ernest Gellner, *Thought and Change* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1964), p. 169.

يدفعه لأن يحوّل «الاختراع» إلى «تلفيق» و«زيف»، لا إلى «تخيّل» و«خلق». وبذلك يكون ما يعنيه أن هنالك جماعات تمتاز عن الأمم بأنّها «حقيقية» إذ تُقارَن معها. والحال، أن الجماعات التي تفوق في حجمها حجم أبسط القرى القائمة على التماس والاتصال المباشرين (وربما هذه القرى أيضًا) هي جماعات متخيّلة. والتمييز بين الجماعات ينبغي ألا يكون تبعًا لزيّفها/أصالتها، بل تبعًا للأسلوب الذي يجري تخيلها به. ولطالما أدرك قرويو جاوة أنهم مرتبطون بأناسٍ لم تسبق لهم رؤيتهم، لكن هذه الروابط كان قد تمّ تخيلها ذات مرّة على نحوٍ معيّن وخاصّ؛ بوصفها شبكات قرابة وتبعية قابلة للامتداد إلى ما لا نهاية. ولم يكن في اللغة الجاوية، حتى فترة قريبة تمامًا، أيّ كلمة تدلّ على التجريد الذي تشير إليه كلمة «مجتمع». وقد ننظر اليوم إلى الأرستقراطية الفرنسية أيام النظام القديم على أنّها طبقة؛ لكنّه من المؤكّد أنّه لم يجرّ تخيلها على هذا النحو إلّا في فترة متأخرة كثيرًا⁽¹¹⁾. والسؤال «من هو كونت المنطقة س؟» لم يكن جوابه المعتاد «أحد أفراد الأرستقراطية»، بل «لورد المنطقة س»، أو «عم بارون المنطقة ع»، أو «تابع دوق المنطقة ص».

يجري تخيّل الأمة على أنّها محدّدة لأنّ لجميع الأمم، بمن فيها أكبرها التي قد تضمّ مليار نسمة، حدودها النهائية التي تقع خلفها الأمم الأخرى، وإن كانت حدودًا مرنة. ما من أمة تتخيّل أن حدودها هي حدود البشرية جمعاء. بل إنّ أعتى القوميين المسيانيين <الخلاصيين> لا يحلمون بيوم ينضمّ فيه أفراد الجنس البشري جميعًا إلى أمّتهم على ذلك النحو الذي أمكنّ فيه للمسيحيين، مثلاً، أن يحلموا، في عهود معينة، بكوكبٍ مسيحيٍّ تمامًا.

يجري تخيّل الأمة على أنّها سيّدة لأن مفهوم الأمة وُلِدَ في عصرٍ كان يطيح فيه التنوير والثورة بشرعية الملكية السلالية التراتبية، المفروضة إلهيًا. ولما كانت الأمم قد بلغت النضج في مرحلةٍ من التاريخ البشري كان لا بدّ فيها حتى لأتقى المؤمنين بأيّ ديانةٍ كونيةٍ من أن يواجهوا ما تشتمل عليه مثل

(11) على سبيل المثال، فإنّ هوبسباوم «يعاقبها» بالقول إن تعدادها في عام 1789 كان حوالي 400000 من أصل إجمالي السكان البالغ 23000000. انظر كتابه: Eric Hobsbawm, *The Age of Revolution, 1789-1848* (New York: Mentor, 1964), p. 78.

لكن هل كان من الممكن تخيّل هذه اللوحة الإحصائية للنبالة في ظلّ النظام القديم؟

هذه الديانات من تعددية حيّة، ونظرًا إلى تعدد أشكال الارتباط بين المزايم الكيانية <الأنطولوجية> لكل عقيدة وحيّزها الإقليمي، فإنّ الأمم تحلم بأن تكون حرّة، وبأن تكون تحت الله مباشرة، إذا ما كان عليها أن تكون تحته. والدولة السيّدة هي رمز هذه الحرية ومقياسها.

أخيرًا، يجري تخيل الأمة على أنّها جماعة، لأنّ الأمة يتمّ تصوّرها على الدوام كعلاقة رفاقية أفقية عميقة مهما يكن انعدام المساواة والاستغلال الفعلين السائدين. وهذه الأخوة هي، في النهاية، ما مكّن ملايين كثيرة من البشر، خلال القرنين الماضيين، لا من أن تقتل وحسب، بل من أن تموت راضية أيضًا في سبيل هذه التخيّلات المحددة.

تضعنا هذه الميئات وجهًا لوجه أمام المشكلة المركزية التي تطرحها القومية: ما الذي يمكن التخيّلات المحدودة التي عرفها التاريخ القريب (الذي لا يكاد يتخطّى القرنين) من أن تولّد مثل هذه التضحيات الضخمة؟ ما اعتقده هو أنّ بدايات الإجابة عن هذا السؤال تكمن في الجذور الثقافية للقومية.

جذور ثقافية

ليس ثمة رموز للثقافة القومية الحديثة تفوق النُصب التذكارية وأضرحة الجنود المجهولين في لفتها الأنظار واسترعاثها الانتباه. وما تناله هذه النُصب من إجلال طقسيّ عام لا سابق له في الأزمنة القديمة⁽¹⁾ يعود، على وجه الدقة إلى كونها فارغة عن قصد أو إلى أن أحداً لا يعلم من الذي يرقد في داخلها. وليس على المرء، كي يتحسّس قوّة هذه الحداثة، سوى أن يتخيّل ردّة الفعل العامة التي يمكن أن تواجه الفضوليّ الذي «يكشف» اسم الجندي المجهول، أو يصرّ على ملء الضريح ببعض العظام. يا له من انتهاكٍ للحرّمات من ذلك النوع الغريب، المعاصر! ذلك أن هذه الأضرحة مُترّعة بالتخيّلات القومية الشبّحية على الرغم من خلوّها من أيّ بقايا فانية أو أرواح خالدة يمكن تحديدها⁽²⁾ (وهذا هو السبب في أنّنا نجد لها لدى أمم كثيرة شتّى من دون أن

(1) كان لدى اليونانيين القدماء أضرحة للجنود، لكنها كانت أضرحة أفراد محددين ومعروفين حال هذا السبب أو ذاك دون استعادة جثثهم ودفنها على النحو المعتاد. وأنا أدين بهذه المعلومة إلى زميلتي جوديت هيرين، المتخصصة بالبيزنطيات.

(2) خذوا، مثلاً، هذه التعابير المجازية اللافقة: 1 - «لم يخذلنا الطابور الرمادي الطويل قطّ. ولو خذلنا، لنهض مليون من الأشباح الذين يرتدون الزيتونيّ المُغبرّ، والخابكي البني، والأزرق والرمادي، عن صلبانهم البيض، وهم يهدرون بتلك الكلمات السحرية: الواجب، الشرف، الوطن». 2 - «لقد تشكّل تقديري [للجندي الأميركي] في ساح الوغى منذ سنوات كثيرة، كثيرة مضت، ولم يتغيّر قطّ. واعتبرته آنذاك، كما اعتبره الآن، واحداً من أنبل الأشخاص في هذا العالم؛ فهو ليس من أرقى الشخصيات العسكرية فحسب، بل من أنظفها سمعةً [كذا]... إنه ينتمي إلى التاريخ بضربه أعظم أمثلة الوطنية الظافرة [كذا]. وينتمي إلى الأجيال المقبلة بتعليمها على مبادئ الحرية والتحرر. وينتمي إلى الحاضر، إلينا، بفضائله ومنجزاته». دوغلاس ماك آرثر، «الواجب، الشرف، الوطن»، خطاب أمام الأكاديمية العسكرية الأميركية، ويست بوينت، =

تشعر بأيّ حاجة إلى تحديد جنسية شاغليها الغائبين أو هويتهم القومية. وهل يمكن أن يكونوا سوى ألمان أو أميركيين أو أرجنتينيين...؟).

يتّضح المغزى الثقافي لمثل هذه النُصب مزيدًا من الوضوح حين يحاول المرء أن يتخيّل، مثلاً، ضريحًا للماركسي المجهول أو نُصبًا تذكاريًا للبراليين الذين لقوا مصرعهم. ألنّ نشعر بالسخف والعبث الأكيد في هذه الحالة؟ ذلك أنّ الماركسية والليبرالية لا تُعنيان كثيرًا بالموت والخلود. وتشير عناية التخيّل القومي الشديدة بهما إلى ألفة متينة تربطه بالتخيّلات الدينية. ولأنّ هذه الألفة ليست بالأمر العَرَضِيّ على الإطلاق، فإنّه قد يكون من المفيد أن نبدأ بحثنا في الجذور الثقافية للقومية بالموت، بوصفه الحلقة الأخيرة في سلسلة كاملة من ضروب القضاء.

على الرغم من أنّ طريقة موت الإنسان تبدو اعتباطية في العادة، فإنّ فناءه يبقى ذلك الأمر المحتوم الذي لا مفرّ منه. وحياة البشر مترعة بمثل هذه الضروب من التضافر بين الضرورة والمصادفة. ونحن جميعًا ندرك ما يتّسم به تركيبنا الوراثي، وجنسنا، وأمد حياتنا، وقدراتنا البدنية، ولغتنا الأم، وسواها من عَرَضِيّة وحتميّة. ومن أعظم مزايا رؤية العالم الدينية التقليدية (التي يجب، بالطبع، أن نفرّق بينها وبين الدور الذي تُمارسه في إضفاء الشرعية على أنظمة السيطرة والاستغلال) أنّها عُنِيَتْ بالإنسان - في - ال - كون، وبالإنسان ككائن من جنسٍ معيّن، وبعرَضِيّة الحياة. وما استمرار البوذية، أو المسيحية، أو الإسلام ذلك الاستمرار الاستثنائي على مدى آلاف من السنين، وفي عشرات التشكيلات الاجتماعية المختلفة، سوى دليل على استجابتها المبدعة حيال ذلك العبء الثقيل من المعاناة البشرية: المرض والتشوّه والحزن والشيخوخة والموت. لماذا وُلِدْتُ ضريحًا؟ لماذا شُلّ أعزّ أصدقائي، لماذا ابنتي مُعَوّقة عقليًا؟ تحاول

= 12 أيار/ مايو 1962، وقد نُشِرَ في كتابه: Douglas MacArthur, *A Soldier Speaks. Public Papers and Speeches of General of the Army Douglas MacArthur* (New York: Praeger, 1965), pp. 354 and 357.

> تشير عبارة «الطابور الرمادي الطويل» (The Long Gray Line) إلى خريجي الأكاديمية العسكرية الأميركية الموجودة في منطقة وست بوينت، في ولاية نيويورك. وهي الأقدم بين الأكاديميات العسكرية الأميركية الخمس؛ أُسست في عام 1802. أمّا الزيتوني المغبرّ والخابكي البني والأزرق والرمادي فهي ألوان بذات القطع العسكرية الأميركية المختلفة.

الديانات أن تفسّر. أمّا أساليب التفكير التطورية/التقدمية كلها، بما فيها الماركسية، فتكمن نقطة ضعفها الكبرى في أنها لا تردّ على مثل هذه الأسئلة سوى بالصمت المتبرّم⁽³⁾. بل إنّ الفكر الديني يستجيب أيضًا، بطرائق شتى، للرجة الغامضة في الخلود، الأمر الذي يتمّ عمومًا عبر تحويل القضاء إلى نوع من الديمومة (كارما، خطيئة أصلية... إلخ). ويهتمّ، على هذا النحو، بالصلوات بين الموتى والذين لم يولدوا بعد، أي بلغز التجدد. ومنّ منّا يعيش تجربة الحَمْل بطفله ثم ولادته من دون أن يحسّ على نحوٍ ما بتضايف كلٍّ من الترابط والمصادفة والقضاء في إطارٍ من «الديمومة»؟ (مرّة أخرى، تتمثّل إحدى سيئات الفكر التطوريّ/التقدمي في ذلك العداء الهيراقليطي^(*) لأيّ فكرة عن الديمومة).

ما يدفعني إلى طرح هذه الملاحظات التي قد تكون ساذجةً هو، في المقام الأول، أنّ القرن الثامن عشر في أوروبا الغربية لم يكن فجّر عَصْرِ القومية فحسب بل كان أيضًا غسق الطرائق الدينية في التفكير. لكنّ قرن التنوير والعلمانية العقلانية هذا جلب معه ظلامه الحديث الخاص. والمعاناة التي أدّى الإيمان الديني دورًا في تكوينها لم تختفِ بانحسار هذا الإيمان. وإذا ما كان الفردوس قد تفكّك، فإنّ ذلك جعل القضاء اعتباريًا على نحوٍ لا يفوقه فيه أيّ شيء آخر. وإذا ما كان الخلاص سخفًا وتخاريف، فإنّ ذلك جعل قيام

(3) انظر: Regis Debray, «Marxism and the National Question», *New Left Review*, no. 105 (September-October 1977), pp. 25-41, p. 29.

في سياق قيامي بالعمل الميداني في إندونيسيا في ستينيات القرن العشرين، لفت انتباهي ذلك الرفض الثابت الذي أبداه كثير من المسلمين حيال أفكار داروين. وفسّرتُ هذا الرفض في البداية على أنّه عقلانية ظلامية متحجرة. لكنني رأيت في ذلك لاحقًا محاولةً صادقةً للاتّساق: ذلك أنّ مذهب التطور لا يتوافق مع تعاليم الإسلام. وما الذي نفعله بمادية علمية تتقبّل شكليًا مكتشفات الفيزياء المتعلقة بالمادة، لكنها لا تبذل سوى أقلّ الجهد في الربط بين هذه المكتشفات والصراع الطبقي، أو الثورة، أو سوى ذلك. ألا تخفي الهوة بين البروتونات والبروليتاريا تصورًا ميتافيزيقيًا عن الإنسان من دون الاعتراف بذلك؟ لكن انظر النصين المنعشين لسيبانيانو تيمبانارو، في: Sebastiano Timpanaro: *On Materialism* (London: New Left Books, 1975), and *The Freudian Slip* (London: New Left Books, 1976).

وردّ ريموند وليامز الثاقب عليه في: Raymond Williams, «Timpanaro's Materialist Challenge», *New Left Review*, no. 109 (May-June 1978), pp. 3-17.

(*) كان الفيلسوف اليوناني هيراقليطس يرى أنّ ما من واقع مستمر ودائم سوى واقع التغيّر، فالاستمرار أو الديمومة وهم أو خداع حواس.

نمط آخر من أنماط الديمومة أمرًا ضروريًا على نحو لا يفوقه فيه أي شيء آخر. وما كان مطلوبًا عندئذٍ هو تحويلُ علمانيٍّ للقضاء إلى ديمومة، والاعتباط إلى معنى. وسوف نرى أن قلة من الأشياء وحسب هي التي كانت (ولا تزال) تلائم هذه الغاية أكثر من فكرة الأمة. ذلك أنه إذا ما كانت الدول - الأمم تُعدُّ على نطاقٍ واسعٍ «جديدة» و«تاريخية»، فإن الأمم التي تعبر عنها هذه الدول - الأمم سياسيًا تبدو على الدوام من ماضٍ موغلٍ في القدم⁽⁴⁾، والأهم من ذلك أنها تبدو منزلةً إلى مستقبل لا حدَّ له. وسحر القومية هو ما يحوّل المصادفة إلى مصير. ويمكن أن نقول مع دوبريه: «أجل، إنها لمصادفة محضة أنني وُلِدْتُ فرنسيًا؛ أمّا فرنسا فخالدة على الدوام».

لا حاجة إلى القول إنني لا أزعّم أن ظهور القومية حوالى القرن الثامن عشر كان «نتيجة» لتآكل اليقينيات الدينية، أو أن هذا التآكل لا يحتاج هو ذاته إلى تفسير مركّب. كما أنني لا أشير إلى أن القومية «تُبطل» الدين تاريخيًا على نحوٍ ما. ما أقترحه هو أن القومية ينبغي ألا تُفهم عبر ربطها بالأيديولوجيات السياسية المُتبناة بوعي، بل عبر ربطها بالمنظومات الثقافية الكبرى التي سبقتها، والتي ظهرت إلى الوجود انطلاقًا منها وضدّها في آنٍ معًا.

(4) طالما تحدّث الرئيس الراحل سوكارنو بمنتهى الصدق عن الـ 350 عامًا من الاستعمار الذي رزحت تحته «إندونيسيا»، مع أن مفهوم «إندونيسيا» ذاته هو من ابتداء القرن العشرين، ومعظم إندونيسيا القائمة اليوم لم يفتحها الهولنديون إلا بين عامي 1850 و 1910، ومن أبطال إندونيسيا القوميين البارزين الأمير الجاوي ديونيجورو الذي عاش أوائل القرن التاسع عشر، مع أن مذكراته تبين أنه كان ينوي أن «يفتح جاوة»، لا أن يحررها ويطردها «الهولنديين». ومن الواضح تمامًا أنه ليس لدى هذا الأمير أي مفهوم عن «الهولنديين» كجماعة. انظر: Harry J. Benda and John A. Larkin, eds., *The World of Southeast Asia: Selected Historical Readings* (New York: Harper and Row, 1967), p. 158, and Ann Kumar, «Diponegoro (1778?-1855),» *Indonesia*, no. 13 (April 1972), p. 103.

التشديد على جاوة لي.

بالمثل، فإن كمال أتاتورك أطلق على أحد مصارف دولته اسم البنك الحثي وعلى آخر اسم البنك السومري. انظر: Hugh Seton-Watson, *Nations and States. An Enquiry into the Origins of Nations and the Politics of Nationalism* (Boulder, Co: Westview Press, 1977), p. 259.

وهذان المصرفان لا يزالان مزدهران إلى اليوم، وما من داع للشك في أن كثيرًا من الأتراك، لعل من بينهم أتاتورك نفسه، رأوا، ويرون في الحثيين والسومريين أسلافًا لهم. وقبل أن نقهقه، علينا أن نتذكّر الملك آرثر والملكة بوديكا، وأن نعمن النظر في النجاح التجاري الذي حققته الأساطير التي كتبها <جون رونالد رويل> <تولكين> ومنها ثلاثية سيد الخواتم.

سوف نتناول، في حدود الأغراض التي يتوخاها هذا الكتاب، اثنتين من المنظومات الثقافية ذات الصلة: الجماعة الدينية والمملكة السلالية.

الجماعة الدينية

قليلة هي الأشياء التي تثير العجب كما يثيره ذلك الامتداد الشاسع الذي تمتدّه أمة الإسلام من المغرب إلى أرخبيل سولو^(*)، والذي يمتدّه العالم المسيحي من الباراغوي إلى اليابان، ويمتدّه العالم البوذي من سريلانكا إلى شبه الجزيرة الكورية. تشمل الثقافات القدسيّة الكبرى (التي يمكن، لأغراضنا في هذا الكتاب، أن نضيف إليها «الكونفوشية») تصوّر جماعات هائلة. بيد أن تخيل العالم المسيحي، وأمة الإسلام، وحتى المملكة الوسطى^(**) - التي لم تكن تتخيل ذاتها على أنها صينية بل على أنها مركزية، مع أننا نحسبها اليوم صينية - كان يجري في قدير كبير منه عبر وسيط اللغة المقدسة والنص المقدس المُدوّن. خذ الإسلام مثلاً: حين يلتقي مسلم من ماجنداناو مع مسلم من البربر في مكة، من دون أن يعرف أحدهما أي شيء من لغة الآخر، ويعجز عن التواصل الشفوي معه، فإنهما يفهمان على الرغم من ذلك علامات أحدهما الآخر الكتابية، لأنّ النصوص المقدسة التي يتقاسمانها لا توجد إلّا بالعربية الفصحى. وبهذا المعنى، فإن اللغة العربية المكتوبة تعمل عمل الأحرف الصينية في خلق جماعة من خلال العلامات، لا من خلال الأصوات (هكذا تواصل لغة الرياضيات اليوم تقليداً قديماً. إذ ليس لدى الروماني أدنى فكرة عن الكلمة التي يُعبر بها التايلندي عن +، والعكس بالعكس، لكنهما يدركان كلاهما ما يعنيه هذا الرمز). وما من جماعة كلاسيكية كبرى إلّا وتصوّرت أنّها في مركز الكون، عبر وسيط لغة مقدسة مرتبطة بنظام للقوة فوق أرضي. وعلى هذا الأساس كان امتداد اللاتينية أو الباليّة أو العربيّة أو الصينية المكتوبة غير محدود، نظرياً (والواقع أنّه كلما كانت اللغة المكتوبة أكثر موثاقاً - أي كلما قلّ استخدامها في الكلام - كان ذلك أفضل: لأنّ لكلّ امرئ، من حيث المبدأ، منفذاً إلى عالم من العلامات خالصٍ ونقيّ).

(*) في جنوب غرب الفيليبين.

(**) كان أباطرة الصين في العصور القديمة يسمونها «المملكة الوسطى»، وكانوا يعنون بذلك أنها المكان الذي يدور حوله العالم ليس بالمعنى الجغرافي، بل بالمعنى الحضاري والسياسي وحتى العسكري.

غير أن لهذه الجماعات الكلاسيكية التي تترابط من خلال اللغات المقدسة خاصية تميزها عن جماعات الأمم الحديثة المُتَخَيِّلَة. ويتمثل أحد الفروق الحاسمة في ثقة الجماعات القديمة بقدسية لغاتها الفريدة، وتالياً في أفكارها المتعلقة بقبول الأعضاء. كانت النخبة الصينية <الماندارين> تنظر بعين الرضا إلى البرابرة الذين تعلّموا بعد لأي رسم العلامات الكتابية التي تستخدمها المملكة الوسطى. ذلك أن هؤلاء البرابرة يكونون قد تخطّوا منتصف الشوط على طريق استيعابهم الكامل⁽⁵⁾. وكان نصف المتحضّر يُعتبر أفضل من البربري بما لا يُقاس. ومن المؤكّد أن مثل هذا الموقف لم يكن مقتصرًا على الصينيين، ولا حكرًا على العصور القديمة. خُذْ، مثلاً، «سياسة التعامل مع البرابرة» التي صاغها الليبرالي الكولمبي بيدرو فيرمين دي فارغاس^(*) في أوائل القرن التاسع عشر: «كي نتوسّع في زراعتنا، من الضروري أُسْبَنَة هنودنا. ذلك أن بلادتهم، وغباوتهم، ولا مبالاتهم بالجهد والمساعي المعتادة تدفع المرء لأن يحسب أنّهم تحدّروا من عِرْقٍ منحطّ يزداد تدهورًا كلما ابتعد عن أصله... إنّه لمن المرغوب فيه كثيرًا أن يفنى الهنود، عبر تزاوجهم مع البيض، وإعفائهم من الخراج وسواه من الالتزامات، وتمليكهم الأرض ملكية خاصة»⁽⁶⁾.

إنّه لمن المدهش أن هذا الليبرالي لا يزال يدعو إلى «إفناء» هنوده عن طريق «إعفائهم من الخراج» و«تمليكهم الأرض ملكية خاصة»، بدلًا من القضاء عليهم بالبنادق والجراثيم على النحو الذي سرعان ما مارسه ورثته في البرازيل والأرجنتين والولايات المتحدة. ولنلاحظ أيضًا ما لدى فيرمين من تفاؤل كونيّ، إلى جانب قسوته الملطفة: فالهندي قابل للإصلاح في النهاية، بإلقاحه بنطفة بيضاء «متحضّرة»، ومنحه ملكية خاصة، مثل أيّ أحدٍ آخر (ويا لاختلاف موقف فيرمين عن تفضيل الإمبريالي الأوروبي لاحقًا الملاويين والجورخا والهوسا^(**) «الأقحاح» على «المولدين» و«أنصاف المتعلمين المحليين» و«الملّونين» وأضرابهم).

(5) من هنا ذلك الهدوء الذي قُبِلَ به أن يكون المغول والمانشو المتصيّنين أبناء السماء.
(*) بيدرو فيرمين دي فارغاس (1762 - 1810) عالم طبيعيات واقتصادي. يُعدّ عمومًا أول مشتغل بالاقتصاد السياسي في نيو غرانادا (كولومبيا الحالية).

(6) التشديد لي: John Lynch, *The Spanish-American Revolutions, 1808-1826* (New York: Norton, 1973), p. 206.

(**) الملاويون، نسبةً إلى ملاوي، الدولة الواقعة في جنوب شرق أفريقيا وكانت تعرف سابقًا باسم نياسالاند. استوطنت ملاوي لأول مرة في القرن العاشر وبقيت تحت حكم السكان الأصليين حتى =

بيد أنه إذا ما كانت اللغات المقدسة الصامته تلك الوسيلة التي تمّ عبرها تخيُّل الجماعات العالمية الكبرى في الماضي، إلا أن واقع تلك الخيالات كان يستند إلى فكرة غريبة كثيرًا على العقل الغربي المعاصر: عدم اعتبارية العلامة^(*). فالعلامات الكتابية الصينية أو اللاتينية أو العربية كانت انبعاثات من الواقع، وليست تمثيلات له مُختَلَقَةً على نحو عشوائي. ونحن نعرف ذلك الخلاف المديد في شأن اللغة التي تُلائم عامة الشعب (اللاتينية أم المحلية). وفي التقليد الإسلامي، ظلّ القرآن، حتى فترةٍ جدّ قريبة، غير قابل للترجمة الحرفيّة (لذلك لم يُترجم)، لأنّه من غير الممكن النفاذ إلى الحقّ الإلهي إلا عبر علامات العربية المكتوبة الحقّة التي لا مجال للاستعاضة عنها. ما من فكرة هنا عن عالم منفصلٍ عن اللغة أشدّ الانفصال بحيث تكون اللغات كلها علاماتٍ عليه تقف على مسافةٍ واحدة (الأمر الذي يمكن من إحلال لغةٍ محلّ أخرى). ولا تمكن الإحاطة بالواقع الكيانيّ <الأنطولوجي> إلا عبر نظام واحد ومتميّز من أنظمة التمثيل: لاتينية الكنيسة، أو عربيّة القرآن، أو صينية الامتحان، التي تُعدّ كلّ واحدةٍ منها لغةً للحقّ⁽⁷⁾. ولأنّ هذه اللغات هي لغات الحقّ، فإنها مفعمة بدافع غريبٍ على القومية، هو الدافع إلى الهداية. وما أعنيه بالهداية لا يقتصر على تقبّل عقائد دينية معينة، بل يتعدّاه إلى استيعاب خيميائي، حيث يغدو البربريّ من أبناء «المملكة الوسطى»، والريفيّ مسلمًا، والإلونغو^(**) مسيحيًا. ذلك أن طبيعة الكائن الإنساني ليّنة ومطواعة برمتها إزاء

= عام 1891 عندما أصبحت مستعمرة بريطانية واستمرت كذلك حتى عام 1964. والجورخا هم نيباليون أصحاب تاريخ طويل بالعمل في الجيوش الغربية منذ الحرب الإنكليزية النيبالية في عام 1814 وحتى اليوم. أمّا الهوسا فهم شعوب تعيش في منطقة الساحل الأفريقي وهي من أكبر المجموعات البشرية في غرب أفريقيا.

(*) يرى علم اللغة الحديث، بعد فرديناند دي سوسير خصوصًا، أنّ اللغة نظام علامات، حيث تُعرّف العلامة (sign)، بأنها ارتباط اعتباطي في جوهره بين دالّ ومدلول. والدالّ هو صورة صوتية، أما المدلول فهو مفهوم. وحين نتعلّم لغةً ما فإنّ ما نتعلّمه هو هذا القرآن الاعتباطي لصورٍ صوتية ومفاهيم من دون وجود أيّ صلة ضرورية بين الصوت والمعنى.

(7) يبدو أنّ يونانية الكنيسة لم تَرَقْ إلى المكانة التي تحتلّها لغة الحقّ. وأسباب هذا «الإخفاق» متعددة، لكن واحدًا من العوامل الأساسية كان بلا شك حقيقة أنّ اليونانية بقيت كلامًا شعبيًا حيًّا (بخلاف اللاتينية) في قَدَرٍ كبيرٍ من الإمبراطورية الشرقية. وأنا أدّين بهذا التبصّر إلى جوديت هيرين. (***) الريفيّ، نسبةً إلى جبال الريف شمال المغرب، والإلونغو شعب في وسط الفيليبين.

القداسة (قارن على هذا الأساس بين تلك الهية التي تحوزها هذه اللغات العالمية القديمة التي تُرفع أعلى بكثير من اللغات المحلية كلها، وبين الإسبرانتو أو الفولابُك^(*)، التي تقبع بينها في حالٍ من التجاهل والإهمال). وإمكانية الهداية عبر اللغة المقدسة هي في النهاية ما يمكن «إنكليزيًا» من أن يصبح بابا⁽⁸⁾، وما يُمكن «مانشو» من أن يصبح ابن السماء^(**).

غير أنه على الرغم من أن اللغات المقدسة جعلت جماعاتٍ مثل العالم المسيحي قابلةً للتخيل، إلا أن المدى الفعلي الذي وصلته هذه الجماعات والمعقولة التي تنطوي عليها لا يمكن تفسيرهما بالنص المقدس وحده: ذلك أن قراء هذا النص لم يكونوا في النهاية سوى شعابٍ متعلّمةٍ ضئيلة ترتفع فوق محيطاتٍ شاسعة من الأميين⁽⁹⁾. ويقتضي التفسير الأكمل أن نلقي نظرةً إلى العلاقة بين المتعلمين ومجتمعاتهم. فمن الخطأ أن ننظر إلى أولئك المتعلمين على أنهم نوع من التكنوقراطية اللاهوتية. وعلى الرغم من إيهام اللغات التي كانوا يكلأونها برعايتهم، فإنه لم يكن فيها أي شيء من ذلك الإيهام المقصود الذي نجده في رطانات المحامين أو الاقتصاديين، على هامش فكرة المجتمع عن الواقع. والأحرى، أن هؤلاء المتعلمين كانوا نوعًا من الخبراء، أو شريحة استراتيجية ضمن تراتبٍ كونيٍّ ذروته السماء⁽¹⁰⁾. وكانت التصورات الأساسية عن «المجموعات الاجتماعية» تصورات مركزية وتراتبية، وليست طَرفية التوجّه

(*) من المعروف أن هاتين اللغتين هما لغتان عالميتان مصطنعتان حيث تُشتق كلمات الإسبرانتو كلها من جذور مشتركة بين اللغات الأوروبية، تُكتب كما تُلفظ، وتتميز بقواعدها البسيطة النظامية؛ أما الفولابُك فتقوم على الإنكليزية.

(8) شغل نيكولاس بريكسبير منصب الحبر الأعظم بين عامي 1154 و 1159 وكان لقبه أديان الرابع. >يُعَدّ البابا أديان الرابع الإنكليزي الوحيد الذي اعتلى الكرسي البابوي<.

(**) المانشو ابن الشعب الأصلي في منشوريا. وابن السماء هو لقب الإمبراطور في الصين.

(9) يذكرنا مارك بلوخ بأن «أغلبية اللوردات وكثيرًا من البارونات الكبار» كانوا، في العصور الوسطى، «إداريين عاجزين شخصيًا عن قراءة تقرير أو فاتورة». انظر: Marc Bloch, *Feudal Society*, Translated by I. A. Manon, 2 vols. (Chicago: University of Chicago Press, 1961), vol. 1, p. 81.

(10) لا يعني هذا أن الأميين لم يكونوا يقرأون. لكن ما كانوا يقرأونه لم يكن الكلمات بل العالم المرئي. «نادرًا ما كان العالم المادي في أعين جميع أولئك القادرين على التأمل أكثر من قناع، تجري خلفه الحوادث المهمة كلها؛ إذ بدا لهم هو أيضًا لغةً قُصِدَ بها أن تعبر من خلال العلامات عن واقع أعمق». Bloch, *Feudal Society*, p. 83.

أو أفقيّة. ولا يمكننا أن نفهم تلك القوة المذهلة التي كانت البابوية تتمتع بها أيام عزّها إلا من خلال الإكليروس الممتدّ في أرجاء أوروبا ويكتب باللاتينية، وكذلك من خلال تصوّر عن العالم، تقاسمه الجميع، مفاده أن الإنتليجنسيا ثنائية اللغة بتوسّطها بين اللغة المحلية واللغة اللاتينية، إنّما تتوسّط بين الأرض والسماء (تعكس رهبة الحرمان الكنسيّ هذه النظرة إلى الكون).

بيد أنّه على الرغم من كلّ عظمة الجماعات الكبرى المُتَخَيِّلَة دينياً وقوّتها، فإنّ تماسكها غير الواعي راح يضعف باطراد بعد أواخر العصور الوسطى. ومن بين أسباب هذا التدهور أودُّ هنا أن أشدّد على اثنين وحسب يتعلّقان مباشرةً بالقداسة الفريدة التي ميّزت هذه الجماعات:

الأول، أثر عمليات استكشاف العالم غير الأوروبي التي عملت، في أوروبا بصورةٍ أساسٍ لكنها غير حصريّة، على «توسيع الأفق الثقافي والجغرافي فجأةً، وعملت تاليّاً على توسيع تصوّر البشر لأشكال الحياة الإنسانيّة الممكنة»⁽¹¹⁾. وهذا ما نجده واضحاً في كتب الرحلات الأوروبية العظيمة كلها، خُذْ هذا الوصف المتهيّب الذي يصف به ماركو بولو، المسيحي الصالح من البندقية، قبلاي خان عند نهاية القرن الثالث عشر:

«بعد أن أحرز الخان الأعظم هذا النصر المبين، عاد إلى المدينة العاصمة كانبالو في موكبٍ نصرٍ عظيم. وكان ذلك في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وظلّ مقيماً هناك خلال شهريّ شباط/فبراير وآذار/مارس اللذين كان فيهما عيد فصحنّا. ولما كان على بيّنة من أن هذا العيد هو واحد من احتفالاتنا الأساسيّة، أمر جميع المسيحيين بالمشول بين يديه، وأن يحملوا معهم كتابهم الذي يحوي أناجيل الإنجيليين الأربعة. وبعد أن أمر بتعطيره بالبخور مرّات، في مراسم احتفالية، قبله بخشوع، وأشار إلى جميع نبلائه الحاضرين أن يحذوا حذوه. وكانت هذه عادته التي جرى عليها في الأعياد المسيحية الأساسيّة كلها، كالفصح وعيد الميلاد؛ وكان يلتزم الشيء ذاته في أعياد المسلمين واليهود والوثنيين، ولما سُئِلَ عمّا

Erich Auerbach, *Mimesis. The Representation of Reality in Western Literature*, Translated (11) by Willard Trask (Garden City, N.Y.: Doubleday Anchor, 1957), p. 282.

يدفعه إلى هذا المسلك، قال: «هناك أربعة أنبياء عظام تجلّهم وتعبدهم مختلف فئات البشر. المسيحيون يعدّون يسوع المسيح إلههم؛ والمسلمون محمداً؛ واليهود موسى؛ والوثنيون سوجومباركان أبرز أصنامهم. وأنا أجُلُّ الأربعة جميعاً وأظهر لهم الاحترام، وأدعو لنجدتي أعلاهم في السماء كائنًا من كان». لكن الطريقة التي كان يتصرف بها جلّالته حيالهم تبين أنّه كان يعدّ عقيدة المسيحيين الأصديق والأحسن...»⁽¹²⁾.

اللافت في هذا المقطع ليس النسبة الدينية الرائقة لدى وارث حكم المغول العظيم (فهي تبقى نسبة دينية)، بل موقف ماركو بولو ولغته. ذلك أنه لم يخطر له قطّ أن يصف قبلاي بالمنافق أو الوثني، مع أنّه كان يكتب لمسيحيين أوروبيين مثله (ولا شكّ في أنّ ذلك يعود في جزء منه إلى أنّ قبلاي خان «يبرز كلّ ملك ظهر إلى الآن أو لا يزال يعيش في هذه الدنيا من حيث عدد الرعايا، واتساع المساحة، وحجم الإيرادات»)⁽¹³⁾. ويُمكن لنا أن نتبيّن في استخدام ماركو بولو غير الواعي «نا» الدالة على الجماعة (والتي تغدو «هم»)، وفي وصف عقيدة المسيحيين بأنها «الأصديق»، لا بأنها «صادقة» فحسب، بذور إضفاء الطابع الإقليمي على العقائد الدينية الذي يستبق لغة كثير من القوميين (أمّت «نا» هي «الأحسن»، إذا ما جرت المقايسة والمقارنة).

ويا له من تعارضٍ موحّ ذلك الذي تقدّمه افتتاحية الرسالة التي كتبها الرحّالة الفارسي «ريكا» إلى صديقه «إيبن» من باريس في عام 1712 > في كتاب مونتسكيو رسائل فارسية<:

«البابا رأس المسيحيين؛ وهو صنم قديم، يُعبّد الآن بحكم العادة. وكان في السابق يرهبه الأمراء أنفسهم، إذ كان بمقدوره أن يخلعهم بالسهولة التي يخلع بها سلاطينا العظام ملوك أرمينيا وجورجيا. لكن أحدًا لم يعد يخشاه. وهو يزعم أنّه خليفة واحد من المسيحيين

Marco Polo, *The Travels of Marco Polo*, Trans. and ed. by William Marsden (London; (12) New York: Everyman's Library, 1946), pp. 158-159.

التشديد لي. لاحظ أنّ الإنجيل لم يكن يُقرأ، وإن كان يُقبّل.

Polo, p. 152 (13).

الأوائل، يُدعى القديس بطرس، ولا شك في أنها خلافة دسمة، لأنّ لديه كنوزًا هائلة وبلدًا عظيمًا طوع بنانه»⁽¹⁴⁾.

هذه الاختلاقات المتعمّدة والمُتقنة التي قدّمها كاثوليكي من القرن الثامن عشر <مونتسكيو> إنّما تعكس الواقعية الساذجة لدى سلفه من القرن الثالث عشر <ماركو بولو>، لكن «النسبية» و«الإقليمية» باتتا الآن واعيتين تمامًا، وتحملان قصديّة سياسية. وهل نجافي المنطق إذ نرى في تحديد آية الله روح الله الخميني هوية الشيطان الأكبر - ليس كبديعة، أو حتى كشخص شيطاني (فكارتر الضئيل البليد لا يفي بهذه الحاجة)، بل كأمة - إحكامًا لهذا التقليد المتنامي، على الرغم من المفارقة التي ينطوي عليها؟

أمّا السبب الثاني فهو تدني شأن اللغة المقدّسة ذاتها على نحو تدريجي. ولاحظ بلوخ، في سياق كتابته عن أوروبا الغربية القروسطية، أنّ «اللغة اللاتينية لم تكن لغة التعليم الوحيدة فحسب، بل كانت أيضًا اللغة الوحيدة التي تُعلّم»⁽¹⁵⁾ (وكلمة «الوحيدة» الثانية هذه تبين بوضوح تام قدسية اللاتينية، فلم يكن يخطر في بال أن ثمة لغة أخرى جديرة بالتعلّم). غير أنّه سرعان ما تغيّر ذلك كلّ بحلول القرن السادس عشر. ولن نتوقّف هنا عند أسباب هذا التغيّر، فسوف نناقش لاحقًا تلك الأهمية المركزية التي اتسمت بها رأسمالية الطباعة. حسّبنا أن نتذكّر مداها وسرعتها، حيث يقدر فيفر ومارتن أنّ 77 في المئة من الكتب المطبوعة قبل عام 1500 كانت لا تزال باللاتينية (الأمر الذي يعني أيضًا أنّ 23 في المئة من الكتب كانت باللغات المحلية)⁽¹⁶⁾. وإذا ما كانت 8 إصدارات فقط، من إجمالي 88 إصدارًا في باريس في عام 1501 هي باللاتينية، فإنّ أغلبية الإصدارات كانت بالفرنسية بعد عام 1575⁽¹⁷⁾. وعلى الرغم من التراجع الموقت في تدهور اللاتينية في أثناء

Henri de Montesquieu, *Persian Letters*, Translated by C. J. Betts (Harmondsworth: (14) Penguin, 1973), p. 81.

ظهر رسائل فارسية أول مرة في عام 1721.

(15) التشديد لي. Bloch, *Feudal Society*, vol. I, p. 77.

Lucien Febvre and Henri-Jean Martin, *The Coming of the Book. The Impact of Printing, 1450-1800* (London: New Left Books, 1976). [Translation of *L'Apparition du Livre* (Paris: Albin Michel, 1958)], pp. 248-49.

Febvre and Martin, p. 321.

(17)

الإصلاح المضاد^(*)، فإنَّ هيمنتها كانت قد آلت إلى زوال. ونحن لا نتكلم هنا على شعبيتها العامة فحسب، ذلك أنَّ اللاتينية كُفَّت بعد ذلك بقليل، وبسرعة مذهلة، عن أن تكون لغة الإنتليجنسيا الأوروبية الراقية. وفي القرن السابع عشر ذاع صيت هوبز (1588 - 1678) في القارّة كلها لأنّه كتب بلغة الحقّ. أمّا شكسبير (1564 - 1616) الذي كان يكتب باللغة المحلية فلم يكن معروفًا على الضفة الأخرى من القنال⁽¹⁸⁾. ولو أنَّ الإنكليزية لم تَعُدْ، بعد مئتين من الأعوام، اللغة الإمبريالية العالمية البارزة، أمّا كان يُمكن له أن يبقى مغمورًا داخل جزيرته كما كان في الأصل؟ وفي هذه الأثناء كان معاصراه القريبان عبر القنال، ديكارت (1596 - 1650) وباسكال (1623 - 1662)، ينجزان معظم مراسلاتهما باللاتينية؛ أمّا مراسلات فولتير (1694 - 1778) كلها فكانت باللغة المحلية⁽¹⁹⁾. «بعد عام 1640، ومع انخفاض عدد الكتب المكتوبة باللاتينية، وزيادة عدد الكتب المكتوبة باللغات المحلية، كفَّ النشر عن كونه مشروعًا دوليًا [كذا]»⁽²⁰⁾. وباختصار، فإنَّ سقوط اللاتينية كان يمثل لسيرورة أكبر راحت فيها الجماعات المقدسة التي قام تماسكها على لغات مقدّسة قديمة، تتشظى وتعدد وتتمايز مكانيًا على نحوٍ متدرّج.

(*) الإصلاح المضاد (Counter-Reformation)، ويُعرف أيضًا بالإصلاح الكاثوليكي أو الإحياء الكاثوليكي هو حركة دينية استهدفت إصلاح الكنيسة الكاثوليكية ومناهضة الإصلاح البروتستانتي في آن معًا، وبدأت مع مجلس ترنت (1545 - 1636) وانتهت بنهاية حرب الثلاثين عامًا في عام 1648. وكان الإصلاح المضاد إصلاحًا شاملًا اشتمل على أربع عناصر رئيسية: إعادة تشكيل الهيكل الكنسي، النظم الدينية، الحركات الروحية، الأبعاد السياسية.

Febvre and Martin, p. 330.

(18)

Febvre and Martin, pp. 331-332.

(19)

Febvre and Martin, pp. 332-333.

(20)

الأصل الفرنسي أكثر تواضعًا وأدقّ تاريخيًا: «Tandis qu'on édite de moins en moins d'ouvrages en latin, et une proportion toujours plus grande de textes en langue nationale, le commerce du livre se morcelle en Europe». Lucien Febvre et Henri-Jean Martin, *L'Apparition du Livre* (Paris: Albin Michel, 1958), p. 356.

الملكية السلالية

ربما كان من الصعب في هذه الأيام أن يتصور المرء نفسه في عالم تبدو فيه الملكية السلالية لمعظم البشر على أنها النظام «السياسي» الوحيد الذي يمكن تخيله. ذلك أن الحكم الملكي «الجدّي» يتعارض من نواح أساسية مع التصورات الحديثة كلها عن الحياة السياسية. فالملكية تنظم كل شيء حول مركز رفيع. وتستمدّ شرعيتها من السماء، لا من السكان الذين هم رعايا في النهاية، وليسوا مواطنين. وفي حين تُبسط سيادة الدولة، في التصور الحديث، تامةً ومستويةً ومتساويةً على كل ستمتر مربع من إقليم له حدوده القانونية، فإن الحدود، في التخيّل القديم، حيث تُحدّد الدول بالمراكز، كانت نفوذة وغير متميزة، وكانت السیادات متداخلة تذوب واحدها في الأخرى على ذلك النحو الدقيق الذي لا تدركه العين⁽²¹⁾. من هنا، ويا للمفارقة، تلك السهولة التي تمكّنت بها الإمبراطوريات والممالك ما قبل الحديثة من أن تحفظ لآماد طويلة من الزمن حكمها على شعوب متغايرة العناصر أشدّ التغاير، بل ومتباعدة في الأغلب⁽²²⁾.

(21) لاحظ ذلك الانزياح في تسمية الحكام الذي يتوافق مع هذا التحوّل. فأولاد المدارس يتذكرون الملوك بأسمائهم الأولى (ما هي كنية وليم الفاتح؟)، والرؤساء بكنائهم (ما هو الاسم المسيحي لإيبرت؟). في عالم من المواطنين الذين يتمتع كل واحد منهم نظريًا بأهلية الرئاسة، تعمل ذخيرة الأسماء «المسيحية» المحدودة على جعلها غير كافية كمحددات مميزة. أمّا في أنظمة الحكم الملكية حيث يكون الحكم حكمًا لكنية واحدة، فإن الاسم الأول بالضرورة، مع أرقام، أو ألقاب، هو الذي يوفر ضروب التمييز المطلوبة.

>الاسم المسيحي، تقليديًا، هو اسم شخصي يُطلق في مناسبة العمد المسيحية، أيام كانت عمادة الأطفال المسيحية في كل مكان من العالم المسيحي في العصور الوسطى. وفي العصور الحديثة، حتى أواخر القرن العشرين، صار مصطلح «الاسم المسيحي» يُستخدم بالتبادل مع مصطلح «الاسم الأول» في البلدان المسيحية التقليدية، وكان شائعًا في الاستخدام اليومي. أمّا اليوم فبات المصطلح العلماني «الاسم الأول» هو المستخدم في الحياة اليومية، ولم يعد «الاسم المسيحي» مستخدمًا على أيّ نحوٍ أساس.

(22) يمكن أن نشير هنا بسرعة إلى أنّ نايرن محقّ تمامًا في وصفه مرسوم الاتحاد بين إنكلترا واسكتلندا 1707 بأنه «صفقة أشرف»، بمعنى أن مهندسي الاتحاد كانوا سياسيين أرستقراطيين. انظر:

Tom Nairn, *The Break-up of Britain* (London: New Left Books, 1977), pp. 136f.

غير أنه من الصعب أن نتخيّل مثل هذه الصفقة تُبرّم بين أرستقراطيي جمهوريتين. فمن المؤكد أن تصوّر مملكة متحدة كان العنصر الوسيط الحاسم الذي جعل الصفقة ممكنة.

على المرء أن يتذكّر أيضًا أنّ هذه الدول الملكية القديمة لم تكن تتوسّع عبر الحروب وحدها بل عبر سياساتٍ جنسيةٍ من نوع مختلفٍ كثيرًا عن تلك التي تُمارس اليوم. كانت الزيجات السلالية تجمع معًا، على أساس مبدأ التراتب الشاقولي العام، بين شتّى صنوف السكّان تحت ذرى جديدة. ويُعدّ آل هابسبورغ نموذجًا على هذا الصعيد. وكما يقول المثل السائر: «فليشعل الآخرون الحروب، أمّا أنت أيتها النمسا المحظوظة فتزوجي»^(*). وهذه ألقاب آخر الحكّام، في شكلٍ مختصر بعض الشيء:

«إمبراطور النمسا؛ ملك هنغاريا، وبوهيميا، ودلماتيا، وكرواتيا، وسلوفينيا، وغاليسيا، ولودوميريا، وإيريا؛ ملك القدس... إلخ؛ أرشيدوق النمسا [كذا]؛ دوق توسكاني وكراكوف العظيم؛ دوق لوترنجيا، وسالزبورغ، وستيريا، وكارينثيا، وكارنيولا، وبوكوفينا، دوق ترانسلفانيا العظيم، ومارغريف مورافيا؛ دوق سيليزيا العليا والدنيا، ومودينا، وبارما، وبياسينزا، وغواستيل، وأوشفيتز وساتور، وتيشين، وفريول، وراغوزا، وزارا؛ كونت أمير هابسبورغ وتريول، وكيبورغ، وغورتز، وغراديسكا؛ دوق ترينت وبرايزن؛ مارغريف لاوستز العليا والدنيا وفي إستيريا؛ كونت هوهنمس، وفيلدكيرش، وبريغنز، وسوننبرغ... إلخ؛ لورد تريست، وكاتارو، وأعلى الويندك مارش؛ فويفود فويفودينا، وسيرفيا العظيم... إلخ»⁽²³⁾.

هذا ما كان عليه «سجّل زيجات آل هابسبورغ، وأسلابهم، وأنهابهم التي لا تُحصى... <ذلك السجّل> الذي لم يكن يخلو من وجهٍ كوميدي معين»، كما يلاحظ ياسي بحق.

في الممالك التي كان فيها تعدد الزوجات مُحَرَّمًا دينيًا، كانت منظومات التّسرّي متعددة المستويات أساسيةً في تماسك المملكة والحفاظ على وحدتها. والحال، أنّ السلالات الملكية غالبًا ما كانت تستمدّ هيبتها، بصرف

Bella gerant alli tu Felix Austria nube!».

(*)

Oscar Jaszi, *The Dissolution of the Habsburg Monarchy* (Chicago: University of Chicago (23) Press, 1929), p. 34.

النظر عن أيّ هالة سماوية تحيط بها، مما يمكن أن ندعوه تمازج الأجناس⁽²⁴⁾. ذلك أن مثل هذه الضروب من الاختلاط كانت علامات على مكانة بالغة الرفع، ومن اللافت أن لندن لم تحكمها سلالة «إنكليزية» منذ القرن الحادي عشر (إن لم يكن قبل ذلك)؛ ومن ثمّ، ما «الجنسية» أو «الهوية القومية» التي يمكن أن ننسبها إلى آل بوربون⁽²⁵⁾؟

بيد أن الشرعية البديهيّة التي كانت تحظى بها الملكية المقدسة بدأت انهيارها البطيء في القرن السابع عشر، لأسباب لن نتوقف عندها الآن. وفي عام 1649 قُطِعَ رأس تشارلز ستيوارت في أولى ثورات العالم الحديث، وفي خمسينيات القرن السابع عشر كان وصيّ عاميّ وليس ملكًا هو الذي يحكم واحدة من أهمّ الدول الأوروبية^(*). لكن آن ستيوارت كانت لا تزال تُشفي المرضى بلمستها الملكية حتى في عصر بوب وأديسون، وهذا ما كان يفعله أيضًا آل بوربون، لويس الخامس عشر والسادس عشر، في فرنسا التنوير حتى نهاية النظام القديم⁽²⁶⁾. أما بعد عام 1789 فبات من الواجب الدفاع عن مبدأ الشرعية ذلك الدفاع الواعي والصريح، وغدت «الملكية» في سياق ذلك نموذجًا شبه معياريّ. وغدا تينو وابن السماء^(**) «أباطرة». وفي سيام البعيدة

(24) هذا واضح أشدّ الوضوح في آسيا ما قبل الحديثة. لكن المبدأ ذاته كان فاعلاً في أوروبا المسيحية أحادية الزواج. وفي عام 1910، نشر شخصٌ يُدعى أوتو فورست ما سمّاه نسب صاحب السمو الملكي الإمبراطوري السيد الأرشيدوق فرانز فرديناند الأعظم (*Ahnentafel Seiner Kaiserlichen und Königlichen Hoheit durchlauchtigsten Herrn Erzherzogs Franz Ferdinand*) وضمّنه قائمة مؤلفة من 2047 من أسلاف الأرشيدوق الذين يجب اغتيالهم في الحال. وكان من بين هؤلاء 1486 ألمانيًا و 124 فرنسيًا و 196 إيطاليًا و 89 إسبانيًا و 52 بولنديًا و 47 دانماركيًا و 20 إنكليزيًا/إنكليزية، فضلًا عن أربع جنسيات أخرى. وهذه «الوثيقة العجيبة» أوردها المصدر السابق، ص 136. ولا يسعني إلا أن أورد ردّة فعل فرانز جوزيف المدهشة على أبناء مقتل ولي عهده غريب الأطوار: «على هذا النحو استعادت قوة عظمى ذلك النظام الذي لم أتمكن لسوء الحظ من الحفاظ عليه». انظر: Jaszi, p. 125.

(25) يؤكّد غلنر ما اتسمت به السلالات من صفة أجنبية نمطية، لكنه يفسّر هذه الظاهرة تفسيرًا بالغ الضيق: تفضيل الأرستقراطيين المحليين للملك الغريب لأنه لن ينحاز إلى طرف في نزاعاتهم الداخلية. انظر: Ernest Gellner, *Thought and Change* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1964), p. 136.

(*) المقصود، بالطبع، هو أوليفر كرومويل.

(26) Marc Bloch, *Les Rois Thaumatourges* (Strasbourg: Librairie Istra, 1924), pp. 390 and 398-399.

(**) «تينو» لفظة يابانية تشير إلى الإمبراطور هناك، كما تعني عبارة «ابن السماء» إمبراطور الصين.

أرسل رامما الخامس (شولالونكورن) أبناءه وأبناء أخوته إلى بلاطات سان بطرسبورغ ولندن وبرلين كي يطلعوا على تعقيدات هذا النموذج العالمي. وفي عام 1887 سنَّ المبدأ الخاص بخلافة الابن الشرعي البكر، وبذلك جعل سيام «تتماشى مع ملكيات أوروبا» المتحضرة⁽²⁷⁾. وفي عام 1910 بوأ النظام الجديد سدة العرش لوطيًّا غريب الأطوار من المؤكَّد أنه ما كان ليحتلَّ مثل هذا الموقع في عصر سابق. لكن موافقة الملوك على اعتلائه العرش باسم رامما السادس مُهرت بحضور أمراء من بريطانيا وروسيا واليونان والسويد والدانمارك واليابان حفل تتويجه⁽²⁸⁾!

حتى عام 1914 كانت الدول الملكية السلالية لا تزال تمثل أغلبية أعضاء النظام السياسي العالمي، لكن كثيرًا من الملوك السلاليين، كما سنرى أدناه بالتفصيل، كانوا يحاولون الحصول على ختم «قومي» بعد ذلك الذبول الصامت الذي اعتري مبدأ الشرعية القديم. وفي حين كانت جيوش فريدريك الأكبر (1740 - 1786) تعجُّ بـ «الأجانب» كانت جيوش فريدريك فيلهلم الثالث (1797 - 1840) «بروسية - قومية» على وجه الحصر⁽²⁹⁾، نتيجة الإصلاحات المشهودة التي أجراها كلٌّ من شارنهورست وغنيسينو وكلاوسفيتز.

إدراك الزمن

إنَّه لمن قَصَرَ النظر، على أيِّ حال، أن نحسب أن أمر جماعات الأمم المُتَخَيِّلَة لا يتعدَّى خروجها من أحشاء الجماعات الدينية والملكيات السلالية

Battye, Noel A. «The Military, Government and Society in Siam, 1868-1910. Politics and Military Reform in the Reign of King Chulalongkorn.» Phd. Thesis, Cornell University, 1974, p. 270.

Stephen Greene, «Thai Government and Administration in the Reign of Rama VI (1910-1925),» Phd. Thesis, University of London, 1971, p. 92.

(29) كان أكثر من 1000 ضابط من الجيش البروسي البالغ تعدادهم 7000 - 8000 ضابط في عام 1806 من الأجانب. «لقد فاق عدد الأجانب عدد البروسيين من الطبقة الوسطى في جيشهم ذاته؛ وهذا ما يضيف مسحة من الصديق على القول إنَّ بروسيا لم تكن دولة لها جيش، بل جيش له دولة». وفي عام 1798 طالب الإصلاحيون البروسيون بـ «تخفيض عدد الأجانب إلى النصف، وكان هؤلاء لا يزالون يشكلون 50 في المئة من العساكر الأنفار...». انظر: Alfred Vagts, *A History of Militarism, Civilian and Military*, Rev. ed. (New York: The Free Press, 1959), pp. 64 and 85.

وحلولها محلّها. ذلك أنّ انهيار الجماعات واللغات والسلالات المقدّسة كان يخفي تحته ما كان يعتري طرائق إدراك العالم من تغيّر جوهريّ عمليّ، أكثر من أيّ شيء آخر، على جعل «التفكير» في الأمة أمرًا ممكنًا.

من المفيد، كي نأخذ فكرةً عن هذا التغيّر، أن نلتفت إلى ما للجماعات المقدّسة من تمثيلات بصرية، مثل النقوش الجدارية والنوافذ الزجاجية الملوّنة في كنائس العصور الوسطى، أو رسومات الفنانين الإيطاليين والفلمنك الكبار الأوائل. إذ كان من بين السمات المميزة لهذه التمثيلات شيءٌ يشبه فكرة «اللباس الحديث» (*) ذلك الشبه المضللّ. هكذا، نلاحظ أنّ للرعاة الذين تبعوا النجم إلى المِزود حيث وُلِدَ المسيح ملامح فلاحين من بورغندي. وتبدو مريم العذراء مثل ابنة تاجر من توسكانيا. ويظهر القديس الشفيع في كثير من اللوحات بكامل زيّ البرجوازي أو النبيل، راکعًا في خشوع إلى جانب الرعاة. وما يبدو لنا اليوم غريبًا ومتنافرًا كان يبدو طبيعيًا تمامًا في نظر المؤمنين في العصور الوسطى. إنّنا إزاء عالم كان فيه تصويرُ الواقع المُتخيّل تصويرًا بصريًا وسمعيًا على نحوٍ طاغ. واتّخذ العالم المسيحي شكله الكوني من خلال آلاف التفاصيل المميّزة والدقائق المحدّدة: هذا النقش، تلك النافذة، هذه العظة، تلك الحكاية، هذه المسرحية الأخلاقية، ذاك الأثر. وفي حين كان الإكليروس الذين يعرفون اللاتينية والمنتشرون في أرجاء أوروبا عنصرًا أساسيًا في بناء الخيال المسيحي، فإنّ إيصال تصوّراتهم إلى الجماهير الأمّية، عن طريق الإبداعات البصرية والسمعية، الشخصية والمحدّدة على الدوام، لم يكن يقلّ حيويةً. وكان قسّ الأبرشية المتواضع الذي يعرف أصله ونقاط ضعفه كل من يصغون إلى عِظاته، لا يزال الوسيط المباشر بين أبناء أبرشيته والسماء. وهذا التجاور بين الكونيّ الشامل والديويّ المحدّد كان يعني أنّه مهما بلغ العالم المسيحي في اتّساعه، ومهما كان الإحساس بذلك، فإنّه يتجلّى للجماعة الشوابية أو الجماعة الأندلسية (**) على نحوٍ مختلفٍ كما لو أنه تكرر لكل

(*) اللباس الحديث (Modern Dress) في هذا السياق مصطلح يُستخدم في المسرح والسينما ليشير إلى تقديم مسرحيات من الماضي على نحوٍ يتمّ فيه تحديث الخلفيّة التي تجري فيها الحوادث كما لو أنها الوقت الراهن أو وقت قريب على الأقل، مع ترك النص من دون تغيير إلى هذا الحدّ أو ذاك.

(**) الشوابية نسبةً إلى شوابيا أو شفابيا أو شفابن (بالألمانية: schwaben أو schwabenland) منطقة تاريخية ولغوية ألمانية، يقع الجزء الأكبر منها اليوم في ولاية بادن - فورتمبيرغ، وكذلك منطقة شوابيا =

منهما. وما كان ليخطر في بال أن تُصوّر مريم العذراء بملامح «سامية» أو بأزياء «القرن الأول» بروح الاستعادة التي نجدها في المتاحف الحديثة لأنّ العقل المسيحي القروسطي ما كان ليتصوّر التاريخ على أنّه سلسلة لانهائية من الأسباب والنتائج أو من الانقطاعات بين الماضي والحاضر⁽³⁰⁾. ويلاحظ بلوخ أنّه كان ثمة اعتقاد شائع وراسخ بأنّ نهاية الزمن وشيكة، بمعنى أنّ قيامة المسيح الثانية يمكن أن تحصل في أيّ لحظة: وسبق لبولس الرسول أن قال: إنّ «يوم الربّ كلصّ في الليل هكذا يجيء». لذلك كان من الطبيعي ألا يكفّ الأسقف أوتو الفريزنجي^(*)، المؤرّخ العظيم من القرن الثاني عشر، عن القول: «نحن الذين وقعنا عند آخر الزمان». ويستنتج بلوخ أنه حين كان القروسطيون «يستغرقون في التأمل، ما من شيء كان أبعد عن تفكيرهم من تصوّر مستقبلٍ مديدٍ يعيشه جنسٌ بشريٌّ فتيّ معافى»⁽³¹⁾.

يرسم أورباخ لهذا الشكل من الوعي صورةً عامةً لا تُنسى:

«حين تُؤوّل حادثة مثل التضحية بإسحق على أنّها تصوير مسبق للتضحية بالمسيح، بحيث تكون الأولى كأنها تُعلِنُ عن الأخيرة وتعدُّ بها وتكون الأخيرة كأنها «تَحَقُّقُ» الأولى... فإنّ صلةً تُقام عندئذٍ بين حدثين ليسا مترابطين في الزمان أو العلة؛ صلةٌ يستحيل

= الإدارية في ولاية بافاريا. كانت في العصور الوسطى تشمل أيضًا بادن وفورارلبيرغ وإمارة ليشتنشتاين الحالية وسويسرا الناطقة بالألمانية حاليًا والألزاس (التابعة الآن لفرنسا). أمّا الأندلسية فنسبةً إلى الأندلس (بالإسبانية: Andalucía) في جنوب إسبانيا، وتتألف الآن من سبعة عشر منطقة من مناطق الحكم الذاتي في إسبانيا. عاصمتها مدينة إشبيلية، والمنطقة مقسمة إلى ثماني مقاطعات: ولبة، إشبيلية، المرية، قرطبة، مالقة، خاين، غرناطة وقادس. ثقافة الأندلس هي الثقافة التي تأثرت جذورها بمختلف الشعوب التي تركت بصمتها على مر العصور، خصوصًا الثقافة العربية الإسلامية. كما ساهم التاريخ والعوامل الجغرافية أيضًا بشكل كبير في تشكيل الثقافة الحالية. يتحدث الأندلسيون الإسبانية القشتالية بلهجة مميزة، وهي اللهجة ذاتها المستعملة في الأمريكتين اليوم نظرًا إلى أن حملات الاستكشاف انطلقت من إشبيلية.

(30) بالنسبة إلينا، فكرة «اللباس الحديث» التي تكافئ الماضي استعاريًا مع الحاضر، هي إقرار مُبطن بانفصالهما القاتل.

(*) أوتو الفريزنجي (Otto of Freising) (1114 - 1158)، من رجالات الكنيسة الألمان، كان أسقف فريزنج، فضلًا عن كونه مؤرّخًا.

أن يقيمها العقل في البُعد الأفقي... ولا يُمكن أن تُقام إلا إذا رُبطَ الحادثان شاقولياً بالعناية الإلهية التي يُمكن لها وحدها أن تبتدع مثل هذا التخطيط التاريخي وتوفّر المفتاح لفهمه... ويكفُّ «الآن والهُنا» عن أن يكون مجرد حلقة في سلسلة أحداثٍ أرضية، ويغدو في آنٍ معاً ذلك الشيء الذي طالما كان موجوداً، والذي سوف يتحقق في المستقبل؛ فهو في عينيّ الربّ شيءٌ أبديّ، شيءٌ كليّ الزمن، شيءٌ مكتملٌ أصلاً في نطاق الحدث الأرضي الناقص»⁽³²⁾.

يشدّد أورباخ بحقّ على أنّ مثل هذه الفكرة عن التآين أو التزامن غريبة تماماً عن فكرتنا، ذلك أنّها تنظر إلى الزمن باعتباره شيئاً قريباً مما يدعوه بنيامين بالزمن المسياني <الخلاصي>، تزامن الماضي والمستقبل في حاضرٍ فوريٍّ مباشر⁽³³⁾. وفي مثل هذه النظرة إلى الأمور لا يمكن أن يكون لعبارة «في الوقت ذاته» أيّ دلالة فعلية.

ظُلّ تصورنا للزمان قيد التكوين زمناً طويلاً، ولا شكّ في أنّ ظهوره يرتبط بتطور العلوم العلمانية ذلك الارتباط الذي يجب أن يُدرّس جيداً. لكنه تصوّر ذو أهمية جوهرية، وإذا لم نأخذه بكامل الاعتبار فسوف نجد صعوبةً في سبرِ غوامضِ نشوء القومية. وما جاء ليحلّ محلّ التصوّر القروسطيّ عن التزامن - على طول - الزمن هو بحسب تعبير بنيامين أيضاً، فكرةُ «الزمن المتجانس الفارغ»، الذي يكون فيه التزامن مُستعرّضاً، إذا جاز القول، وعبرَ الزمن، وموسوماً لا بالتصور المسبق والتحقّق، بل بالتوافق الموقّت، ويُقاس بالساعة والروزنامة⁽³⁴⁾.

أمّا ما يجعل هذا التحوّل بالغ الأهمية بالنسبة إلى ولادة جماعة الأمة المُتخيّلة فيمكن أن نراه على أفضل وجه عندما ننظر في البنية الأساس لاثنين

Auerbach, p. 64.

(32)

قارن وصف القديس أغسطين لـ العهد القديم بأنّه «ظُلّ المستقبل»، بمعنى أنّ المستقبل يلقيه

خلفه. ورد في: Bloch, *Feudal Society*, vol. I, p. 90.

Walter Benjamin, *Illuminations* (London: Fontana. 1973), p. 265.

(33)

Benjamin, p. 263.

(34)

هذه الفكرة عميقة التوضع إلى أبعد حدّ، ويمكن القول إنّ ما من تصوّر حديثٍ أساسي إلا ويقوم على تصوّر لـ «في الوقت ذاته».

من أشكال التخيّل لم يزددها في أوروبا إلا في القرن الثامن عشر: الرواية والصحيفة⁽³⁵⁾. إذ وفر هذان الشكلان الوسائل التقنية اللازمة لـ «إعادة تقديم» ذلك النوع من الجماعة المُتَخَيَّلَة الذي هو الأمة.

لننظر أولاً في بنية الرواية قديمة الطراز، تلك البنية التي لا نجد لها في روائع بلزاك فحسب، بل أيضاً في أيّ أعمال تجارية معاصرة. من الواضح أنّها وسيلة لتمثيل التزامن في «زمن متجانس، فارغ»، أو تعليق معقد على عبارة «في الوقت ذاته». لنأخذ على سبيل الإيضاح شذرة من حبكة روائية بسيطة، حيث ثمة رجل (أ) له زوجة (ب) وعشيقة (ج) لها بدورها حبيب (د). ويمكن أن نتخيّل مخططاً زمنياً لهذه الشذرة على النحو التالي:

الزمن: I II III

الحوادث: (أ) يتشاجر مع (ب) (أ) يهاتف (ج) (د) يشمل في حانة
(ج) و (د) يمارسان الجنس (ب) تتسوّق (أ) يتناول العشاء في البيت مع (ب)
(د) يلعب البلياردو (ج) تحلم حلمًا مزعجًا

ما نلاحظه في هذه المتوالية أنّ (أ) و (د) لا يلتقيان قطّ، ولعلّ واحدهما لا يعلم بوجود الآخر إذا ما كانت (ج) بارعة⁽³⁶⁾. ما الذي يربط إذاً بين (أ) و (د)؟ تصوّران متتامان: الأول، أنّهما منغرسان في «مجتمعات» (ويسيكس، لبيك، لوس أنجلوس). وهذه المجتمعات هي كيانات اجتماعية لها واقعها الراسخ والمستقر بحيث يمكن وصف أفرادها ((أ) و (د)) بأنهما يمرّان واحدهما بالآخر في الشارع، من دون أن يتعارفا قطّ، ويظلّان مرتبطين⁽³⁷⁾.

(35) مع أنّ *princesse de Cleves* >أميرة كليف، لمدام دو لافايت< كانت قد ظهرت في عام 1678، إلا أنّ حقبة ريتشاردسون وديفو وفيلدنغ >الذين يرتبط بهم نشوء الرواية< هي أوائل القرن الثامن عشر. وتعود الصحيفة الحديثة في أصولها إلى الجرائد الرسمية الهولندية في أواخر القرن السابع عشر؛ لكن الصحيفة لم تغدُ صنفًا عامًا من المادة المطبوعة إلا بعد عام 1700. انظر: Febvre and Martin, p. 197.

(36) بل إنّ قدرة الحبكة على إثارة الاهتمام قد تتوقّف في الأزمنة I، II، و III على عدم معرفة الواحد من (أ)، و (ب)، و (ج)، و (د) ما يوشك الآخرون على فعله.
(37) تعدد الأصوات هذا هو ما يفرّق الرواية الحديثة ذلك التفريق الحاسم حتى عن أعمال جدّ لامعة كانت بمنزلة طليعة لها مثل عمل بترونيوس ساتيركون. ذلك أنّ سرد هذا العمل الأخير يتتابع مثلما يتتابع الجنود في صفّ أو طابور. وحين يندب إنكولبيوس خيانة حبيبته الفتية، لا يرينا الكاتب غيتو في الفراش مع أسكيلتوس في الوقت ذاته.

والثاني، أن (أ) و (د) منغرسان في عقول قراء كليتي المعرفة. ذلك أن هؤلاء القراء وحدهم، مثل الله، من يراقبون (أ) وهو يهاتف (ج)، كما يراقبون (ب) وهي تتسوق، و (د) وهو يلعب البلياردو، كل ذلك في وقت واحد. وكون هذه الأفعال كلها تؤدي في الوقت ذاته الذي تشير إليه الساعة والروزنامة، إنما من فاعلين قد لا يعرفون بعضهم بعضًا، هو ما تتجلى فيه جِدَّة هذا العالم المتخيَّل الذي استحضره الكاتب في عقول قرائه⁽³⁸⁾.

ثمة تشابه دقيق بين فكرة العضوية الاجتماعية التي تتحرك روزناميًا عبر زمن متجانس، فارغ وفكرة الأمة التي يتم تصوُّرها هي أيضًا كجماعة صلبة تتحرك بثبات هابطة (أو صاعدة) التاريخ⁽³⁹⁾. ولا يمكن لأميركي قط أن يلتقي أكثر من حفنة من مواطنيه البالغ تعدادهم 240000000 ونيّف، أو حتى أن يعرف أسماءهم. وهو لا يعلم ما يوشكون على فعله في أي وقت من الأوقات. لكنه واثق كل الثقة بوجود فاعليتهم الراسخة والغفل والمتزامنة.

ربما يبدو المنظور الذي أقترحه أقل تجريدًا إذا ما تفحصنا بإيجاز أربع روايات من ثقافات مختلفة وعهود مختلفة، ترتبط كلها بالحركات القومية ذلك الارتباط الذي لا فكاك منه ما عدا واحدة. في عام 1887، كتب خوسيه ريزال، «أبو القومية الفلبينية»، روايته لا تلمسني التي تُعدُّ اليوم أعظم مآثر الأدب الفلبيني الحديث. كما كانت أيضًا أول رواية يكتبها «إنديو»⁽⁴⁰⁾ (*). وتلك هي بدايتها المذهلة حدّ الإعجاز:

(38) من المفيد في هذا السياق أن نقارن أي رواية تاريخية مع وثائق أو سرديات تعود إلى الفترة التي تناولها الرواية.

(39) لا شيء يُظهر انغماس الرواية في زمن متجانس وفارغ أفضل مما يظهره غياب سلاسل الأنساب التمهيدية التي غالبًا ما تصعد إلى أصل الإنسان، والتي هي سمة مميزة في كتب التاريخ القديمة والسَّير البطولية والكتب المقدسة.

(40) كتب ريزال هذه الرواية بلغة المُستعمر (الإسبانية) التي كانت آنئذ اللغة المشتركة لُنخب أوراسية ومحلية متعددة الإثنيات. وإلى جانب الرواية ظهرت أيضًا أول مرة صحافة «قومية»، ليس بالإسبانية فحسب بل بلغات «إثنية» أيضًا مثل التاغالوغ والإلوكانو. انظر: Leopoldo Y. Yabes, «The Modern Literature of the Philippines», in: Lafont, Pierre-Bernard and Denys Lombard (eds.). *Litteratures contemporaines de l'Asie du sud-est* (Paris: L'Asiatheque, 1974), pp. 287-302.

(*) الإنديو، (Indio) هو التعبير الاستعماري العنصري الإسباني الذي كان يطلق على الشعوب الأسترونيزية المحلية في الفلبين بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر.

«حوالى نهاية تشرين الأول/ أكتوبر، كان دون سانتياغو دي لوس سانتوس، الشهير بالكابتن تياغو، يقيم مأدبة عشاء. ومع أنه لم يكن قد أعلن عنها إلا بعد ظهيرة ذلك اليوم، بخلاف عادته، إلا أنها كانت مدار كل حديث في بينوندو، وفي أحياء أخرى من المدينة، بل في إنتراموروس (المدينة الداخلية المُسَوَّرة) أيضًا. في تلك الأيام كان للكابتن تياغو صيت المضيف السخيّ حدّ الإسراف. وكان معروفًا أن بيته، مثل بلده، لا يغلق أبوابه في وجه أيّ شيء، ما عدا التجارة وأيّ فكرة جديدة أو جريئة.

هكذا سرت الأنباء مثل صدمة كهربائية بين جماعة الطفيليين، والعالات، والمقتحمين الذين خلقهم الله، بجوده الذي لا حدّ له، وراحوا يتضاعفون بيسر بالغ في مانيلا. وقد اقتنص بعضهم دهانًا لتلميع أحذيتهم، وبحث آخرون عن أزرار لياقاتهم وربطات عنق. لكن شغلهم الشاغل جميعًا كان مشكلة التسليم على مضيفهم بتلك الألفة اللازمة لخلق مظاهر الصداقة القديمة، أو الاعتذار، إذا دعت الحاجة، عن عدم الوصول باكراً.

أقيمت المأدبة في بيت في شارع أنلوغو. ولأننا لا نتذكر رقم الشارع، فسوف نصفه بحيث يمكن أن يظلّ مميزًا، هذا إن لم تكن الزلازل قد دمّرتَه بعدُ. ولا نعتقد أن مالكة قد أمر بهدمه، لأن مثل هذا العمل عادةً ما يُترك لله أو الطبيعة، التي تُبرِّم كثيرًا من العقود مع حكومتنا علاوةً على ذلك»⁽⁴¹⁾.

من المؤكّد أنه لا ضرورة للتعليق المُسَهَّب الموسّع. يكفي أن نلاحظ أن صورة مأدبة العشاء (الجديدة تمامًا على الكتابة الفيليبينية) - إذ يناقشها منذ البداية مئات الأشخاص الذين لا يُشار إلى أسمائهم، والذين لا يعرفون بعضهم بعضًا، في أجزاء مختلفة تمامًا من مانيلا، في شهرٍ محدّد من عقْد محدّد - تَسْتَحْضِر الجماعة المُتَخَيِّلَة مباشرة. وفي العبارة «بيت في شارع

José Rizal, *Noli Me Tangere* (Manila: Instituto Nacional de Historia, 1978), p. 1.

(41)

الترجمة <إلى الإنكليزية> لي. وعندما نُشر كتاب الجماعات المُتَخَيِّلَة أول مرّة، لم أكن أعرف الإسبانية، فاضطرت إلى الاعتماد على ترجمة ليون ماريا غويريرو الفاسدة.

أنلوغو»، ذلك البيت الذي «سوف نصفه بحيث يمكن أن يظل مميزاً»، فإن الذين يُفترض بهم أن يميزوه هو نحن القراء الفيليبينيون. وهذا الخروج الطارئ الذي يخرج البيت من زمن الرواية «الداخلي» إلى زمن حياة القارئ اليومية «الخارجي» [في مانيل] هو ضربٌ من تأكيدٍ يخلب اللب على صلابة جماعةٍ محدّدة، تضمّ الشخصيات والكاتب والقراء، وتتحرك قُدماً عبر زمن روزنامي⁽⁴²⁾. لاحظوا النبذة أيضاً. فعلى الرغم من أنه ليس لدى ريزال أدنى فكرة عن هويّات قرائه الفردية، إلا أنه يكتب لهم بحميمية تنطوي على مفارقة، كأنّ العلاقة في ما بينهم راتقة لا يعكّر صفوها أي شيء⁽⁴³⁾.

ما من شيء يثير لدى القارئ ذلك الإحساس الفوكوي^(*) بضروب الانقطاع المفاجئ في الوعي بالقدر الذي تثيره المقارنة بين لا تلمسني والعمل الأدبي الأشهر والأسبق الذي كتبه «إنديو»، هو فرانثيسكو بالاغتاس (بالتازار)، وحمل عنوان قصة فلوران ولورا في مملكة ألبانيا^(**)، وتعود طبعته الأولى إلى عام 1861، مع أنه ربما يكون قد كُتب منذ عام 1838⁽⁴⁴⁾. فعلى الرغم من أن بالاغتاس كان لا يزال على قيد الحياة عندما وُلد ريزال، إلا أن عالم رائقته غريب عن عالم لا تلمسني من النواحي الأساسية كلها. فبيئة العمل - ألبانيا قروسطية خرافية - بعيدة تماماً عن بينوندو ثمانينيات القرن التاسع عشر. وبطلاه - فلوران، النبيل الألباني المسيحي، وصديقه الحميم علاء الدين، الأرستقراطي الفارسي المسلم - لا يذكراننا بالفيليبين إلا من خلال الصلة مسيحي - مسلم. وفي حين يعمد ريزال إلى ذرّ كلماتٍ تاغالوغية في نثره

(42) لاحظوا، مثلاً، تحوّل ريزال الحاذق، في الجملة ذاتها، من الماضي في «خَلَقَهُمْ» (crió) إلى المضارع الذي يضمّننا معاً كلّنا في «يتضاعفون» (multiplica).
(43) كانت شهرة الكاتب الآنية، ولا تزال، الوجه الآخر لغفليّة القراء وخمول ذكرهم. وسوف نرى أن لثنائية خمول الذكر/ الشهرة كلّ العلاقة بانتشار رأسمالية الطباعة. ومنذ عام 1593 قام دومينيكانيون نشطاء بنشر الـ *Doctrina Christiana* في مانيل. غير أن الطباعة بقيت قروناً بعد ذلك تحت السيطرة الدينية المُحكّمة. ولم تبدأ بالتححرر من هذه السيطرة إلا في ستينيات القرن التاسع عشر. انظر: Bienvenido L. Lumera, *Tagalog Poetry 1570-1898. Tradition and Influences in its Development* (Quezon City: Ateneo de Manila Press, 1986), pp. 35 and 93.

(*) نسبة إلى ميشيل فوكو.

Pinagdaanang Buhay ni Florante at ni Laura sa Cahariang Albania

(**)

Lumera, p. 115.

(44)

الإسباني لإحداث أثرٍ «واقعي»، أو ساخر، أو قومي، فإنَّ بالاغتاس لا ينثر عباراتٍ إسبانية في رباعياته التاغالوغية إلَّا ليشير الانتباه إلى كِبَرِ معجم مفرداته ورنينه. ولا تلمسني مكتوبة كي تُقرأ، أمَّا فلوران ولورا فكي تُغنى بصوتٍ مرتفع. وما يسترعي الانتباه أكثر من أيِّ شيء آخر هو تعامل بالاغتاس مع الزمن، إذ يلاحظ لومبيرا أنَّ «تكشّف الحبكة لا يسير وفق ترتيب زمني متسلسل، حيث تبدأ القصة من المنتصف، وتصلنا كاملةً من خلال سلسلة من الخطب تنطوي على ضروب من الاسترجاع والخطف خلفاً»⁽⁴⁵⁾. ويكاد نصف الرباعيات البالغة 399 رباعية أن يكون وصفاً لطفولة فلوران، وسنوات دراسته في أثينا، ومآثره العسكرية اللاحقة، حيث يجري هذا الوصف على لسان البطل في أحاديثه مع علاء الدين⁽⁴⁶⁾. و«الاسترجاع المَحْكِي» هو عند بالاغتاس البديل الوحيد للسرد الخطي الذي يتوالى كالطابور. وحين نعلم عن فلوران وعلاء الدين أشياء ماضية «متزامنة»، يكون الرابط بينهما صوتيهما المتحاورين، وليس بنية الملحمة. ولكم تبدو هذه التقنية بعيدةً عن تقنية الرواية: «في ذلك الربيع ذاته، بينما كان فلوران لا يزال يدرس في أثينا، طُرِدَ علاء الدين من بلاط مولاه...». والحال، إنَّ بالاغتاس لا يخطر له قطَّ أن «يضع» شخصياته في «مجتمع»، أو أن يناقش أمرهم مع جمهوره. كما أننا لا نجد كثيرًا من «الفيليبينية» في نصه، ما عدا ذلك الدفق المنساب من الكلمات التاغالوغية متعددة المقاطع⁽⁴⁷⁾.

Lumbera, p. 120.

(45)

(46) تشبه هذه التقنية تقنية هوميروس التي سبق لأورباخ أن ناقشها باستفاضة في كتابه المحاكاة،

الفصل الأول: «ندبة أوديسيوس»: «Auerbach, chapter 1 «Odysseus' Scar».

«Paalam Albaniang pinamamayanan

(47)

ng casama, t, lupit, bangiscaliuhan

acong tangulan mo, I, cusa mang pinatay

sa iyo, I, malaqui ang panghihinayang»

«وداعًا يا ألبانيا، يا مملكة

الشرّ، والقسوة، والوحشية، والخداع،

أنا حاميك الذي تقتلينه

لكنه لا يني يندب القدر الذي حلّ بك».

فَسَّر بعضهم هذه المقطوعة الشهيرة على أنها تعبير ممّوه عن الوطنية الفيليبينية، لكن لومبيرا يبيّن

بصورة مقنعة أنَّ مثل هذا التفسير ينطوي على مفارقة تاريخية. انظر: Lumbera, p. 125.

في عام 1816، قبل سبعين عامًا من كتابة لا تلمسني، كتب خوسيه خواكين فيرنانديز دي لشاردي روايةً عنوانها البيغاء الأجرّب^(*)، لا شك في أنها أول عمل أميركي لاتيني في هذا الجنس. ووفقًا لأحد النقاد، فإن هذا النص هو «اتهام شرس للإدارة الإسبانية في المكسيك: حيث يرى أن الجهل والخرافة والفساد هي أبرز سمات هذه الإدارة»⁽⁴⁸⁾. أمّا الشكل الأساس لهذه الرواية «القومية» فيشير إليه هذا الوصف لمضمونها:

«منذ البداية، يكون (البطل، البيغاء الأجرّب) عرضةً لتأثيرات سيئة: فالفتيات الجاهلات يغرسن في ذهنه الخرافات، وأمه تتسامح مع نزواته، ومدرّسوه ليس لديهم الأهلية أو القدرة على ضبطه. ومع أن والده رجل ذكي يريد لولده أن يعمل في حرفة نافعة بدلًا من أن يسهم في تضخم صفوف المحامين والطفيليين، إلا أن والدته بيريكويلو <البيغاء> المولعة به أشدّ الولع هي التي تفوز، وترسل ابنها إلى الجامعة وتضمن بذلك أنه لن يتعلم سوى السفساف الخرافية... ويبقى بيريكويلو على جهله الميؤوس منه على الرغم من لقاءات كثيرة مع أناس حكماء وطيبين. ولأنه لا يريد أن يعمل أو يأخذ أي شيء على محمل الجدّ، فإنه يغدو قسًا ومقامرًا ولصًا ومتدربًا عند بائع عقاير، وطبيبًا وموظفًا كاتبًا في إحدى البلدات البعيدة، على التوالي... ومثل هذه الحوادث تتيح للكاتب أن يصف المشافي والسجون والقرى النائية والأديرة، بينما يعمل في الوقت ذاته على إيضاح الأمر الأساسي - تشجيع الحكم والنظام التربوي الإسبانيين الطفيلية والكسل - ذلك الإيضاح الوافي... ومغامرات بيريكويلو تمضي به مرّات عدّة بين الهنود والزنوج...»⁽⁴⁹⁾.

ها نحن نرى «الخيال القومي» من جديد وهو يفعل فعله في حركة بطل متوحّد عبر لوحة اجتماعية ذات ثباتٍ فيربط العالم داخل الرواية مع العالم خارجها. غير أن جولة الأفق (tour d'horizon) البيكارسكية^(*) هذه - المشافي،

El Periquillo Sarniento.

(*)

Jean Franco, *An Introduction to Spanish-American Literature* (Cambridge: Cambridge University Press, 1969), p. 34.

(49) Franco, p. 35-36. التشديد لي.

(*) البيكاريسك (Picaresque) أعمال سرديّة عن مغامرات وجولات الشخّاذين والعيّارين.

السجون، القرى النائية، الأديرة، الهنود، الزنوج - ليست جولة حول العالم (tour du monde). فالأفق مُحدّد على نحوٍ واضح: أفق المكسيك الكولونيالية. ولا شيء يؤكّد لنا هذه الصلابة الاجتماعية بقدر ما يؤكّدها تعاقب صيغ الجموع. ذلك أنها تستحضر فضاءً اجتماعيًا ممتلئًا بالسجون التي يمكن المقارنة في ما بينها، من دون أن يكون أيّ منها ذا أهمية فريدة بحدّ ذاته، لكنها كلها تمثل (بوجودها المتزامن، المنفصل) ظلم هذه المستعمرة⁽⁵⁰⁾ (لنقارن ذلك مع السجون في الكتاب المقدّس التي لا يجري تخيلها قطّ على أنّها خاصة بهذا المجتمع أو ذاك. فكلّ منها قائمٌ بذاته سحريًا، كذاك السجن الذي خلب فيه يوحنا المعمدان لبّ سالومي).

أخيرًا، وكى أزيل احتمال أن تكون الأطر التي ندرسها «أوروبية» على نحوٍ ما، حيث كتّب كلٌّ من ريزال وليثاردي بالإسبانية، إليكم افتتاحية سيمارانغ السوداء^(*)، وهي حكاية كتبها ماس ماركو كارتوديكرومو، الشيوعي القومي الإندونيسي الشاب المنحوس⁽⁵¹⁾، ونُشرت سلسلةً في عام 1924:

«كانت الساعة السابعة، مساء يوم السبت؛ لكن أحدًا لم يكن في الخارج هذه الليلة. المطر المدرار طيلة النهار جعل الدروب بليلة وزلقة، فبقي الجميع في بيوتهم.

صباح السبت بالنسبة إلى من يعملون في المتاجر والمكاتب هو وقت انتظار - انتظار فراغهم من العمل ومتعة التجوال في المدينة مساءً،

(50) حركة البطل المتوحد هذه عبر لوحة اجتماعية صلبة هي أمر نمطي في كثير من الروايات الباكرا الكولونيالية والمناهضة للكولونيالية.

(*) *Semarang Hitam*.

(51) بعد فترة وجيزة وخاطفة من عمله في الصحافة الراديكالية، اعتقلت السلطات الكولونيالية الهولندية ماركو في بوفن ديغول، وهو واحد من أوائل معسكرات التجميع في العالم، أقيم في عمق منطقة المستنقعات غرب غينيا الجديدة. وهناك توفي في عام 1932، بعد ستة أعوام من الاحتجاز. انظر: Henri Chambert-Loir, «Mas Marco Kartodikromo (c. 1890-1932) ou L'Education Politique,» in: Lafont, Pierre-Bernard and Denys Lombard (eds.), *Littératures contemporaines de l'Asie du sud-est* (Paris: L'Asiatheque, 1974), p. 208.

ويمكن أن نجد عرضًا لامعًا ومسهبًا لمسيرة ماركو في: Takashi Shiraishi, *An Age in Motion: Popular Radicalism in java, 1912-1926*. Ithaca: Cornell University Press, 1990), chapters 2-5 and 8.

لكنهم خُيِّبوا في هذه الليلة - بسبب الكسل الناجم عن رداءة الطقس والطرق الموحلة في الأحياء. عادةً ما تكون الطرق الرئيسة مكتظةً بكلِّ صنوف العربات، والأرصفة تعجّ بالبشر، لكنها كانت خالية جميعاً. ومن حين إلى آخر كان يمكن سماع فرقة سوط يحثّ حصاناً على المضيّ في طريقه، أو وقع حوافر الأحصنة وهي تجرّ العربات.

كانت سيمارانغ خاليةً. وأضواء مصابيح الغاز تلقي بأشعتها إلى الطريق الإسفلتي مباشرةً. وفي بعض الأحيان كان ضوء مصابيح الغاز يخفت إذ تهبّ الريح من الشرق....

كان ثمة فتى جالساً على أريكةٍ طويلة من الخيزران يقرأ صحيفة. كان مستغرقاً تماماً. وكان غضبه حيناً وابتسامه حيناً آخر علامة أكيدة على اهتمامه العميق بالقصة. وراح يقلّب أوراق الصحيفة، معتقداً أنه قد يجد شيئاً يمكنه أن يضع حدّاً لما كان يشعر به من بؤس شديد. وفجأة وقع على مقالة عنوانها:

بُخْبُوْحَة

متشرد مُعَدَم وقع فريسة المرض

ومات إلى جانب الطريق بسبب تعرّضه لقسوة الجوّ

تأثر الفتى بهذا التقرير الموجز. وراح يتخيّل معاناة الرجل المسكين وهو يحتضر إلى جانب الطريق... في لحظة شعر بغضب يفور في داخله ويكاد ينفجر. وفي لحظة أخرى شعر بالإشفاق. وفي لحظة ثالثة انصبّ غضبه على النظام الاجتماعي الذي ولد مثل هذا الفقر، ووفّر الثراء لفئةٍ قليلة من البشر⁽⁵²⁾.

نحن هنا، كما في البيغاء الأجرب، في عالمٍ من صيغ الجموع: متاجر،

(52) التشديد لي. Paul Tickell, *Three Early Indonesian Short Stories by Mas Marco Kartodikromo* (c. 1890-1932) (Melbourne: Monash University, Centre of Southeast Asian Studies, 1981), p. 7.

مكاتب، عربات، أحياء، ومصاييح غاز. وكما في لا تلمسني، نغوص مباشرة نحن القراء - الإندونيسيين - في زمن روزنامي ومشهد مألوف؛ بل إن بعضنا يمكن أن يكون قد سار في تلك الدروب السيمارانغية «الموحلة». ومن جديد ثمة بطل متوحد بقرب لوحة اجتماعية موصوفة بذلك التفصيل العام وتلك العناية، غير أن هنالك شيئاً جديداً أيضاً: ذلك البطل الذي لا يُذكر اسمه قط، لكنه كثيراً ما يُشار إليه على أنه «فتانا». وخراقة النصّ وسذاجته الأدبية هما على وجه التحديد ما يؤكد «صدق» هذا الضمير المتصل، فليس لدى ماركو أو قرائه أي شكوك في شأن مرجع هذا الضمير أو من يشير إليه. وإذا ما كان المجاز «بطلنا» في القصّ الهزلي المُتَقَن في أوروبا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مجرد تأكيد على تواصل الكاتب مع قارئ (أي قارئ)، فإن «فتانا» لدى ماركو تعني، بجذتها خصوصاً، فتى ينتمي إلى جماعة قراء الإندونيسية جملةً، وبذلك تشير ضمناً إلى «جماعة متخيلة» إندونيسية جنينية. وما نلاحظه هو أن ماركو لا يستشعر حاجة لأن يعين هذه الجماعة بالاسم: فهي موجودة أصلاً (وحتى لو انضمّ الرقباء الكولونياليون الهولنديون متعددو اللغات إلى مجموع قرائه، فإنهم مُستبعدون عن هذه الـ «نا»، الأمر الذي تشير إليه حقيقة أن غضب الفتى منصبّ على «ال» نظام الاجتماعي وليس على نظام «نا» الاجتماعي).

أخيراً، فإن تأكيد الجماعة المُتَخَيَّلَة يأتي من تكرار قراءتنا ما قرأه فتانا. فهو لا يجد جثة المتشرد المعدم إلى جانب طريق موحلة في سيمارانغ، بل يتخيلها من سطور الصحيفة⁽⁵³⁾. وهو لا يعير أدنى اهتمام إلى هوية المتشرد الميت الفردية: إذ يفكر بما تمثله الجثة، وليس بحياة صاحبها الشخصية.

من اللائق أن تظهر صحيفة في قلب القصّ في سيمارانغ السوداء، ذلك أننا، إذا ما التفتنا الآن إلى الصحيفة بوصفها مُنتجاً ثقافياً، لا بدّ من أن تستوقفنا

(53) في عام 1924 نشر صديق مُقرّب من ماركو وحليف سياسي له رواية بعنوان *Rasa Merdeka* [الإحساس بالحرية/إحساس الحرية]. ويكتب شامبر لوا عن بطل هذه الرواية (التي تُنسب إلى ماركو خطأ) أنه «ليس لديه أدنى فكرة عن معنى كلمة «اشتراكية»: لكنه على الرغم من ذلك يحسّ بضيق شديد من النظام الاجتماعي الذي يحيط به ويشعر بحاجة إلى توسيع آفاقه عبر وسيلتين اثنتين: السفر والقراءة». انظر، والتشديد من عندي: Chambert-Loir, p. 208.

انتقل البيغاء الأجرب إلى جاوة وإلى القرن العشرين.

تخييليتها أو قصصيتها العميقة. فما هو عُرْفُ الصحيفة الأدبيّ الأساس؟ لو نظرنا إلى الصفحة الأولى في عددٍ من أعداد النيويورك تايمز، على سبيل المثال، قد نجد أخبارًا عن منشقين سوفيات، ومجاعة في مالي، وجريمة بشعة، وانقلاب في العراق، واكتشاف مستحاثات نادرة في زيمبابوي، وخطاب لميتران. لماذا توضع هذه الأحداث متجاورة؟ ما الذي يربط بعضها ببعضها الآخر؟ لا شك في أنّه ليس مجرد نزوة. لكن من الواضح أنّ معظمها حدث على نحوٍ مستقلٍّ، من دون أن يعلم الفاعلون واحدهم بوجود الآخر أو بما ينوي القيام به. وما تبيّنه اعتبارات الجمع بين هذه الحوادث ومجاورتها معًا (حيث يستبدل عددٌ لاحقٌ بميتران انتصارًا في البيسبول) هو أنّ الرابط بينها هو رابط متخيّل.

يُسْتَمَدُّ هذا الرابط المُتَخَيَّل من مصدرين متصلين على نحوٍ غير مباشر: الأول هو التوافق الروزناميّ. فالتاريخ أعلى الصحيفة، وشعارها المميّز الذي يحظى بأهمية بالغة، يوفّران الصلة الأساس: تَقَدُّمُ الزمن الفارغ، المتجانس، ذلك التقدّم الثابت إلى الأمام⁽⁵⁴⁾. وضمن ذلك الزمن يمشي «العالم» قُدَمًا مشيته الواثقة الحازمة. وآية ذلك أنّه إذا ما غابت مالي عن صفحات النيويورك تايمز بعد يومين من نشر تقرير المجاعة، وعلى مدى أشهر متوالية، لن يتخيّل القراء للحظة أنّ مالي قد اختفت أو أنّ المجاعة فتكت بجميع مواطنيها. فالشكل الروائيّ الذي تتسم به الصحيفة يؤكد لهؤلاء القراء أنّ «الشخصية» التي اسمها مالي موجودة هناك في مكانٍ ما تتحرّك من دون ضجيج، منتظرة ظهورها الجديد في الحبكة.

أمّا المصدر الثاني للرابط المُتَخَيَّل فيكمن في العلاقة بين الصحيفة، كشكل من أشكال الكتاب، والسوق. فقد قُدِّر عدد الكتب المطبوعة في أوروبا خلال الأربعين عامًا ونيف الفاصلة بين كتاب غوتنبرغ المقدّس ونهاية القرن الخامس عشر بأكثر من 20000000⁽⁵⁵⁾. وبين عامي 1500 و 1600، بلغ

(54) قراءة الصحيفة أشبه بقراءة رواية كفّ كاتبها عن أيّ تفكير بحبكة متماسكة.

Febvre and Martin, p. 186.

(55)

كان ذلك في ما لا يقل عن 35000 طبعة أُنتِجت في ما لا يقل عن 236 بلدة. ومنذ عام 1480 وُجدت المطابع في أكثر من 110 بلدات، كان من بينها 50 في ما يسمى اليوم إيطاليا، و 30 في ألمانيا، و 9 في فرنسا، و 8 في كلٍّ من هولندا وإسبانيا، و 5 في كلٍّ من بلجيكا وسويسرا، و 4 في إنكلترا، و 2 في بوهيميا، و 1 في بولندا. «يمكن القول إنّ الكتاب المطبوع كان محلّ فائدة عامة في أوروبا منذ ذلك التاريخ».

عدد هذه الكتب 150000000 و 200000000⁽⁵⁶⁾. «منذ ذلك الحين فصاعدًا... راحت ورشات الطباعة تبدو أشبه بالورشات الحديثة منها بحجرات العمل التي عرفتھا العصور الوسطى. وفي عام 1455 كان العمل الذي يديره فوست وشوفر قد ارتقى إلى مستوى الإنتاج النوعي الذي يُقاس عليه، وبعد ذلك بعشرين عامًا كانت الأعمال الطباعية الضخمة جارية في أرجاء أوروبا كلها»⁽⁵⁷⁾. وبمعنى ما، كان الكتاب أول سلعة صناعية تُنتج إنتاجًا جماهيريًا ضخماً على الطريقة الحديثة⁽⁵⁸⁾. ويمكن إيضاح المعنى الذي يدور في ذهني إذا ما عقدنا مقارنة بين الكتاب والمنتجات الصناعية الأسبق، مثل النسيج، أو الآجر، أو السكر. ذلك أنَّ هذه السلع تُقاس بمقاديرها الرياضية (بالأرطال أو الأحمال أو القطع). ورطل السكر هو مجرد كمية، أو وزن ملائم، وليس شيئاً بحد ذاته. أمّا الكتاب فشيء مميز، مستقل، ويُعاد إنتاجه هو ذاته بمقادير ضخمة، وهو بذلك يستبق السلع المعمّرة في أيامنا⁽⁵⁹⁾. ويمكن أن يحل محل رطل السكر أي رطل سكر آخر؛ في حين أنَّ كل كتاب مكتفٍ بذاته على ذلك النحو الذي نجده لدى الزهاد والنسّاك (ولا عجب أن تكون المكتبات،

Febvre and Martin, p. 262.

(56)

يعلّق الكاتبان بالقول إنَّ الكتب كانت متوافرة بحلول القرن السادس عشر لكل من يستطيع القراءة.

(57) في أوائل القرن السادس عشر كانت دار بلانتين الضخمة للنشر في أنتويرب تدير 24 مطبعة، ويعمل في كل ورشة من ورشاتها أكثر من 100 عامل. انظر: Febvre and Martin, p. 125.

(58) هذا الأمر يبدو واضحاً وراسخاً وسط غرائب كتاب مارشال ماكلوهان مجرّة غوتنبرغ.

انظر: Marshall McLuhan, *The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man* (Toronto: University of Toronto Press, 1962), p. 125.

يمكن أن نضيف أنه إذا ما كان سوق الكتاب قزماً بالقياس إلى أسواق السلع الأخرى، إلّا أنَّ دوره الاستراتيجي في نشر الأفكار جعله ذا أهمية أساسية في تطور أوروبا الحديثة.

(59) المبدأ هنا أكثر أهمية من المقدار. فحتى القرن التاسع عشر كانت الطباعات لا تزال صغيرة نسبياً. إذ لم تتجاوز الطبعة الأولى من ترجمة لوثر لـ الكتاب المقدس 4000 نسخة، مع أنّه راج ذلك الرواج الاستثنائي. أمّا الطبعة الأولى الضخمة وغير المألوفة من موسوعة ديدرو فلم تتجاوز 4250 نسخة. وكان المعدل في القرن الثامن عشر أقل من 2000. انظر: Febvre and Martin, pp. 218-220.

لكن الكتاب كان مميزاً على الدوام عن السلع المعمّرة الأخرى بسوقه المحدودة. فكل من يملك المال يمكنه أن يشتري سيارات تشيكية؛ لكن القراء التشيكيين وحدهم من يشترون كتباً باللغة التشيكية. وسوف نعرض أدناه أهمية هذا التمييز.

والمجموعات الشخصية من السلع المُنتَجة إنتاجًا ضخمًا، قد غدت أمرًا مألوفًا، في المراكز المدنية مثل باريس، بحلول القرن السادس عشر⁽⁶⁰⁾.

ليست الصحيفة، من هذا المنظور، سوى «شكل متطرف» من أشكال الكتاب، أو كتاب يُباع بكميات هائلة، لكن رواجه عابر سريع الزوال. هل يسعنا القول إنها الأكثر رواجًا ليوم واحد⁽⁶¹⁾؟ مع أن الصحيفة تعتق وتتقدم في اليوم التالي لطباعتها - ومن اللافت هنا أن تستبق واحدة من سلع الإنتاج الضخم الباكراة ما تنطوي عليه السلع المعمرة الحديثة من تقادم جوهري - إلا أن هذا السبب ذاته هو الذي يجعلها تخلق هذا الطقس الجماهيري الاستثنائي: استهلاك («تخيّل») الصحيفة - بوصفها - تخيلاً على نحو يكاد أن يكون متزامناً تماماً. نحن نعلم إن طبعتي الصباح والمساء ليوم معين سوف تُستهلكان ذلك الاستهلاك الكاسح بين هذه الساعة وتلك، في هذا اليوم فحسب من دون سواه (بخلاف السكر الذي يتوالى استعماله على نحو متواصل غير مُحدّد زمنياً؛ وقد يفسد، لكنه لا يبطل أو يتقادم). ودلالة هذا الطقس الجماهيري - حيث لاحظ هيغل أن الصحف تقوم عند الإنسان الحديث مقام صلاة الصبح - هي دلالة متناقضة. ذلك أنه يُؤدّي بصمتٍ وعلى انفراد، داخل الجمجمة⁽⁶²⁾، غير أن كلّ مشارك يدرك جيداً أن الطقس الذي يؤدّيه يكرّره في الوقت ذاته آلاف (أو ملايين) الآخرين الذين لا يشكّ بوجودهم، لكنه لا يمتلك أدنى فكرة عن هويتهم. علاوة على ذلك، فإنّ هذا الطقس يُكرّر من دون انقطاع كلّ يوم أو نصف يوم على مدار الروزنامة. هل من صورةٍ يمكن تصوّرها للجماعة المُتخيّلة، العلمانية، المتسايرة تاريخياً تفوق هذه الصورة في حيويتها؟⁽⁶³⁾ بل إنّ قارئ الصحيفة، إذ يرى نسخ صحيفته ذاتها تُستهلك

(60) بل إنّ الناشر ألدوس من البندقية كان رائد «طبعة الجيب» التي يسهل حملها ونقلها منذ أواخر القرن الخامس عشر.

(61) كما يبيّن مثال سيمارانغ السوداء، فإنّ هذين النوعين الأكثر رواجاً اعتادا أن يكونا أوثق صلة مما هما عليه الآن. وكان ديكنز أيضاً قد نشر رواياته الشعبية سلسلةً في صحف شعبية.

(62) «شجعت المواد المطبوعة على الالتزام الصامت بقضايا لا يمكن قصر موقع دعائها على أيّ موضع محدد ويخاطبون من بعيد جمهوراً غير مرئيّ». انظر: Elizabeth L. Eisenstein, «Some Conjectures about the Impact of Printing on Western Society and Thought: A Preliminary Report», *Journal of Modern History*: vol. 40, no. 1 (March 1968), p. 42.

(63) يلاحظ نايرن، وهو يكتب عن العلاقة بين الفوضى المادية في مجتمع الطبقة الوسطى ونظام =

في الميترو الذي يستقلّه، وفي محلّ الحلاقة، ولدى جيرانه حيث يقيم، يتأكد مرّة بعد مرّة من أنّ العالم المُتَخَيَّل يضرب بجذوره في الحياة اليومية على نحوٍ واضح. فالرواية، كما هو حال لا تلمسني، تنزّ إلى الواقع وتنسرب فيه بهدوء وبصورة مستمرة، خالقةً تلك الثقة اللافتة بجماعةٍ غُفْلٍ تشكّل غفليّتها العلامة المميّزة للأمم الحديثة.

ربما كان من المفيد، قبل أن نواصل مناقشة ما للقومية من أصولٍ نوعيّة، أن نُجَمِّل ما قدّمناه إلى الآن من أطروحات أساسية. ما حاولتُ تبينه في الأساس هو أنّ إمكانية تخيّل الأمة لا تنشأ تاريخياً هي ذاتها إلا حينما، وحيثما، تفقد ثلاثة تصورات ثقافية جوهرية، بالغة القدم جميعها، سطوتها البديهية على عقول البشر. أول هذه التصورات هي الفكرة التي مفادها أنّ لغةً مدوّنةً بعينها توفر أفضل نفاذ إلى الحقيقة الكيانية <الأنطولوجية>، وذلك على وجه التحديد لأنها جزء لا يتجزأ من تلك الحقيقة. وهذه الفكرة هي التي دعت إلى الوجود تلك الجماعات الدينية عابرة القارات، مثل المسيحية وأمة الإسلام... وسواها. والتصور الثاني هو الاعتقاد بأنّ المجتمع مُنظَّم حول، وتحته، مراكز رفيعة، كالملوك الذين هم أشخاص مختلفون عن بقية البشر ويحكمون من خلال شكل من أشكال النظام الكوني (الإلهي). وبذلك كانت ضروب الولاء البشرية تراتبيةً ومركزية الوجهة بالضرورة لأنّ الحاكم، مثل الكتاب المقدّس، كان عقدة من عقد النفاذ إلى الكينونة ومتأصل فيها. أمّا التصوّر الثالث فهو تصوّر الزمن على ذلك النحو الذي لا يمكن التمييز فيه بين الكوزمولوجيا <التصور الكوني الشامل> والتاريخ، وتتطابق فيه أصول العالم وأصول البشر تطابقاً جوهرياً. هذه الأفكار مجتمعةً كانت قد دفعت بجذور حياة البشر عميقاً في طبيعة الأشياء ذاتها، مُضفيةً معنى معيناً على

= الدولة السياسي المجرد، أنّ آلية التمثيل حوّلت التفاوت الطبقي الفعلي إلى مذهب المساواة المجرد بين مواطنين، وحوّلت الأنانية الفردية إلى إرادة جمعيّة مُنزّهة عمّا هو شخصي، وحوّلت ما كان يمكن أن يكون من دونها حالة من الفوضى إلى شرعية جديدة للدولة». انظر: Naim, p. 24.

وهذا لا شكّ فيه. لكن آلية التمثيل (الانتخابات؟) هي بمنزلة عيد نادر ومتنقل. واعتقادي أن أفضل مكان نلتمس فيه ولادة الإرادة المُنزّهة عمّا هو شخصي هو تلك الضروب المنتظمة اليومية من تخيّل الحياة.

أقدار الوجود اليومية (وعلى رأسها الموت والفقد والاستبعاد)، وموفرة سُبُل الخلاص منها بطرائق شتى.

غير أن انهيار هذه اليقينيات المترابطة البطيء والمتفاوت في أوروبا الغربية، ثم في غير مكان، بتأثير التغير الاقتصادي و«الاكتشافات» (الاجتماعية والعلمية)، وأطراد تطور وسائل الاتصال السريعة، دق إسفينًا غليظًا بين الكوزمولوجيا والتاريخ. ولا عجب إذا أن جرى البحث، إذا جاز التعبير، عن طريقة جديدة للربط على نحو ذي معنى بين الإخاء والقوة والزمن. ولعل ما من شيء عجّل هذا البحث، وجعله أشدّ خصوبةً، بالقدر الذي عجّلته به رأسمالية الطباعة التي مكّنت أعدادًا من البشر متناميةً بسرعةٍ من أن يفكروا بأنفسهم، وأن يربطوا أنفسهم بآخرين، بطرائق جديدة كلّ الجِدَّة.

أصول الوعي القومي

إذا كان تطور الطباعة - بوصفها - سلعة هو المفتاح في توليد أفكار التزامن الجديدة كلّ الجدة، فذلك يعني أننا بلغنا النقطة التي تغدو عندها الجماعات من النمط ذي «الزمن العلماني الأفقي، المستعرض» ممكنة. والسؤال: لماذا حظيت الأمة، ضمن ذلك النمط، بما حظيت به من شعبية ورواج كبيرين؟ من الواضح أنّ العوامل التي ساهمت في ذلك معقدة ومتنوعة. إلا أن الأولوية التي تحظى بها الرأسمالية هي أولوية يمكن الدفاع عنها بقوة.

سبق أن لاحظنا أنّ ما لا يقلّ عن عشرين مليوناً من الكتب كانت قد طُبعت بحلول عام 1500⁽¹⁾، معلنةً بداية ما سمّاه بنيامين «عصر الاستنساخ الآلي». وإذا ما كانت المعرفة المُستمدّة من المخطوطات تلك المعرفة النادرة والغامضة المقصورة على فئة قليلة، فإنّ المعرفة المستمدّة من الطباعة هي تلك المعرفة التي تعتاش على إعادة الإنتاج والانتشار⁽²⁾. وإذا ما كانت المطابع قد أخرجت مئتي مليون كتاب حتى عام 1600، كما يعتقد فيفر ومارتن، فلا عجب من أن يعتقد فرانسيس بيكون أنّ الطباعة غيّرت «وجه العالم وحاله»⁽³⁾.

(1) بلغ عدد سكان أوروبا في المناطق التي عرفت الطباعة حوالي 100000000. انظر: Lucien Febvre and Henri-Jean Martin, *The Coming of the Book. The Impact of Printing, 1450-1800* (London: New Left Books, 1976). [Translation of *L'Apparition du Livre* (Paris: Albin Michel, 1958)], pp. 248-249.

(2) من الأمور ذات الدلالة أنّ رحلات ماركو بولو بقيت مجهولة عمومًا حتى طباعتها أول مرة في عام 1559. انظر: Marco Polo, *The Travels of Marco Polo*, Trans. and ed. by William Marsden (London; New York: Everyman's Library, 1946), p. xiii.

(3) ورد في: Elizabeth L. Eisenstein, «Some Conjectures about the Impact of Printing on

اختبرت صناعة النشر، بوصفها واحدًا من أبكر أشكال المشروع الرأسمالي، كل ما اختبرته الرأسمالية من بحثٍ قلقٍ عن الأسواق. وفتح أصحاب المطابع الأوائل فروعًا في أنحاء أوروبا كلها: «بهذه الطريقة أقيمت دور نشر «دولية» حقيقية، تجاهلت الحدود القومية [كذا]»⁽⁴⁾. ولأنَّ الأعوام بين 1500 و 1550 كانت مرحلة رخاء أوروبي استثنائي، ساهم النشر في هذا الازدهار. وكان «أكثر من أي وقت مضى صناعةً عظيمةً يسيطر عليها رأسماليون أثرياء»⁽⁵⁾. وطبيعيٌّ أنَّ «اهتمام باعة الكتب كان منصبًا في المقام الأول على تحقيق الربح وتصريف منتجاتهم، لذلك سعوا أولاً وقبل كل شيء وراء تلك الأعمال التي تهّم أكبر عدد ممكن من معاصريهم»⁽⁶⁾.

كانت أول سوق هي أوروبا المتعلّمة، تلك الشريحة واسعة الانتشار لكنها قليلة الكثافة من قراء اللاتينية. استغرق إشباع هذه السوق مئة وخمسين عامًا. ومن الحقائق التي وسمّت اللغة اللاتينية - إلى جانب قدسيّتها - أنّها كانت لغة أناسٍ ثنائيي اللغة. ذلك أنَّ قلة قليلة نسبيًا هي التي كانت تنطق بها منذ الولادة وأقلّ منها، كما نتصوّر، تلك التي كانت تحلم بها. وفي القرن السادس عشر كانت نسبة ثنائيي اللغة إلى إجمالي السكان في أوروبا صغيرة تمامًا؛ لا تفوق على الأرجح نسبتهم إلى سكان العالم اليوم، وفي القرون القادمة، على الرغم من الأممية البروليتارية. كانت الأغلبية الساحقة من البشر

Western Society and Thought: A Preliminary Report,» *Journal of Modern History*, vol. 40, no. 1 (March = 1968), p. 56.

Febvre and Martin, *The Coming*, p. 122. (4)

النص الفرنسي الأصلي يكتفي بالكلام على «تخطي الحدود» (par-dessus les frontières) انظر: Febvre et Martin, *L'Apparition*, p. 184.

Febvre and Martin, *The Coming*, p. 187. (5)

النص الأصلي يتحدث عن رأسماليين «مقتدرين» «puissants» وليس عن رأسماليين أثرياء. انظر: Febvre et Martin, *L'apparition*, p. 281.

(6) «لذلك كان إدخال الطباعة من هذه الناحية مرحلةً على الطريق الموصلة إلى مجتمعنا الحالي، مجتمع الاستهلاك الجماهيري والتنميط»، Febvre and Martin, *The Coming*, pp. 259-260. يقول النص الأصلي: «une civilization de masse et de standardization»، وربما كان من الأفضل ترجمتها على النحو: «الحضارة الجماهيرية، النمطية». انظر: Febvre et Martin, *L'Apparition*, p. 394.

أحادية اللغة في ذلك الوقت، كحالها الآن. لذلك قضى منطق الرأسمالية بأنه ما إن تُشبع سوق النخبة اللاتينية حتى تبدأ الأسواق الضخمة المُحتملة المتمثلة بالجماهير أحادية اللغة بممارسة إغرائها. ولا شك في أن الإصلاح المضاد شجّع على انتعاش النشر اللاتيني بصورة مؤقتة، وما إن انتصف القرن السابع عشر حتى تفسّخت حركة الإصلاح المضاد هذه، وغصّت المكتبات الكاثوليكية المتحمّسة بالكتب. وكان لنقص الأموال الذي شهده عموم أوروبا في هذه الفترة ذاتها أن يدفع الناشرين أكثر فأكثر إلى التفكير بطرح طبعات رخيصة باللغات المحلية⁽⁷⁾.

هذا الاندفاع الثوري الذي أبدته الرأسمالية في التحوّل إلى اللغات المحلية استمدّ مزيداً من الزخم من ثلاثة عوامل خارجية، ساهم اثنان منها تلك المساهمة المباشرة في نشوء الوعي القومي. أول هذه العوامل، وأقلّها أهمية في النهاية، هو التغيّر في طابع اللاتينية ذاتها. ذلك أن الجهد الذي بذله الإنسانيون^(*) في إحياء آداب العصور القديمة السابقة على المسيحية ونشرها عبر سوق الطباعة كوّن لدى الإنجليجيسيا في أرجاء أوروبا ذائقةً جديدة تقدر مآثر القدماء الأسلوبية المُتقنة. وراحت اللاتينية التي باتت هذه الإنجليجيسيا تطمح لأن تكتب بها تقترب أكثر فأكثر من لغة شيشرون، وتبتعد أكثر فأكثر عن الحياة الكنسيّة واليومية، فغدت بذلك مقصورةً على فئةٍ قليلةٍ ومختلفةٍ تماماً عن لاتينية الكنيسة في العصور الوسطى. وفي حين لم يكن غموض اللاتينية القديمة ناجماً عن موضوعها أو أسلوبها، بل عن كونها مكتوبة أو مدوّنة، أي عن حالتها كـ

Febvre and Martin, *The Coming*, p. 195.

(7)

(*) الإنساني (Humanist)، نسبةً إلى الإنسانية (Humanism) وهي اتجاه فكري عام يشترك فيه عديد من المذاهب الفلسفية والأدبية والاخلاقية والعلمية التي ظهرت في عصر النهضة. من أهم أعلامها إيرازموس وتوماس مور. تدعو الإنسانية باعتبارها حركة فلسفية إلى إعادة الكرامة إلى القيمة الإنسانية وترجع التفكير العقلاني وتؤكد تفوق الإنسان بذاته وتعتبره مقياس الأشياء كلها. كما أنها حركة انتشرت في أوساط الأدباء والفنانين والمثقفين عمومًا في القرن السادس عشر (عصر النهضة)، تميزت بالرجوع إلى النصوص الكلاسيكية القديمة الإغريقية والرومانية، لتستمد منها مناهجها وفلسفتها. ظهرت النزعة الإنسانية في إيطاليا في بداية عصر النهضة الأوروبية ومنها انتشرت إلى عموم أوروبا وإلى الشرق والغرب.

نصّ، فإنَّ غموضها الآن بات ناجماً عمّا كان يُكتَب، أو بات ناجماً عن اللغة - في - ذاتها.

العامل الثاني هو تأثير الإصلاح^(*) الذي يدين، بدوره، إلى رأسمالية الطباعة بكثير من النجاحات التي أحرزها. قبل عصر الطباعة، كان من اليسير على روما أن تكسب كلَّ حرب تخوضها ضد الهرطقة في أوروبا نظراً إلى ما كانت تحوزه على الدوام من خطوط اتصال داخلية أفضل قياساً بمن كانوا يتحدثون سلطانها. لكنه حين علّق مارتن لوثر أطروحاته على باب الكنيسة في ويتنبرغ في عام 1517، طُبِعَت بترجمة ألمانية، «وانتشرت في كلِّ ركن من أركان البلاد في غضون خمسة عشر يوماً»⁽⁸⁾. وفي العقدين بين عامي 1520 و 1540 بلغ عدد الكتب المنشورة في ألمانيا ثلاثة أضعاف ما نُشِرَ في العقدين بين عامي 1500 و 1520، وكان ذلك تحولاً مذهلاً أدّى فيه لوثر الدور المركزي المطلق، إذ شكّلت أعماله ما يزيد على ثلث مجموع الكتب المكتوبة بالألمانية والمباعة بين عامي 1518 و 1525. كما ظهر في الفترة بين عامي 1522 و 1546 ما مجموعه 430 طبعة (كاملة أو جزئية) من ترجمته الكتاب

(*) الإصلاح (Reformation) حركة إصلاحية قامت في القرن السادس عشر بهدف إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا الغربية. وكانت شريحة واسعة من المسيحيين الغربيين قد رأت انتشار ما اعتبروه أفكاراً باطلة وتصرفات غير لائقة داخل جسم الكنيسة، وفي مقدمها بيع صكوك الغفران، وشراء رجال الدين المناصب العليا كالمطران والكاردينال وصولاً إلى البابا. في عام 1517 أعلن مارتن لوثر أطروحاته في انتقاد الكنيسة الكاثوليكية وقد شرحها في 95 بنداً، فكانت تلك نقطة انطلاق الإصلاح البروتستانتي الذي استند أيضاً إلى العمل الذي قام به مصلحون مختلفون مثل جون ويكليف وجون هوس وآخرون. أبرز النقاط التي هاجمها المصلحون البروتستانت في الكنيسة الكاثوليكية: صكوك الغفران والمطهر والدينونة وشراكة مريم في الخلاص وشفاعة القديسين ومعظم الأسرار الكنسية وسلطة البابا. كما قام البروتستانت بترجمة الكتاب المقدس بحماسة للغات المحلية الأوروبية ونشره بين فئات الشعب كلها بعد أن كان ذلك ممنوعاً في الكنيسة الكاثوليكية، ولأجل تحقيق هذا الهدف قاموا بحركات تهدف إلى محو الأمية التي كانت منتشرة في أوروبا آنذاك. ونتيجة لحركة الإصلاح نشأ مذهب مسيحي جديد خرج عن الكاثوليكية عرف بالبروتستانتية التي تعني الاحتجاج. وأهم الجماعات البروتستانتية الإصلاحية هي تلك التي تنحدر مباشرة من اللوثرية والكالفينية والمشيخية والمعمدانية والأنجليكانية. ودفعت حركة الإصلاح هذه الكنيسة الكاثوليكية لاحقاً لإعطاء الفرصة لحركات داخلية لإصلاحها من دون حدوث انشقاق جديد، ما دُعي لاحقاً بالإصلاح المضاد. ويعرف الإصلاح البروتستانتي أيضاً باسم الثورة البروتستانتية والإصلاح اللوثيري.

Febvre and Martin, *The Coming*, p. 289-290.

(8)

المقدس. «هذه أول مرة نكون فيها إزاء قراءة جماهيرية حقيقية وإزاء أدب شعبي في متناول الجميع»⁽⁹⁾. بل إنَّ لوثر بات أول كاتب رائج يُعرف بهذه الصفة. بعبارة أخرى، بات أول كاتب يمكنه أن يبيع كتبه الجديدة لمجرد أنَّ اسمه عليها⁽¹⁰⁾.

حيث وطأ لوثر، سار كثيرون في أعقابه مسرعين، مطلقين العنان لحرب الدعاية الدينية الكبيرة التي استعرت في أرجاء أوروبا خلال القرن التالي. وفي «معركة كسب العقول» الطاحنة هذه، كانت البروتستانتية في موقع الهجوم على الدوام، وذلك على وجه الدقة لأنها عرفت كيف تفيد من توسع سوق الطباعة باللغات المحلية الذي خلقتة الرأسمالية، في حين كان الإصلاح المضاد في موقع الدفاع عن قلعة اللاتينية. وما يمثل لذلك كله هو قائمة الكتب المُحرَّمة^(*) التي أصدرها الفاتيكان - ولم يكن لها نظير بروتستانتية - وهي عبارة عن قائمة جديدة حتمًا ذلك الحجم الكبير الذي بلغته المواد الهدامة المطبوعة. ولعلَّ أفضل فكرة عن عقلية الحصار هذه هي تلك التي يعطيها الحظر المذعور الذي فرضه فرنسوا الأول في عام 1535 على طباعة أيِّ كتاب في مملكته، تحت طائلة الإعدام شنقًا! أما السبب الذي يقف خلف هذا الحظر وخلف عدم القدرة على فرضه في آنٍ معًا فهو أنَّ الحدود الشرقية لمملكته كانت محاطةً آنئذٍ بدول ومدن بروتستانتية تُنتجُ دفقًا هائلًا من المواد

Febvre and Martin, *The Coming*, p. 291-295.

(9)

(10) لم يكن يفصل هذا سوى خطوة واحدة عما عرفته فرنسا القرن السابع عشر، حين بات بمقدور كورني وموليير ولافونتين أن يبيعوا مخطوطات تراجيدياتهم وكوميدياتهم مباشرةً للناشرين الذين كانوا يشترونها بوصفها استثمارًا ممتازًا نظرًا إلى سمعة مؤلفيها في السوق. انظر: Febvre and Martin, *The Coming*, p. 161.

(*) قائمة الكتب المُحرَّمة (Index Librorum Prohibitorum)، قائمة كتب منعتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بهدف حماية عقيدة الكاثوليك وأخلاقيهم بمنعهم من قراءة كتب غير أخلاقية أو خاطئة عقائديًا، وشملت كتبًا علمية مثل أعمال كيبلر في الفلك. واحتوت القائمة قواعد تتعلق بقراءة الكتب وبيعها والرقابة عليها، وكانت توضع على صفحة العنوان من الكتب التي قُبلت طباعتها عبارة (nihil obstat) (لا مانع) أو (imprimatur) (لتطبع). أصدر الطبعة الأولى من هذه القائمة البابا بولس الرابع في عام 1559، ثم ظهر شكل منها مخفف نوعًا ما بترخيص من مجلس ترنت. ظهرت الطبعة الأخيرة (العشرون) من هذه القائمة في عام 1948، وألغى البابا بولس السادس القائمة في عام 1966. واعتُبر الإلغاء بحسب بعض المصادر خاتمة التفتيش.

المطبوعة التي يمكن تهريبها. ولو اقتصرنا على جنيف أيام كالشن، لوجدنا أنه لم يُنشر هناك سوى 42 كتابًا في الفترة بين عامي 1533 و 1540، لكن هذا العدد ارتفع إلى 527 بين عامي 1550 و 1564، وفي هذا العام الأخير لم يكن يقل عدد دور الطباعة التي تعمل بكامل طاقتها عن 40 دارًا⁽¹¹⁾.

سرعان ما خلق هذا التحالف بين البروتستانتية ورأسمالية الطباعة، ومن خلال الطباعات الشعبية الرخيصة، جماهير جديدة من القراء - خصوصًا بين التجار والنساء، ممن كانوا يجهلون اللاتينية في العادة أو لا يعرفون منها سوى النزر اليسير - وعبّأهم وراء غايات دينية وسياسية. ولم يكن بُدّ من أن يتخطى هذا الاهتزاز العميق الكنيسة ولا يقتصر عليها وحدها. إذ كان هذا الزلزال ذاته وراء قيام أولى الدول الأوروبية المهمة غير القائمة على الحكم السلالي وليست من الدول - المدن، في الجمهورية الهولندية والكومنولث البيوريتاني (كان دعر فرنسوا الأول سياسيًا بقدر ما كان دينيًا).

أما العامل الثالث فكان انتشار لغات محلية محدّدة ذلك الانتشار البطيء والمتفاوت جغرافيًا، بوصفها أدوات للمركزة الإدارية استخدمها بعض الملوك المتمكنين المرشّحين للتحويل إلى الملكية المطلقة. ومن المفيد أن نتذكّر هنا أن الشمول الذي اتّسمت به اللاتينية في أوروبا الغربية القروسطية لم يكن متماشيًا قطّ مع نظام سياسي شامل. وذلك بخلاف الصين الإمبراطورية، حيث كان المدى الذي بلغته البيروقراطية الإدارية متطابقًا إلى حدّ بعيد مع المدى الذي بلغته الحروف المرسومة. والحال، أن تفتّت أوروبا الغربية السياسي بعد انهيار الإمبراطورية الغربية^(*) كان يعني أن ما من عاهل يمكنه أن يحتكر اللاتينية ويجعلها لغة دولته وحدها دون سواها من الدول، لذلك لم يكن للسلطة الدينية التي تمتّعت بها اللاتينية ما يماثلها حقًا على الصعيد السياسي.

Febvre and Martin, *The Coming*, pp. 310-315.

(11)

(*) الإمبراطورية الغربية (Western Empire)، أو الإمبراطورية الرومانية الغربية، هي النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية منذ أن قام ديوكليتيانوس بفصله في عام 359؛ وصار النصف الآخر من الإمبراطورية الرومانية يُعرف باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ويعرف اليوم على نطاق أوسع بالإمبراطورية البيزنطية.

سَبَقَتْ ولادة اللغات المحلية الإدارية كلاً من الطباعة والانقلاب الديني في القرن السادس عشر، لذلك يجب اعتبارها (في البداية على الأقل) عاملاً مستقلاً في تفتت الجماعة المتخيلة المقدسة. وفي الوقت ذاته، فإن ما من شيء يشير إلى وجود أي دوافع أيديولوجية، فضلاً عن الدوافع القومية البدئية، تقف وراء هذا التحول إلى اللغات المحلية في الأماكن التي حصل فيها. ومثال «إنكلترا» - في الطرف الشمالي الغربي من أوروبا اللاتينية - هو مثال مُعَبَّر على هذا الصعيد. ذلك أن الأنكلوساكسونية كانت، قبل الغزو النورماندي، لغة البلاط والأدب والإدارة. أمّا خلال القرن ونصف القرن اللاحق فكانت الوثائق الملكية كلها تُكتب باللاتينية. وبين عامي 1200 و 1350 حلت الفرنسية النورماندية محلّ لاتينية الدولة هذه. وفي غضون ذلك، حصل انصهار بطيء بين لغة الطبقة الحاكمة الأجنبية هذه ولغة السكان الخاضعين الأنجلوساكسونية أُسْفَرَ عن الإنكليزية القديمة. ومكّن الانصهار اللغة الجديدة من أن تأخذ دورها بعد عام 1362، كلغة للبلاط، كما مكّن من افتتاح البرلمان. وتلّت ذلك مخطوطة ويكيليف^(*) التي ترجم فيها الكتاب المقدس إلى اللغة المحلية في عام 1382⁽¹²⁾. ومن المهم أن نبقي في أذهاننا أن هذه المتوالية كانت سلسلة من لغات «الدولة» وليس اللغات «القومية»؛ وأن الدولة المعنية شملت في أوقات مختلفة ليس إنكلترا وويلز الحاليتين فحسب، بل أيضاً أجزاء من إيرلندا واسكتلندا وفرنسا. ومن المؤكّد أن أعداداً ضخمة من سكّان هذه البلدان الخاضعة لم تكن تعرف سوى القليل أو

(*) كان جون ويكيليف (1330 - 1384) الذي تلقى علومه في أكسفورد، من أوائل من أطلقوا شرارة الإصلاح بتحدّيه كثيراً من ممارسات الكنيسة الكاثوليكية، متّهماً إياها بأن لا أساس لها في الكتاب المقدس. ورأى ويكيليف أن لكل فرد الحق في تحرّي الكتاب المقدس بنفسه، سواء كان من الإكليروس أم من العامة. وكي ينتزع الكتاب المقدس من أيدي الكهنة الكاثوليك، قام ويكيليف بأول ترجمة إنكليزية لهذا الكتاب مستنداً إلى ترجمة القديس جيروم اللاتينية. وهذا ماجرّ عليه اتّهام نقّاده بأنه فتح النصوص المقدسة أمام السوق من الناس حتى إنّ «لألى الإنجيل قد تبعثرت وديست بأقدام الخنازير». وفتح عمل ويكيليف هذا البوابات أمام فيض من الترجمات الإنكليزية الأخرى. بعد موته أدين بالهرطقة، وأحرقت كتبه بل إنّ عظامه أخرجت من القبر وأحرقت بأمر من البابا.

Hugh Seton-Watson, *Nations and States. An Enquiry into the Origins of Nations and the* (12) *Politics of Nationalism* (Boulder, Co: Westview Press, 1977), pp. 28-29, and Marc Bloch, *Feudal Society*, Translated by I. A. Manyon, 2 vols. (Chicago: University of Chicago Press, 1961), vol. 1, p. 75.

لا تعرف شيئاً من اللاتينية أو الفرنسية النورماندية أو الإنكليزية القديمة⁽¹³⁾. ولم يَمْضِ ما يقارب القرن على تنويع الإنكليزية القديمة السياسي حتى كُنِست سلطة لندن خارج «فرنسا».

جرت حركة مشابهة على ضفاف السين، وإن تكن وتيرتها أبطأ. وكما يقول بلوخ باستياء: «استغرقت الفرنسية قرونًا عدة كي ترتقي إلى مصاف الأدب، لأنها كانت تُعدّ مجرد شكل فاسد من أشكال اللاتينية»⁽¹⁴⁾، ولم تُغْدُ لغة رسمية للمحاكم والقضاء إلّا في عام 1539، حين أصدر فرانسوا الأول مرسوم فيليه كوتيرييه الشهير الذي يقضي بذلك⁽¹⁵⁾. وفي بعض الممالك السلالية بقيت اللاتينية مدّة أطول بكثير، حيث دامت حتى القرن التاسع عشر في ظلّ آل هابسبورغ. وفي بعضها الآخر، كانت الغلبة للغات محلية «أجنبية»، مثل الفرنسية والألمانية في بلاط آل رومانوف في القرن الثامن عشر⁽¹⁶⁾.

يبدو «اختيار» اللغة، في كلّ حالة من هذه الحالات، تطورًا تدريجيًا وبراعماتٍ وغير واع، كي لا نقول عشوائيًا. وبذلك، كان مختلفًا تمامًا عن السياسات اللغوية الواعية التي اتّبعها الملوك السلاليون في القرن التاسع عشر حين واجههم صعود قوميات ولغات شعبية معادية (انظر الفصل السادس). وإحدى علامات هذا الاختلاف الواضحة أنّ لغات الإدارة القديمة لم تكن سوى لغات إدارة: أي إنّها لم تكن سوى لغات تستخدمها فئة الموظفين ويستخدمها الآخرون مع فئة الموظفين هذه بما يلائم أغراض الإدارة. ولم يكن ثمة نية لفرض هذه اللغات فرضًا منهجيًا على السكان الخاضعين لهؤلاء الملوك⁽¹⁷⁾. ومع ذلك، فإنّ ارتقاء اللغات المحلية إلى مصاف لغات - ال - سلطة، حيث نافست اللاتينية بمعنى ما (الفرنسية في باريس، الإنكليزية

(13) ينبغي ألا نتصوّر أنّ توحيد اللغة المحلية الإدارية تحقق مباشرة أو بصورة كاملة. فمن غير المحتمل أن تكون منطقة غوين [الواقعة جنوب غرب فرنسا] التي حكمتها لندن قد أديرت قطّ بالإنكليزية القديمة في الدرجة الأولى.

Bloch, p. 98.

Seton-Watson, p. 48.

Seton-Watson, p. 83.

(17) ثمة إثبات لهذا الأمر مُتَّفَق عليه قدّمه فرانسوا الأول الذي حظّر، كما رأينا، طباعة أيّ كتاب

في عام 1535 وجعل الفرنسية لغة بلاطه بعد ذلك بأربعة أعوام!

[القديمة] في لندن)، كانت له مساهمته الخاصة في انهيار جماعة العالم المسيحي المُتخيَّلة.

لعل الأهمية التي يحظى بها، في هذا السياق، كلٌّ من قَصْر اللاتينية على فئة قليلة، والإصلاح، وتطور اللغات المحلية الإدارية العشوائي، أن تكون، في جوهرها، أهمية بالمعنى السلبي، في المقام الأول: إذ تُستمدّ من مساهماتها في إقصاء اللاتينية عن سدة العرش. ومن الممكن تمامًا أن نتصوّر بزوغ الجماعات القومية المُتخيَّلة الجديدة من دون وجود أيٍّ من هذه العوامل، وربما من دون وجودها كلها. وما جعل الجماعات الجديدة قابلة للتخيّل، بالمعنى الإيجابي، هو تفاعلٌ يكاد يكون عارضًا، لكنه انفجاريٌّ، بين نظام إنتاج وعلاقات إنتاجية (الرأسمالية)، وتكنولوجيا اتصال (الطباعة)، وقدرٌ متمثلٌ بالتعدد اللغوي البشري⁽¹⁸⁾.

عنصر القَدَر هو عنصر أساسي. ذلك أنّه مهما تكن المآثر الخارقة التي استطاعت الرأسمالية أن تجترحها، إلّا أنّها وجدت في الموت واللغات ذينك الخصمين العنيدين⁽¹⁹⁾. قد تموت لغات معينة أو تُكْتَسَح اكتساحًا، لكنّه لا مجال، في الماضي أو في الحاضر، لتوحيد البشرية في إطار لغة عامة واحدة. لكن هذا الاستغلاق المتبادل بين البشر لم يَحْظَ بأهمية كبيرة تاريخيًا إلّا بعد أن عملت الرأسمالية والطباعة على خَلْقِ ضروبٍ من جماهير القراء الذين يقرأ كلٌّ جمهور منهم بلغته الواحدة.

مع أنّه من الأساسي أن نُبقي في أذهاننا فكرة القَدَر، بمعنى الشرط العام المتمثل بوجود تعدّد لغويّ لا دواء له، فإنّ من الخطأ أن نساوي بين هذا القَدَر وذلك العنصر الشائع في الأيديولوجيات القومية الذي يلحّ على تميّز

(18) ليس هذا بـ«الحدث» الأول من نوعه. ويلاحظ فيفر ومارتن أنّه على الرغم من وجود برجوازية واضحة للعيان في أوروبا أواخر القرن الثالث عشر، فإنّ الورق لم يكن موضع استخدام عام قبل نهاية القرن الرابع عشر. وحده سطح الورق المستوي والصقيل جعل الاستنساخ الآلي للنصوص والصور ممكنًا، الأمر الذي لم يحصل إلّا بعد خمس وسبعين سنة أخرى. لكن الورق لم يكن اختراعًا أوروبيًا. بل جاء من تاريخ آخر - هو تاريخ الصين - عبر العالم الإسلامي. انظر: Febvre and Martin, *The Coming*, pp. 22-23 and 45.

(19) لا نزال نفتقد إلى الشركات متعددة الجنسية العملاقة في عالم النشر.

لغات بعينها بقدر أزلّي خاص واقترانها بوحدات إقليمية بعينها. ذلك أن الشيء الأساس هو التفاعل بين القدر والتكنولوجيا والرأسمالية. وفي أوروبا ما قبل الطباعة، وفي غير مكان من العالم بالطبع، كان تعدد اللغات المنطوقة، تلك اللغات التي شكّلت (وتشكّل) للناطقين بها سداة حياتهم ولحمتها، ذلك التعدد الهائل؛ إلى درجة أنه لو سعت رأسمالية الطباعة إلى استغلال كل سوق من أسواق اللغات المحلية الشفوية لبقيت رأسمالية ذات أبعاد محدودة. لكن هذه اللهجات المتنوعة كانت قابلة لأن تُجمَع، ضمن حدود معينة، في لغات طباعية أقل عددًا بكثير. وما سهّل عملية الجمع هو الاعتبارية التي يتسم بها أيّ نظام للعلامات من حيث أصواته⁽²⁰⁾ (وفي الوقت ذاته، فإنه كلما كانت العلامات عبارة عن رموز مرسومة أو صور، زادت مساحة الجمع الممكن. ويمكن أن نبيّن هنا ضربًا من الترتيب نزولًا من الجبر، مرورًا بالصينية والإنكليزية، إلى الأبجديات المقطعية المألوفة الفرنسية والإندونيسية^(*)). وما من شيء عمِلَ على «جمع» اللغات المحلية المتقاربة بالقدر الذي عملته الرأسمالية التي خلقت، ضمن الحدود التي فرضتها ضروب القواعد والنحو، لغات طباعية قابلة للاستنساخ الآلي وقادرة على الانتشار في السوق⁽²¹⁾.

(20) يمكن للقارئ أن يجد تناوّلًا مفيدًا لهذا الأمر في: S. H. Steinberg, *Five Hundred Years of Printing*, Rev. ed. (Harmondsworth: Penguin, 1966), chapter 5.

لفظ العلامة ough على نحو مختلف في الكلمات although، bough، rough، وcough، وhiccough، يبيّن كلًّا من تنوع اللهجات الذي انبثقت منه تهجئة الإنكليزية السائدة الآن، والخاصية الرمزية أو الصورية للنتائج النهائي.

(*) تعني الكتابة التصويرية (Ideography) تصوير الأشياء أو رسمها لتدل على الألفاظ المختلفة من الأسماء والأفعال. أمّا الكتابة المقطعية (Syllabary) فتخلت عن الصور والرسوم التي تحاكي الطبيعة وموادها واتجهت إلى اللغة نفسها، وذلك بتقطيع اللفظة إلى مقاطع صوتية، فأعطت كل مقطع رمزًا خاصًا، صار بالإمكان استخدامه في كتابة كل ما يخطر ببال الإنسان من كلمات، حيثما يرد، لكنها لم تتخل تمامًا عن الكلمة المصورة التي صارت وظيفتها تقتصر على تحديد المعنى وتخصيصه. والكتابة الأبجدية هي مرحلة التعبير برمز سُمي الحرف عن كل صوت ينطقه الإنسان.

(21) أقول «ما من شيء عمِلَ على «جمع» اللغات المحلية المتقاربة بالقدر الذي عملته الرأسمالية» بناءً على مشورة ونُصح. فكل من ستينبرغ وإيزنشتين يكادان يؤلّهان «الطباعة» كطباعة بوصفها عبقرى التاريخ الحديث. أمّا فيفر ومارتن فلا ينسيان قطّ أنه خلف الطباعة يقف من يطبعون وشركات النشر. ومن الجدير ذكره في هذا السياق أنه على الرغم من اختراع الطباعة في الصين أولاً، =

أرسّت اللغات الطباعية الأساس لضروب الوعي القومي بثلاث طرائق مميزة. خلقت، أولاً وقبل كلّ شيء، حقول تبادل واتصالٍ موحّدة أدنى من اللاتينية وأرفع من اللغات المحلية المنطوقة. ذلك أنّ الناطقين بتلك التشكيلة الضخمة من الفرنسيات أو الإنكليزيات أو الإسبانيات، ممن قد يجدون صعوبةً أو حتى استحالةً في فهم واحدٍ منهم الآخر محادثةً، غدوا قادرين على التفاهم عبر الطباعة والورق. وبات بمقدورهم شيئاً فشيئاً أن يدركوا وجود مئات آلاف، بل ملايين البشر في حقلهم اللغوي المحدّد، وأن يدركوا في الوقت ذاته أنّه لا ينتمي إلى هذا الحقل سوى هذه وحسب من مئات الآلاف أو الملايين. والحال، أنّ زملاء القراءة أو أخوتها هؤلاء، المرتبطين بعضهم ببعض من خلال الطباعة، هم الذين شكّلوا، بخفائهم المرئي والمحدّد والعلماني، جنين الجماعة القومية المُتخيّلة.

أمّا ثانياً فأضفت رأسمالية الطباعة على اللغة ثباتاً جديداً ساهم على المدى الطويل في بناء صورة القِدَم التي تحتلّ مكانةً مركزيةً في فكرة الأمة عن ذاتها. إذ حافظ الكتاب المطبوع، كما يذكرنا فيفر ومارتن، على شكل ثابت، يمكن استنساخه إلى ما لا نهاية، في أيّ وقت وفي أيّ مكان، ولم يُعدّ خاضعاً لعادات الناسخين الرهبان الشخصية وضروب «التحديث اللاواعي» التي كانوا يدخلونها عليه. وهذا ما أبطأ سرعة تغيّر الفرنسية ذلك الإبطاء الحاسم في القرن السادس عشر، في حين كانت فرنسية القرن الثاني عشر مختلفة أشدّ الاختلاف عن الفرنسية التي كتب بها فيلّون^(*) في القرن الخامس عشر. «وفي القرن السابع عشر اتخذت اللغات في أوروبا عموماً أشكالها الحديثة»⁽²²⁾. وبعبارة أخرى، فإنّ هذه اللغات الطباعية المستقرّة منذ ثلاثة قرون وإلى الآن اكتست بطبقةٍ داكنةٍ تحميها؛ وباتت كلمات

= ربما قبل 500 عام من ظهورها في أوروبا، لم يكن لها هناك أي تأثير كبير، فضلاً عن التأثير الثوري، وذلك على وجه الدقة بسبب غياب الرأسمالية.

(*) فرانسوا فيلّون (François Villon) (1431 – 1463)، شاعر فرنسي، ولص، وقاتل، ومشرّد،

ومرتاد للحانات مشاكس.

Febvre and Martin, *The Coming*, p. 319. Cf. *L'Apparition*, p. 477: «Au XVIIe siècle, les (22) langues nationales apparaissent un peu partout cristallisées».

أسلافنا في القرن السابع عشر متاحة لنا على نحوٍ لم يتوفّر لفيلّون إزاء أسلافه في القرن الثاني عشر.

كما خلقت رأسمالية الطباعة، ثالثاً، لغات سلطنة من نوع يختلف عن اللغات المحلية الإدارية القديمة. فمن المؤكّد أنّ لهجات معيّنة كانت هي «الأقرب» إلى كلّ لغة طباعية وسيطرت على أشكالها النهائية. أمّا بنات عمّها المتضررات فخسرن مكانتهن، على الرغم من قابليتهن للجمع والاستيعاب في اللغة الطباعية البازغة، ويعود ذلك قبل كل شيء إلى أنهنّ لم ينجحن (أو نجحن نسبياً فحسب) في الإصرار على شكلهن الطباعي. هكذا غدت «الألمانية الشمالية الغربية» - مع أنها ألمانية شفوية عموماً وأدنى من الفصحى إذا - الألمانية المتداولة(*) لأنها كانت قابلة للجمع والاستيعاب في الألمانية الطباعية على نحوٍ لا نجده لدى التشيكية الشفوية البوهيمية. كما ارتقت الألمانية الرفيعة، وإنكليزية الملك <جيمس>، والتايلندية الوسطى لاحقاً، إلى مصاف جديدة من السمو السياسي - الثقافي (من هنا ذلك الكفاح الذي خاضته قوميات «فرعية» في أوروبا أواخر القرن العشرين لتغيير مكانتها المتدنية عبر اقتحام ميدان الطباعة والإذاعة).

لا يبقى سوى أن نوّكد أنّ عمليتي تثبيت اللغات الطباعية والمفاضلة بينها في المكانة كانتا، في أصولهما، عمليتين غير واعيتين إلى حدٍّ بعيد نجمتا عن التفاعل الانفجاري بين الرأسمالية والتكنولوجيا والتعدد اللغوي البشري. لكنهما، مثل كثير من الأشياء الأخرى في تاريخ القومية، ما إن قامتا حتى أمكنهما أن تغدوا نموذجين شكليين يُقلّدان ويُحاكيان ويُستغلّان عمداً بتلك الروح المكيفيلية حين تسنح الظروف. هكذا، تُحبط الحكومة التايلندية، اليوم، محاولات الإرساليات الأجنبية تزويد أقلياتها القبلية الجبلية بأنظمتها الكتابية وإصدار منشورات بلغاتها، في حين لا تبالي هذه الحكومة ذاتها بما تقوله هذه الأقليات شفويّاً. ومن الأمثلة البارزة أيضاً مصير الشعوب الناطقة بالتركمانية في المناطق التي ألحقت بتركيا وإيران والعراق والاتحاد السوفياتي. إذ كان لدى هؤلاء عائلة من اللغات الشفوية، القابلة في كلّ مكان للجمع والاستيعاب ضمن الإملاء العربي، لكنها فقدت تلك الوحدة نتيجة ضروب

من التلاعب المقصود. فكي يرفع أتاتورك من شأن الوعي القومي الخاص بتركيا الناطقة بالتركية على حساب أيّ هويّة إسلامية أوسع، فرض بالقوة كتابة التركية بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية⁽²³⁾. وسارت السلطات السوفياتية في أعقابه، أولاً من خلال فرضها القسري للحروف اللاتينية في مناهضة للإسلام والفارسية، ثم من خلال الرّؤسنة بفرض الحروف الكيريلية السلافية في ثلاثينيات القرن العشرين أيام ستالين⁽²⁴⁾.

يمكن إيجاز النتائج التي خرجنا بها من نقاشنا إلى الآن بالقول إن تلاقي الرأسمالية وتكنولوجيا الطباعة مع ما تتميز به اللغة البشرية من تعدد قدريّ خَلَق إمكانية قيام شكل جديد من أشكال الجماعة المُتخيّلة، هيّا المنصّة للأمة الحديثة بما اتّسم به من تكوين أساسي. أمّا الامتداد المتاح أمام هذه الجماعات فكان محدوداً أصلاً، ولم تكن تربطه بالحدود السياسية القائمة (التي عادة ما كانت علامات تدلّ على أقصى ما بلغته ضروب التوسّع التي مارستها السلالات الحاكمة) سوى علاقة عرَضية تماماً.

غير أنه في الوقت الذي تمتلك فيه أمم اليوم الحديثة - والدول الأمم - كلها تقريباً «لغات طباعية قومية»، فإنّ كثيراً منها يتقاسم هذه اللغات، وثمة أمم أخرى لا «تستخدم» لغتها القومية في الحديث أو على الورق سوى نسبة ضئيلة من السكّان. وتشكّل الدول الأمم في أميركا الإسبانية أو تلك التي تنتمي إلى «العائلة الأنغلوساكسونية» أمثلة بارزة على الحالة الأولى، في حين يشكّل كثير من الدول المُستعمَرة سابقاً، خصوصاً في أفريقيا، مثالا على الحالة الثانية. وبعبارة أخرى، فإنّ تشكّل الدول الأمم المعاصرة الملموس والعياني لا يتطابق بأيّ حال من الأحوال مع المدى المحدّد الذي تبلغه لغات طباعية معينة. وكي تُفسّر تلك الحالة من الانفصال - في - الاتصال بين اللغات الطباعية والوعي القومي والدول الأمم، لا بدّ لنا من أن نلتفت إلى تلك

Hans Kohn, *The Age of Nationalism* (New York: Harper, 1962), p. 108.

(23)

لعلّ من الإنصاف أن نضيف أنّ أتاتورك كان يأمل أيضاً في أن يربط القومية التركية بحضارة أوروبا الغربية الحديثة، التي تكتب بالحروف اللاتينية.

Seton-Watson, p. 317.

(24) انظر:

المجموعة الكبيرة من الكيانات السياسية الجديدة التي بزغت في نصف الكرة الغربي بين عامي 1776 و 1838، والتي راحت تشير إلى ذاتها بوعي على أنّها أمم، وعلى أنّها جمهوريات (غير سلالية)، باستثناء مثال البرازيل اللافت. ذلك أنّ أمر هذه الكيانات لا يقتصر على كونها تاريخيًا أوّل دول من هذا النوع تظهر على المسرح العالمي، وتوفّر تاليًا أولى النماذج الفعلية لما يجب أن «تبدو عليه» مثل هذه الدول، بل يتعدّاه إلى أنّ أعدادها وضروب ولادتها توفّر أرضية خصبة للبحث المقارن.

رواد كريوليون

تتسم الدول الأميركية الجديدة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بأهمية غير عادية نظرًا إلى ما تبدو عليه من استحالة تفسيرها على أساس عاملين كانا قد سيطرا على قدر كبير من التفكير الأوروبي المحلي في نشوء القومية، ربما لأنهما مستمدان أصلاً من قوميات منتصف القرن الأوروبية.

يتمثل العامل الأول في أننا لو نظرنا إلى البرازيل، أو الولايات المتحدة الأميركية، أو المستعمرات الإسبانية السابقة، لوجدنا أن اللغة لم تكن ذلك العنصر الذي يفرق بينها وبين المتروبولات الإمبريالية التي استعمرتها. ذلك أنها كانت كلها، بما في ذلك الولايات المتحدة، دولاً كريولية، شكلها وقادها أناس تقاسموا مع أولئك الذين قارعوهم لغةً مشتركةً ومحتدًا مشتركًا⁽¹⁾. بل إنه لمن الإنصاف القول إن اللغة لم ترق قط حتى إلى مستوى طرحها كقضية في هذه الصراعات المبكرة من أجل التحرر القومي.

يتمثل العامل الثاني بوجود أسباب وجيهة للشك في إمكانية تطبيق أطروحة نايرن في مناطق كثيرة من نصف الكرة الغربي على الرغم من إقناعها في غير مكان، ومفاد هذه الأطروحة أن:

«مجيء القومية بمعناها الحديث المميز ارتبط بمعمودية الطبقات الدنيا السياسية... فالحركات القومية، على الرغم من معاداتها

(1) الكريول (criollo) هو شخص من أصل أوروبي نقي (نظريًا على الأقل) لكنه مولود في البلدان الأميركية (وبتوسيع لاحق، في أي مكان خارج أوروبا).

الديمقراطية في بعض الأحيان، كانت شعبية على الدوام في تطلّعها إلى دفع الطبقات الدنيا إلى الحياة السياسية وسعيها إلى ذلك. واتّخذ هذا الأمر، في طبيعته النمطية، شكلَ طبقةٍ وسطى وقيادةٍ فكريةٍ قلقتين تحاولان استنهاض ما لدى الطبقات الشعبية من طاقات وتوجيهها نحو مساندة الدول الجديدة»⁽²⁾.

في أميركا الجنوبية والوسطى على الأقلّ كانت «الطبقات الوسطى» من النمط الأوروبي لا تزال بلا أهمية في أواخر القرن الثامن عشر. ولم يكن هنالك أيضًا ذلك القدر الكبير من الإنتليجنسيا. ذلك أنّه «في تلك الأيام الكولونيالية الهادئة، قليلًا ما كانت القراءة تقطع إيقاع حياة البشر المهيب والمتكبر»⁽³⁾. ورأينا أنّ أول رواية أميركية - إسبانية لم تُنشر إلا في عام 1816، بعد اندلاع حروب الاستقلال بفترة طويلة. وتشير الدلائل بوضوح إلى أنّ زمام القيادة كان بأيدي ملاك الأرض الأثرياء المتحالفين مع عدد أصغر نسبيًا من التجار والمهنيين من صنوفٍ شتى (مثل المحامين والعسكر والموظّفين المحليين والإقليميين)⁽⁴⁾.

بعيدًا عن «دفع الطبقات الدنيا إلى الحياة السياسية»، كان واحدًا من العوامل الأساسية التي حفّزت في البدء دافع الاستقلال عن مدريد، في حالات مهمة مثل فنزويلا والمكسيك والبيرو، ذلك الخوف من حراك الطبقات الدنيا السياسي: أعني انتفاضات الهنود أو العبيد الزنوج⁽⁵⁾. (تصاعد هذا الخوف عندما قام من اعتبره هيغل «سكرتير الروح العالمي <نابليون>» بغزو إسبانيا في عام 1808، وحرّم الكريول من دعم شبه الجزيرة العسكري إذا ما احتاجوا إليه). وفي البيرو كانت ذكريات ال jacquerie <التمرد> العظيم الذي قاده توباك

Tom Nairn, *The Break-up of Britain* (London: New Left Books, 1977), p. 41. (2)

Gerhard Masur, *Simon Bolivar* (Albuquerque: University of New Mexico Press, 1948), (3) p. 17.

John Lynch, *The Spanish-American Revolutions, 1808-1826* (New York: Norton, 1973), (4) pp. 14-17 and passim.

نَجَمَ ذلك عن أنّ الوظائف التجارية والإدارية الأشدّ أهمية كانت إلى حدٍّ بعيد حكرًا على الإسبانيين المولودين في إسبانيا، في حين كانت ملكية الأرض متاحة تمامًا للكريول.

(5) ثمة على هذا الصعيد ضروبٌ من التشابه واضحة مع قومية البوير بعد ذلك بقرن.

أمارو (1730 - 1781) لا تزال طرية⁽⁶⁾. وفي عام 1791 قاد توسان لوفرتور تمردًا للعبيد الزنوج انتهى في عام 1804 إلى قيام ثاني جمهورية مستقلة في نصف الكرة الغربي، ورؤّع كبار أصحاب المزارع من ملاك العبيد في فنزويلا⁽⁷⁾. وحين أصدرت مدريد في عام 1789 قانونًا جديدًا، أكثر إنسانية، وفصلت فيه حقوق الأسياد والعبيد وواجباتهم «رفض الكريول تدخل الدولة بحجة أن العبيد مفطورون على الرذيلة والاستقلال [!]»، وأنهم ضروريون للاقتصاد. وفي فنزويلا - بل في الكاريبي الإسباني برمته - قاوم ملاك المزارع القانون وتوصلوا إلى إيقاف العمل به في عام 1794⁽⁸⁾. بل إن المحرّر بوليفار نفسه صرّح ذات مرّة بأنّ تمردًا يقوم به الزنوج «أسوأ ألف مرّة من غزو تقوم به إسبانيا»⁽⁹⁾. وينبغي ألا ننسى أن كثيرًا من قادة حركة الاستقلال في المستعمرات الثلاث عشرة^(*) كانوا من كبار المزارعين ملاك العبيد. وكان توماس جيفرسون نفسه من بين أصحاب المزارع في فرجينيا الذين أثار سخطهم في سبعينيات القرن الثامن عشر إعلان الحاكم الموالي تحرير أولئك العبيد الذين لم يمثلوا لأوامر سادتهم المشاغبين⁽¹⁰⁾. ومما له دلالة أن أحد أسباب نجاح مدريد في العودة إلى فنزويلا بين عامي 1814 و 1816 وفي إبقاء سيطرتها على كويتو النائية حتى عام 1820 يكمن في كسبها دعم العبيد في الحالة الأولى، والهنود في الحالة الثانية، في صراعها مع الكريول المتمردين⁽¹¹⁾. بل إن الأمد الطويل الذي استغرقه صراع هذه القارة مع إسبانيا التي كانت آنذاك قوة أوروبية من

(6) لعلّه من اللافت أن توباك أمارو لم يتنصّل تمامًا من التحالف مع ملك إسبانيا. فتورته وأتباعه (الهنود في معظمهم، إنما مع بعض البيض والمهجنين) كانت على النظام في ليما. انظر: Masur, p. 24.

(7) Hugh Seton-Watson, *Nations and States. An Enquiry into the Origins of Nations and the Politics of Nationalism* (Boulder, Co: Westview Press, 1977). p. 201.

(8) Lynch, p. 192.

(9) Lynch, p. 224.

(*) المستعمرات الثلاث عشرة، هي المستعمرات البريطانية في أميركا الشمالية التي اشتركت في الثورة الأميركية، وأصبحت نواة الولايات المتحدة: نيوهامشير وماساشوستس ورود أيلاند وكونكتيكت ونيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا وديلاوير وماريلند وفرجينيا وكارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية وجورجيا.

(10) Edward S. Morgan, «The Heart of Jefferson,» *New York Review of Books* (17 August 1978), p. 2.

(11) Masur, p. 207, and Lynch, p. 237.

الدرجة الثانية وتعرضت للغزو حديثاً هي نفسها، يشير إلى ما تميّزت به حركات الاستقلال الأميركية اللاتينية هذه من «نحول اجتماعي».

غير أنّها كانت حركات استقلال قوميّة. إذ غيّر بوليفار رأيه في العبيد⁽¹²⁾، وأعلن زميله المحرّر سان مارتين في عام 1821 أن «السكان الأصليين لن يُطلق عليهم في المستقبل اسم الهنود أو المحليين؛ فهم أبناء البيرو ومواطنوها وسوف يُدعون بالبيروفيين»⁽¹³⁾ (ويمكن أن نضيف: على الرغم من حقيقة أنّ رأسمالية الطباعة لم تكن قد وصلت بعد إلى هؤلاء الأميين).

هنا الأهمية إذاً: ما الذي جعل الجماعات الكريولية تحديداً تطوّر تصوراتٍ عن انتمائها إلى أمة على هذا النحو الباكر جداً، قبل معظم أوروبا بوقت طويل؟ ما الذي دفع مثل هذه الأقاليم الكولونيلية التي عادةً ما حوّت أعداداً ضخمة من السكان المضطهدين الذين لا يتكلمون الإسبانية، إلى أن تخرج بالكريول الذين أعادوا عن وعي تعريف هؤلاء السكان على أنّهم أبناء قوميتهم، وأعادوا تعريف إسبانيا⁽¹⁴⁾، التي كانوا يرتبطون بها من نواح كثيرة، على أنّها عدو غريب؟ ما الذي جعل الإمبراطورية الإسبانية - الأميركية التي نعمت بالهدوء ما يقارب قرونًا ثلاثة، تنفتت بصورة مفاجئة تمامًا إلى ثمان عشرة دولة مستقلة؟

العاملان اللذان شاع ورودهما في معظم الإجابات عن هذه الأسئلة هما اشتداد سيطرة مدريد وانتشار أفكار التنوير التحررية في النصف الثاني من

(12) ليس من دون بعض الالتواء والالتفاف. إذ حرّر عبيده بعد فترة وجيزة من إعلان استقلال فنزويلا في عام 1810. وحين فرّ إلى هايتي في عام 1816 حصل على دعم عسكري من الرئيس ألكسندر بيتيون لقاء وعد بوضع حدّ للعبودية في كلّ المناطق المحرّرة. وتمّ الوفاء بهذا الوعد في كاراكاس في عام 1818، غير أنه يجب أن نتذكّر أن النجاحات التي حققتها إسبانيا في فنزويلا بين عامي 1814 و 1816 كانت تعود جزئيًا إلى تحريرها العبيد الموالين لها. وحين أصبح بوليفار رئيس غران كولومبيا (فنزويلا ونيو غراناदा والإكوادور) في عام 1821 طلب من الكونغرس إصدار قانون يحرر أبناء العبيد وحصل على ذلك. لكنه لم يطلب من الكونغرس إلغاء العبودية لأنه لم يكن يريد إثارة استياء كبار الملاك. انظر: Masur, pp. 125, 206-207, 329 and 388.

(13) التشديد من عندي، Lynch, p. 276.

(14) ثمة مفارقة تاريخية هنا. ففي القرن الثامن عشر كان المصطلح المتعارف عليه لا يزال Las Españas (الإسبانيات)، وليس España (إسبانيا). انظر: Seton-Watson, p. 53.

القرن الثامن عشر. من الصحيح بلا شك أن السياسات التي اتبعتها كارلوس الثالث، ذلك «المستبد المستنير» المقتدر الذي حكم بين عامي 1759 و1788، أحبطت الطبقات الكريولية العليا، وأغضبتهم وأفزعتها على ذلك النحو المتصاعد. فخلال الفترة التي تُدعى في بعض الأحيان، ومن باب التهكم المرير، بالغزو الثاني للبلدان الأميركية، فرضت مدريد ضرائب جديدة، وجعلت عملية جمعها أشد كفاءةً، وفرضت احتكار المتروبول في تجارات شتى، وقيدت التجارة بين نصفي الكرة لمصلحتها الخاصة، ومركزت ضروب التراتب الإداري، وحملت أبناء شبه الجزيرة على هجرة كثيفة⁽¹⁵⁾. كانت المكسيك، مثلاً، تدرّ على التاج في أوائل القرن الثامن عشر إيرادات سنوياً قدره حوالي 3000000 بيزو. لكن هذا المبلغ تضاعف خمس مرات تقريباً ليبلغ في نهاية القرن 14000000، لم يُستخدَم منها سوى 4000000 في دفع نفقات الإدارة المحلية⁽¹⁶⁾. بموازاة ذلك بلغت نسبة الهجرة من شبه الجزيرة في العقد بين عامي 1780 و 1790 خمسة أضعاف ما كانت عليه بين عامي 1710 و 1730⁽¹⁷⁾.

لا شك أيضاً في أن تحسّن الاتصالات بين ضفتي الأطلسي، وتقاسم بلدان أميركية عدة اللغات والثقافات ذاتها مع متروبولاتها، أفضيا إلى انتقال المذاهب الاقتصادية والسياسية المنتجة في أوروبا الغربية بسرعة وسهولة نسبيتين. كما ترك نجاح تمرد المستعمرات الثلاث عشرة في أواخر سبعينيات القرن الثامن عشر، وانطلاق الثورة الفرنسية في أواخر ثمانينياته، ذلك الأثر الكبير. وأكثر ما يؤكد هذه «الثورة الثقافية» هو تلك النزعة الجمهورية التي عمّت المجتمعات المستقلة حديثاً⁽¹⁸⁾. فلم تجر أي محاولة جدية لإحياء نظام

(15) كانت عدوانية المتروبول الجديدة هذه نتاجاً لمذاهب التنوير من ناحية، والمشاكل المالية المزمنة من ناحية أخرى، والحرب مع إنكلترا بعد عام 1779، من ناحية ثالثة. انظر: Lynch, pp. 4-17.

(16) Lynch, p. 301.

خُصّصَت أربعة ملايين للإنفاق على الإدارة في أجزاء أخرى من أميركا الإسبانية، في حين كانت ستة ملايين عبارة عن ربح صافٍ.

Lynch, p. 17.

(18) استعار دستور الجمهورية الفنزويلية الأولى (1811) في مواضع كثيرة تلك الاستعارة

الحرفية من دستور الولايات المتحدة الأميركية. انظر: Masur, p. 131.

الحكم السلالي في أيّ مكان من الأمريكيتين، ما عدا البرازيل؛ وحتى هناك، لعلّ هذا الإحياء لم يكن ممكنًا لولا هجرة ملك البرتغال نفسه في عام 1808 هربًا من نابليون (حيث أقام طوال 13 عامًا، وحين عاد إلى وطنه توجّ ابنه ملكًا على البرازيل باسم بيدرو الأول)⁽¹⁹⁾.

لكن عدوانية مدريد والروح الليبرالية، على الرغم من مكانتهما المركزية في أيّ فهم لدافع المقاومة في البلدان الأميركية الإسبانية، لا تفسّران وحدهما ما جعل كيانات مثل تشيلي وفنزويلا والمكسيك تبدو مقبولة وجدانيًا وقابلة للحياة سياسيًا⁽²⁰⁾، ولا ما دفع سان مارتن لأن يقرر إطلاق اسم «البيروفيين» المُستحدث على بعض السكّان الأصليين. كما أنهما لا تفسّران، في النهاية، تلك التضحيات الفعلية التي بُذلت. ذلك أنّه إذا كان من المؤكّد أنّ الطبقات الكريولية العليا، المُتصوِّرة كتشكيلات اجتماعية تاريخية، قد أفادت من الاستقلال على المدى البعيد، إلّا أنّ كثيرًا من أفراد هذه الطبقات الذين عاشوا بين عامي 1808 و 1828 كان مآلهم الإفلاس (كي نضرب مثلًا واحدًا: خلال الهجوم المضاد الذي شنته مدريد بين عامي 1814 و 1816 «تعرّض

(19) يمكن أن نجد تحليلًا ممتازًا ومُفصّلًا للأسباب البنيوية التي تقف وراء الاستثنائية البرازيلية في: José Murilo de Carvalho, «Political Elites and State Building: The Case of Nineteenth-Century Brazil,» *Comparative Studies in Society and History*, vol. 24, no. 3 (1982), pp. 378-399.

من بين العوامل الأكثر أهمية كان ثمة عاملان: (1) الفوارق على صعيد التعليم، ففي حين كان هناك «ثلاث وعشرون جامعة منتشرة في ما سيغدو لاحقًا ثلاثة عشر بلدًا مختلفًا» في البلدان الأميركية الإسبانية، «كانت البرتغال ترفض ذلك الرّفص المنهجي إقامة أيّ مؤسسة للتعليم العالي في مستعمراتها، ما عدا كليات اللاهوت». ولم يكن من الممكن تحصيل التعليم العالي إلا في جامعة كويمبرا، وليس في البلد الأم، وإلى هناك، في البلد الأم، كان يذهب أبناء الصفوة الكريولية، لتدرس أغلبيتهم الساحقة في كلية الحقوق. (2) الفوارق على صعيد الفرص الوظيفية المتاحة أمام الكريول، حيث يلاحظ دي كارفالهو أنّ «إقصاء الإسبان المولودين في أميركا عن المناصب العليا في الجانب الإسباني [كذا] كان أكبر بكثير». انظر أيضًا: Stuart B. Schwartz, «The Formation of a Colonial Identity in Brazil,» in: Nicholas Canny and Anthony Pagden, eds., *Colonial Identity in the Atlantic World, 1500-1800* (Princeton: Princeton University Press, 1987), pp. 15-50.

حيث يلاحظ بصورة عابرة (ص 38) أنّه «لم تُدر في البرازيل أيّ مطبعة خلال القرون الثلاثة الأولى من الحقبة الكولونيالية».

(20) وهذا ما يصحّ إلى حدّ بعيد أيضًا على موقف لندن من المستعمرات الثلاث عشرة، وعلى أيديولوجية ثورة عام 1776.

ما يزيد على ثلثي العائلات الفنزويلية من ملاك الأرض لمصادرة ممتلكاتهم تلك المصادرة الثقيلة»⁽²¹⁾. كما ضحى كثيرون بحياتهم طوعاً من أجل القضية. وهذه الطوعية في التضحية من جانب الطبقات الميسورة هي أمر يثير التأمل والتفكير.

ما التفسير إذاً؟ تكمن بداية الإجابة في الواقعة اللافتة التي مفادها أن «كل جمهورية من الجمهوريات الأميركية الجنوبية الجديدة كانت وحدة إدارية منذ القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر»⁽²²⁾. وكانت تُنذر على هذا الصعيد بما ستكون عليه الدول الجديدة في أفريقيا وأجزاء من آسيا في أواسط القرن العشرين، وتبدي ذلك التعارض الحاد مع الدول الأوروبية الجديدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كان تشكّل الوحدات الإدارية الأميركية الأصلي تشكلاً اعتبارياً وعرضياً بعض الشيء، إذ وقفت حدودها عند الحدود التي بلغت غزوات عسكرية معينة. لكنها راحت تكتسب، بمرور الوقت، واقعاً أشدّ ثباتاً بتأثير عوامل جغرافية وسياسية واقتصادية. ذلك أن اتساع الإمبراطورية الأميركية الإسبانية الهائل، والتنوع الشديد في تربتها ومناخها، وقبل ذلك كله صعوبة الاتصال الرهيب في العصر ما قبل الصناعي، كانت تميل نحو إضفاء طابع الاكتفاء الذاتي على هذه الوحدات (كانت الرحلة البحرية من بوينس آيرس إلى أكابولكو تستغرق أربعة أشهر في الحقبة الكولونيالية، وكانت رحلة العودة تستغرق أكثر؛ وكانت الرحلة البرية من بوينس آيرس إلى سانتياغو تستغرق شهرين في الأحوال العادية، وإلى قرطاجنة تسعة أشهر⁽²³⁾). وعلاوة على هذا، كان لسياسات مدريد التجارية أثرها في تحويل الوحدات الإدارية إلى مناطق اقتصادية منفصلة. ذلك أنه «كان مُحْظَرًا على البلدان الأميركية أن تدخل في أي منافسة مع البلد الأم، ولم يكن باستطاعة أجزاء القارة حتى أن تتاجر بعضها مع بعض. وكان على البضائع الأميركية المنقولة من طرف في أميركا إلى طرف آخر فيها أن تمرّ في الموانئ الإسبانية، إذ كانت البحرية الإسبانية تحتكر التجارة مع

Lynch, p. 208; Cf. Masur, pp. 98-99.

(21)

Masur, p. 678.

(22)

Lynch, pp. 25-26.

(23)

المستعمرات»⁽²⁴⁾. ومثل هذه الوقائع والخبرات تساعد في تفسير ما جعل «مبدأ uti possidetis»^(*) الذي يقضي بأن تُبقي كل أمة على الوضع الإقليمي الذي كان قائمًا في عام 1810، عام انطلاق حركة الاستقلال، واحدًا من المبادئ الأساسية للثورة الأميركية⁽²⁵⁾. ولا شك أيضًا في أن تأثير هذه الوقائع والخبرات ساهم في تفكك غران كولومبيا التي أقامها بوليفار لفترة وجيزة وتفكك اتحاد أقاليم الريدو دي لابلاتا إلى مكُوناته السابقة (التي هي اليوم فنزويلا - كولومبيا - الإكوادور والأرجنتين - الأوروغواي - الباراغواي - بوليفيا). ومن ثم، فإن المناطق - الأسواق، بحد ذاتها، سواء كانت جغرافية «طبيعية» أم إدارية سياسية، لا تخلق الروابط. فمن ذا الذي يموت طواعية من أجل الكوميكون أو الاتحاد الاقتصادي الأوروبي؟

كي نرى كيف أمكن تصوّر الوحدات الإدارية، بمرور الوقت، على أنها أرض الآباء، ليس في البلدان الأميركية فحسب، بل في أجزاء أخرى من العالم أيضًا، لا بدّ لنا من أن نُلقي نظرة على السُّبُل التي تخلق بها التنظيمات الإدارية معنى. وكان الأنثروبولوجي فيكتور ترنر^(**) قد كتب بصورة مُلهمة عن «الرحلة» بين الأزمنة والأحوال والامكنة بوصفها تجربة خالقة للمعنى⁽²⁶⁾. وتتطلب كل

Masur, p. 19.

(24)

لم تكن هذه الإجراءات مفروضة إلا جزئيًا بالطبع، وكان قدّر كبير من التهريب جاريًا على الدوام. (*) عبارة لاتينية معناها الحرفي «كما تملك»، ويقضي هذا المبدأ الذي هو أحد مبادئ القانون الدولي بأن تبقى منطقة ما أو سواها من الممتلكات بيد مالكيها في نهاية النزاع، ما لم يُنصّ على غير ذلك في معاهدة.

Masur, p. 546.

(25)

(**) فيكتور ترنر (1920 - 1983) أنثروبولوجي ثقافي بريطاني عُرف بعمله على رموز العبور وشعائره ومناسكه. وغالبًا ما يُشار إلى أعماله، إلى جانب أعمال كليفورد غيرتز وآخرين، باسم الأنثروبولوجيا الرمزية والمقارنة.

(26) انظر كتابه: Victor Turner, *The Forest of Symbols. Aspects of Ndembu Ritual* (Ithaca: Cornell University Press, 1967), especially the chapter «Betwixt and Between: The Liminal Period in Rites de Passage».

ويجد القارئ إحكامًا لاحقًا، أكثر تعقيدًا في كتابه: Victor Turner: «Pilgrimages as Social Processes,» and «Passages, Margins, and Poverty: Religious Symbols of Communitas,» in: *Dramas, Fields and Metaphors. Symbolic Action in Human Society* (Ithaca: Cornell University Press, 1974).

رحلة من هذه الرحلات تفسيرًا (مثال على ذلك، أن الرحلة من الولادة إلى الموت أدت إلى قيام تصورات دينية شتى). والرحلة النمطية التي توافق أغراضنا هنا هي رحلة الحج. ولا يقتصر الأمر على أن روما أو مكة أو بينارس كانت، في أذهان المسيحيين أو المسلمين أو الهندوس، مراكز جغرافيات مقدسة، بل يتعداه إلى أن مركزيتها تلك كان يختبرها و«يؤديها» (بالمعنى المسرحي) دَفْقُ متواصل من الحجّاج الذين كانوا يقصدون تلك المدن من مناطق نائية لا ترتبط بها بأيّ رابط آخر. والحال، أن الحدود الخارجية للجماعات الدينية القديمة المتخيلة كانت تُحدّد بمعنى ما من خلال ما كان يفعله الحجّاج⁽²⁷⁾. وسبق أن أشرنا إلى أن التجاور البدني الغريب الذي يتجاوره الملاويون والفرس والهنود والبربر والأتراك في مكة لا يمكن أن يفهم من دون فكرة أنهم جماعة بشكل ما. ذلك أن البربري الذي يلتقي الملاوي عند الكعبة لا بدّ من أن يتساءل: «لماذا يفعل هذا الرجل ما أفعله، وينطق بالكلمات التي أنطق بها، مع أننا لا نستطيع أن نكلّم واحدنا الآخر؟» وليس هناك سوى جواب واحد، سبق أن تعلّمه المرء، هو: «لأننا... مسلمان». ولطالما كان لحركات <أو كوريوغرافيا> ضروب الحجّ الدينية الكبرى وجهٌ مزدوج أكيد يميّزها: حيث نجد حشدًا هائلًا من الأميين الناطقين بلغات محلية يمثل الواقع المادي الكثيف لهذا الحجّ الطقسي، في حين تؤدّي الشعائر الموحّدة فئة قليلة من الخبراء المتعلمين ثنائيي اللغة متحدرين من كل جماعة لغوية محلية، يفسّر كلّ منهم لأتباعه معنى حركتهم الجمعية⁽²⁸⁾. وفي عصر ما قبل الطباعة، كان واقع الجماعة الدينية المتخيلة يعتمد أشدّ الاعتماد على رحلات متواصلة لا يحصرها العدّ. وما من شيء يستوقف المرء في شأن المسيحية الغربية أيام عزّها أكثر من ذلك الدفّق الطوعي من المريدين المؤمنين القادمين إلى روما من أرجاء

Marc Bloch, *Feudal Society*, Translated by I. A. Manton, 2 vols. (Chicago: University of (27) Chicago Press, 1961), vol. I, p. 64.

(28) ثمة هنا ضروب واضحة من التشابه مع الأدوار الموازية التي قامت بها الإنتليجنسيا ثنائية اللغة والعمال والفلاحون الأميون عمومًا في تكوين حركات قومية معينة، قبل اختراع المذياع. إذ مكّن المذياع الذي اخترع في عام 1895 من تجاوز الطباعة ومن إيجاد تمثيل سمعي للجماعة المتخيلة، مخترقًا مناطق قلما استطاعت الورقة المطبوعة أن تخترقها. لكن الدور الذي قام به المذياع في الثورة الفيتنامية والثورة الإندونيسية وفي قوميات منتصف القرن العشرين عمومًا، لم يُقدّر حقّ قدره ولم يُدرّس على النحو الوافي.

أوروبا كلها، عن طريق «المراكز الإقليمية» المعروفة الخاصة بالتعليم الرهباني. وهذه المؤسسات الكبرى الناطقة باللاتينية كانت تجمع معًا مَنْ يمكن أن نعتبرهم اليوم إيرلنديين ودانماركيين وبرتغال وألمان وسواهم، في جماعاتٍ كان معناها المُقَدَّس يُفَضُّ كلَّ يوم من خلال تجاور أفرادها في غرفة الطعام في الدَّير، ذلك التجاور الذي ما كان يمكن تفسيره لولا هذا.

مع أنَّ رحلات الحجَّ الديني قد تكون الأعظم والأشدَّ أثرًا بين رحلات الخيال، إلَّا أنَّه كان لها، ولا يزال، تلك النظائر العلمانية المحدودة والأكثر تواضعًا⁽²⁹⁾. وأهمَّها، في ما يخصَّ موضوعنا، تلك الأسفار المتنوعة التي خلقها قيام الملكيات المطلقة، ثم الدول الإمبراطورية العالمية ذات المركز الأوروبي. كان الدافع الداخلي لدى الحكم المطلق متَّجهًا إلى خلق جهازٍ للسلطة مُوحَّد، خاضع للحاكم مباشرةً وموَالٍ له في وجه نبالةٍ إقطاعيةٍ خصوصيةٍ ولا مركزيةٍ. وعنى التوحيد تبادل البشر والوثائق البيني الداخلي. وتعزَّز تبادل البشر من خلال الضمِّ - المتفاوت في مداه بالطبع - الذي طاول *homines novi*^(*)، لم يكن لهم، بحكم طبيعتهم هذه، أيَّ قوَّةٍ مستقلةٍ خاصة بهم، فعملوا كأنَّهم استطلاات لإرادات أسيادهم⁽³⁰⁾. هكذا، كان موظَّفو الحكم المطلق يقومون برحلاتٍ مختلفةٍ جوهريًا عن رحلات النبلاء الإقطاعيين⁽³¹⁾. ويمكن أن نمثِّل لهذا الاختلاف على النحو التخطيطي العريض التالي: في الرحلة الإقطاعية النموذجية، يصعد وريث النبيل (س) خطوة، عند وفاة والده ليأخذ مكانه. وهذا الصعود يتطلَّب رحلةً ذهابٍ وإياب، إلى مركز التنصيب، ثم العودة إلى ملك الأجداد. أما الموظَّف الجديد فأمره أعقد بكثير.

(29) ينبغي ألا يؤخذ «الحجَّ العلماني» على أنه مجاز وهمي فحسب. إذ كان <جوزيف> كونراد ساخرًا حين وصف عملاء ليوبولد الثاني الأشباح بأنهم «حجَّاج» في قلب الظلام، لكنه كان دقيقًا أيضًا. (*) *homines novi*، تعبير لاتيني معناه الحرفي «الرجال الجدد»، وكان يشير في روما القديمة إلى حديثي العهد في خدمة مجلس الشيوخ ومجلس القناصل، فإذا ما دخل هؤلاء الحياة العامة وصعدوا في المناصب الرفيعة صار يُشار إليهم بتعبير آخر هو *cives novi* (المواطنون الجدد). والفكرة الأساس هنا هي إمكانية ارتفاع شخص من أصل متواضع إلى موقع بارز في المجتمع.

(30) خصوصًا حيث كان: (أ) الزواج الأحادي مفروضًا دينيًا وقانونيًا؛ (ب) حقُّ البكورة هو القاعدة؛ (ج) الألقاب غير السلالية موروثية ومميَّزة في التصورات وفي القوانين عن المرتبة الوظيفية: أي حيث كانت الأرستقراطيات الإقليمية ذات سلطة مستقلة مهمة. كما هو الحال في إنكلترا، بخلاف سيام.

(31) انظر: Bloch, vol. II, pp. 422ff.

والموهبة، لا الموت، هي التي ترسم مساره. وما يراه أمامه هو قمة وليس مركزاً. فيرحل صاعداً أفاريزها بسلسلة من الحركات القوسية اللولبية التي يأمل أن تغدو أصغر وأزسخ كلما اقترب من الذروة. فهو إذ يُرسل إلى القسم الإداري في المدينة (أ) ومرتبته (م)، قد يعود إلى العاصمة بالمرتبة (ن)؛ ويتابع إلى المقاطعة (ب) بالمرتبة (هـ)؛ ثم إلى الولاية (ت) بالمرتبة (و)؛ وينتهي حجّه في العاصمة بالمرتبة (ي). ولا يوجد في هذه الرحلة أيّ مكان موثوق يمكن للمرء أن يرتاح فيه؛ وكلّ وَقْفَةٍ هي وقفة مؤقتة. وآخر ما يريده الموظف هو أن يعود إلى بيته؛ ذلك أنّه ليس له أيّ بيت ذي قيمة جوهريّة. وهو في طريقه الحلزوني الصاعد يقابل أمثاله من الحجيج التواقين هم زملاؤه الموظفون الذين أتوا من أماكن وعوائل نادرًا ما سمع بها ويأمل من غير شكّ ألا يضطر إلى رؤيتها. لكن وعيًا بالارتباط يبرز من تجربة العيش مع هؤلاء بوصفهم رفاق رحلة (لماذا نحن... هنا... معاً؟)، خصوصًا حين يتقاسمون جميعًا لغة دولة واحدة. ومن ثمّ، إذا ما كان الموظف (أ) من المقاطعة (ب) يدير المقاطعة (ت)، بينما الموظف (ث) من المقاطعة (ت) يدير المقاطعة (ب) - وهو وَضِعٌ يبدأ الحكم المطلق بجعله ممكنًا - فإنّ تجربة التبادل تلك تقتضي تفسيرها الخاص: أيديولوجية الحكم المطلق التي يُحكّمها الرجال الجدد أنفسهم، بقدر ما يُحكّمها العاهل.

أمّا تبادل الوثائق الذي دعم تبادل البشر فعزّزه هو ذاته تطور لغة للدولة مُفَصَّحَةٍ. وكما يبيّن تعاقب الأنغلوساكسونية واللاتينية والنورماندية والإنكليزية القديمة منذ القرن السابع وحتى القرن الرابع عشر، فإنّ أيّ لغة مكتوبة يمكنها، من حيث المبدأ، أن تقوم بهذه الوظيفة، شرط أن تُمنح حقوقًا احتكارية (لكن من الممكن القول إنّه حيثما تمتعت اللغات المحلية، لا اللاتينية، بهذا الاحتكار، كانت وظيفة المَرَكْزَة تتقدّم مزيدًا من التقدّم، عبر الحدّ من تحوّل موظفي عاهل معين إلى أجهزة منافسيه: أي إنها كانت تضمن ألا يجري تبادل الموظفين - الحجاج التابعين لمدير مع أولئك التابعين لباريس).

من حيث المبدأ، كان يجب على ما قامت به الممالك الكبرى في أوروبا الحديثة المبكرة من توسّع خارجي أن ينحو بالنموذج آنف الذكر صوب تنامي بيروقراطيات كبرى، عابرة القارات. لكن ذلك لم يحصل، في حقيقة الأمر،

لأنّ العقلانية الأداتية لدى أجهزة الحكم المطلق - خصوصًا ميلها إلى التوظيف والترقية على أساس المهارة لا المولد - لم تعمل عملها ما وراء سواحل الأطلسي الشرقية إلا على نحو متقطع وغير منتظم⁽³²⁾.

هذا الغرار واضحٌ في البلدان الأميركية. على سبيل المثال، من بين 170 من الولاية أو نواب الملك في أميركا الإسبانية قبل عام 1813 كان أربعة فقط من الكريول. وهذه الأرقام تغدو مذهشةً حين نعلم أنّ الإسبانين المولودين في إسبانيا كانوا في عام 1800 أقلّ من 5 في المئة من أصل 3200000 «أبيض» كريولي في الإمبراطورية الغربية (مفروضين على حوالى 13700000 من السكان الأصليين). وعشية الثورة في المكسيك لم يكن هناك سوى أسقف كريولي واحد، مع أنّ الكريول كانوا في هذه الولاية يفوقون أبناء شبه الجزيرة بنسبة 70 إلى 1⁽³³⁾. ولا حاجة إلى القول إنّ لم يكد يُسمَع بأيّ كريولي تسلّم منصبًا رسميًا مهمًا في إسبانيا⁽³⁴⁾. بل إنّ رحلات حجّ الموظفين الكريول لم تكن مغلقةً صعودًا أو شاقوليًا فحسب. وإذا ما كان بمقدور الموظفين من شبه الجزيرة أن يقطعوا الطريق من سراقوسة إلى قرطاجنة ومدريد وليما، ثم مدريد مرّة أخرى، فإنّ الكريول «المكسيكي» أو «التشيلي» لم يكن يخدم في العادة إلا في المناطق المكسيكية أو التشيلية الكولونيالية: فحركته الأفقية كانت معوّقة مثل صعوده الشاقولي. وبذلك، كانت ذروة تسلّقه اللولبي، وأعلى مركز

(32) من الواضح أنه ينبغي عدم المبالغة في شأن هذه العقلانية. فمثال الولايات المتحدة، حيث مُنِعَ الكاثوليك من تسلّم المناصب حتى عام 1829، ليس بالمثل الفريد. هل يسعنا أن نشبه في أنّ مثل هذا الإقصاء المديد أدّى دورًا مهمًا في تعزيز القومية الإيرلندية؟

Lynch, pp. 18-19 and 298.

(33)

تقريبًا، كان نصف سكان شبه الجزيرة البالغ تعدادهم 15000 من الجنود. (34) يبدو أنه كان هناك حوالى 400 أميركي جنوبي مقيم في إسبانيا في العقد الأول من القرن التاسع عشر. ومن بين هؤلاء كان «الأرجنتيني» سان مارتين الذي أخذ إلى إسبانيا وهو بعد صبي صغير، وقضى الأعوام الـ 27 التالية هناك، ودخل الأكاديمية الملكية الخاصة بالنبل والشباب وأدّى دورًا مميزًا في الكفاح المسلح ضد نابليون قبل أن يعود إلى وطنه لدى سماعه إعلان استقلاله؛ وكذلك بوليفار الذي أقام في مدريد لفترة مع مانويل ميلو، عشيق الملكة ماري لويز «الأميركي». ويصفه مازور أنه كان ينتمي (حوالى عام 1805) إلى «جماعة من الأميركيين الجنوبيين الشباب» الذين كانوا، مثله، «أغنياء، متبطلين لا يجدون حظوة لدى البلاط. وتطوّرت لديهم الكراهية وإحساس الدونية اللذان كان يشعر بهما كثير من الكريول تجاه البلد الأم إلى دوافع ثورية. انظر: (San Martin) 469-470 and 41-47 Masur.

إداري يمكن أن يوكل إليه، هو عاصمة الوحدة الإدارية الإمبراطورية التي يجد فيها نفسه⁽³⁵⁾. لكنه كان يرى في هذا الحجّ المُعَوَّق رفاق رحلة، راحوا يحسّون أنّ زمالتهم لا تأتي من امتداد الرحلة الخاص فحسب، بل أيضًا من ذلك القَدَر المشترك المتمثل بالولادة عبر الأطلسي. وحتى لو كان قد وُلِدَ بعد أسبوع واحد من هجرة والده، فإنّ مجرد ولادته في البلدان الأميركية كانت تحكم عليه بالخضوع، مع أنّه لم يكن يختلف كثيرًا عن الإسبان المولودين في إسبانيا سواء من حيث اللغة أو الدين أو الأصول أو طرائق السلوك. ولم يكن بمقدوره أن يفعل شيئًا على هذا الصعيد: فهو كريوليّ على نحو لا براء منه. ولكم كان يبدو إقصاءه بعيدًا عن العقلانية! لكنّ هذه اللاعقلانية كانت تنطوي على منطقيّ خفيّ: ما دام قد وُلِدَ في البلدان الأميركية، فلا يستطيع أن يكون إسبانيًا قحًا؛ وبالمثل، فإنّ ابن شبه الجزيرة الذي وُلِدَ في إسبانيا، لا يمكنه أن يكون أميركيًا قحًا⁽³⁶⁾.

ما الذي جعل هذا الإقصاء يبدو عقلانيًا في المتروبول؟ لا شك في أنّه اقتران المكيافيلية العريقة مع تنامي تصورات التلوّث البيولوجي والبيئي الذي

(35) بمرور الزمن، بات الحجّ العسكري مهمًا مثل الحجّ المدني. «لم يكن لدى إسبانيا المال ولا القدرة البشرية على إبقاء حاميات كبيرة من الجنود النظاميين في أميركا، واعتمدت بشكل رئيس على الميليشيات الكولونيلية التي توسّعت وأعيد تنظيمها منذ أواسط القرن الثامن عشر». انظر: Masur, p. 10. وهذه الميليشيات كانت محلية تمامًا، ولم تكن أجزاء قابلة للتبديل من جهازٍ أمنيّ قاريّ. ومنذ ستينيات القرن الثامن عشر فصاعدًا، راحت تؤدي دورًا حاسمًا مطردًا مع تزايد الاعتداءات البريطانية. وكان والد بوليفار قائدًا بارزًا في هذه الميليشيات، ودافع عن الموانئ الفنزويلية ضدّ المعتدين. أمّا بوليفار نفسه فخدم في يفاعته في وحدة والده القديمة. (ص 30 و 38).

كان حاله على هذا الصعيد مثل حال كثيرين من قادة الجيل الأول القوميين في الأرجنتين وفنزويلا وتشيلي. انظر: Robert L. Gilmore: «The Militia,» and «The Military,» in: *Caudillism and Militarism in Venezuela, 1810-1919* (Athens, Ohio: Ohio University Press, 1964).

(36) لاحظ التحولات التي أحدثها الاستقلال في البلدان الأميركية: غدا مهاجرو الجيل الأول «أدنى» وليس «أعلى»، فهم الأكثر تلوّثًا بحكم مكان ميلادهم. كما حدثت انقلابات في الأوضاع في ما يتعلق بالعنصرية. ذلك أنّه كان يُنظر إلى «الدم الأسود» - لطخة فرشاة القطران - في ظلّ الاستعمار على أنه يلوّث أيّ «أبيض» ذلك التلوّث الميثوس منه. أما بعد الاستقلال، وفي الولايات المتحدة على الأقل، فدخل الـ«المولّد من أب أبيض وأم زنجية» المتحف. وبات أدنى أثر من آثار «الدم الأسود» يجعل المرء أسود جميلًا. قارن ذلك ببرنامج فيرمين المتفائل في ما يتعلق بتزاوج الأجناس، وغياب أيّ اهتمام لديه بلون الذرية المُتَنَظِّرة.

ترافق مع انتشار الأوروبيين والقوة الأوروبية فوق الكوكب منذ القرن السادس عشر فصاعدًا. فمن وجهة نظر العاهل كان الكريول الأميركيون، بأعدادهم المتزايدة باطراد وتنامي تجذّرهم المحلي جيلًا بعد جيل، مشكلة سياسية فريدة تاريخيًا: كانت تلك أول مرة تضطر فيها المتروبولات إلى التعامل مع أعداد هائلة - بالنسبة إلى تلك الحقبة - من «أبناء جلدتها الأوروبيين» (الذين زادوا على الثلاثة ملايين في البلدان الأميركية الإسبانية بحلول عام 1800) بعيدًا عن أوروبا أشدّ البعد. وإذا ما كان من الممكن فتح السكان الأصليين بالأسلحة والمرض، والسيطرة عليهم بغيبات المسيحية وثقافة غريبة تمامًا (فضلاً عن تنظيم سياسي كان متقدّمًا بالنسبة إلى تلك الأيام)، فإن ذلك لا يصحّ على الكريول الذين تربطهم العلاقة ذاتها بكل من الأسلحة والمرض والمسيحية والثقافة الأوروبية شأنهم شأن أبناء المتروبول. بعبارة أخرى، كانت في متناولهم، من حيث المبدأ، تلك الوسائل السياسية والثقافية والعسكرية اللازمة لإثبات وجودهم بنجاح. وكانوا يشكّلون جماعةً كولونيالية وطبقةً عليا في آنٍ معًا. وعلى الرغم من كونهم عرضة للخضوع الاقتصادي والاستغلال، كان دورهم أساسيًا في استقرار الإمبراطورية. ويمكن أن نرى، في هذا الضوء، ضروبًا معينة من التوازي بين وُضْع أقطاب الكريول ووضع البارونات الإقطاعيين الذين كان دورهم حاسمًا في سلطة العاهل، لكنهم كانوا يشكّلون تهديدًا لهذه السلطة. لذلك قام أبناء شبه الجزيرة الذين أُرسِلوا وُلاةً وأساقفة بالوظائف ذاتها التي كان يقوم بها الـ *homines novi* من طلائع بيروقراطيات الحكم المطلق⁽³⁷⁾. وحتى لو كان الوالي نبيلًا وشريفًا في موطنه الأندلسي، فإنّه كان هنا، على بعد 5000 ميل، وبقرّب الكريول، نوعًا من الـ *homo novus* الفعلي التابع كليًا لسيّده في المتروبول. وعلى هذا النحو، كان التوازن المتوتر بين الموظّف القادم من شبه الجزيرة والكريول القطب تعبيرًا عن سياسة فرّق تسدّ القديمة في وُضْع جديد.

علاوةً على هذا، كان لا بدّ لتنامي جماعات الكريول، في البلدان الأميركية بصورة أساسية، وكذلك في أجزاء من آسيا وأفريقيا، من أن يؤدّي

(37) نظرًا إلى اهتمام مدريد العميق بأن تكون إدارة المستعمرات في أيّد جديرة بالثقة، «كان من البدهي أن يشغل المناصب العليا إسبان وُلِدوا في إسبانيا على وجه الحصر». انظر: Masur, p. 10.

إلى ظهور الأوراسيين والأورافريقيين، فضلاً عن الأوراميركيين، لا كُتِفَ أو طرائف عارضة بل كجماعات اجتماعية واضحة. وأتاح بزوغ هذه الجماعات ازدهار أسلوب في التفكير كان بمنزلة استباق للعنصرية الحديثة. وتشكّل البرتغال التي كانت الأولى بين فاتحي الكوكب الأوروبيين، مثلاً ملائماً على هذا الأمر. ذلك أنه في العقد الأخير من القرن الخامس عشر، كان لا يزال بمقدور الدوم مانويل الأول أن «يحلّ» ما لديه من «مشكلة يهودية» عن طريق التنصير الجماعي القسري. ولعلّه آخر حاكم أوروبي يجد هذا الحلّ مُرضياً و«طبيعياً» على حدّ سواء⁽³⁸⁾. لكننا، بعد أقلّ من قرن، نرى أليساندرو فالينغانو، منظمّ التبشير الجزويّ في آسيا بين عامي 1574 و 1606، يُعارض بشدّة قبول الهنود والأوروبيين الهنود بين أعضاء الكهنوت:

«جميع هذه الأعراق قاتمة اللون غيبة وأثيمة، وأرواحها أخطّ الأرواح... أمّا الـ mestiços والـ castiços^(*)، فينبغي ألاّ نقبل منهم إلاّ أقلّ القليل أو لا أحد على الإطلاق؛ خصوصاً الـ mestiços، لأنّه كلما زاد الدم المحلي الذي يجري في عروقهم، زاد تشابههم مع الهنود وقلّ تقديرهم عند البرتغاليين»⁽³⁹⁾.

(لكن فالينغانو كان يشجّع بقوة قبول اليابانيين والكوريين والصينيين و«الهنود الصينيين» في الوظائف الكهنوتية، ربما لأنه لم يكن لعدد الـ mestizos في تلك المناطق أيّ شأن في ذلك الحين؟). وبالمثل، عارض الفرنسيّ سكان البرتغاليون في جوا قبول الكريول في نظامهم معارضة عنيفة، بحجّة أنهم «حتى لو كانوا قد وُلِدوا لأبوين أبيضين نقيين فقد رضعوا من مربيّات هنديات في طفولتهم وتلوّث دمهم بذلك مدى الحياة»⁽⁴⁰⁾. ويكشف بوكسر أنّ الحواجز «العرقية» وضروب الإقصاء زادت على نحو ملحوظ في القرنين

Charles R. Boxer, *The Portuguese Seaborne Empire, 1415-1825* (New York: Knopf, (38) 1969), p. 266.

(*) أنواع من المولّدين من أوروبيين وهنود أميركيين، وتنطوي هذه التسميات على ضروب من الإهانة والخطّ من الشأن.

Boxer, p. 252.

(39)

Boxer, p. 253.

(40)

السابع عشر والثامن عشر قياسًا بما كان سائدًا قبل ذلك. أمّا إحياء العبودية على نطاقٍ واسعٍ (لأول مرّة في أوروبا منذ زمن العصور القديمة)، ذلك الإحياء الذي كانت البرتغال رائدته بعد عام 1510، فساهم تلك المساهمة الفادحة في هذه النزعة الخبيثة. ففي خمسينيات القرن السادس عشر كان العبيد يشكلون 10 في المئة من سكّان لشبونة؛ وفي عام 1800 كان عدد العبيد يقارب المليون بين سكان البرازيل البرتغالية البالغ عددهم 2500000 أو ما يقارب ذلك⁽⁴¹⁾.

ساهم التنوير أيضًا، بصورةٍ غير مباشرة، في بلورة تمييزٍ قاطعٍ بين أبناء المتروبول والكريول. ولم يقتصر الأوتوقراطي المستنير بومبال، خلال حكمه الذي استمرّ اثنين وعشرين عامًا (1755 - 1777)، على طرد الجزويت من المناطق الواقعة تحت السيطرة البرتغالية، بل اعتبر إطلاق أسماء مهينة على الرعايا «الملونين»، مثل «زنجي» أو «mestiço» (كذا)، فعلًا جرميًا. لكنه برّر هذا القرار مستشهدًا بالتصورات الرومانية القديمة عن المواطنة الإمبراطورية، وليس بتعاليم الفلسفات⁽⁴²⁾. كما مارست تأثيرًا واسعًا في هذا الصعيد كتابات روسو وهيردر التي ترى أنّ للمناخ و«البيئة» تأثيرًا مكوّنًا في الثقافة والطّبع⁽⁴³⁾، وكان من السهل تمامًا بعد ذلك التوصل إلى الاستنتاج المبتذل الملائم الذي مفاده أنّ الكريول، الذين وُلدوا في نصف الكرة الهمجي، مختلفون بطبيعتهم عن أبناء المتروبول، وأدنى منهم، وليسوا ملائمين إذا لتولي المناصب الرفيعة⁽⁴⁴⁾.

تركّز اهتمامنا إلى الآن على عوالم الموظّفين في البلدان الأميركية، وهي عوالم مهمة استراتيجيًا، لكنها تظلّ صغيرة ومحدودة. بل إنّها، بما عرفته من

Rona M. Fields, *The Portuguese Revolution and the Armed Forces Movement* (New York; Washington; London: Praeger, 1975), p. 15. (41)

Boxer, pp. 257-258. (42)

Aira Kemilainen, *Nationalism: Problems Concerning the Word, the Concept and Classification* (Jyvaskyla: Kustantajat, 1964), pp. 72-73. (43)

(44) شدّت هنا على ضروب التمييز العنصري بين أبناء شبه الجزيرة والكريول لأن موضوع النقاش الأساس هو إنشاء القومية الكريولية. وينبغي لذلك ألا يُفهم على أنّه تقليل من شأن النمو الموازي الذي نمته العنصرية الكريولية تجاه الـ mestizos والزنوج والهنود؛ أو من شأن إرادة متروبول غير مهتدة أن يحمي (إلى حدّ معين) هؤلاء التعساء.

صراع بين أبناء شبه الجزيرة والكريول، كانت سابقة على ظهور الوعي القومي الأميركي في نهاية القرن الثامن عشر. ولم يكن لرحلات الحجّ المُعَوَّقة داخل الولايات أيّ عواقب حاسمة إلا بعد أنْ أُمكِنَ تخيّل مداها الإقليمي كأمة، أي بعبارة أخرى بعد وصول رأسمالية الطباعة.

كانت الطباعة قد انتشرت ووصلت إلى إسبانيا الجديدة باكراً، لكنها بقيت طوال قرنين تحت سيطرة العرش والكنيسة المُحكّمة. وحتى نهاية القرن السابع عشر، لم يكن ثمة مطابع إلا في مكسيكو سيتي وليما، وكان إنتاجها كَنَسِيّاً بصورة تكاد تكون حصرية. وفي أميركا الشمالية البروتستانتية لم تكد الطباعة توجد على الإطلاق في ذلك القرن. لكن ثورة فعلية حدثت على هذا الصعيد خلال القرن الثامن عشر. إذ صدر بين عامي 1691 و 1820 ما لا يقلّ عن 2120 «صحيفة»، استمر 461 منها أكثر من عشر سنوات⁽⁴⁵⁾.

ارتبطت شخصية بنجامين فرانكلين بالقومية الكريولية في البلدان الأميركية الشمالية ذلك الارتباط الذي لا يُمَحَى. أمّا أهمية حرفته >بصفته صاحب مطبعة ومحرراً صحافياً> فقد تكون أقلّ وضوحاً. ومن جديد، ثمة فائدة في العودة إلى فيفر ومارتن. فهما يذكّرانا بأنّ «الطباعة لم تتطور حقاً في أميركا [الشمالية] في القرن الثامن عشر إلا بعد أن اكتشف أصحاب المطابع مصدر دخل جديد، هو الصحيفة»⁽⁴⁶⁾. كان ثمة صحيفة على الدوام بين منتجات أصحاب المطابع الذين وضعوا قيد العمل مطابع جديدة، وعادة ما كانوا هم محرريها الأساسيين، بل الوحيديين. لذلك كانت ظاهرة الصحفيّ - صاحب المطبعة في البداية ظاهرة أميركية شمالية بصورة أساسية. ولأنّ المشكلة الأساس التي واجهت الصحفيّ - صاحب المطبعة كانت الوصول إلى القراء، تطور تحالف وثيق بينه وبين مدير مكتب البريد إلى درجة أن واحدهما كثيراً ما كان يتحول إلى الآخر. هكذا، برز مكتب صاحب المطبعة على أنّه المفتاح في اتصالات الجماعة الأميركية وفي حياتها الفكرية. وأدّت

Lucien Febvre and Henri-Jean Martin, *The Coming of the Book. The Impact of Printing*, (45) 1450-1800 (London: New Left Books, 1976). [Translation of *L'Apparition du Livre* (Paris: Albin Michel, 1958)], pp. 208-211.

Febvre and Martin, p. 211.

(46)

سيرورات مماثلة، وإن تكن متقطعة وأبطأ، إلى قيام أولى المطابع المحلية في أميركا الإسبانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر⁽⁴⁷⁾.

ما الذي اتّصفت به الصحف الأميركية الأولى، سواء في الشمال أم في الجنوب؟ لقد بدأت في الأساس تابعةً للسوق ومُلْحَقَةً بها. واشتملت الجرائد الرسمية الأولى - إلى جانب أخبار المَتروبول - على أخبار تجارية (مواعيد وصول السفن ومغادرتها، أسعار السلع والموانئ الموجودة فيها)، وزيجات الأثرياء، وما إلى ذلك. بعبارة أخرى، فإنَّ ما كان يجمع، على الصفحة ذاتها، هذا الزواج مع تلك السفينة، وهذا السعر مع ذلك الأسقف، هو بنية الإدارة الكولونيالية ذاتها ونظام السوق ذاته. على هذا النحو، كانت صحيفة في كاراكاس تخلق بطريقة طبيعية تمامًا، بل وغير سياسية، جماعةً مُتَخَيِّلَةً بين مجموعةٍ معينةٍ من زملاء قراءتها، تخصّصهم هذه السفن والزيجات والأسعار وأولئك الأساقفة. وكان متوقَّعًا، بالطبع، أن تدخل المواد السياسية بمرور الوقت.

لطالما كانت محليةً تلك الجرائد واحدةً من سماتها المثمرة. فقد يقرأ الكريول الكولونيالي صحيفةً من مدريد إذا ما سنحت له الفرصة (مع أنَّها لن تأتي على ذكر عالمه)، أمَّا كثيرٌ من الموظفين من شبه الجزيرة الذين يعيشون في الشارع ذاته فلن يقرأوا صحيفةً من كاراكاس، ولو استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. ويصحّ انعدام التناظر هذا على الأوضاع الكولونيالية الأخرى مهما تعددت وتكاثرت. أما السمة الأخرى فهي التعددية. فالصحف الأميركية - الإسبانية التي ظهرت أواخر القرن الثامن عشر كانت تُكَتَّب بإدراك كامل لوجود صحف محلية في عوالم مشابهة لعالمها. وكان قراء الصحف في مكسيكو سيتي وبوينس آيريس وبوغوتا على وعي تام بوجود الصحف لدى بعضهم بعضًا، حتى لو لم يقرأوها. ومن هنا تلك الازدواجية الشهيرة في القومية الأميركية - الإسبانية الباكورة، المتمثلة بمراوحتها بين الامتداد الفسيح والمحلية الخصوصية. وإذا ما كانت كتابة القوميين المكسيك الأوائل عن أنفسهم أنَّهم *nosotros los Americanos* <نحن الأميركيين> وعن بلدهم أنه *nuestra América* <أميركا التي لنا>،

Jean Franco, *An Introduction to Spanish-American Literature* (Cambridge: Cambridge University Press, 1969), p. 28.

قد فُسِّرَت على أنّها تكشف عن خُيلاء الكريول المحليين الذين رأوا أنفسهم مركز العالم الجديد، لأن المكسيك كانت الأثمن بين أملاك إسبانيا الأميركية⁽⁴⁸⁾، فإنّ البشر في أرجاء أميركا الإسبانية كلها كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم «أميركيون»، لأن هذا المصطلح كان يشير على وجه الدقة إلى القَدَر المشترك المتمثل بالولادة خارج إسبانيا⁽⁴⁹⁾.

رأينا، من جهة أخرى، أنّ مفهوم الصحيفة ذاته ينطوي على تعريض «حوادث العالم» المطردة إلى عملية انكسار تعكسها إلى عالم قراء اللغة المحلية المتخيّل الخاص؛ كما رأينا مدى أهمية فكرة التزامن الراسخ والصلب عبر الزمن بالنسبة إلى تلك الجماعة المتخيّلة. لكن مثل هذا التزامن كان عسيراً على التخيّل بسبب اتساع الإمبراطورية الأميركية الإسبانية الهائل وانعزال أجزائها المكوّنة⁽⁵⁰⁾. وما كان للكريول المكسيكيين أن يعلموا بالتطورات الجارية في بوينس آيرس إلا بعد شهور من وقوعها، وذلك من خلال الصحف المكسيكية، وليس صحف الريودي لابلاتا؛ وكانت تلك الحوادث تبدو لهم «شبيهة» بحوادث المكسيك وليست «جزءاً منها».

بهذا المعنى، فإنّ «فشل» التجربة الأميركية - الإسبانية في توليد قومية أميركية - إسبانية واسعة ودائمة يعكس كلاً من المستوى العام لتطور الرأسمالية والتكنولوجيا في أواخر القرن الثامن عشر وتخلّف الرأسمالية والتكنولوجيا الإشبانييتين «المحلي» بالعلاقة مع اتّساع الإمبراطورية الإدارية. (ربما كان للحقبة التاريخية - العالمية التي تولد فيها كلّ قومية من القوميات ذلك الأثر المهم على مجالها أو مداها. ألا ترتبط القومية الهندية ذلك الارتباط الذي لا انفصام فيه بتوحيد السوق

Lynch, p. 33.

(48)

(49) «جاء عامل مياوم إلى سان مارتين يشتكي من أنّ الناظر الإسباني في المزرعة حيث يعمل قد ضربه. غضب سان مارتين، لكنها كانت غصبة قومية وليس اشتراكية. «ما هذا؟ بعد ثلاث سنوات على الثورة، يتجرأ ماتورانجو (لفظة سوقية تعني إسباني من شبه الجزيرة) أن يرفع يده على أميركي!». انظر:

Lynch, p. 87.

(50) تلك اللوحة التي يرسمها ماركيز لماكوندو الخرافية في روايته مئة عام من العزلة هي بمنزلة استحضار ساحر لنأي الشعوب الأميركية - الإسبانية وعزلتها.

والإدارة الكولونiale بعد التمرد^(*)، على يد القوة الإمبراطورية الأكبر والأكثر تقدماً؟).

كان الكريول البروتستانت، الناطقون بالإنكليزية في الشمال، في وضع أنسب بكثير لتحقيق فكرة «أميركا» ونجحوا في النهاية في تملك لقب «الأميركيين». كانت المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية منطقة أصغر من فنزويلا، ولا تزيد عن ثلث حجم الأرجنتين⁽⁵¹⁾. وحين جُمعت معاً من الناحية الجغرافية، كانت مراكز أسواقها في بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا مفتحة أصلاً بعضها على بعض، وكان سكّانها مرتبطين ذلك الارتباط الوثيق نسبياً عن طريق الطباعة علاوة على التجارة. واستطاعت «الولايات المتحدة» أن تضاعف عددها بالتدريج خلال الـ 183 سنة التالية، بانتقال سكّان قدامى وجدد من قلب الساحل الشرقي القديم باتجاه الغرب. لكننا نجد عناصر «فشل» نسبيّ أو انكماش - عدم استيعاب كندا الناطقة بالإنكليزية، وذلك العقد من استقلال تكساس وسيادتها (1835 - 1846) - حتى في حالة الولايات المتحدة الأميركية. ولو وُجدت في كاليفورنيا القرن الثامن عشر جماعة كبيرة تنطق بالإنكليزية، أما كان من المحتمل أن تنشأ هناك دولة مستقلة تؤدي إزاء المستعمرات الثلاث عشرة ذلك الدور الذي قامت به الأرجنتين إزاء البيرو؟ وحتى في الولايات المتحدة كانت الروابط الوجدانية القومية من المرونة بما يكفي، حيث اقترنت بتوسّع الحدود الغربية السريع وما نشأ بين اقتصادات الشمال والجنوب من تناقضات، الأمر الذي عجّل بنشوب حرب الانفصال بعد قرن تقريباً من إعلان الاستقلال؛ وتذكرنا هذه الحرب

(*) التمرد Mutiny أو ثورة الهند (1857 - 1858) هي انتفاضة كبرى ضد الحكم البريطاني في الهند. وتُعدّ أول حرب استقلال خاضتها البلاد؛ لأنها كانت أول تعبير أساسي عن المشاعر الوطنية، وأول عمل ضد الوجود البريطاني. وبدأ السباهي (الجنود الهنود) تلك الانتفاضة. وكانوا يُشكلون جزءاً من جيش شركة الهند الشرقية، المؤسسة التجارية البريطانية التي حكمت معظم الهند في ذلك الوقت. تمكّنت القوات البريطانية، الأقوى والأفضل عتاداً، من سحق التمرد بارتكاب أعمال انتقامية وحشية. ونتيجة ذلك التمرد تكثف الشعور المعادي للبريطانيين في الهند إلى حد كبير، وتولت الحكومة البريطانية السيطرة الكاملة على المنطقة عوضاً عن شركة الهند الشرقية.

(51) كانت مساحة المستعمرات الثلاث عشرة الإجمالية 322.497 ميلاً مُربّعاً. وكانت مساحة فنزويلا 352.143؛ والأرجنتين 1.072.067؛ وأميركا الجنوبية الإسبانية 3.417.625 ميلاً مُربّعاً.

اليوم بتلك الحروب التي انتزعت فنزويلا والإكوادور من غران كولومبيا، والأورغواي والباراغواي من اتحاد أقاليم الديو دي لابلاتا⁽⁵²⁾.

لعلّه من الملائم - على سبيل الختام الموقت - أن نُعيد تأكيد ما اتّسم به نقاشنا إلى الآن من اندفاع محدود وخاص. ذلك أن النية لم تكن شرح الأسس الاقتصادية - الاجتماعية التي قامت عليها المقاومة المناهضة للمتروبول في نصف الكرة الغربي بين عامي 1760 و 1830 على سبيل المثال، بل أن تُبين الأسباب التي دفعت إلى تصوّر تلك المقاومة بأشكالٍ جمعيّة «قومية» دون سواها. أمّا المصالح الاقتصادية المعنيّة فمعروفة جيّدًا وأهميتها هي تلك الأهمية الجوهرية التي لا لبس فيها. كما كان لليبرالية والتنوير ذلك الأثر القوي الواضح، خصوصًا من حيث توفير ترسانة من الانتقادات الأيديولوجية للأنظمة القديمة والإمبراطورية. لكن ما أراه هو أنّه لا يمكن، ولن يمكن، للمصلحة الاقتصادية، ولا لليبرالية، ولا للتنوير أن تخلق بمفردها ذلك النوع أو الشكل من الجماعة المتخيّلة التي يجب الدفاع عنها في وجه انتهاكات تلك الأنظمة؛ وبعبارة أخرى، فإنّ أيّا من هذه الأمور لم يوفر الإطار - أو هامش الرؤية الذي نادرًا ما يُرى - لوعي جديد لا يقتصر على ما يثير الإعجاب أو النفور من أشياء تقع في وسط حقْل الرؤية⁽⁵³⁾. وأدّى الموظّفون الحجاج وأصحاب المطابع الكريول ذلك الدور التاريخي الحاسم بإنجازهم هذه المهمة على وجه التحديد.

(52) تمثّل الباراغواي حالة ذات أهمية استثنائية. فبفضل الدكتاتورية الخيرّة نسبيًا التي أقامها الجزويت هناك في القرن السابع عشر، كان السكان الأصليون يلقون معاملةً أفضل من التي كانت سائدة في غير مكان من أميركا الإسبانية، حتى إنّ اللغة الغوارانية بلغت مكانة لغة الطباعة. وعَمِلَ طرد التاج للجزويت من أميركا الإسبانية في عام 1767 على جلب تلك البلاد إلى الديو دي لابلاتا، لكن متأخرة جدًّا، ولمدّة لا تتعدّى الجيل الواحد. انظر: Seton-Watson, pp. 200-201.

(53) مما له دلالة أن إعلان الاستقلال في عام 1776 لا يتحدث إلا عن «الشعب»، أما كلمة «الأمة» فلا تظهر أول مرّة إلا في دستور عام 1789. انظر: Kemilainen, p. 105.

لغات قديمة، نماذج جديدة

تزامنت نهاية حقبة حركات التحرر القومي الناجحة في البلدان الأميركية مع انطلاق عصر القومية في أوروبا. ولو تفحصنا طابع هذه القوميات الجديدة التي غيّرت وجه العالم القديم بين عامي 1820 و 1920 لوجدنا سمتين لافتتين تميزانها عن سابقتها. تتمثل أولاهما في الأهمية الأيديولوجية والسياسية المركزية التي حظيت بها «اللغات الطباعية القومية» في هذه القوميات كلها تقريباً، في حين لم تكن الإسبانية والإنكليزية قطّ من القضايا الرئيسة في البلدان الأميركية الثورية. وتتمثل ثانيتهما في أنّ هذه القوميات كلها كانت قادرة على العمل انطلاقاً من نماذج واضحة قدّمتها سابقتها البعيدة، ثمّ غير البعيدة كثيراً، بعد زلازل الثورة الفرنسية. هكذا غدت «الأمة» ذلك الشيء الذي هو محلّ طموح واع انطلاقاً من إطار للرؤية قديم، لا انطلاقاً من إطار للرؤية يزداد حدّة شيئاً فشيئاً. والحقيقة، كما سنرى، أنّ «الأمة» تكشّفت عن كونها ذلك الاختراع الذي يستحيل أن تُمنَح عليه براءة اختراع. وغدت عرضةً لقرصنة أيدي مختلفة أشدّ الاختلاف، وغير متوقّعة في بعض الأحيان. وهذا ما يدفعنا إلى أن نركّز تحليلنا، في هذا الفصل، على كلّ من اللغات الطباعية والقرصنة.

سبق لجوهان غوتفرد فون هيردر (1744 - 1803) أن أعلن، حوالى نهاية القرن الثامن عشر، وفي استخفافٍ ببعض الحقائق الساطعة خارج أوروبا، أنّ: «Denn jedes Volk ist Volk; es hat seine National Bildung wie seine Sprache» > لكلِّ

شعبٍ بما هو شعب تكوينه القومي مثلما أنَّ له لغته⁽¹⁾. وكان لهذا التصوُّر الأوروبي المنشأ عن تكوُّن الأمة، بوصفها مرتبطة بلغة هي ضربٌ من الملكية الخاصة، أثره الواسع في أوروبا القرن التاسع عشر، فضلاً عن أثره الأضيق في التنظير اللاحق في شأن طبيعة القومية. ما أصول هذا الحلم؟ إنها تكمن، على الأرجح، في ما تعرَّض له العالم الأوروبي من انكماشٍ شديدٍ في الزمان والمكان بدءاً من القرن الرابع عشر، وهو انكماشٌ نجم في البداية عن حفريات الإنسانويين، في حين نجم لاحقاً، وعلى نحوٍ فيه مفارقة، عن توسُّع أوروبا الكوكبي.

عبر أورباخ عن هذا الأمر أحسن تعبير، في كتابه المحاكاة⁽²⁾ حين قال:

«كان ثمة إحساس، منذ أوّل فجر الإنسانويّة، بأنّ ما يفصل حوادث التاريخ القديم والأسطورة وحوادث الكتاب المقدّس عن الحاضر ليس بُعدُ الزمان فحسب بل أيضاً شروط الحياة المختلفة تماماً. والإنسانوية ببرنامجهما الرامي إلى تجديد أشكال الحياة والتعبير القديمة إنّما تخلق منظوراً تاريخياً عميقاً لم يسبق أن امتلكته أيّ حقبة سابقة نعرفها: فالإنسانويون يرون العصور القديمة في عمقٍ تاريخي، ويرون، على هذه الخلفية، حقب الظلام في العصور الوسطى البيّنّة... (وهذا ما جعل من المستحيل) إعادة تأسيس حياة العزلة الطبيعية التي عرفتّها الثقافة القديمة أو سداجة القرنين الثاني عشر والثالث عشر التاريخيّة».

هذا التنامي لما يمكن أن ندعوه «التاريخ المقارن» كان له أن يفضي بمرور الوقت إلى تصوّر غير مسبوق عن «حدائيّة» مجاورة لـ «القديم» صراحةً، إنّما على نحوٍ ليس من الضروري أن يكون في مصلحة هذا الأخير على الإطلاق. وطُرِحت هذه القضية بقوة في «معركة القدماء والمُحدّثين» التي سيطرت على الحياة الفكرية الفرنسية في الربع الأخير من القرن السابع

(1) التشديد لي. Aira Kemilainen, *Nationalism: Problems Concerning the Word, the Concept and Classification* (Jyvaskyla: Kustantajat, 1964), p. 42.

(2) التشديد لي. Erich Auerbach, *Mimesis. The Representation of Reality in Western Literature*, Translated by Willard Trask (Garden City, N.Y.: Doubleday Anchor, 1957), p. 282.

عشر⁽³⁾. ولو اقتبسنا أورباخ مرة أخرى، لوجدناه يقول: «كان لدى الفرنسيين في عصر لويس الرابع عشر شجاعة أن يعتبروا ثقافتهم نموذجًا صالحًا بقدر ثقافة القدماء، وفرضوا هذا الرأي على بقية أوروبا»⁽⁴⁾.

أوحى ما شهده القرن السادس عشر من «اكتشاف» أوروبا حضارات عظيمة لم تكن قبل ذلك سوى إشاعات غامضة - في الصين واليابان وجنوب شرق آسيا وشبه القارة الهندية - أو كانت مجهولة تمامًا - الأزيك في المكسيك والإنكا في البيرو - بوجود تعددية إنسانية لا فكاك منها. كان معظم هذه الحضارات قد تطور بانفصال تام عن التاريخ المعروف لكل من أوروبا والعالم المسيحي والعصور القديمة والإنسان بوجه عام: فأنسابها تقع خارج جنة عدن ولا يمكن لهذه الأخيرة أن تتمثلها وتستوعبها (وحده الزمن الفارغ المتجانس كان يمكن أن يتيح مثل هذا الاستيعاب). ويمكن أن نقيس الأثر الذي تركته «الاكتشافات» من خلال الجغرافيات المحددة التي لكيانات ذلك العصر السياسية المتخيلة. إذ زعمت يوتوبيا توماس مور التي ظهرت في عام 1516 أنها حكاية بحار، صادفه المؤلف في أنتويرب، وكان من المشاركين في بعثة أميريكو فيسبوتشي إلى القارة الأميركية بين عامي 1487 و 1498. ولعلَّ الجِدَّة في أطلنطس الجديدة (1726) لفرانسيس بيكون نبعت قبل كل شيء من أنَّ حوادثها تدور في المحيط الهادئ. أمَّا جزيرة الهوينهمز الرائعة في عمل سويفت رحلات غاليفر (1726) فطلعت بخريطة زائفة لموقعها في جنوب الأطلسي (يزداد معنى هذه الخلفيات وضوحًا حين ندرك كم كان بعيدًا عن التخيل أن توضع جمهورية أفلاطون على أي خريطة، سواء كانت زائفة أم حقيقية). وصُوِّرت هذه اليوتوبيات الفكاهة كلها «المُصَاغَة على غرار» اكتشافات فعلية، لا على أنها جنّات عدن مفقودة، بل على أنها مجتمعات معاصرة. ويمكن القول إنها اضطرت إلى أن تكون كذلك، نظرًا إلى أنها كانت قد كُتِبَت كنقد للمجتمعات المعاصرة، ولأن الاكتشافات كانت قد وضعت

(3) بدأت هذه المعركة في عام 1689 عندما نشر شارل بيرو البالغ من العمر 59 عامًا قصيدته عصر لويس العظيم التي ترى أنَّ الفنون والعلوم حققت أعظم ازدهار لها في ذلك الزمان والمكان.

Auerbach, p. 343.

(4)

لاحظ أنَّ أورباخ يقول «ثقافة»، وليس «لغة». ويجب أن نحذر أيضًا من أن نفهم الـ«هم» الواردة في «ثقافتهم» على أنها تشير إلى «أمة».

حدًا لضرورة التماس النماذج في عصورٍ قديمة آفلة⁽⁵⁾. وفي أعقاب اليوتوبيين جاء أعلام التنوير، فيكو ومونتسكيو وفولتير وروسو الذين استثمروا عالمًا «حقيقيًا» غير أوروبي في وابل من الكتابات الهدامة الموجّهة ضد المؤسسات الاجتماعية والسياسية الأوروبية القائمة. والحال، أنّه بات من الممكن النظر إلى أوروبا على أنّها مجرد حضارة بين كثير من الحضارات، حضارة ليس بالضرورة أن تكون المختارة أو الأفضل⁽⁶⁾.

كذلك أحدث الاكتشاف والفتح ثورةً في ما كان لدى أوروبا من أفكار عن اللغة. وعمد البحارة والمبشرون والتجار والجنود البرتغاليون والهولنديون والإسبان، منذ الأيام الأولى - وبدفع من أغراض عملية، مثل الملاحة والتنصير والتجارة والحرب - إلى إعداد قوائم بمفردات اللغات غير الأوروبية كي يُصار إلى جمعها في معاجم بسيطة. أما دراسة اللغات العلمية المقارنة فلم تبدأ بالفعل إلا في أواخر القرن الثامن عشر. ومن الفتح الإنكليزي للبنغال جاءت تلك الاستقصاءات الرائدة التي قام بها وليم جونز في مجال السنسكريتية (1835)، والتي أفضت إلى تحقيق متنامٍ من أنّ الحضارة الهندية أقدم بكثير من الحضارة اليونانية أو اليهودية. ومن حملة نابليون على مصر جاء فكّ شامبليون مغاليق الهيروغليفية (1835)، الأمر الذي أضفى طابعًا تعديديًا على الحضارات القديمة خارج أوروبا⁽⁷⁾. أما ضروب التقدم التي أُحرزت في دراسة اللغات السامية فقوّضت فكرة أنّ العبرية إمّا أن تكون قديمة ذلك القدم الفريد أو أن تكون من مصدر سماوي. ومرة أخرى، راح يجري تصوّر أنساب لا مجال لاستيعابها إلا في زمنٍ فارغ، متجانس. «لم تعد اللغة تواصلًا بين قوة خارجية والناطق البشري بل حقلاً داخليًا يخلقه مستخدمو اللغة وقيمونه

(5) ثمة تعارض مُتقن، بالمثل، بين الشخصيتين المغوليتين المعروفتين في الدراما الإنكليزية. ذلك أنّ مسرحية مارلو تيمورلنك العظيم (1578 - 1588) تصف ملكًا شهيرًا مات منذ عام 1407. في حين تصوّر مسرحية درايدن أورينغزيب (1676) إمبراطورًا معاصرًا لا يزال في سدة الحكم (1658 - 1707).

(6) الحال، أنّه كما حطمت الإمبريالية الأوروبية أسلوبها اللامبالي في أرجاء العالم المختلفة، كذلك وجدت الحضارات الأخرى نفسها في مواجهة راضة وصادمة مع تعدديات محقت أصولها وفصولها المقدسة. ومن الأمثلة على ذلك تهيش المملكة الوسطى في الشرق الأقصى.

(7) Eric Hobsbawm, *The Age of Revolution, 1789-1848* (New York: Mentor, 1964), p. 337.

في ما بينهم»⁽⁸⁾. ومن هذه الاكتشافات جاء فقه اللغة، بدراساته في القواعد المقارنة، وتصنيفه اللغات في عائلات، وإعادة بنائه «لغات أولية» واستعادتها من عالم النسيان على أساس من منطق علمي. وكما يلاحظ هوبسباوم بحق، كان هذا «أول علم يعتبر التطور جوهره ولبه»⁽⁹⁾.

منذ ذلك الحين فصاعدًا بات على اللغات المقدسة - اللاتينية واليونانية والعبرية - أن تختلط على أساس أنطولوجي <كياني> متكافئ مع حشد متنافر من اللغات المحلية العادية المنافسة، في حركة أتمت ما سبق أن أذاقتها إياه رأسمالية الطباعة من تقليل شأنها في السوق. ولأن اللغات كلها غدت تتقاسم تلك المكانة المشتركة الدنيوية، باتت كلها جديرة بالمثل، ومن حيث المبدأ، بأن تكون محل دراسة وإعجاب. لكن لدى مَنْ؟ ما دام أيّ منها لم يعد من عند الله، فمن المنطقي أن يكون الجواب هو لدى مالكيها الجدد: الناطقون المحليون بكل لغة وقراؤها.

كما يبين سيتن واتسون على نحو مفيدٍ أشدّ الفائدة، فإن القرن التاسع عشر كان، في أوروبا ومحيطها المباشر، عصرًا ذهبيًا لواضعي معاجم اللغات المحلية ونُحاتها وفقهاؤها وأدبائها⁽¹⁰⁾. وكان النشاط الفاعل الذي قام به هؤلاء المثقفون الاختصاصيون أساسيًا في تشكيل قوميات القرن التاسع عشر الأوروبية بين عامي 1770 و 1830. ذلك أن المعاجم أحادية اللغة كانت خلاصات وافية ضخمة للكنز الطباعي الذي تمتلكه كل لغة، يمكن حملها (على الرغم من بعض الصعوبة في بعض الأحيان) من المكتبة إلى المدرسة، ومن الوظيفة إلى البيت. أمّا المعاجم ثنائية اللغة فنمت على نزعة مساواتية بين اللغات آخذةً بالاقتراب؛ ذلك أنه بصرف النظر عن الأوضاع السياسية

Edward Said, *Orientalism* (New York: Pantheon, 1978), p. 136.

(8)

Hobsbawm, p. 337.

(9)

(10) «لأن تاريخ اللغة عادةً ما يُفصل في أيامنا ذلك الفصل الصارم عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي العادي، بدا لي أن من الخير جمعه مع هذا التاريخ الأخير، حتى لو أتهمتُ بنقص الخبرة والاطلاع». انظر: Hugh Seton-Watson, *Nations and States. An Enquiry into the Origins of Nations and the Politics of Nationalism* (Boulder, Co: Westview Press, 1977), p. 11.

يشكل اهتمام سيتن واتسون بتاريخ اللغة واحدًا من أهم جوانب نصّه وأكثرها قيمة، على الرغم من إمكانية الاختلاف معه على طريقة استخدامه ذلك التاريخ.

الخارجية، كانت اللغتان التشيكية والألمانية المقترنتان بين دفتي المعجم التشيكي - الألماني / الألماني - التشيكي تحظيان بمكانة واحدة. وكانت المكتبات العظيمة في أوروبا، خصوصًا مكتبات الجامعات، هي ما اتكأ عليه أو ترعرع فيه بالضرورة أولئك الكادحون المجدّون من أصحاب الرؤى الذين كرّسوا سنوات من أعمارهم لجمع تلك المعاجم. ولا يقلّ عن ذلك ضرورة أن قدّرًا كبيرًا من زبائنهم المباشرين كان مؤلفًا من طلاب الجامعة وما قبل الجامعة. ولا شكّ في أن قول هوبسباوم إن «تقدّم القوميات يُقاس بتقدّم المدارس والجامعات، ذلك أن المدارس والجامعات بصورة أخصّ غدت أوعى نصير لتلك القوميات»، هو قول يصحّ على أوروبا القرن التاسع عشر، إن لم يكن يصحّ على أزمنة وأمكنة أخرى⁽¹¹⁾.

يمكن إذا أن نتبّع هذه الثورة المُعْجَمية على النحو الذي نتبّع فيه دويًا متصاعدًا في مستودع للذخيرة أضرمّت فيه النار، حيث يقدح كل انفجارٍ صغيرٍ زناد انفجاراتٍ أخرى، إلى أن يقلب الانفجارُ الأخيرُ الليلَ نهارًا.

مع حلول أواسط القرن الثامن عشر لم يكن ما وفره كدُّ الباحثين الألمان والفرنسيين والإنكليز الهائل مقتصرًا على كامل الكلاسيكيات اليونانية التي قدّمت في شكلٍ طباعيٍّ سهل الاستعمال، وزُوِّدَتْ بالملاحق فقه اللغوية والمعجمية اللازمة، بل تعدّاهَا إلى عشرات الكتب التي أعادت خلق حضارة هيلينية قديمة باهرة وراسخة في الوثنية. وما إن حلّ الربع الأخير من ذلك القرن حتى تزايد انفتاح هذا «الماضي» أمام عدد صغير من المثقفين المسيحيين الشباب الذين يتكلمون اليونانية، كان معظمهم قد درس أو سافر خارج حدود

Hobsbawm, p. 166.

(11)

لم تكن المؤسسات الأكاديمية ذات أهمية بالنسبة إلى القوميات الأميركية. ويلاحظ هوبسباوم نفسه أنه على الرغم من وجود 6000 طالب في باريس زمن الثورة الفرنسية، إلا أنهم لم يؤدوا أي دور في تلك الثورة عمليًا (ص 167). كما يذكّرنا هوبسباوم على نحو مفيد بأن عدد المراهقين في المدارس كان لا يزال صغيرًا جدًّا في النصف الأول من القرن التاسع عشر بالمقارنة مع المقاييس الحديثة على الرغم من انتشار التعليم انتشارًا سريعًا في تلك الفترة: 19000 ألف طالب ثانوي في فرنسا في عام 1824؛ 20000 طالب تعليم عالٍ بين عدد سكان روسيا القيصرية البالغ 68000000 في عام 1850؛ حوالي 48000 طالب جامعي في أوروبا كلها في عام 1848. لكن هذه المجموعة الصغيرة، إنَّما الاستراتيجية، أدّت دورًا محوريًا في ثورة ذلك العام (ص 166 - 167).

الإمبراطورية العثمانية⁽¹²⁾. وتولّى هؤلاء، بعد أن أثار خيالهم ما وجدوه في مراكز الحضارة الأوروبية الغربية من وَلَع باليونان، أمر تخلص اليونانيين المُحدّثين من «البربرية»، بتحويلهم إلى كائنات جديدة ببيركليس وسقراط⁽¹³⁾. ومما يمثل لهذا التغيّر في الوعي كلمات واحد من هؤلاء الشباب، هو أدامانتوس كورائس^(*) (الذي غدا لاحقاً معجماً متحمساً!)، في خطبة أمام جمهور فرنسي في باريس في عام 1803:

«أول مرّة تتفحص الأمة منظر جهلها الشنيع وترتعد إذ ترى بأمّ العين تلك المسافة التي تفصلها عن مجد أسلافها. لكن هذا الكشف المؤلم لا يلقي باليونانيين في مهاوي اليأس، بل يدفعهم إلى أن يقولوا في دواخلهم: نحن أبناء الإغريق، إمّا أن نعمل كي نكون جديرين بهذا الاسم من جديد، أو نتركه»⁽¹⁴⁾.

كذلك ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر قواعد اللغة الرومانية ومعاجمها وتواريخها مصحوبةً بدفع نجح أولاً في المناطق التي كان يحكمها آل هابسبورغ ثم في المناطق التي كان يحكمها العثمانيون ورمى إلى إحلال الأبجدية الرومانية (التي تميّز الرومانيين بحدّة عن جيرانهم السلاف - الأرثوذكس) محلّ الأبجدية الكيريلية⁽¹⁵⁾. وبين عامي 1789 و 1794 أصدرت الأكاديمية الروسية، المُقامة على غرار الأكاديمية الفرنسية، معجماً روسياً في

(12) ظهرت أولى الصحف اليونانية في عام 1784 في فيينا. وكانت فيليكس إتيبرا، <أخوية الصداقة>، الجمعية السريّة المسؤولة إلى حدّ بعيد عن قيام انتفاضة عام 1821 ضد العثمانيين، قد أسست في عام 1814 في «ميناء الحبوب الروسي الجديد العظيم في أوديسا».

(13) انظر مقدمة كتاب: Elie Kedourie, ed. and intro, *Nationalism in Asia and Africa* (New York: Meridian, 1970), p. 40.

(*) أدامانتوس كورائس (1748 - 1833) باحث إنساني يوناني وضع دفاعه عن إحياء الكلاسيكية الأسس الفكرية للكفاح اليوناني من أجل الاستقلال. كان أثره في ما يتعلق باللغة والثقافة اليونانيتين الحديثين ذلك الأثر الضخم.

Kedourie, pp. 43-44.

(14)

التشديد لي. يرد كامل نصّ كورائس «وضع الحضارة الراهن في اليونان» في ص 157 - 182. وهو يشمل تحليلاً مذهلاً للأسس الاجتماعية التي تقوم عليها القومية اليونانية.

(15) لا أزعّم أنني أمتلك أيّ معرفة متخصصة بأوروبا الوسطى والشرقية، لذلك اتكأت بقوة

على سيتن واتسون في تحليل ما سيلبي. وعن اللغة الرومانية، انظر: Seton-Watson, p. 177.

سته مجلدات، أعقبه وضع قواعد رسمية للغة الروسية في عام 1802. ومثل هذان الأمران انتصارًا للغة المحلية على سلافية الكنيسة. ومع أن اللغة التشيكية لم تكن طوال القرن الثامن عشر سوى لغة الفلاحين في بوهيميا (في حين كان النبلاء والطبقات الوسطى الصاعدة يتكلمون الألمانية)، أصدر الكاهن الكاثوليكي جوزيف دوبروفسكي (1753 - 1829) كتابه *Geschichte der böhmischen Sprache und ältern Literature* <تاريخ اللغة البوهيمية والأدب البوهيمي القديم>، وهو أول تأريخ منهجي للغة والأدب التشيكيين. وبين عامي 1835 و 1839 ظهر المعجم التشيكي - الألماني الرائد الذي وضعه جوزيف يونغمان في خمسة مجلدات⁽¹⁶⁾.

يكتب بول إغنوطيوس عن ولادة القومية الهنغارية أنها كانت حادثًا «من الجدة بما يكفي لتحديد تاريخه بعام 1772، ذلك العام الذي نشر فيه الكاتب الهنغاري متعدد المواهب جورجى بسناي الذي كان مقيمًا آنذاك في فيينا حارسًا شخصيًا لماريا تيريزا^(*)، بعض الكتب غير القابلة للقراءة... وأراد بسناي لعمله *magna opera* <العمل العظيم> أن يثبت أن اللغة الهنغارية تلائم الأجناس الأدبية الرفيعة⁽¹⁷⁾. لكن مزيدًا من الحوافز أتى من الأعمال الوافرة التي نشرها فيرنيك كازينسكي (1759 - 1831)، «أبو الأدب الهنغاري»، وعن نقل الجامعة التي غدت جامعة بودابست من بلدة ترنافا الصغيرة الريفية إلى مدينة بودابست. وتجلّى أول تعبير سياسي حيال ذلك في ما أبداه النبلاء المايجار الذين يتكلمون اللاتينية من ردة فعل، في ثمانينيات

Seton-Watson, pp. 150-153.

(16)

(*) ماريا تيريزا (1717 - 1780) الحاكمة الأنثى الوحيدة لأملاك هابسبورغ وآخر أباطرة آل هابسبورغ النمسا، ذلك أن والدها تشارلز السادس الذي توفي في عام 1740 لم يكن قد رزق سوى بهذه الابنة الوحيدة التي أصدر مرسومًا يقضي بأن ترث كل أراضي وممتلكاته بعد وفاته، فأصبحت حينها إمبراطورة لروما المقدسة وملكة المجر وكرواتيا. تزوجت ماريا تيريزا من فرانسيس ستيفان الذي أصبح لاحقًا فرانسيس الأول ورُزقت منه 16 ولدًا وبتًا، أشهرهم الملكة ماري أنطوانيت التي أُعدمت مع زوجها لويس السادس عشر في أثناء حوادث الثورة الفرنسية في عام 1789.

Paul Ignatus, *Hungary* (New York; Washington, DC: Praeger, 1972), p. 44.

(17)

«وقد أثبت ذلك، لكن دافعه السجالي كان أكثر إقناعًا من القيمة الجمالية في الأمثلة التي قدمها». ولعلّه يجدر بنا أن نلاحظ أن هذا المقطع يرد في قسم فرعي عنوانه «اختراع الأمة الهنغارية»، يبدأ بالعبارة التالية الحافلة بالمعاني: «تولد الأمة حين تقرر قلة من البشر أنها يجب أن تولد».

القرن الثامن عشر، ضد قرار الإمبراطور جوزيف الثاني إحلال الألمانية محلّ اللاتينية لغة رئيسة للإدارة الإمبراطورية⁽¹⁸⁾.

في الفترة بين عامي 1800 و 1850 أسفر العمل الرائد الذي قام به باحثون محليون عن قيام ثلاث لغات أدبية مميزة شمال البلقان: السلوفينية والصربية الكرواتية والبلغارية. وفي حين كان يُعتَقَد على نطاقٍ واسع في ثلاثينيات القرن التاسع عشر أنّ «البلغار» ينتمون إلى الأمة ذاتها التي ينتمي إليها الصرب والكروات، وأنهم شاركوا بالفعل في الحركة الإليرية^(*)، نجد أن دولة قومية بلغارية مستقلة برزت إلى الوجود في عام 1878. وكانت اللغة الأوكرانية (أو الروسية الصغيرة) تُعامل بازدراء في القرن الثامن عشر باعتبارها لغة فلاحين أجلاف. لكن إيفان كوتلاريفسكي كتب الإنيابة في عام 1798. وهي قصيدة ساخرة عن الحياة الأوكرانية كان لها أن تحقق شعبية هائلة. وفي عام 1804 أُسِّسَت جامعة خاركوف، وسرعان ما غدت مركزاً لازدهار الأدب الأوكراني. وفي عام 1819 ظهرت قواعد الأوكرانية الأولى، بعد 17 عامًا من ظهور قواعد الروسية الرسمية. وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر تنالت أعمال تاراس شيفشينكو الذي يلاحظ سيتن واتسون أن «تشكّل لغة أوكرانية أدبية مقبولة يدين له أكثر مما يدين لأي شخص آخر. وكان استخدام هذه اللغة مرحلة حاسمة في تشكّل وعي قوميّ أوكراني»⁽¹⁹⁾. ولم تمضِ فترة وجيزة بعد ذلك حتى أُسِّسَت أول حركة قومية أوكرانية في كييف في عام 1846، وكان مؤسسها واحدًا من المؤرّخين!

Seton-Watson, pp. 158-161.

(18)

كانت ردّة الفعل هذه من العنف بما يكفي لإقناع ليوبولد الثاني (حكم بين عامي 1790 و 1792)، خليفة جوزيف الثاني، بإعادة اللاتينية إلى مواقعها. انظر أيضًا الفصل السادس أدناه. ومن اللافت أن كازينسكي وقف في صفّ جوزيف الثاني في هذه القضية. انظر: Ignatus, p. 48.

(*) الحركة الإليرية (Illyrian Movement) تعني بوجه عام الإحياء القومي الكرواتي، وهي حملة ثقافية سياسية قام بها مجموعة من المثقفين الكروات الشباب حوالى عامي 1835 و 1849 وهدفت إلى ترسيخ وجود قومي كرواتي في ظلّ الحكم الهنغاري النمساوي عبر الوحدة اللغوية والإثنية بين سلاف الجنوب. وتشير الإليرية إلى مجموعة واسعة غير محدّدة جيدًا من الشعوب الهندوأوروبية التي سكنت غرب البلقان.

Seton-Watson, p. 187.

(19)

لا حاجة إلى القول إنّ القيصريّة لم تغفر لهذا الشعب طويلاً. إذ حُطِّمَ شيفشينكو في سيبيريا. أمّا آل هابسبورغ فشجعوا القوميين الأوكرانيين في غاليسيا بعض التشجيع، بغية أن يكونوا ثقلًا مقابلًا للبولنديين.

في القرن الثامن عشر كانت السويدية لغة الدولة في ما يُعرَف الآن بـفنلندا. وبعد اتحاد تلك المنطقة مع القيصرية في عام 1809 صارت اللغة الرسمية هي الروسية. لكن «يقظة» الاهتمام بالفنلندية والماضي الفنلندي، التي عبّرت عنها في البداية نصوصٌ كُتبت باللاتينية والسويدية أواخر القرن الثامن عشر، راحت تتجلى في اللغة المحلية على نحوٍ متزايد في عشرينيات القرن التاسع عشر⁽²⁰⁾. وكان قادة الحركة القومية الفنلندية الآخذة بالتبرعم «أشخاصًا تقوم مهنهم على التعامل الواسع مع اللغة: كُتاب ومدّرّسون وقساوسة ومحامون. ومضت دراسة الفولكلور وإعادة اكتشاف الشعر الشعبي الملحمي وجمعه جنبًا إلى جنب مع نشر كتب القواعد والمعاجم، وهو ما أدّى إلى ظهور دوريات عملت على جعل اللغة الفنلندية الأدبية (أي الطباعية) لغة فصحي، الأمر الذي مكّن من التقدّم بمطالب سياسية أقوى تتعلّق بهذه اللغة»⁽²¹⁾. وفي حالة النرويج - التي كانت قد تقاسمت لفترةٍ طويلةٍ لغة مكتوبةٍ مع الدانماركيين، على الرغم من الاختلاف الكامل في اللفظ - بزغت القومية مع قواعد النرويجية الجديدة التي وضعها إيفار أسن (1848) ومعجمه (1850)، ومع نصوص كانت بمنزلة استجابة للمطالبة بلغة طباعية نرويجية خاصة، فضلًا عن إثارتها تلك المطالبة.

في غير مكان، وفي الشطر الأخير من القرن التاسع عشر، نجد أنّ القساوسة والأدباء البوير هم الذين كانوا رواد القومية الأفريقانية^(*)، حيث نجحوا في سبعينيات القرن التاسع عشر في تحويل اللهجة الهولندية المحلية إلى لغة أدبية واعتبارها لم تعد أوروبية. وكان موارد وأقباط، تخرج كثير منهم في الجامعة الأميركية في بيروت (التي أسست في عام 1866) وجامعة القديس يوسف اليسوعية (التي أسست في عام 1875) أكبر المساهمين في إحياء العربية الكلاسيكية وانتشار القومية العربية⁽²²⁾. كما يمكن لنا بسهولة أن

Kemilainen, pp. 208-215.

(20)

Seton-Watson, p. 72.

(21)

(*) الأفريقاني (Africaner)، هو الشخص الجنوب أفريقي الذي تعود عائلته إلى الشعب الهولندي الذي استوطن هناك في القرن السابع عشر.

Seton-Watson, pp. 232 and 261.

(22)

نكشف عن بذور القومية التركية في ظهور طباعة ناشطة باللغة المحلية في استانبول في سبعينيات القرن التاسع عشر⁽²³⁾.

ينبغي ألا ننسى أن هذه الحقبة ذاتها كانت قد شهدت إضفاء الطابع اللغوي المحلي على شكل آخر من أشكال الصفحة المطبوعة: هو النوتة الموسيقية. فبعد دوبرفسكي جاء سميتانا، ودفورجاك، وياناتشيك >في تشيكيا>؛ وبعد أسن، جاء غريغ >في النرويج>؛ وبعد كازينكسي، جاء بيلا بارتوك >في هنغاريا>؛ وهكذا دواليك وصولاً إلى قرننا هذا.

من البدهي، في الوقت ذاته، أن هؤلاء المعجميين جميعهم وفقهاء اللغة والنحويين والفولكلوريين والناشرين والمؤلفين الموسيقيين لم يقوموا بأنشطتهم الثورية في فراغ. كانوا، في النهاية، ينتجون لسوق الطباعة، وكانوا مرتبطين، عبر تلك السوق الصامتة، بجمهور المستهلكين. فمن كان أولئك المستهلكون؟ إنهم، بالمعنى الأعم: عوائل الطبقات القارئة، ليس «الأب العامل» وحده بل الزوجة المثقلة بأعمال البيت والأطفال في سن المدرسة أيضاً. وإذا ما علمنا أن ما يقارب نصف السكان كان لا يزال أمياً في أواخر عام 1840، حتى في بريطانيا وفرنسا الدولتين الأكثر تقدماً في أوروبا (كان الأميون في روسيا المتخلفة يشكلون حوالي 98 في المئة من السكان)، اتضح لنا أن «الطبقات القارئة» كانت تضم بشراً يتمتعون بشيء من القدرة. وبصورة ملموسة أكثر، تألف هؤلاء، علاوة على الطبقات الحاكمة القديمة من النبلاء وأشراف الأرض، من رجال بلاط وكهنة، وشرائح وسطى صاعدة من الموظفين ذوي المراتب الدنيا من أبناء العامة، ومهنيين وبرجوازيين تجار وصناعيين.

شهدت أوروبا أواسط القرن التاسع عشر تزايداً سريعاً في نفقات الدولة وحجم البيروقراطية (المدنية والعسكرية)، على الرغم من غياب أي حروب محلية كبرى. «بين عامي 1830 و 1850 زاد الإنفاق العام بنسبة 25 في المئة

Hans Kohn, *The Age of Nationalism* (New York: Harper, 1962), pp. 105-107.

(23)

عنى ذلك نبذ «العثمانية» التي هي نوع من الرطانة الحكومية المتوارثة تضم عناصر من التركية والفارسية والعربية. ومن اللافت أن إبراهيم شناسي، مؤسس أول صحيفة من هذا النوع، كان قد عاد للتو من دراسة امتدت خمس سنوات في فرنسا. وسرعان ما تبعه آخرون. وفي عام 1876، كان في استانبول سبع صحف يومية باللغة التركية.

للفرد الواحد في إسبانيا، و 40 في المئة في فرنسا، و 44 في المئة في روسيا، و 50 في المئة في بلجيكا، و 70 في المئة في النمسا، و 75 في المئة في الولايات المتحدة الأميركية، وتجاوز 90 في المئة في هولندا⁽²⁴⁾. وعَمِلَ التوسّع البيروقراطي الذي كان يعني تخصصًا بيروقراطيًا أيضًا، على فتح أبواب الترقّي الوظيفي لأعداد أكبر بكثير وأشدّ تنوعًا في أصولها الاجتماعية مقارنةً بما كان عليه الحال في السابق. حتى في آلة الدولة النمساوية - الهنغارية المتداعية، الممتلئة بالمتبطلين الذين لا عمل لهم، والمثقلة بالنبلاء، ارتفعت النسبة المئوية للمتحدّرين من الطبقة الوسطى في الأنساق العليا من قطاعها المدني من 0 في عام 1804، إلى 27 في عام 1829، و 35 في عام 1859، و 55 في عام 1878. أمّا في الجيش فظهر هذا الاتجاه ذاته، وإن كان ذلك بتسارع أبطأ وبصورة متأخرة: إذ ارتفعت نسبة أبناء الطبقة الوسطى في سلك الضباط من 10 في المئة إلى 75 في المئة بين عامي 1859 و 1918⁽²⁵⁾.

إذا ما كان توسّع الطبقات الوسطى البيروقراطية ظاهرة متكافئة نسبيًا، تحدث بمعدلات تمكن المقارنة بينها في كل من الدول الأوروبية المتقدّمة والمتخلّفة، فإنّ نشوء البرجوازية التجارية والصناعية كان بعيدًا عن التكافؤ أشدّ البعد، إذ اتّسم بالكبر والسّعة في بعض الأماكن، وبالضآلة والبطء في بعضها الآخر. غير أنّ هذا «النشوء»، بصرف النظر عن مكانه، يجب أن يُفهم في علاقته مع رأسمالية الطباعة باللغات المحلية.

كانت الطبقات الحاكمة ما قبل البرجوازية قد أوجّدت ضروب تماسكها والتحامها خارج اللغة بمعنى ما، أو على الأقل خارج لغة الطباعة. وحين كان حاكم سيام يتّخذ امرأة نبيلة من الملايو خليفة له، أو حين كان ملك إنكلترا يتزوج من أميرة إسبانية، فهل كان واحدهما يكلم الآخر قطّ على نحو جدّي؟ كانت ضروب التضامن نتاجًا للقراة والتبعية والولاء الشخصي. وكان بمقدور النبلاء «الفرنسيين» أن يساعدوا الملوك «الإنكليز» ضد الملوك المطلقين «الفرنسيين»، ليس على أساس اللغة أو الثقافة المشتركة، بل على أساس قرابة

Hobsbawm, p. 229.

(24)

Peter J. Katzenstein, *Disjoined Partners. Austria and Germany since 1815* (Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1976), pp. 74 and 112.

وصداقات مشتركة، بعيداً عن الحسابات المكيافيلية. أمّا حجم الأرستقراطيات التقليدية الصغير نسبياً، وقواعدها السياسية الثابتة، وإضفاء الطابع الشخصي على العلاقات السياسية عبر الاتصال الجنسي والإرث، فجعل ضروب تماسكها كطبقات تلك الضروب الملموسة بقدر ما هي مُتخيَّلة. كان بمقدور نبالة أمّية أن تظلّ تتصرف كنبالة. لكن ماذا عن البرجوازية؟ كان ها هنا ثمة طبقة لم تبرز إلى الوجود كطبقة، بالمعنى المجازي، إلّا من خلال ترجيعات كثيرة جداً. فلم يكن صاحب مصنع في ليل يرتبط بصاحب مصنع في ليون إلّا من خلال الترجيع والصدى. ولم يكن ثمة سبب ضروري لأن يعرف أحدهما بوجود الآخر؛ فهما في العادة لا يتزوجان ابنتي أحدهما الآخر، أو يرث أحدهما أملاك الآخر. لكن اللغة الطباعية كانت تمكّنهما من أن يتصوّرا بوجه عام وجود آلاف وآلاف من أمثالهما. ويكاد تخيل برجوازية أمّية أن يكون مستحيلاً. لذلك كانت البرجوازيات على المستوى التاريخي العالمي أولى الطبقات التي تقيم ضروب التضامن على أساس مُتخيَّل في جوهره. لكن الحدود القصوى لهذه الضروب من التضامن، في أوروبا القرن التاسع عشر التي هُزِمَتْ فيها اللاتينية منذ حوالى القرنين على يد طباعة رأسمالية باللغات المحلية، كانت محدودة بفهم اللغة المحلية. وبعبارة أخرى، كان يمكن للمرء أن ينام مع أيّ أحد، لكنه لم يكن يستطيع أن يقرأ سوى كلمات بعض البشر.

كان النبلاء وأشراف الأرض والمهنيون والموظفون ورجال السوق آنذاك المستهلكين المحتملين للثورة اللغوية. لكن مثل هذه الزبانة لم تتحقق على نحو كامل في أيّ مكان تقريباً، وتنوّعت مجاميع المستهلكين الفعلية ذلك التنوع الكبير من منطقة إلى أخرى. وكى نرى سبب ذلك، لا بدّ من العودة إلى التعارض الأساسي الذي سبقت الإشارة إليه بين أوروبا والبلدان الأميركية. ففي هذه الأخيرة كان ثمة تناظر تامّ تقريباً بين امتداد الإمبراطوريات المختلفة وامتداد لغاتها المحلية. أمّا في أوروبا فكانت مثل هذه التوافقات نادرة، وكانت الإمبراطوريات السلالية داخل أوروبا متعددة في الأساس من حيث لغاتها المحلية. وبعبارة أخرى، كانت خرائط السلطة واللغة الطباعية تشير إلى نطاقات مختلفة.

بيد أنّ ما وسّم القرن التاسع عشر من تنام عام في التعليم والتجارة والصناعة والاتصالات وأجهزة الدولة خلق دوافع جديدة قوية للمطابقة بين

كل لغة محلية ومملكة سلافية. لقد ظلت اللاتينية لغة دولة في هنغاريا النمساوية حتى أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر، لكنها اختفت مباشرة تقريبًا بعد ذلك. إذ أنه كان بمقدورها أن تكون لغة دولة، لكنها ما كانت لتستطيع، في القرن التاسع عشر، أن تكون لغة الأعمال أو العلوم أو الصحافة أو الأدب، خصوصًا في عالمٍ كانت فيه هذه اللغات تواصل اختراق واحدتها الأخرى وتتنافذ معها.

في هذه الأثناء، كانت لغات الدولة المحلية تكتسب قوةً ومكانةً متعاظمتين باطراد في سيرورة لم تكن مُخططة عمومًا، في البداية على الأقل. هكذا دفعت اللغة الإنكليزية اللغة الغيلية خارج معظم إيرلندا، ودفعت اللغة الفرنسية اللغة البريتونية إلى الحائط، وهمشت اللغة القشتالية اللغة الكاتالانية. وفي تلك الممالك، مثل بريطانيا وفرنسا التي شهدت في أواسط القرن، لأسباب خارجية تمامًا، توافقًا شديدًا نسبيًا بين لغة الدولة ولغة السكان⁽²⁶⁾، لم يكن للتنافذ العام الذي ألمعنا إليه آنفًا تلك الآثار السياسية الدراماتيكية. (وهذه الحالات هي الأقرب إلى حالات البلدان الأميركية). أمّا في كثير من الممالك الأخرى التي قد تكون هنغاريا النمساوية مثالها المحوري، فكانت العواقب انفجارية حتمًا. ذلك أن إحلال أي لغة محلية، في أواسط القرن التاسع عشر، مكان اللاتينية، بنطاقها الضخم، المتداعي، كثير اللغات، إنما المتعلم على نحو متزايد، كان يعد أولئك الرعايا الذين يستخدمون تلك اللغة الطباعية أصلًا بمزايا ومنافع هائلة، وكان يبدو بالمقابل بمنزلة تهديد لأولئك الذين لا يستخدمونها. وأنا أشدد على كلمة أيّ، لأن رفع بلاط آل هابسبورغ من شأن الألمانية في القرن التاسع عشر لم يجعل للألمانية، كما سنناقش بتفصيل أكثر أدناه، أي علاقة مهما تكن بالقومية الألمانية كما يعتقد بعضهم (وفي مثل هذه الظروف يتوقع المرء أن تنشأ في النهاية قومية واعية في كل مملكة سلافية بين قراء اللغة المحلية الرسمية من المحليين. ومثل هذه التوقعات يؤيدها السجل التاريخي).

(26) كان تحويل اللغة المحلية إلى لغة دولة جاريًا في هاتين المملكتين منذ فترة باكرة تمامًا، كما رأينا. وفي حالة المملكة المتحدة كان إخضاع المناطق الناطقة بالغيلية عسكريًا في أوائل القرن الثامن عشر ومجاعة أربعينيات القرن الثامن عشر عاملين مؤثرين ساهما في هذا التحويل.

ليس مدهشاً أن نجد بين زبائن معجميينا جماعات جدّ مختلفة تبعاً لاختلاف الظروف السياسية. ففي هنغاريا، مثلاً - حيث لم يكن ثمة برجوازية ماجيارية عملياً، وكان واحدٌ من بين كلّ ثمانية يدّعي مكانةً أرستقراطيةً ما - كانت فئات من النبلاء الصّغار وأشراف الأرض المُفقرين هي التي دافعت عن الهنغارية الطباعية ضدّ المدّ الألمانيّة⁽²⁷⁾. وهذا ما يصحّ إلى حدّ بعيد على قرّاء البولونية. لكنّ التوافق الأكبر تجسّد في تحالفٍ بين الأشراف الأقلّ شأنًا والأكاديميين والمتخصصين ورجال الأعمال، غالبًا ما قدّم فيه الطرف الأول القادة «البارزين»، والطرفان الثاني والثالث الأسطورة والشعر والصحف والصياغات الأيديولوجية، والطرف الرابع المال وتسهيلات التسويق. ويقدم لنا كورائس اللطيف وصفًا موجزًا وبارعًا لزبائن القومية اليونانية الأوائل الذين كان معظمهم من المثقفين والمقاولين:

«في تلك البلدات التي كانت أقلّ فقرًا، وكان فيها بعض السكان الموسرين وبعض المدارس، وتاليًا بعض الأفراد الذين يمكنهم أن يقرأوا الكتاب القدماء على الأقلّ ويفهموهم، بدأت الثورة بصورة أبكر وأحرزت تقدّمًا أسرع وأسلس. وفي بعض هذه البلدات، كانت المدارس قد توسّعت أصلًا، وأدخِلت إليها دراسة اللغات الأجنبية بل وتلك العلوم التي تُدرّس في أوروبا (كذا). ورعى الأغنياء طباعة الكتب المترجمة عن الإيطالية والفرنسية والألمانية والإنكليزية؛ وأرسلوا إلى أوروبا على نفقتهم شبّانًا تواقين للعلم؛ ووفّروا لأبنائهم تعليمًا أفضل، بما في ذلك الفتيات...»⁽²⁸⁾.

ظهرت مثل هذه الائتلافات القرائية بتراكيب تتنوع على طول الطيف بين المثال الهنغاري والمثال اليوناني، في أرجاء أوروبا الوسطى والشرقية كلها،

Hobsbawm, p. 165.

(27)

ويجد القارئ مناقشة ممتازة ومفصّلة في: Ignotus, pp. 44-56, and Oscar Jaszi, *The Dissolution of the Habsburg Monarchy* (Chicago: University of Chicago Press, 1929), pp. 224-225.

Kedourie, p. 170.

(28)

التشديد لي. كلّ شيء هنا نموذجي. وإذا ما كان كورائس يتطلّع إلى «أوروبا»، فلأن ذلك لا يزال مهمةً ملقاةً على عاتقه؛ فهو يواجه القسطنطينية. والعثمانية لم تغدُ بَعْدُ لغةً أجنبية. وزوجات المستقبل غير العاملات يدخلن سوق الطباعة.

وكذلك في الشرق الأدنى بتوالي سنوات القرن⁽²⁹⁾. وكان طبيعيًا أن يتباين أشدّ التباين حجم مشاركة الجماهير المدنية والريفية في هذه الجماعات المُتخيلة الجديدة المرتبطة باللغات المحلية حيث توقّف ذلك في قَدْر كبير منه على العلاقة بين هذه الجماهير ورُسل القومية المبشّرين بها. ولعلّ بمقدورنا أن نشير، من طرف أول، إلى إيرلندا، حيث أدّى الكهنوت الكاثوليكي المتحدّر من الفلاحين والقريب منهم دورًا وسيطًا محوريًا. أمّا الطرف الآخر فيشير إليه تعليق هوبسباوم الساخر أن: «الفلاحين الغاليسيين عارضوا الثوريين البولنديين في عام 1846 على الرغم من إعلان هؤلاء الأخيرين إلغاء السخرة، وفضّلوا مذبحة السادة والثقة بموظفي الإمبراطور»⁽³⁰⁾. لكن زيادة التعلّم جعلت استثارة الدعم الشعبي أسهل في كلّ مكان، إذ اكتشفت الجماهير مجددًا جديدًا في ما حقّقه الطباعة من سموّ لتلك اللغات التي لطالما كانوا ينطقون بها باتّضاع ومذلة.

لذلك، فإنّ صياغة نايرن اللافتة - «كان على إنتليجنسيا القومية الجديدة المتحدّرة من الطبقة الوسطى أن تدعو الجماهير إلى التاريخ؛ وكان من الواجب كتابة بطاقة الدعوة بلغة يفهمونها»⁽³¹⁾ - هي صياغة صحيحة إلى حدّ ما. بيد أنّه من الصعب أن نعرف ما الذي جعل الدعوة تبدو جذابة بهذا القَدْر، وما الذي مكّن مثل هذه التحالفات المتباينة من أن تطلقها (فإنتليجنسيا نايرن المتحدّرة من الطبقة الوسطى لم تكن المضيف الوحيد)، من غير أن نلتفت أخيرًا إلى القرصنة.

يلاحظ هوبسباوم أنّ «الثورة الفرنسية لم يَقمُ بها أو يَقدّها حزب مُنظّم أو حركة مُنظّمة بالمعنى الحديث، ولا رجال يحاولون تحقيق برنامج منهجيّ. بل إنّها لم تكّد تطلع بـ «قادة» من النوع الذي عودتنا عليه ثورات القرن

(29) انظر، على سبيل المثال: Seton-Watson, *Nations and States*.

حيث يشير في ص 72 إلى فنلندا، وفي ص 145 إلى بلغاريا، وفي ص 153 إلى بوهيميا، وفي ص 432 إلى سلوفاكيا؛ وانظر: Kohn, *The Age of Nationalism*.

حيث يشير في ص 83 إلى مصر، وفي ص 103 إلى فارس.

Hobsbawm, p. 169.

(30)

Tom Nairn, *The Break-up of Britain* (London: New Left Books, 1977), p. 340.

(31)

العشرين، إلى أن ظهرت شخصية نابليون ما بعد الثورية⁽³²⁾. لكنها ما إن وقعت حتى دخلت ذاكرة الطباعة التراكمية. وغدا تسلسل الحوادث المذهل والمحير الذي عاشه صنّاعها وضحاياها «شيئًا» له اسمه الخاص: الثورة الفرنسية. ومثل حجر ضخّم بشع حوّله عدد لا يُحصى من قطرات الماء إلى جلمود مُدَوَّر، كذلك عَمِلَت ملايين الكلمات المطبوعة على تحويل التجربة إلى «مفهوم» على الصفحة المطبوعة، وإلى «نموذج»، في حينه. وغدت الأسئلة - لماذا اندلعت، ما الذي رَمَت إليه، لماذا نجحت أو فشلت - محلّ جدالات لا نهاية لها سواء بين الأصدقاء أم الأعداء: لكن أحدًا قطّ لم يعد يشكّ في ما تشير إليه تاء التأنيث الخاصة بها⁽³³⁾.

على النحو ذاته تقريبًا، غَدَت حركات الاستقلال في البلدان الأميركية «مفاهيم» و«نماذج»، بل و«برامج عمل»، ما إن طُبِعَ عنها. في «الواقع»، كان خوف بوليفار من تمردات الزوج ودعوة سان مارتين السكان الأصليين ليكونوا بيروفيين شيئين متعارضين على نحوٍ مشوّشٍ أشدّ التشوّش. لكن الكلمات المطبوعة سرعان ما جرفت أولهما بعيدًا، فبات يظهر، إذا ما ذُكِرَ أصلًا، على أنّه نوعٌ من الشذوذ الذي لا تترتب عليه أيّ عواقب. ومن هذا التشوّش الأميركي خرجت هذه الوقائع المُتخيّلة: الدول الأمم والمؤسسات الجمهورية والمواطنة المشتركة وسيادة الشعب والرايات والأناشيد الوطنية... إلخ، وجرت تصفية المفاهيم المعاكسة لها: الإمبراطوريات السلالية والمؤسسات الملكية والحكم المطلق والخضوع والنبالات الموروثة والسخرة والغيتو... وهلمجرًا (الشيء المذهل أكثر من أيّ شيء آخر، في هذا السياق، هو «حذف» العبودية الضخمة من «نموذج» الولايات المتحدة الأميركية في القرن التاسع عشر، و«حذف» اللغة المشتركة من «نموذج» الجمهوريات الجنوبية). وعلاوةً على ذلك، باتت تعدّدية الدول المستقلة برهانًا لا يطاله الشكّ على صحة برنامج العمل وقابليته للتعميم.

Hobsbawm, p. 80.

(32)

(33) قارن: «إنّ اسم الثورة الصناعية ذاته يعكس ما كان لها من تأثير بطيء نسبيًا في أوروبا. إذ وُجِدَ الشيء (كذا) في بريطانيا قبل الاسم. ولم تأتِ عشرينيات القرن التاسع عشر حتى كان الاشتراكيون الإنكليز والفرنسيون - وهم أنفسهم جماعة لا سابق لها - قد اخترعوا الاسم، ربما بالقياس على الثورة السياسية في فرنسا». انظر: Hobsbawm, p. 45.

الحال، أن «نموذج» «ال» دولة القومية المستقلة كان متاحًا للقرصنة منذ العقد الثاني من القرن التاسع عشر، إن لم يكن قبل ذلك⁽³⁴⁾ (وأولى الجماعات التي فعلت ذلك هي ائتلافات المتعلمين الهامشية القائمة على أساس اللغة المحلية والتي كان هذا الفصل قد ركّز عليها). ولأنّ هذا النموذج بات في حينه نموذجًا معروفًا، فَرَضَ لهذا السبب على وجه التحديد «معايير» معينة ما كان ليُسَمَّح بالانحراف عنها ذلك الانحراف السافر. واضطرّ الأشراف الهنغار والبولونيون الرجعيون والمتأخرون أنفسهم لأن يتظاهروا بأنهم «يدعون إليها» (إلى مطبخها على الأقل) مواطنيهم المُضطَهدين. وإذا أردتم، فإن منطق سان مارتين في البيرفة هو الذي كان يفعل فعله. فإذا ما كان «الهنغار» يستحقون دولة قومية، فذلك يعني الهنغار جميعهم⁽³⁵⁾؛ يعني دولة يجب أن يكون محلّ سيادتها الأساسي جميع من ينطقون الهنغارية ويتكلمون بها؛ ثم، في الوقت الملائم، تصفية السخرة والارتقاء بالتعليم الشعبي وتوسيع حقّ التصويت... وهلمجراً. هكذا كان طابع القوميات الأوروبية الباكّة «الشعبي»، حتى حين قادتها على نحو ديماغوجي تلك الجماعات الاجتماعية الأشدّ تخلفًا، أعمق من مثيله في البلدان الأميركية: كان على السخرة أن تمضي، ولم تكن العبودية القانونية قابلة للتخيّل، خصوصًا لأنّ النموذج المفهوميّ كان قد تبوأ مكانة يتعذر اجتثاثه منها.

(34) لعلّ من الأدقّ القول إنّ النموذج كان مزيجًا معقدًا من عناصر فرنسية وأميركية، لكن «الواقع القابل للملاحظة» في فرنسا إلى ما بعد عام 1870 كان الملكيات المستعادة والحكم السلالي البديل الذي أقامه ابن أخي نابليون العظيم.

(35) لا يعني هذا أنّ الأمر كان محسومًا تمامًا بهذا الاتجاه. فنصف رعايا مملكة هنغاريا لم يكونوا من المايجيار. وثلاث الأتقان فقط كانوا يتكلمون المايجيارية. وفي أوائل القرن التاسع عشر كانت الأرستقراطية المايجيارية العليا تتكلم الفرنسية والألمانية؛ وكانت النبالة الوسطى والدنيا «تتكلم لاتينية رديئة تشيع فيها التعابير المايجيارية، بل والسلوفاكية والصربية والرومانية فضلًا عن الألمانية المحلية...

انظر: Ignotus, pp. 45-46 and 81.

القومية الرسمية والإمبريالية

في مجرى القرن التاسع عشر، خصوصًا في نصفه الأخير، عَمِلَت الثورة المعجمية - فقه اللغوية ونشوء الحركات القومية داخل أوروبا على خَلْقٍ مزيدٍ من المصاعب الثقافية، ومن ثَمَّ السياسية في وجه كثير من الملوك السلاليين، على الرغم من أنَّ تلك الثورة وذلك النشوء كانا كلاهما نتاجًا لا للرأسمالية فحسب بل لتضخم الدول الملكية السلالية الهائل أيضًا. ذلك أنَّ الشرعية الأساس لمعظم هؤلاء الملوك لم يكن لها، كما رأينا، أيُّ علاقة بالانتماء القومي. لقد حكم آل رومانوف التتار والليتوانيين والألمان والأرمن والروس والفنلنديين. وجَثَمَ آل هابسبورغ عاليًا فوق الماچيار والكروات والسلوفاك والطيّان والأوكرانيين والألمان - النمساويين. وكان آل هانوفر على رأس البنغال والكيبيك والاسكتلنديين والإيرلنديين والإنكليز والويلزيين⁽¹⁾. بل إنَّ أفرادًا من العائلات الملكية ذاتها غالبًا ما حكموا دولًا مختلفة، متعادية أحيانًا، في القارة الأوروبية ذاتها. فإلى أيِّ قومية ننسب البوربون الذين حكموا فرنسا وإسبانيا، والهوينزولرن الذين حكموا بروسيا ورومانيا، والويتلسباخ الذين حكموا بافاريا واليونان؟

رأينا أيضًا أنَّ هذه الممالك السلالية كانت قد استقرت، بسرعاتٍ متفاوتةٍ ولأغراضٍ إدارية في أساسها، على لغات محلية طباعية كلغاتٍ

(1) من طرائف الأمور أنَّ ما غدا في نهاية المطاف الإمبراطورية الإنكليزية المتأخرة لم تحكمه أسرة «إنكليزية» منذ أوائل القرن الحادي عشر: فمنذ ذلك الحين، جَثَمَ على العرش موكبٌ متنافرٌ من النورماند (البلانتاجتيين) والويلزيين (التيودوريين) والإسكتلنديين (الستيوارتيين) والهولنديين (آل أورانج) والألمان (الهانوفرين). ولم يكثر أحدٌ بذلك كثيرًا إلى أن كانت الثورة اللغوية واشتداد القومية الإنكليزية في الحرب العالمية الأولى. فآل قصر وندسور مثل آل قصر شونبرون أو آل قصر فرساي، جميعهم آل قصور.

للدولة، ولم يكن «اختيار» اللغة في جوهره أكثر من مسألة إرث أو ارتياح غير واعين.

بيد أن الثورة المعجمية في أوروبا خلقت قناعة، ونشأتها بالتدريج، بأن اللغات (في أوروبا على الأقل) ملكية شخصية، إذا جاز التعبير، لمجموعات محدّدة تمامًا - هي مجموعات الناطقين بها وقراءها - وبأن هذه المجموعات، التي يجري تخيلها كجماعات، مؤهّلة لأن تحتل مكانها المستقل في أخوية تضمّ أندادًا متساوين. هكذا طرحت مشيرات الاضطراب الفقه لغوية على الممالك السلافية معضلة عويصة راحت تزداد حدّة بمرور الوقت. ولم تبرز هذه المعضلة في أيّ مكان بذلك الوضوح الذي ظهرت به في حالة هنغاريا النمساوية. فحين قرّر الحاكم المطلق المستنير جوزيف الثاني في أوائل ثمانينيات القرن الثامن عشر تغيير لغة الدولة من اللاتينية إلى الألمانية، «لم يحارب اللغة الماجياريّة، مثلاً، بل حارب اللاتينية... وكان يعتقد أن من غير الممكن القيام بأيّ عمل فاعل في مصلحة الجماهير على أساس إدارة النبلاء اللاتينية القروسطية. وبدأ له أن وجود لغة موحّدة تربط أجزاء إمبراطوريته كلها هو ضرورة ملحة. وتحت ضغط هذه الضرورة، لم يسعه أن يختار أيّ لغة أخرى سوى الألمانية، اللغة الوحيدة التي تسيطر على ثقافة وأدب شاسعين ولها أقلية مُعْتَبَرة في كلّ مقاطعة من مقاطعاته»⁽²⁾. والحال، إن «آل هابسبورغ لم يكونوا قوّة ألمنة واعية وذات شأن... وكان بين آل هابسبورغ من لا يتكلمون الألمانية أصلاً. وحتى أولئك الأباطرة من آل هابسبورغ الذين شجّعوا سياسة الألمنة في بعض الأحيان لم تكن تدفع جهدهم هذا أيّ وجهة نظر قومية، بل أمّلت إجراءاتهم النية في توحيد إمبراطوريتهم ولمّ شملها»⁽³⁾. كان هدفهم الأساس هو الـ *Hausmacht* >أراضي السلالة الخاصة<. لكن الألمانية راحت تتسم بوضع مزدوج بعد منتصف القرن التاسع عشر: إذ غدت على نحو متزايد لغة «إمبراطورية - شاملة» و«قومية -

Oscar Jaszi, *The Dissolution of the Habsburg Monarchy* (Chicago: University of Chicago Press, 1929), p. 71.

من اللافت أن جوزيف كان قد رفض أن يقسم يمين التويج كملك لهنغاريا لأن ذلك كان يلزمه احترام امتيازات النبلاء الماجياري «الدستورية». انظر: Paul Ignatus, *Hungary* (New York; Washington, DC: Praeger, 1972), p. 47.

(3) التشديد لي، Ignatus, p. 137.

خاصةً». ومع تصاعد إلحاح الملكية السلالية على استخدام الألمانية بكل طاقاتها، بدت منحازة إلى الرعايا الناطقين بالألمانية، وأثارت ضغينة الباقين. لكنها لو لم تلح ذلك الإلحاح - مع منحها بعض الامتيازات للغات أخرى، على رأسها الهنغارية - لما اقتصر الأمر على تعويق التوحيد فحسب، بل لتعداه إلى شعور رعاياها الناطقين بالألمانية أنهم مهانون، الأمر الذي كان سيتهدها بأن تكون مكروهة بوصفها نصيرة للألمان وخائنة لهم على حد سواء (وهذا ما يشبه كثيرًا حالة العثمانيين الذين كرههم الناطقون بالتركية بوصفهم مُرتدين وكرههم من لا ينطقون بالتركية بوصفهم يمارسون التريك).

نظرًا إلى أن الملكيات السلالية كلها كانت تستخدم لغة محلية ما كلغة للدولة في منتصف القرن⁽⁴⁾، وكذلك بسبب ما حظيت به الفكرة القومية في أوروبا كلها من هبة متصاعدة متسارعة، كان ثمة نزوع ملحوظ بين الملكيات الأوروبية المتوسطة إلى مماشاة الهوية القومية التي كانت تومئ وتُغري. واكتشف آل رومانوف أنهم روس عظماء، وآل هانوفر أنهم إنكليز، وآل هوينزولرن أنهم ألمان، في حين تحول أبناء عموماتهم بشيء من الصعوبة إلى رومان ويونان... وهلم جرا. وعملت هذه الهويات الجديدة، من جهة أولى، على إسناد شرعيات قلت قدرتها في عصر الرأسمالية والعلم ونزعة الشك على أن ترتكز بأمان على قداسة مزعومة وقدم محض. لكن هذه الهويات، من جهة أخرى، طرحت مخاطر جديدة. ذلك أنه حين يعتبر القيصر فيلهلم الثاني نفسه «الألماني الأول»، يقر ضمناً أنه هو نفسه واحدٌ بين كثيرين من نوعه، وأن له وظيفة تمثيلية، ويمكن إذاً، من حيث المبدأ، أن يخون مواطنيه الألمان (وهو شيء لم يكن قابلاً للتصور أيام عز الملكية السلالية، فمن الذي كان يمكن أن يخونه وما الذي كان يمكن أن يخونه؟). وفي أعقاب الكارثة التي أحاقَت بألمانيا في عام 1918، عومل فيلهلم الثاني على أساس أنه صادق في قوله، فأرسله السياسيون المدنيون (علناً) والأركان العامة (بشجاعتها المعهودة، سرًا)، وباسم الأمة، من أرض الآباء إلى ضاحية هولندية

(4) يمكن القول إن حقبة طويلة انتهت في عام 1844 حين أزاح الماجيار اللاتينية في النهاية عن كونها لغة الدولة في مملكة هنغاريا. لكن اللاتينية الرديئة، كما رأينا، كانت في الحقيقة اللغة المحلية للنبالة الماجيارية الوسطى والدنيا حتى فترة متقدمة من القرن التاسع عشر.

مغمورة(*)). وهذا ما جرى لمحمد رضا بهلوي الذي لم يجعل نفسه شاهًا فحسب، بل شاه إيران، فُوَصِمَ بالخيانة. وظهر إقراره هو نفسه ما يمكن أن ندعوه ولاية المحكمة القومية أو اختصاصها، من دون إقرار حكمها، في مشهد كوميدي صغير لحظة مغادرته إلى المنفى. ذلك أنه، قبل صعود سلّم الطائرة، لثم الأرض أمام المصورين وأعلن أنه يأخذ معه حفنة من التراب الإيراني المقدّس. وعملية أخذ التراب هذه منحولة من فيلم عن غاريبالدي، لا عن الملك الشمس(**)(5).

أدت عمليات «تجنيس» السلالات الحاكمة في أوروبا - وهي إجراءات اقتضت في كثير من الحالات بعض الحركات البهلوانية المُسَلِّية - إلى ما يُطلَقُ عليه سيتن واتسون بسخرية اسم «القوميات الرسمية»⁽⁶⁾، التي لم تكن الرُّوسنة القيصرية سوى أشهر أمثلتها. ويمكن أن نفهم هذه القوميات الرسمية على أفضل وجه بوصفها وسيلة للجمع بين التجنيس والاحتفاظ بالسلطة السلالية، خصوصًا فوق مناطق ضخمة متعددة اللغات تراكت منذ العصور الوسطى، أو بوصفها وسيلة لِشَدِّ بَشَرَةِ الأُمَّة الضيقة القصيرة بحيث تغطي جسد الإمبراطورية العملاق. هكذا مثلت «رُوسنة» السكّان المتغايرين من رعايا القيصر ضَرْبًا من الصَّهْر العنيف والواعي بين نظامين سياسيين متعارضين، أحدهما قديم، والآخر جديد كلّ الجدة. (على الرغم

(*) من المعروف أن فيلهلم الثاني قد أُجبر على التنازل عن العرش في عام 1918، بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، ونفي إلى هولندا.

(**) جيوزيبي غاريبالدي (1807 - 1882) سياسي إيطالي ومناضل من أجل الحرية، بطل الوحدة الإيطالية (1870). حارب من أجل إيطاليا طويلاً، الأمر الذي أكسبه محبة الإيطاليين، فأطلقوا اسمه على معالم في كل مدينة وقرية، ونصبوا تماثيله في معظم المدن الإيطالية، واستحق لقب أبو إيطاليا الحديثة. أما الملك الشمس فهو بالطبع لويس الرابع عشر ملك فرنسا.

(5) علمتُ من البروفسور شهابي في جامعة هارفرد أن الشاه كان في المقام الأول يقلّد أباه، رضا بهلوي الذي وضع بعض التراب الإيراني في حقائبه حين نفته لندن إلى موريشيوس في عام 1941.

(6) Hugh Seton-Watson, *Nations and States. An Enquiry into the Origins of Nations and the*

Politics of Nationalism (Boulder, Co: Westview Press, 1977), p. 148.

من المؤسف أن سخرية سيتن واتسون اللاذعة لا تمضي أبعد من أوروبا الشرقية. فهو محقّ في سخريته من نظام آل رومانوف والنظام السوفيياتي، لكنه يغفل أن سياسات مشابهة قد اتبعت في لندن وباريس وبرلين ومدريد وواشنطن.

من بعض التشابه مع أُسْبَنَةِ البلدان الأميركية والفيليبين، مثلاً، إلا أنه يبقى هنالك اختلاف أساسي. إذ صَدَرَ فاتحو القيصرية الثقافيون في أواخر القرن التاسع عشر عن مكيافيلية واعية، أمّا أسلافهم الإسبان في القرن السادس عشر فكانوا يتصرفون انطلاقاً من براغماتية يومية لا واعية. كما أن الأمر لم يكن بالنسبة إليهم «أُسْبَنَةً» فعلية، بل كان مقتصرًا على هداية الوثنيين والهمج وتنصيرهم).

المفتاح في تحديد موقع «القومية الرسمية» - ذلك الاندماج المُراد بين الأمة والإمبراطورية السلالية - هو أن نتذكر أنها ظهرت بعد تكاثر الحركات القومية الشعبية في أوروبا منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، وكردّة فعلٍ عليها. ولما كانت هذه القوميات قد صيغت على نموذج التاريخين الأميركي والفرنسي، فإنّها غدت مركّبة بدورها⁽⁷⁾، ولم يبق سوى بعض الشعوذة وخفة اليد كي يتسنى للإمبراطورية أن تبدو جذابة في إهابها القومي.

كي نكوّن فكرةً عن عملية القَوْلبة الرجعية الثانوية هذه ككلّ، ربما كان مفيداً أن ننظر في بعض الحالات المشابهة لها، لكنها تتعارض معها ذلك التعارض الدالّ.

يبين سيتن واتسون على نحوٍ ممتاز مقدار الضيق الذي كانت تشعر به أوتوقراطية آل رومانوف في البداية لدى «النزول إلى الشارع»⁽⁸⁾. وكما لاحظنا من قبل، كانت لغة البلاط في سان بطرسبورغ القرن الثامن عشر هي الفرنسية، أمّا لغة كثير من نبلاء الريف فكانت الألمانية. وفي أعقاب غزو نابليون، اقترح الكونت سيرغي أوفاروف، في تقرير رسمي في عام 1832، أن تقوم المملكة على ثلاثة مبادئ: الأوتوقراطية والأرثوذكسية والقومية. وفي حين كان المبدآن الأولان قديمين، كان الثالث جديداً تماماً، بل وسابق لأوانه نوعاً ما في عصرٍ كان نصف «الأمة» لا يزالون أقناناً، وأكثر من نصفها يتكلمون لغةً أمّاً سوى الروسية. ولم يعد تقرير أوفاروف

(7) ثمة شبه دالّ لكلّ هذا في الإصلاحات السياسية - العسكرية التي أجراها كلٌّ من شارنهورست وكلاوسفيتز وغنيسينو الذين تبوّأوا بروح محافظة واعية كثيراً من إبداعات العفوية التي جاءت بها الثورة الفرنسية لبناء جيش إلزاميّ ضخم ودائم ومركّب بضباط محترفين في القرن التاسع عشر.

Seton-Watson, pp. 83-87.

(8)

عليه بأكثر من منصب وزير التعليم، لأن القيصرية راحت تقاوم الإغراءات الأوفاروفية طوال نصف القرن التالي. ولم تغدِ الرُّوسنة سياسةً سلالية رسمية، إلا في عهد ألكسندر الثالث (1881 - 1894): بعد زمن طويل من ظهور القوميات الأوكرانية والفنلندية والليتوانية وسواها ضمن الإمبراطورية. والمفارقة، أن إجراءات الرُّوسنة الأولى اتُّخذت على وجه التحديد ضد تلك «القوميات» التي كانت موالية إلى حدٍّ بعيد، مثل ألما البلطيق. وفي عام 1887 فُرِضَت اللغة الروسية في مقاطعات البلطيق لغةً للتعليم إجباريةً في كل مدارس الدولة في الصفوف بعد الابتدائية، وامتدَّ هذا الإجراء لاحقًا ليطاول المدارس الخاصة أيضًا. وفي عام 1893 أُغْلِقَتْ جامعة دوربات، وهي واحدة من أبرز الجامعات في أراضي الإمبراطورية، لأنها كانت تستخدم الألمانية في قاعة المحاضرات (لنتذكّر أن الألمانية كانت حتى ذلك الحين لغة دولة محلية، ولم تكن صوت حركة قومية شعبية)، فضلًا عن إجراءات مماثلةٍ أخرى. بل إن الأمر يصل بواتسون إلى حدّ المجازفة بالقول إن ثورة عام 1905 كانت «ثورة غير الروس على الرُّوسنة بقدر ما كانت ثورة عمال وفلاحين ومثقفين جذريين على الأوتوقراطية. وكانت هاتان الثورتان مرتبطتين بالطبع: فالثورة الاجتماعية كانت أعنف في المناطق غير الروسية، حيث كان أبطالها العمال البولنديين والفلاحين اللاتفيين والفلاحين الجورجيين»⁽⁹⁾.

إنه لمن الخطأ الفادح في الوقت ذاته أن نفترض أن الرُّوسنة، لأنها كانت سياسة ملكية سلالية، لم تحقق واحدًا من أغراضها الأساسية، ألا وهو تنظيم قومية «روسية عظيمة» متنامية خلف العرش. وليس على أساس العاطفة فحسب. ففي النهاية كان ثمة فرص هائلة أُتيحت للموظفين والمقاولين الروس بين صفوف البيروقراطية الضخمة وفي السوق الواسعة التي وفرتها الإمبراطورية.

ليست فيكتوريا فون ساكس وكوبرج وغوتا، ملكة إنكلترا وإمبراطورة الهند لاحقًا، بأقل إثارة للاهتمام من معاصرها ألكسندر

Seton-Watson, p. 87.

(9)

الثالث، قيصر سائر روسيا وصاحب مشروع الرُّوسنة. بل إنَّ لقبها أكثر إثارة للاهتمام من شخصها، إذ يمثل على نحو رمزي ذلك المعدن الكثيف الذي تمَّ به لَحْمُ الأُمَّة والإمبراطورية⁽¹⁰⁾. كما أنَّ حكمها يَسِمُ أيضًا انطلاقَ «قومية رسمية» على الطريقة اللندنية تبدي كثيرًا من أوجه التشابه القوي مع الرُّوسنة التي كانت تسعى سان بطرسبورغ وراءها. ويمكن أن نفهم هذا التشابه فهمًا جيدًا عن طريق المقارنة على مدى فترة طويلة من الزمن.

يطرح توم نايرن، في كتابه تفكُّك بريطانيا، مشكلة الأسباب التي حالت دون قيام أيِّ حركة قومية اسكتلندية في أواخر القرن التاسع عشر، على الرغم من وجود برجوازية اسكتلندية صاعدة وإنتليجنسيا اسكتلندية بالغة التميّز⁽¹¹⁾. لكنَّ هوبسباوم رفض نقاش نايرن الثاقب رفضًا قاطعًا، وقال: «إنَّها لمفارقة تاريخية صرف أن نتوقَّع من الاسكتلنديين المطالبة بدولة مستقلة في ذلك الوقت»⁽¹²⁾. لكننا إذا تذكَّرنا أنَّ بنجامين فرانكلين الذي شارك في توقيع إعلان الاستقلال الأميركي، وُلِدَ قبل ديفيد هيوم بخمس سنوات، فإننا قد نميل إلى اعتبار هذا الحكم ذاته منطويًا على شيء من المفارقة التاريخية⁽¹³⁾. ويبدو لي أنَّ المصاعب - وحلَّها - إنَّما تكمن في مكان آخر.

ثمَّة، من جهة أخرى، ما لدى نايرن من نزوع قومي قويٍّ لأن يتعامل مع بلده اسكتلندا على أنَّه بدهية أساسية خالية من الإشكالات. ويذكِّرنا بلوخ بالمَحْتَدِ المُنَوَّع لهذا «الكيان»، مُلاحِظًا أنَّ ضروب التخريب التي مارسها الدانماركيون ووليم الفاتح دمَّرت إلى الأبد ما كان لنورثمبريا الأنكلوسكسونية

(10) تحدد تفكُّك هذا الالتحام بالتقدُّم من الإمبراطورية البريطانية إلى الكومنولث البريطاني، إلى الكومنولث، إلى...؟

(11) Tom Nairn, *The Break-up of Britain* (London: New Left Books, 1977), pp. 106ff.

(12) Eric Hobsbawm, «Some Reflections on 'The Break-up of Britain'», *New Left Review*, (12) no. 105 (September-October 1977), p. 5.

(13) في كتاب يحمل عنوانًا دالاً هو اختراع أميركا: إعلان جيفرسون الاستقلال، يرى غاري ويلز أنَّ التفكير القومي لدى جيفرسون كان قد تشكَّل بصورة أساسية ليس من قراءة لوك، بل من قراءة هيوم وهنريسون وآدم سميث وسواهم من الأشخاص البارزين في التنوير الاسكتلندي.

الشمالية من هيمنة ثقافية، كان يرمز لها أشخاص لامعون مثل ألكوين وبيديه(*):

«فُصلَ جزء من المنطقة الشمالية إلى الأبد عن إنكلترا الأصلية. وبانقطاعها عن بقية السكان الناطقين بالأنكلوسكسونية بسبب استيطان الفايكنغ في يوركشاير، فإن الأراضي الواطئة حول قلعة أدنبرة النورثمبرية وقعت تحت سيطرة الزعماء السلتيين في التلال. هكذا، بنوع من الضربة الخرقاء، خلقت الغزوات الإسكندنافية مملكة اسكتلندا ثنائية اللغة»⁽¹⁴⁾.

يكتب واتسون، بدوره، أن اللغة الاسكتلندية:

«برزت من تداخل كل من السكسونية والفرنسية، وإن تكن نسبة الموارد الفرنسية أقل منها في الجنوب، بخلاف الموارد السلتيية والاسكندنافية. ولم يكن يُنطق بهذه اللغة في شرق اسكتلندا فحسب، بل في إنكلترا الشمالية أيضًا. وكان يُنطق بالاسكتلندية، أو «الإنكليزية الشمالية» في البلاط الاسكتلندي وبين النخبة الاجتماعية (سواء كانت تتكلم الغيلية أم لا)، وكذلك بين سكان الأراضي الواطئة ككل. وكانت لغة الشعاعين روبرت هنريسن ووليم دُنبَر. ولعلها كانت ستصبح لغة أدبية مميزة في العصر الحديث لو لم يُفرض توحيد التاجين في عام 1603 إلى سيطرة الإنكليزية الجنوبية من خلال امتدادها إلى البلاط، والإدارة، والطبقة العليا في اسكتلندا»⁽¹⁵⁾.

(*) نورثمبريا (Northumbria)، مملكة أنكلوسكسونية قديمة في الجزء الشمالي من إنكلترا (حوالي 600 - 900م). ترامت رقعتها من البحر الإيرلندي إلى بحر الشمال. بلغت أوج قوتها العسكرية في القرن السابع للميلاد، وتميّزت بأنها كانت مركزًا للعلم. وألكوين Alcuin، (735 - 804) هو عالم معروف ورجل دين وشاعر ومعلم من يورك في نورثمبريا. أما بيديه Bede، (672 - 735) فهو راهب بندكتي في نورثمبريا، وكان عالمًا وكاتبًا معروفًا، منحتة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لقبًا بالغ الأهمية هو طبيب الكنيسة، كما جلب له كتابه المعروف التاريخ الكنسي للشعب الإنكليزي لقب أبي التاريخ الإنكليزي.

Marc Bloch, *Feudal Society*, Translated by I. A. Manyon, 2 vols. (Chicago: University of Chicago Press, 1961), vol. I, p. 42.

Seton-Watson, pp. 30-31.

(15)

الأمر الأساس هنا هو أن أجزاء كبيرة مما سيجري تخيله ذات يوم على أنه اسكتلندا كانت منذ أوائل القرن السابع عشر تنطق بالإنكليزية وتتمتع بمنفذ مباشر على الإنكليزية الطباعية، على الرغم من وجود أدنى درجات التعليم. وفي أوائل القرن الثامن عشر تعاونت الأراضي الواطئة الناطقة بالإنكليزية مع لندن على استئصال الغيلية إلى حد بعيد. ولم يكن ثمة سياسة أنكلية >فرض الإنكليزية< واعية متبعة في أي من «الاندفاعين نحو الشمال»؛ ففي كلتا الحالتين كانت الأنكلية نتاجاً جانبياً في الأساس. لكنهما نجحا، باجتماعهما معاً، و«قبل» عصر القومية، في إزالة أي إمكانية لقيام حركة قومية مستندة إلى لغة محلية خاصة على الطريقة الأوروبية. لماذا لم تقم هذه الحركة على الطريقة الأميركية إذا؟ يقدم لنا نايرن على نحوٍ عابر جزءاً من الجواب حين يشير إلى «هجرة فكرية كثيفة» باتجاه الجنوب منذ منتصف القرن الثامن عشر فصاعداً⁽¹⁶⁾. لكن هنالك ما يزيد على الهجرة الفكرية. كان السياسيون الاسكتلنديون يأتون إلى الجنوب كي يسنوا القوانين، وكان لدى رجال الأعمال الاسكتلنديين منفذ مفتوح على أسواق لندن. ولم تكن هناك أي حواجز على كل طرق الحج المؤدية إلى المركز هذه، على النقيض تماماً من حالة المستعمرات الثلاث عشرة (ومن حالة إيرلندا بدرجة أقل). (وتمكن مقارنة ذلك بالطريق الواسعة الواضحة التي كانت مفتوحة أمام الهنغارين الذين يقرأون اللاتينية والألمانية إلى فيينا في القرن الثامن عشر). كان لا يزال على اللغة الإنكليزية أن تغدو لغة «إنكليزية».

تمكن رؤية الأمر ذاته من زاوية مختلفة. فمن الصحيح أن لندن استأنفت في القرن السابع عشر السيطرة على مناطق ما وراء البحار بعد أن توقف ذلك في أثر النهاية الكارثية التي انتهت إليها حرب المئة عام، إلا أن «روح» هذه الفتوحات كانت لاتزال في جوهرها روح عصر ما قبل قومي. وما يثبت ذلك بصورة مذهلة أكثر من أي شيء آخر هو حقيقة أن «الهند» لم تغد «بريطانية» إلا بعد عشرين عاماً من تولي فكتوريا سدة العرش. وبعبارة أخرى، ظلت «الهند» إلى ما بعد التمرد في عام 1857 يحكمها مشروع تجاري >شركة الهند الشرقية<، لا دولة، ولا دولة أمة بالتأكيد.

لكن التغير كان قادمًا. وعندما طُرح امتياز شركة الهند الشرقية للتجديد في عام 1813، أمر البرلمان بتخصيص 100000 روبية في العام للارتقاء بالتعليم المحلي «الشرقي» و«الغربي» على حدٍّ سواء. وفي عام 1823 جرى إنشاء لجنة التعليم العام في البنغال؛ وفي عام 1834 صار توماس بابنغتن ماكولي رئيسًا لهذه اللجنة. وفي العام التالي أصدر مذكرته سيئة الصيت في شأن التعليم، حيث أعلن أن «رفا واحدًا من رفوف مكتبة أوروبية جيدة ليفوق في قيمته كل الأدب المحلي في الهند وعند العرب»⁽¹⁷⁾. لكن ماكولي كان أوفر حظًا من أوفاروف، ودخلت توصياته حيز التطبيق مباشرة. كان من الواجب إدخال نظام تعليمي إنكليزي شامل من شأنه أن يخلق، كما يقول ماكولي، «طبقة من الأشخاص، هنود الدم واللون، لكنهم إنكليزيو الذائقة والرأي والأخلاق والفكر»⁽¹⁸⁾. وكتب في عام 1863 أن:

«ما من هندي تلقى تعليمًا إنكليزيًا يبقى مرتبطًا بدينه ذلك الارتباط الصادق. وقناعتني الراسخة (ولطالما كانت قناعاتي راسخة) أنه إذا ما نُفِّذَت خططنا التعليمية، لن يبقى وثنى واحد بين الطبقات المحترمة في البنغال بعد ثلاثين عامًا من الآن»⁽¹⁹⁾.

لا شك في أننا هنا أمام ضربٍ من التفاؤل الساذج الذي يذكرنا بفيرمين في بوغوتا قبل نصف قرن من ذلك التاريخ. لكن الشيء المهم هو أننا إزاء سياسة طويلة الأمد (30 عامًا!) صيغت ونُفِّذت بوعي لتحويل «الوثنيين» لا إلى مسيحيين، بل إلى إنكليز ثقافيًا، على الرغم من دمهم ولونهم اللذين لا دواء لهما. والمقصود هنا هو نوع من التمازج العقلي الذي يبين، إذا ما قورن بتمازج فيرمين الجسدي، أن الإمبريالية أحرزت في العصر الفيكتوري تقدمًا هائلًا في اللطف والذوق، شأنها في كثير من الأمور الأخرى. وعلى أي حال، فإن بمقدورنا القول، من دون خشية، إن الماكولية اتبعت منذ تلك

(17) يمكن أن نؤكد بثقة أن هذا الأوفاروف الإنكليزي الشاب المتفخ من الطبقة الوسطى لا يعرف أي شيء عن كلا هذين «الأدبين المحليين».

(18) Donald Eugene Smith, *India as a Secular State* (Princeton: Princeton University Press, 1963), pp. 337-38, and Percival Spear, *India, Pakistan and the West* (London; New York; Toronto: Oxford University Press, 1949), p. 163.

Smith, p. 339.

(19)

اللحظة فصاعداً، في كل مكان من الإمبراطورية المتنامية، وإن يكن بدرجات متفاوتة من السرعة⁽²⁰⁾.

من الطبيعي أن تكون الأنكثة، مثل الرؤسنة، قد أتاحت فُرصاً زاهيةً لجحافل من أبناء الطبقة الوسطى في المتروبول (خصوصاً الاسكتلنديين) - من الموظفين وأساتذة المدارس والتجار والمزارعين - الذين سرعان ما انتشروا في أرجاء المملكة الشاسعة كلها التي لا تغيب عنها الشمس. مع ذلك، كان ثمة اختلاف أساسي بين الإمبراطورية التي تحكمها سان بطرسبورغ والإمبراطورية التي تحكمها لندن. ذلك أن القيصرية بقيت مجالاً قارئاً «متواصلاً»، مقتصرًا على مناطق أوراسية معتدلة المناخ وقطبية شمالية. وكان يمكن للمرء، إذا جاز القول، أن يقطعها سيرًا من طرف إلى طرف. وكانت القرابة اللغوية مع سكان أوروبا الشرقية السلافيين، والروابط التاريخية والسياسية والدينية والاقتصادية - إذا ما استخدمنا عبارة سائغة - مع الشعوب غير السلافية، تعني أن الحواجز على الطريق إلى سان بطرسبورغ لم تكن، نسبيًا، كتيمة⁽²¹⁾. أما الإمبراطورية البريطانية، من جهة أخرى، فكانت حقيبة ممتلكات، مدارية في المقام الأول، موزعة في كل قارة. ولم يكن من بين الشعوب الخاضعة سوى أقلية لا تربطها بالمتروبول أي روابط دينية أو لغوية أو ثقافية أو حتى سياسية واقتصادية طويلة الأمد. وحين وُضعت بجوار بعضها بعضًا في السنة اليوبيلية بدت شبيهة بتلك المجموعات الفنية العشوائية من أعمال الفنانين الكبار التي كان أصحاب الملايين الإنكليز والأميريكيون يجمعونها بعجلة ثم تتحول في النهاية إلى متاحف الدولة الإمبراطورية المهيبة.

أما العواقب التي ترتبت على ذلك فتوضحها بجلاء ذكريات بيين شاندرابال المريرة، وهو الذي كان في عام 1932، بعد قرن من «مذكرة» ماكولي، لا يزال يشعر بغضب يكفي لأن يكتب أن القضاة الهنود:

(20) انظر، مثلاً، ذلك الوصف الخالي من أي انفعال الذي يصف فيه روف إقامة كلية كوالاكانغسار مالاي في عام 1905 التي سرعان ما غدت تُعرَف، من دون أي سخرية، باسم «إيتون ملايو». وكان طلابها، تبعًا للوصفة التي أطلقها ماكولي، من أبناء «الطبقات المحترمة»، أي من الأرستقراطية الملاوية. وكان نصف التلاميذ الداخليين من الذرية المباشرة لعدد من السلاطين الملاويين. انظر: William R. Roff, *The Origins of Malay Nationalism* (New Haven; London: Yale University Press, 1967), pp. 100-105.

(21) كانت للشعوب عبر الأورال قصة أخرى.

«لم يكن عليهم أن يجتازوا اختبارًا بالغ الصرامة كالذي يجتازه عناصر الخدمة البريطانيون فحسب، بل كانوا يقضون أفضل سنوات مرحلة التكوين من شبابهم في إنكلترا. ولدى عودتهم إلى وطنهم كانوا يعيشون عمليًا بالطريقة ذاتها التي يعيشها أخوتهم المدنيون، ويتبعون دينيًا أعراف هؤلاء الاجتماعية ومعاييرهم الأخلاقية ذاتها تقريبًا. وفي تلك الأيام كان المدني المولود في الهند [كذا. قارن ذلك بكريولنا الأميركيين - الإسبانيين] ينقطع عمليًا عن مجتمع والديه، ويعيش ويتحرك ويجد نفسه في جوٍّ أنيس جدًا وسط زملائه الإنكليز. وكان في عقله وسلوكاته إنكليزيًا مثل أي إنكليزي. ولم يكن ذلك بالتضحية البسيطة من طرفه، لأنه على هذا النحو يغرب نفسه تمامًا عن مجتمع شعبه ويغدو منبوذًا بينهم اجتماعيًا وأخلاقيًا... كان غريبًا في أرضه مثل المستوطنين الأوروبيين في البلد»⁽²²⁾.

هذا بالنسبة إلى ماكولي. لكن الأشدّ خطورة هو أن هؤلاء الغرباء في أرضهم ظلّ مكتوبًا عليهم - بِقَدَرِيَّةٍ لا تقلّ عن قَدَرِيَّةِ الكريول الأميركيين - أن يخضعوا للماتورانغوس^(*) الإنكليز ذلك الخضوع «اللاعقلاني» الأبدي. فلم يكن الأمر مقتصرًا على أن أمثال بيين شاندرال بال كان مُحَظَّرًا عليهم أن يصلوا قسم الراج^(**) العليا، مهما تشبَّهوا بالإنكليز، بل تعدّاه إلى أنه كان مُحَظَّرًا عليهم أن يتحرّكوا خارج حدوده؛ أفقيًا، إلى الغولّد كوست^(***) أو هونغ كونغ على سبيل المثال، وشاقوليًا، إلى المتروبول. ولعلّ الواحد من هؤلاء أن يكون قد «غرب نفسه تمامًا عن مجتمع شعبه»، لكنه كان محكومًا بأن يعمل بينهم طوال عمره. (لا شكّ في أن من تشير إليهم هذه الـ «هُم» كانوا يختلفون ويتنوّعون تبعًا للمنطقة التي فتحها البريطانيون في شبه القارّة)⁽²³⁾.

(22) التشديد لي. انظر كتابه: Bipin Chandra Pal, *Memories of my Life and Times* (Calcutta: Bipin Chandra Pal Institute, 1973), pp. 331-332.

(*) maturrangos فرسان رديثون يتميزون بالخرافة والضعف، وهو تعبير كان يطلق على الأوروبيين في بلدان أميركا اللاتينية.

(**) الراج: Raj، الحكم البريطاني في الهند.

(***) غولّد كوست (Gold Coast) مدينة ساحلية تقع في جنوب شرق كوينزلاند، أستراليا على المحيط الهادئ. وتقع جنوب مدينة بريسن.

سوف ننظر لاحقاً في العواقب التي رتبها القومية الرسمية على نشوء القوميات الآسيوية والأفريقية في القرن العشرين. لكن ما تقتضي أغراضنا الحالية أن نلح عليه هو أن الأنكَلَة أنتجت الآلاف من أمثال بيبين شاندر بال في أرجاء العالم. وما من شيء آخر يؤكد بمثل هذه الحدة تناقض القومية الرسمية الإنكليزية الجوهري؛ أي التنافر الداخلي العميق بين الإمبراطورية والأمة. وأقول «الأمة»، عن عمد، لأنه من المغري على الدوام أن نفسر حالة أمثال بيبين شاندر بال على أساس العنصرية. وما من عاقل ينكر الطابع العنصري العميق الذي اتسمت به الإمبريالية الإنكليزية في القرن التاسع عشر. لكننا نجد أمثال بيبين شاندر بال في المستعمرات البيضاء أيضاً؛ مثل أستراليا ونيوزلندا وكندا وجنوب أفريقيا. كان يُحشد هناك أساتذة المدارس الإنكليز والاسكتلنديين، وكانت الأنكَلَة ثقافيةً أيضاً. وكما كان الحال بالنسبة إلى أمثال بيبين شاندر بال، سُدت أمام هؤلاء سُبُل الصعود التي كانت في القرن الثامن عشر لا تزال مفتوحة أمام الاسكتلنديين. ولم يكن الأستراليون المؤنكلون يخدمون في دبلن أو مانشستر، ولا حتى في أوتوا أو كيتاون. ولم يكن بمقدورهم، حتى وقت متأخر تماماً، أن يغدوا حكاماً عامين في كانبيرا⁽²⁴⁾. وحدهم «الإنكليز الإنكليز»، أي أبناء أمة إنكليزية نصف محتجة، كان بمقدورهم ذلك.

قبل ثلاثة أعوام من فقدان شركة الهند الشرقية أرض صيدها الهندية، دكّ العميد البحري بيري بقنابل سفنه السوداء تلك الأسوار التي كانت قد أبقت اليابان في عزلة فرضتها على ذاتها لأمدٍ طويل. وبعد عام 1854، سرعان ما أدّى العجز الواضح أمام الغرب المندفع إلى تقويض ما كان لدى الباكوفو

(23) صحيح أن الموظفين الهنود كانوا يُستخدَمون في بورما؛ لكن بورما كانت، إدارياً، جزءاً من الهند البريطانية حتى عام 1937. كما خدَم الهنود أيضاً في وظائف دنيا - خصوصاً الشرطة - في الملايو وسنغافورا البريطانيتين، لكنهم كانوا يخدمون هناك بوصفهم «محليين» و«مهاجرين»، أي إنهم لم يكونوا «يُعادون» إلى قوات الشرطة في الهند. لاحظوا أن التشديد هنا هو على الموظفين: حيث كان العمال والتجار بل والحرفيون الهنود ينتقلون بأعداد كبيرة إلى المستعمرات البريطانية في جنوب شرق آسيا، وفي جنوب أفريقيا وشرقها، بل وفي الكاريبي.

(24) من المؤكد أن عدداً ضئيلاً من «الكولونيليين البيض» هاجروا إلى لندن وأصبحوا أعضاء في البرلمان أو من لوردات الصحافة البارزين في أواخر العهد الإداوردي.

(نظام شوغنية توكوغاوا)^(*) من ثقة بالنفس وشرعية داخلية. واستطاعت زمرة صغيرة من الساموراي متوسطة المرتبة، من ساتسوما ومقاطعة تشوشو، إطاخته في النهاية في عام 1868، رافعة شعارًا هو سوتو جوي (بجلوا الحاكم، واطردوا البرابرة)، وكان من بين أسباب نجاحها تمثلها الخلاق الفذ، خصوصًا بعد عام 1860، العلوم العسكرية التي كان قد نظمها الاختصاصيون البروسيون والفرنسيون منذ عام 1815. وبذلك تمكنت من أن تستخدم على نحو فاعل 7300 بندقية حديثة جدًا (معظمها من بقايا الحرب الأهلية الأميركية)، كانت قد اشترتها من تجّار سلاح إنكليز⁽²⁵⁾. «في استخدام البنادق... كان رجال تشوشو بارعين أشد البراعة وما كان الدم القديم وقصف الرعد أو أي طرائق أخرى لتتفع معهم بأيّ حال من الأحوال»⁽²⁶⁾.

(*) شوغنية توكوغاوا أو توكوغاوا باكوفو أو إيدو باكوفو، نظام سياسي إقطاعي عسكري في اليابان بين عامي 1600 و 1868، وكان رؤوس النظام من عشيرة توكوغاوا. وكانت شوغنية توكوغاوا تُحكّم من قلعة إيدو وباتت سنوات الشوغنية تُعرف باسم مرحلة إيدو، على اسم مدينة إيدو (طوكيو حاليًا).

(25) كانت الشخصية الأساس هنا هي أومورا ماسوجيرو (1824 - 1869) الذي كان يُلقّب بـ«أبي الجيش الياباني». وكان من ساموراي التشوشو ذوي المرتبة الدنيا، وبدأ مسيرته بدراسة الطب الغربي من خلال كتيّبات باللغة الهولندية (للتذكّر أنّ الهولنديين هم الغربيون الوحيدون الذين كان يُسمح لهم بدخول اليابان حتى عام 1854، وأنّ هذا الدخول كان مقتصرًا على جزيرة ديشيما قبالة ميناء ناغازاكي الواقع تحت سيطرة الباكوفو). وبعد تخرّجه في تيكيجيوكو في أوساكا الذي كان آنذاك أفضل مركز لتعليم اللغة الهولندية في البلاد، عاد إلى موطنه لممارسة الطب، لكن من دون نجاح كبير. وفي عام 1853 حصل على وظيفة في أواجيما كمدرّس للمعارف الغربية، مع غزوة إلى ناغازاكي لدراسة العلوم البحرية (صمّم أول سفينة بخارية يابانية بالعودة إلى مراجع مكتوبة وأشرف على بنائها). وجاءت فرصته بعد وصول بيرري؛ حيث انتقل إلى إيدو في عام 1856 ليعمل مدرّسًا في ما سيُدعى لاحقًا الأكاديمية العسكرية الوطنية وفي مكتب البحث الأعلى التابع للباكوفو لدراسة النصوص الغربية. وجلبت له ترجماته الأعمال العسكرية الأوروبية، خصوصًا تلك التي تتناول تجديدات نابليون في الاستراتيجية والتكتيك، الشهرة، واستُدعي في عام 1860 إلى تشوشو ليعمل مستشارًا عسكريًا. وفي عامي 1864 - 1865، أثبت أهمية كتابته كقائد ناجح في حرب التشوشو الأهلية. وأصبح بعد ذلك أول وزير حرية في عهد الميجي، ووضع خطط النظام الثورية الخاصة بالتجنيد العام وإلغاء الساموراي كفئة قانونية. والمؤسف أنه اغتيل بيدي ساموراي حانق. انظر: Albert M. Craig, *Chōshū in the Meiji Restoration* (Cambridge, Ma: Harvard University Press, 1967), Especially pp. 202-204 and 267-280.

(26) مراقب ياباني معاصر، أورده: E. Herbert Norman, *Soldier and Peasant in Japan. The Origins of Conscription* (New York: Institute of Pacific Relations, 1943), p. 31.

غير أنه ما إن صار هؤلاء المتمرّدون الذين نعرفهم اليوم باسم الأوليغارشين الميجيين، في السلطة حتى وجدوا أن بسالتهم لا تضمن لهم الشرعية السياسية بصورة آليّة. وإذا ما كان من الممكن إعادة التينو («الإمبراطور») سريعًا بوضع حدّ للباكوفو، فإنّ من غير الممكن طرد البرابرة بتلك السهولة⁽²⁷⁾. وبقي أمن اليابان الجغرافي السياسي هشًا كما كان قبل عام 1868. وكانت إحدى الوسائل الأساسية التي اتّخذت لتوطيد وضع الأوليغارشية الداخلي مُنوعًا من منوّعات «القومية الرسمية» في أواسط القرن، صيغ بوعي على نموذج ألمانيا البروسية الهوينزولرنية. وبين عامي 1868 و 1871 حُلّت الوحدات العسكرية «الإقطاعية» المحليّة الباقية كلها، الأمر الذي مكّن طوكيو من أن تمارس احتكاريًا مركزيا لوسائل العنف. وفي عام 1872 أمر مرسوم إمبراطوري بالارتقاء بالتعليم الجامعي بين الذكور البالغين. وفي عام 1873 أدخلت اليابان التجنيد الإلزامي، قبل المملكة المتحدة بزمان لا بأس به. كما قام النظام، في الوقت ذاته، بتصفية الساموراي كطبقة محدّدة قانونيًا ومميّزة، وكانت تلك خطوة أساسية ليس باتجاه فتح سلك الموظفين (وإن يكن ببطء) أمام جميع الموهوبين فحسب، بل أيضًا باتجاه ملاءمته مع نموذج أمة المواطنين الذي بات «متاحًا». وتحرر الفلاحون اليابانيون من الخضوع لنظام الهان الإقطاعي وغدوا بذلك محلّ استغلال الدولة وملاك الأرض الزراعيين - التجاريين مباشرة⁽²⁸⁾. وفي عام 1889 تلا كلّ ذلك دستور من النمط البروسي وفي النهاية حقّ الاقتراع العام لجميع الذكور.

ثمة عوامل ثلاثة تكاد تكون قائمة على المصادفة وفّرت الدعم لرجال ميجي في حملتهم المنظّمة هذه. أوّل هذه العوامل هو الدرجة المرتفعة نسبيًا

(27) علّموا ذلك من خلال تجربة شخصية مريرة. ففي عام 1862 سوّى أسطول بريطاني بالأرض نصف ميناء كاغوشيما التابع للساموراي؛ وفي عام 1864 قامت وحدة بحرية أميركية وهولندية وإنكليزية بتدمير تحصينات التشوشو الساحلية في شيمونوسيكي. انظر: John M. Maki, *Japanese Militarism, Its Cause and Cure* (New York: Knopf, 1945), pp. 146-147.

(28) يذكر كلّ هذا بتلك الإصلاحات التي جرت في بروسيا بعد عام 1810 استجابةً للالتماس العاطفي الحماسي الذي قدّمه بلوخر إلى برلين: «أعطونا جيشًا قوميًا!». انظر: Alfred Vagts, *A History of Militarism, Civilian and Military*, Rev. ed. (New York: The Free Press, 1959), p. 130, and Gordon A. Craig, *The Politics of the Prussian Army, 1640-1945* (New York and Oxford: Oxford University Press, 1956), chapter 2.

من التجانس الإثني الثقافي الياباني الناجم عن قرنين ونصف القرن من العزلة والتهدة الداخلية اللتين وفرهما الباكوفو. وفي حين لم تكن اليابانية المنطوقة في كيوشو مفهومة كثيراً في هونشو، بل وكانت إيدو - طوكيو وكيوتو - وأوساكا تجدان صعوبة في التواصل اللغوي، فإن نظام القراءة نصف الصيني القائم على العلامات الكتابية التصويرية لطالما كان موجوداً في أرجاء الجزر كلها، لذلك كان تطور التعليم الجماهيري من خلال المدارس والطباعة سهلاً وليس محلّ خلاف. والعامل الثاني هو القِدَم الفريد الذي تمتّع به البيت الإمبراطوري (اليابان هي البلد الوحيد الذي احتكرت فيه الملكية سلالة واحدة على مدى التاريخ المُدَوّن)، حيث عملت يابانية الإمبراطور المميّزة (بخلاف آل بوربون وآل هابسبورغ) على جعل استغلاله لأغراضٍ قوميةٍ رسميةٍ أمراً بسيطاً نوعاً ما⁽²⁹⁾. أمّا العامل الثالث فهو أنّ اختراق البرابرة كان من المفاجأة والاتساع والتهديد بما يكفي لأن يصطف معظم السكان الذين يحملون وعياً سياسياً وراء برنامج الدفاع عن النفس الذي جرى تصوّره بمصطلحاتٍ قوميةٍ جديدة. ومن الجدير بالتنويه أنّ لهذه الإمكانية كلّ العلاقة بتوقيت الهجوم الغربي، أي في ستينيات القرن التاسع عشر بخلاف ستينيات القرن الثامن عشر. ذلك أنّه كان قد مضى نصف قرن على «الجماعة القومية»، في أوروبا المسيطرة، سواء في طبعتها الشعبية أم الرسمية. وهذا ما مكّن من صوغ الدفاع عن النفس تبعاً لما كان في سياق تحوّله إلى «معايير دولية».

لا شكّ في أنّ نجاح هذه المغامرة، على الرغم من المعاناة الرهيبة التي جلبتها على رؤوس الفلاحين تلك الابتزازات المالية القاسية المطلوبة لتمويل برنامج التصنيع يقوم على تصنيع السلاح بصورة أساسية، يعود في جزءٍ منه إلى عزيمة الأوليغارشين أنفسهم وتصميمهم الراسخ. وكان من حسن حظّهم أنّ وصلوا إلى السلطة في حقبةٍ لم تكن فيها الحسابات المرقومة توضع في زيوريخ، فلم يُغرهم أن ينقلوا الفائض المُبتزّ خارج اليابان. وكان من حسن حظّهم أن يحكموا في عصرٍ كانت التكنولوجيا

(29) غير أنّ باحثين يابانيين أعلموني أنّ حفريات الأضرحة الملكية الباكورة تشير بقوة إلى أنّ العائلة ربما كانت - يا للرب! - ذات أصول كورية. شجعت الحكومة اليابانية بقوة على القيام بمزيد من الحفريات في هذه المواقع.

العسكرية لا تزال تتقدّم على نحوٍ بطيءٍ نسبيًا، ما مكّنهم، ببرنامج التسلّح الذي وضعوه للّحاق بركب الآخرين، من تحويل اليابان في نهاية القرن إلى قوة عسكرية مستقلة. أما الانتصارات المذهلة التي أحرزها جيش اليابان النظامي ضد الصين بين عامي 1894 و 1895، وأحرزتها بحريتها ضد القيصريّة في عام 1905، فضلًا عن ضمّ تايوان (1895) وكوريا (1910)، وجرت كلها الدعاية لها من خلال المدارس والطباعة، فكان لها أبعد الأثر والقيمة في خلق انطباع عام بأنّ الأوليغارشية المحافظة ممثّل موثوق للأمة التي راح اليابانيون يتخيّلون أنفسهم أبناءها.

ثمّة عاملان اثنان يمكن أن يفسّرا على أفضل وجه الطابع الإمبريالي العدوانى الذي اتّخذته هذه القومية، حتى خارج الدوائر الحاكمة: إرث عزلة اليابان الطويلة وقوة النموذج القومي الرسمي. ويشير ماروياما بدهاء، في ما يتعلق بالعامل الأول، إلى أنّ القوميات كلها في أوروبا نشأت في سياق تعددية تقليدية ميّزت الدول الملكية السلالية المتفاعلة؛ فشمول اللاتينية لأوروبا، كما أشرتُ من قبل، لم يكن له معادل سياسي قطّ:

«لذلك حمل الوعي القومي في أوروبا منذ البداية صفةً وعي مجتمع دولي. فمنطلق ذلك الوعي وأساسه البديهي الواضح بذاته أنّ النزاعات بين الدول ذات السيادة هي صراعات بين أعضاء مستقلين في هذا المجتمع الدولي. ولهذا السبب على وجه التحديد راحت الحرب تحتلّ، منذ غروتّيوس، تلك المكانة المهمة والمنهجية في القانون الدولي»⁽³⁰⁾.

أمّا معنى قرون العزلة اليابانية فتتمثّل:

«بغيا ب كلّى لوعى المساواة فى الشؤون الدولية. ونظر دُعاة طرد [البرابرة] إلى العلاقات الدولية من مواقع ضمن التراتب القومى المرتكز على تفوّق الأعلى على الأدنى. وحين كانت أسس التراتب القومى تُنقل أفقيًا إلى المجال الدولى، كان من الطبيعى أن

Maruyama Masao, *Thought and Behaviour in Modern Japanese Politics* (London; Oxford: (30) Oxford University Press, 1963), p. 138.

تُخْتَزَلُ المشكلات الدولية إلى بديل وحيد: أن تَفْتَحَ أو تُفْتَحَ. وفي غياب أيّ معايير سوية رفيعة تُقَوِّمُ العلاقات الدولية على أساسها، لم يكن بدّ من أن تغدو نزعة الأمس الدفاعية الجبّانة نزعة اليوم التوسعية المنفلتة⁽³¹⁾.

أما بالنسبة إلى العامل الثاني فكانت السلالات التي اتخذت لنفسها جنسيات محددة في أوروبا هي النماذج الأساسية التي اقتدت بها الأوليغارشية اليابانية. ولأنّ تحديد هذه السلالات لنفسها بمصطلحات قومية كان يتزايد، في الوقت ذاته الذي كانت تمدّ سلطتها خارج أوروبا، ليس مدهشاً أن هذا النموذج كان لا بدّ من أن يُفْهَمَ على نحوٍ إمبراطوري⁽³²⁾. كانت الأمم العظمى، كما أوضح تقاسم أفريقيا في مؤتمر برلين (1885)، قوى فاتحة عالمية. كم من المنطق، إذاً، في أن نقول إنّ كان على اليابان، كي تُقْبَلَ على أنّها «عظيمة»، أن تحوّل التينو إلى إمبراطور وتنطلق في مغامراتها وراء البحار، حتى لو كانت قد تأخّرت في دخول اللعبة وكان عليها أن تفعل الكثير على سبيل اللحاق أو التعويض. لعلّ قلة من الأشياء هي التي توضح الطريقة التي أثّرت بها هذه الأمور في وعي السكان القراء بالحدّة التي يوضحها بها القول التالي الذي صدر عن الأيديولوجي والثوري القومي الجذري كيتا إكّي (1884 - 1937)، في كتابه النافذ خطوط عامّة لإعادة بناء اليابان الذي نُشِرَ في عام 1924⁽³³⁾:

«كما ينشب الصراع الطبقي داخل أمة ما لتعديل الفوارق والتباينات، كذلك سوف تعمل الحرب التي تنشب بين الأمم من أجل قضية شريفة على إصلاح الفروق الظالمة الراهنة. الإمبراطورية البريطانية مليونير يمتلك الثروات في أرجاء العالم قاطبة؛ وروسيا مالك أرض عظيم يحتلّ نصف الكرة الشمالي. أمّا اليابان بِجُزُرِها المُبَعَثَرَةِ

Masao, pp. 139-140.

(31)

(32) من سوء الحظّ أنّ البديل الوحيد للدول الملكية السلالية التي راحت تتسم بالقومية الرسمية في ذلك الوقت - هنغاريا النمساوية - لم يكن من بين القوى ذات الحضور المهم في الشرق الأقصى.

(33) تبعاً لترجمة هذا القول الواردة في: Richard Storry, *The Double Patriots. A Study of Japanese Nationalism* (London: Chatto and Windus, 1957), p. 38.

المرتبطة بها كالحواشي [كذا] فهي واحدٌ من البروليتاريا، ولها الحق في أن تعلن الحرب على القوى الاحتكارية الكبرى. والاشتراكيون في الغرب يناقضون أنفسهم حين يَقْرُون حق البروليتاريا بأن تخوض الصراع الطبقي داخل الوطن ويدينون في الوقت ذاته تلك الحرب التي تشنها بروليتاريا معينة بين الأمم باعتبارها نزعة عسكرية وضرباً من العدوان... وإذا ما كان مسموحاً للطبقة العاملة أن تتحد كي تطيح بالسلطة الظالمة عبر إراقة الدماء، فلا بدّ من منح اليابان موافقة غير مشروطة على تطوير جيشها وبحريتها وشنّ الحرب لتصحيح الحدود الدولية الظالمة. باسم الديمقراطية الاجتماعية العقلانية تطالب اليابان بتملّك أستراليا وسيبيريا الشرقية».

لا يبقى سوى أن نضيف أنّ اليبّنة على طريقة ماکولي باتت سياسة الدولة المُتَّبعة على نحوٍ واسع، مع توسّع الإمبراطورية بعد عام 1900. وبعد اندلاع حرب المحيط الهادئ، أُخضعَ البورميون والإندونيسيون والفيليبينيون لما كان قد أُخضعَ له الكوريون والتايوانيون والمنشوريون، في الفترة بين الحربين، من سياساتٍ كان النموذج الأوروبي بالنسبة إليها تلك الممارسة الفاعلة الوطيدة. وكما هو الحال في الإمبراطورية البريطانية، كان سبيل الكوريين أو التايوانيين أو البورميين المُسيّبين إلى المتروبول مسدوداً تماماً. وحتى لو كانوا ينطقون اليابانية ويقرأونها على النحو الأكمل، فإنّ ذلك ما كان ليتيح لهم قطّ أن يرئسوا ولايةً في هونشو، أو حتى أن تُسند إليهم وظيفة خارج مناطقهم الأصلية.

بعد أن نظرنا في هذه الحالات الثلاث المختلفة من «القومية الرسمية»، من المهم أن نشدّد على أنّ هذا النموذج يمكن أن تتّبعه على نحوٍ واسع دولٌ لا تزعم جادّةً أنها قوىٌ عظمى، إنّ كانت طبقاتها الحاكمة أو عناصرها القائدة تشعر أنّ انتشار الجماعة المتخيّلة قومياً على نطاقٍ عالمي يشكّل تهديداً لها. ولعلّه يكون من المفيد هنا أن نقارن بين اثنتين من مثل هذه الدول: سيام من جهة؛ وهنغاريا ضمن هنغاريا النمساوية من جهة أخرى.

سبق لمعاصر ميجي، شولالونكورن الذي حكم طويلاً (بين عامي 1868 و 1910)، أن دافع عن مملكته في وجه النزعة التوسعية الغربية بطريقة تختلف اختلافًا لافتًا عن طريقة نظيره الياباني⁽³⁴⁾. ونظرًا إلى انحصاره بين بورما والملايو البريطانيتين والهند الصينية الفرنسية، كرّس نفسه لدبلوماسية مخادعة بالغة الدهاء بدلًا من أن يحاول بناء آلة حربٍ جدّية (لم تقم وزارة للحربية حتى عام 1894). وكانت قواته المسلحة مكوّنة في المقام الأول من خليط متنوع من الموالين والمرتزقة الفيتناميين والخمير واللاووسيين والملاويين والصينيين، على نحوٍ يذكر بأوروبا القرن الثامن عشر. ولم يُقْم بأيّ شيء كي يدفع قُدُمًا نوعًا من القومية الرسمية من خلال نظام تعليمي حديث. بل إن التعليم الابتدائي لم يَغْدُ إلزاميًا إلا بعد مرور أكثر من عقد على وفاته، ولم تُؤسَّس أول جامعة في البلاد إلا في عام 1917، بعد أربعة عقود على تأسيس الجامعة الإمبراطورية في طوكيو. مع ذلك عَدَّ شولالونكورن نفسه داعيةً لحداثة. لكن نماذجه الأساسية لم تكن المملكة المتحدة أو ألمانيا، بل الـ *beamtenstaaten* <الدول البيروقراطية> الكولونiale في جزر الهند الشرقية الهولندية، والملايو البريطانية، والراج⁽³⁵⁾. أمّا معنى اتباع هذه النماذج فكان يتمثل في ترشيد الحكم الملكي ومركزته، والخلاص من الدويلات التابعة شبه المستقلة، وتعزيز النمو الاقتصادي على أسس كولونiale بعض الشيء. والمثال الأبرز على ذلك - المثال الذي يشكّل بطريقته الغربية سابقةً للمملكة العربية السعودية المعاصرة - كان تشجيعه على هجرة كثيفة للأجانب الشبان الذكور العازبين كي يشكّلوا تلك القوة العاملة فاقدة الاتجاه، والمجرّدة من أيّ قوة سياسية، التي كان يحتاجها بناء المرافق البحرية، ومَدُّ السكك الحديدية، وحَفَر الأقبية، والتوسّع في الزراعة التجارية. وكان استيراد الـ *gastarbeiter*

(34) يشكّل القسم التالي نسخة مكثّفة من مقالتي: Benedict R. O'Gorman Anderson, «Studies of the Thai State: The State of Thai Studies», in: Eliezer B. Ayal, ed., *The State of Thai Studies: Analyses of Knowledge, Approaches, and Prospects in Anthropology, Art History, Economics, History and Political Science* (Athens, Ohio: Ohio University, Center for International Studies, Southeast Asia Program, 1979), pp. 193-247.

(35) يبيّن باتّي بدقّة أنّ الغرض من زيارات الملك الشاب إلى باتافيا وسنغافورا في عام 1870 وإلى الهند في عام 1827 كان، كما تقول كلمات شولالونكورن اللطيفة، «اصطفاء نماذج آمنة». انظر: Noel A. Battye, «The Military, Government and Society in Siam, 1868-1910. Politics and Military Reform in the Reign of King Chulalongkorn», Phd. Thesis, Cornell University, 1974, p. 118.

<العمال الضيوف> شبيهاً بالسياسات التي اتبعتها السلطات في باتافيا وسنغافورا، بل سار على نموذجها وغرارها. وكما هو الحال في جزر الهند الهولندية والملايو البريطانية، كانت الأغلبية العظمى من العمال المستوردين خلال القرن الثامن عشر من جنوب شرق الصين. ومن الجدير بالذكر أن هذه السياسة لم تولد لديه هواجس شخصية أو تضع أمامه مصاعب سياسية، إلا بالقدر الذي خلقته للحكام الكولونيين الذين سار على نموذجهم. والحال، أن هذه السياسة خلقت إحساساً قوياً قصير الأمد بوجود دولة ملكية سلالية، حيث خلقت طبقةً عاملة مهمة «خارج» المجتمع التايلندي وتركت ذلك المجتمع «بعيداً عن الاضطراب» إلى حد بعيد.

كان على واشيروت، ابن شولالونكورن وخليفته (حكم بين عامي 1910 و 1925) أن يلتقط هذه القطع، وأن يسير هذه المرة على غرار ملوك أوروبا السلايين الذين اتخذوا لأنفسهم جنسيات معينة. وعلى الرغم من أنه - ولأنه - كان قد تلقى تعليمه في إنكلترا في أواخر العهد الفيكتوري، صوّر نفسه على نحوٍ درامي بوصفه «القومي الأول» في بلاده⁽³⁶⁾. لكن دريئة هذه القومية لم تكن المملكة المتحدة، التي كانت تسيطر على 90 في المئة من تجارة سيام، ولا فرنسا التي كانت قد فوّت ببعض المناطق الشرقية من المملكة القديمة: بل كانت أولئك الصينيين الذين استوردتهم أبوه مؤخراً وكانوا مصدر سعادة غامرة. ومما يشير إلى الأسلوب الذي اتبعه في موقفه المعادي للصينيين العنوانان اللذان يحملهما اثنان من أشهر كتيباته: يهود الشرق (1914)، وقيود على عجلاتنا (1915).

لماذا التغيير؟ لا شك في أن الحوادث الدرامية التي سبقت تتويج واشيروت في تشرين الثاني/نوفمبر 1910 وتلته مباشرة كان لها أثرها. ففي حزيران/يونيو قبل التتويج كان ثمة ضرورة لاستدعاء الشرطة لقمع إضراب عام قام به في بانكوك التجار الصينيون (وهم أبناء المهاجرين الصينيين

(36) كانت بريطانيا العظمى، أولاً وأخيراً، مصدر إلهام برنامج فاجيرافود (واشيروت) القومي، فهي الأمة الغربية التي يعرفها على النحو الأفضل، والتي كانت في تلك الفترة واقعة في إسهام حماسة إمبريالية مشوبة. انظر: Walter F. Vella, *Chaiyo! King Vajiravudh and the Development of Thai Nationalism* (Honolulu: University of Hawaii Press, 1978), pp. xiv, 6 and 67-68.

الأوائل الذين راحوا يرتقون صُعدًا) والعمال الصينيون، وكان بداية تدخلهم في السياسة السيامية⁽³⁷⁾. وفي العام التالي أطاحت بالملكية السماوية في بيجين تشكيلة متنوعة من الجماعات لم يَغِب عنها التجار بطبيعة الحال. هكذا ظهر «الصينيون» بوصفهم طليعة نزعة جمهورية شعبية تهدد مبدأ الملكية السلالية ذلك التهديد العميق. أمّا الأمر الثاني، وكما توحى كلمتا «اليهود» و«الشرق»، فهو أنّ الملك المُتأنّكِل كان قد تشرب تلك النزعات العنصرية المحددة التي اتّسمت بها الطبقة الحاكمة الإنكليزية. لكنه كان هنالك، علاوة على ذلك، حقيقة أنّ واشيروت كان نوعًا من البوربونيّ الآسيوي. وكان أسلافه، في المرحلة السابقة على القومية، قد اتّخذوا فتيات صينيات جميلات زوجات ومحظيات، وكانت النتيجة أنّه هو نفسه، إذا ما تكلمنا بمنطق علم الوراثة الماندلي، كان يسري في عروقه من «الدم» الصيني ما يفوق الدم «التايلندي»⁽³⁸⁾.

ها نحن، إذا، أمام مثال واضح على طابع القومية الرسمية، تلك الاستراتيجية الاستباقية التي تبنتها جماعات مهيمنة تهدّتها بالتهميش أو الإقصاء جماعةً بازغة متخيّلة قوميًا (لا حاجة إلى القول إنّ واشيروت راح يحرك أيضًا العتلات السياسية كلها القادرة على النهوض بالقومية الرسمية: التعليم الابتدائي الإلزامي الذي تسيطر عليه الدولة، والدعاية التي تنظمها الدولة، وإعادة كتابة التاريخ الرسمي، والنزعة العسكرية - التي كانت عرضًا ظاهريًا أكثر منها حقيقة فعلية - وإلحاح لا نهاية له على هوية السلالة الحاكمة والأمة)⁽³⁹⁾.

(37) كان سبب الإضراب قرار الحكومة أن تفرض على الصينيين ضريبة الرأس ذاتها التي فرضتها على التايلنديين المحليين. والتي كانت حتى ذلك الحين مخفّضة، بغية التشجيع على الهجرة. انظر: Bevars D. Mabry, *The Development of Labor Institutions in Thailand*, Data Paper no. 112 (Ithaca: Cornell University, Southeast Asia Program, 1979), p. 38.

(كان استغلال الصينيين متركّزًا في مزارع الأفيون بصورة أساسية).

(38) يمكن للقارئ أن يجد مزيدًا من التفاصيل المتعلقة بالنسب في مقالي: Anderson, p. 214.

(39) سكّ أيضًا شعار الأمة، الدين، الملك الذي كان شعار الأنظمة اليمينية في سيام طيلة الربع الأخير من القرن. وهنا تظهر أوتوقراطية أوفاروف وأرثوذكسيته وقوميته في ترتيب تايلندي مقلوب.

يُبيّن تطور القومية الهنغارية في القرن التاسع عشر أثر النموذج «الرسمي» بطريقة مختلفة. وكنا قد أشرنا في السابق إلى المعارضة الغاضبة التي أبدتها النبالة الماجياريّة التي تتكلّم اللاتينية تجاه محاولة جوزيف الثاني في ثمانينيات القرن الثامن عشر جعل اللغة الألمانية لغة الدولة الإمبراطورية الوحيدة. ذلك أنّ الفئات الأوفر حظاً في هذه الطبقة كانت تخشى من أن تفقد مناصبها في ظل إدارة مركزية مباشرة يسيطر عليها البيروقراطيون الإمبراطوريون الألمان. وكانت الفئات الأدنى مدعورة من إمكانية أن تخسر إعفاءها من الضرائب ومن الخدمة العسكرية الإلزامية، فضلاً عن سيطرتها على الأقنان والمقاطعات الريفية. لكنه إلى جانب الدفاع عن اللاتينية، كان ثمة دفاع انتهازي تماماً عن الماجياريّة «حيث بدت الإدارة الماجياريّة على أنّها البديل الفاعل الوحيد للإدارة الألمانية على المدى الطويل»⁽⁴⁰⁾. ولاحظ بيلا غرينفالد بسخرية أنّ «المقاطعات ذاتها التي ألحّت (في معارضة لقرار الإمبراطور) على إمكانية قيام إدارة باللسان الماجياري، أعلنت في عام 1811 - أي بعد سبعة وعشرين عاماً - أنّ في ذلك استحالة». وبعد عقدين على ذلك، قيل في مقاطعة هنغارية «قومية» جداً إنّ «إدخال اللغة الماجياريّة سوف يعرّض للخطر دستورنا ومصالحنا جميعاً»⁽⁴¹⁾. والحقيقة، أنّ النبالة الماجياريّة - تلك الطبقة المؤلفة من 136000 نسمة، والتي تحتكر الأرض والحقوق السياسية في بلد يبلغ تعداد سكّانه أحد عشر مليوناً⁽⁴²⁾ - لم تلتزم المَجْبِرَة على نحو جدّي إلا في أربعينيات القرن التاسع عشر، ولم يكن ذلك في حينه إلا للحيلولة دون تهмиشها التاريخي.

Ignotus, pp. 47-48.

(40)

هكذا أعطى النمر في ثياب النوم، الإمبراطور جوزيف الثاني، في عام 1820 انطباعاً حسناً في خطابه الذي ألقاه باللاتينية أمام الأعيان الهنغاريين المجتمعين في بست. لكن السيد العظيم الراديكالي الرومانسي الكونت اشتفان سيتشيني «أذهل زملاءه الأعيان في الدايت» في عام 1825، حين خاطبهم بالماجياريّة! انظر: Jaszi, p.80, and Ignotus, p. 51.

(41) اقتباس مُترجم من كتابه *The Old Hungary* (1910) ورد في: Jaszi, pp. 70-71.

كان غرينفالد شخصية لافتة وتراجيدية، ولّد لعائلة نبيلة من أصل ساكسوني لكنها تمجّرت، وغداً مديراً بارزاً وواحدًا من أوائل علماء الاجتماع في هنغاريا. ويبيّن نشر أبحاثه أنّ «المقاطعات» الشهيرة التي كان يسيطر عليها الأشراف الماجياري كانت عبارة عن طفيليات تعتاش على جسد الأمة وتثير حملة شرسة من سوء الصيت العام. فر إلى باريس وهناك انتحر غرقاً في نهر السين انظر: Ignotus, p. 299.

Jaszi, p. 299.

(42)

في الوقت ذاته، عَمِلَ التعليم المتنامي ببطء (كان يشمل في عام 1869 ثلث السكان البالغين)، وانتشار الماجيارية الطباعية، وظهور طبقة صغيرة، لكنها نشطة، من الإنتليجنسيا الليبرالية على إيقاظٍ قومية هنغارية شعبية جرى تصوُّرها مختلفةً تمامًا عن قومية النبلاء. وكان لهذه القومية الشعبية التي تَمَثَّلَ رمزها لدى الأجيال اللاحقة في شخص لا يوش كوشوت (1802 - 1894) ساعة مجدها في ثورة عام 1848. ذلك أنَّ النظام الثوري لم يقتصر على التخلص من الحُكَّام الإمبراطوريين الذين عَيَّنْتَهُم فيينا، بل تعدَّى ذلك إلى إلغائه مجلس الدايت الإقطاعي المؤلَّف من نبلاء المقاطعات الماجيار الأصليين، وإعلانه عن إصلاحات تضع حدًّا للقنانة ولاستثناء النبلاء من الضرائب، فضلًا عن لَجْمِهِ بقوةٍ وَقَفَ توريث الضَّيْع على ورثة معينين. كما تقرَّر، علاوة على هذا، أن يكون كلٌّ من يتكلم الماجيارية هنغاريًا (وهو الأمر الذي كان مقتصرًا في السابق على من يتمتعون بالامتيازات) وأن يتكلَّم كلٌّ هنغاري الماجيارية (الأمر الذي لم يكن قد اعتاده حتى ذلك الحين سوى بعض الماجيار). وكما يعلِّق إغنوطيوس بشيء من الجفاف، فإنَّه «كان من المُبَرَّر لـ «الأمة»، بمعيار ذلك الزمن (الذي شهد ظهور النجمين التوأمين، الليبرالية والقومية، بتفاؤلٍ لا حدَّ له)، أن تشعر أنَّها بالغة السخاء حين «اعترفت» بالفلاح الماجياري من دون أن تميِّز سوى ذلك التمييز المتعلِّق بالملكية⁽⁴³⁾؛ وبالمسيحيين غير الماجيار شريطة أن يصبحوا من الماجيار؛ ثم باليهود في نهاية المطاف، على مضض وبعد تأخير بلغ عشرين عامًا⁽⁴⁴⁾. وتمثَّل موقف كوشوت الخاص في مفاوضاته العقيمة مع قادة الأقليات غير الماجيارية المتعددة، في أنَّه يجب أن يكون لهؤلاء الحقوق المدنية ذاتها التي للماجيار، لكنهم لا يستطيعون تشكيل أمم خاصة بهم ما داموا يفتقرون إلى «الشخصيات التاريخية». وقد يبدو مثل هذا الموقف اليوم متغطرسًا وتافهًا. لكنه يظهر في ضوءٍ أفضل إذا تذكَّرنا أنَّ الشاعر القومي الجذري الشاب واللامع شاندور بَتوفي (1823 - 1849)، تلك الروح القائدة في عام 1848،

(43) سنَّ نظام كوشوت حقَّ الاقتراع للبالغين الذكور، لكن شريطة أن يكون لديهم تلك المؤهلات الرفيعة من حيث الملكية فلم يكن هناك سوى عدد ضئيل نسبيًا من الأشخاص الذين يمكنهم الاقتراع.

Ignotus, p. 56.

(44)

كان قد أشار في إحدى المناسبات إلى الأقليات بوصفها «قروحا على جسد الأرض الأم»⁽⁴⁵⁾.

بعد قمع الجيوش القيصرية النظام الثوري في عام 1849، مضى كوشوت إلى المنفى الذي بقي فيه طيلة عمره. كانت الخشبة الآن جاهزة لإحياء قومية ماجيارية «رسمية»، تجسدت في نظامي الكونت كالمان تيسا (1875 - 1890) وابنه اشتفان (1903 - 1906) الرجعيين. وأسباب هذا الإحياء هي أسباب بالغة الدلالة. ذلك أنه في خمسينيات القرن التاسع عشر جمعت إدارة باخ السلطوية البيروقراطية في فيينا القمع السياسي الشديد إلى تطبيق صارم لسياسات اجتماعية وسياسية معينة كان قد أعلنها ثوار عام 1848 (خصوصاً إلغاء القنانة وإعفاء النبلاء من الضرائب) إلى تطوير وسائل الاتصال الحديثة والمشاريع الرأسمالية واسعة النطاق⁽⁴⁶⁾. وبذلك تدهورت النبالة المايجارية الوسطى والدنيا القديمة، بعد أن جردت إلى حد بعيد من امتيازاتها وأمنها، وباتت عاجزة عن منافسة اللاتيفونديين <ملأك الأرض> الكبار وأصحاب المشاريع الألمان واليهود الناشطين، وتحولت إلى أشرف ريفيين غاضبين وخائفين.

غير أن الحظ كان حليف هؤلاء. ذلك أنه بعد الهزيمة المؤدلة التي ألحقتها الجيوش البروسية بفيينا في معركة كونيغراتز في عام 1866، اضطرت فيينا إلى قبول قيام المملكة الثنائية في تسوية عام 1867. ومنذ ذلك الحين فصاعداً تمتعت مملكة هنغاريا بقدر كبير من الاستقلال في إدارة شؤونها الداخلية. وكان أول المتفعين من التسوية مجموعة من الأرستقراطيين والحرفيين المتعلمين المايجار ذوي العقلية الليبرالية. وفي عام 1868 سنت إدارة الكونت السيّد جيولا أندراسي قانوناً للقوميات منح الأقليات غير المايجارية «كل حق سبق لها أن طالبت به أو أمكنها أن تطالب به؛ من دون أن يصل الأمر إلى تحويل هنغاريا إلى اتحاد فدرالي»⁽⁴⁷⁾. لكن صعود تيسا إلى المقام الأرفع في عام 1875 كان فاتحة عهد أفلح فيه

Ignotus, p. 59.

(45)

(46) يلاحظ إغنوطيوس أن باخ وفر للنبلاء شيئاً من التعويض المالي عن خسارة امتيازاتهم، «ربما

بالقدر الذي كان يمكن أن يحصلوا عليه في ظل كوشوت لا أكثر ولا أقل». انظر: Ignotus, pp. 64-65.

Ignotus, p. 74.

(47)

الأشراف الرجعيون في استعادة موقعهم، متمتعين بحرية نسبية بعيداً عن تدخل فيينا.

أمّا في الحقل الاقتصادي فأطلق نظام تيسا يد كبار المزارعين⁽⁴⁸⁾، لكن السلطة السياسية كانت حكراً على الأشراف بصورة أساسية. والسبب في ذلك أنه:

لم يبق لمن انتزعت حيازاتهم من ملجأ سوى الشبكة الإدارية التابعة للحكومة القومية والمحلية والجيش. وكي تملأ هغاريًا وظائف هذه الشبكة كانت بحاجة إلى كادر كبير؛ وكان بمقدورها أن تزعم ذلك على الأقل حتى لو لم يكن الأمر على هذا النحو. كان نصف البلد مكوناً من «قوميات» لا بدّ من ضبطها وإبقائها تحت السيطرة. وقد قيل آنذاك إنّ الدّفع لجمع من أعيان البلد الما جيار الموثوقين هو ثمن متواضع للمصلحة القومية. وكانت مشكلة تعدد القوميات نعمة سماوية أيضاً؛ إذ برّرت تكاثر المناصب.

هكذا «احتفظ الأسياد بضيا عهم الموروثة؛ واحتفظ الأشراف بوظائفهم الموروثة»⁽⁴⁹⁾. وكانت هذه هي القاعدة الاجتماعية التي قامت عليها سياسة مَجْبِرَة قسرية لا هوادة فيها جعلت قانون القوميات مجرد حبر على ورق بعد عام 1875. وعمل التضييق القانوني لحق الاقتراع، وانتشار الدوائر الانتخابية الفاسدة، والانتخابات المزوّرة، والبلطجة السياسية المنظمة في المناطق الريفية⁽⁵⁰⁾ على تعزيز سلطة تيسا ودائره الانتخابية وتأكيد الطابع «الرسمي» لقومية هؤلاء في آن معاً.

يقارن ياسي بحق بين هذه المَجْبِرَة في أواخر القرن التاسع عشر و«سياسة القيصرية الروسية ضدّ البولنديين والفرنلنديين والروثنيين؛ وسياسة بروسيا ضدّ

(48) كانت النتيجة أنّ عدد الضّيع الموقوفة على ورثة معينين تضاعف ثلاث مرّات بين عامي 1867 و 1918. وإذا ما حسبنا أملاك الكنيسة، فإن ثلث الأرض في هنغاريا كان موقوفاً على ورثة معينين عند نهاية المملكة الثنائية. وكذلك كان وضع الرأسماليين الألمان واليهود ذلك الوضع الحسن في ظلّ تيسا.

(49) Ignatus, pp. 81-82.

(50) كانت البلطجة بصورة أساسية عمل «الباندور» ذوي الصيت السيئ، وهم جزء من الجيش وُضِعَ تحت إمرة مدراء المقاطعات واستُخدِمَ كشرطة ريفية عنيفة.

البولنديين والدانماركيين؛ وسياسة إنكلترا الإقطاعية ضد الأيرلنديين»⁽⁵¹⁾. وتوضح الوقائع التالية على نحو دقيق ما كان من تضافر بين الرجعية والقومية الرسمية: حين باتت المَجْبِرَة اللغوية عنصراً أساسياً في سياسة النظام، لم يكن هناك في ثمانينيات القرن التاسع عشر سوى 2 في المئة من الرومانيين بين موظفي الفروع المهمة في الحكومتين المركزية والمحلية، مع أن الرومانيين كانوا يشكلون 20 في المئة من السكان، بل إن «هذه الـ 2 في المئة كانت تحتل المراتب الدنيا»⁽⁵²⁾. ومن جهة أخرى، لم يكن في البرلمان الهنغاري قبل الحرب العالمية الأولى «أي ممثل للطبقات العاملة والفلاحين الذين لا يملكون أرضاً (أغلبية البلد الساحقة)... ولم يكن هناك سوى ثمانية رومانيين وسلوفاك بين مجموع أعضاء البرلمان البالغ 413 عضواً في بلد لا يتكلم سوى 45 في المئة من سكّانه اللغة الما جيارية بوصفها لغتهم الأم»⁽⁵³⁾. لا عجب، إذاً، أنه حين أرسلت فيينا قواتها لحل البرلمان في عام 1906 «لم يُعقد أي لقاء جماهيري، ولم تُعلّق أي لافتة، أو يصدر أي بيان شعبي احتجاجاً على حقبة «حكم فيينا المطلق» الجديدة. على العكس، راحت الجماهير والقوميات الكادحة تنظر بفرح حاقداً إلى ذلك الصراع العقيم الذي خاضته الأوليغارشية القومية»⁽⁵⁴⁾.

Jaszi, p. 328.

(51)

(52) تبعاً لحسابات لا يوش موتشاري، في: *Some Words on the Nationality problem*, (Budapest, 1886) وأوردها ياسي في المصدر السابق ص 331 - 332.

كان موتشاري (1826 - 1916) قد أسس في عام 1874 حزباً صغيراً مستقلاً في البرلمان الهنغاري كي يقاتل دفاعاً عن أفكار كوشوت، خصوصاً في شأن مسألة الأقليات. وأدت خطبه التي تنتقد خروقات تيسا السافرة لقانون القوميات الصادر في عام 1868 إلى طرده من البرلمان أولاً، ثم إلى طرده من حزبه هو نفسه. وفي عام 1888، عاد إلى البرلمان نائباً عن دائرة انتخابية رومانية بالكامل وأصبح منبوذاً سياسياً إلى حد بعيد. انظر: Ignotus, p. 334.

Jaszi, p. 334.

(53)

Jaszi, p. 362.

(54)

كان ثمة خاصية زائفة ميّزت هذه «الأوليغارشية القومية» وصولاً إلى القرن العشرين. يشير ياسي إلى قصة مسلّية وقعت لأحد مراسلي يومية هنغارية شهيرة أجرى مقابلة خلال الحرب العالمية الأولى مع الضابط الجريح الذي سيغدو دكتاتور هنغاريا الرجعي في الفترة بين الحربين. لقد غضب هورثي من وُصف المقالة أفكاره بأنها «تطير عائداً إلى أرض الآباء الهنغارية، وطن الأجداد». وقال: «لتعلموا أنه إذا ما كان قائد الحربي في بادن، فإن أرض آبائي أيضاً تكون هناك!». انظر: Jaszi, p. 142.

لذلك، فإنه من المتعذر تفسير انتصار قومية الأشراف المايجيار الرجعيين «الرسمية» بعد عام 1875 بالقوة السياسية وحدها التي تمتعت بها تلك الجماعة، أو بحرية المبادرة التي ورثتها من تسوية عام 1867. والحقيقة أن بلاط هابسبورغ لم يشعر قبل عام 1906 أنه في وضع يتيح له أن يوطد أركانه على نحو حاسم ضد نظام ظلّ عمادًا للإمبراطورية من نواح كثيرة. كانت السلالة الحاكمة عاجزة، أولاً وقبل كل شيء، عن أن تفرض قوميتها الرسمية الفاعلة الخاصة. ليس لأن النظام كان «Absolutismus gemildert durch Schlamperei» [نظام حكم مطلق خففت منه الفوضى] فحسب، كما يقول الاشتراكي البارز فيكتور أدلر⁽⁵⁵⁾. لقد تشبّثت السلالة الحاكمة بتصورات آفلة وتأخرت في ذلك أكثر من أي مكان آخر تقريبًا. وكان «كل هابسبورغي يشعر، انطلاقًا من نزعته الصوفية الدينية، بأنه مرتبط بالألوهة برباط خاص، بوصفه منفذًا لمشئته الإله. وهذا ما يفسّر موقفهم الذي يكاد يكون لامباليًا وخاليًا من الضمير وسط الكوارث التاريخية، وبطرهم الذي غدا مضرب أمثال. وغدت عبارة Der Dank vom Hause Habsburg <بفضل آل هابسبورغ> شعارًا واسع الانتشار»⁽⁵⁶⁾. علاوة على ذلك،

(55)

Jaszi, p. 165.

«وفي تلك الأيام الخوالي السعيدة حين كان لا يزال هناك مكان مثل النمسا الإمبراطورية، كان بمقدور المرء أن يترك قطار الحوادث، ويستقل قطارًا عاديًا على سكة حديد عادية، ويرحل عائداً إلى أرض الوطن... بالطبع، فإن السيارات أيضًا كانت تسير على تلك الدروب، لكنها لم تكن كثيرة! بل إن غزو الأجواء كان قد بدأ هنا أيضًا؛ لكن ذلك لم يكن بكثافة كبيرة. وبين الحين والآخر كانت تُرسل سفينة إلى أميركا الجنوبية أو الشرق الأقصى؛ لكن ذلك لم يكن يحدث كثيرًا. لم يكن هناك أي طموح إلى إقامة أسواق عالمية أو امتلاك سلطة عالمية. هنا كان المرء في مركز أوروبا، في بؤرة محاور العالم القديمة؛ وكان لكلمتي «مستعمرة» و«ما وراء البحار» رنين شيء لم يُختبر بعد على الإطلاق وكان لا يزال نائيًا. كان ثمة بعض مظاهر الرفاهية، لكنها لم تكن مفرطة الإتيان كالرفاهية الفرنسية. وكان المرء يمارس الرياضة؛ لكن ليس على الطريقة الأنكلوساكسونية المجنونة. وكانت تُنفق مبالغ هائلة على الجيش؛ لكنها لم تكن تكفي لأكثر من ضمان بقاء واحدة من بين اثنين من أضعف القوى العظمى».

انظر: Robert Musil, *The Man Without Qualities*, Translated by Eithne Wilkins and Ernst Kaiser (New York: Howard McCann, 1953), vol. I, pp. 31-32.

وهذا الكتاب هو الرواية الهزلية الأعظم في قرننا.

(56)

Jaszi, p. 135.

التشديد لي. عندما طُرِدَ مترنيخ بعد تمردات عام 1848 واضطر إلى الفرار، «لم يسأله أحد في البلاط أين يذهب وكيف سيعيش».

عملت الغيرة المريرة من بروسيا الهوينزولرنية التي راحت تستأثر بطبق الإمبراطورية الرومانية المقدسة وجعلت من نفسها ألمانيا، على إبقاء السلالة الحاكمة تصرّ على مقولة فرانز الثاني المذهلة «الوطنية من أجلي».

من اللافت، في الوقت ذاته، أن السلالة الحاكمة اكتشفت في أيامها الأخيرة، ربما بشيء من الدهشة، ضروباً من الألفة مع الاشتراكيين الديمقراطيين لديها، إلى درجة أن بعضاً من أعدائهم المشتركين راح يسخر من الـ *Burgsozialismus* [اشتراكية البلاط]. ولا شك في أنه كان في هذا التحالف المتردد خليطاً من المكيافيلية والمثالية عند كلا الطرفين. ويمكن رؤية هذا الخليط في الحملة العنيفة التي قادها الاشتراكيون الديمقراطيون النمساويين ضد «الانفصال» الاقتصادي والعسكري الذي ألح عليه نظام الكونت اشتفان تيسا في عام 1905. وعلى سبيل المثال، «أدان كارل رينر جبن البرجوازية النمساوية التي بدأت تدعن لخطط المايجار الانفصالية، مع أن أهمية السوق الهنغارية بالنسبة إلى رأس المال النمساوي أكبر بما لا يقاس من أهمية السوق المغربية بالنسبة إلى رأس المال الألماني» الذي تدافع عنه السياسة الخارجية الألمانية بكل ما أوتيت من طاقة. ولم يرَ رينر في المطالبة بمنطقة جمركية هنغارية مستقلة سوى صراخ تطلقه أسماك قرش المدينة والمحتالون والديماغوجيون السياسيون، ضد مصالح الصناعة النمساوية ذاتها، ومصالح الطبقات العاملة النمساوية، ومصالح المزارعين الهنغاريين»⁽⁵⁷⁾. وبالمثل، فقد كتب أوتو باور:

«في حقبة الثورة الروسية [1905]، لن يجرؤ أحد على استخدام القوة العسكرية العارية لإخضاع البلد [هنغاريا] الذي مزّقه العداوات الطبقية والقومية. لكن صراعات البلد الداخلية سوف توفر للعرش أداة أخرى من أدوات القوة لا بدّ من أن يستخدمها إذا ما أراد أن يتلافى مصير آل برنادوت^(*). فهو لا يستطيع أن يكون محلّ إرادتين ويظلّ على عزمه أن يحكم كلّاً من هنغاريا والنمسا. لذلك لا بدّ من

(57) التشديد لي. Jaszi, p. 181.

(*) الأسرة الملكية الحاكمة في السويد منذ عام 1818 وإلى الآن. وكانت بين عامي 1818 و1905 تحكم النرويج أيضاً.

أن يتخذ خطوات تضمن أن يكون لكل من هنغاريا والنمسا إرادة مشتركة، وأن تقيم هذه الإرادة مملكة [Reich] واحدة. ومما يوفر للعرش فرصة تحقيق هذا الهدف ذلك التشظي الداخلي الذي تعانيه هنغاريا. ذلك أنه سيرسل جيشه إلى هنغاريا كي يعيدها إلى المملكة، لكنه سيكتب على راياته: اقتراع عام ومتكافئ ونزيه! حق العمال الزراعيين في الاتحاد! الاستقلال القومي! وسوف يعارض فكرة قيام دولة أمة [Nationalstaat] هنغارية مستقلة، بأن يضع إزاءها فكرة ولايات النمسا العظمى المتحدة [كذا]، فكرة دولة اتحادية [Bundesstaat]، تدير فيها كل أمة شؤونها القومية على نحو مستقل، وتتحد فيها جميع الأمم في دولة واحدة حفاظاً على مصالحها المشتركة. فمن المؤكد والمحتوم أن فكرة قيام دولة اتحادية للقوميات [Nationalitätenbundesstaat] ستغدو أداة للعرش [كذا] - [Werkzeug der Krone]، الذي يعمل تفسخ الثنائية على تدمير مملكته»⁽⁵⁸⁾.

يبدو منطقياً أن نتبين في ولايات النمسا العظمى المتحدة (USGA) هذه آثار الولايات المتحدة الأمريكية (USA) ومملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية المتحدة (التي حكمها حزب العمال ذات يوم)، فضلاً عن استباق لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الذي يشكّل امتداده المكاني تذكراً غريبة بامتداد القيصريّة. وحقيقة الأمر هي أن ولايات النمسا العظمى المتحدة هذه قد بدت، في عقل من تخيلها، على أنها الوريث الضروري لمجال سيطرة سلالية معينة (النمسا العظمى)، بمكوناتها المحرّرة التي هي بالضبط تلك المكونات التي أنتجتها قرون من «المتاجرات» الهابسبورغية.

Otto Bauer, *Die Nationalitätenfrage und die Sozialdemokratie* (1907).

(58)

Otto Bauer, *Werkausgabe* (Vienna: Europaverlag, 1975), vol. I, كما نجد ذلك أيضاً في كتابه: p. 482.

التشديد في الأصل. مقارنة هذه الترجمة بترجمة ياسي التي نجدها في الطبعة الأصلية من هذا الكتاب، جديرة بأن تكون محل تفكير.

شكّلت مثل هذه التخيّلات «الإمبراطورية» جزءًا من سوء الطالع الذي أحاق باشتراكية وُلِدَت في عاصمةٍ واحدةٍ من الإمبراطوريات السلالية العظمى في أوروبا⁽⁵⁹⁾. وسبق أن رأينا أن الجماعات المتخيّلة الجديدة التي استحضرتها وُضِعَ المعاجم ورأسمالية الطباعة (بما فيها ولايات النمسا العظمى المتحدة التي وُلِدَت مِيتَّةً، لكنها كانت قيد التخيّل) لطالما اعتبرت نفسها قديمة نوعًا ما. وفي عصر كان لا يزال «التاريخ» ذاته يُتَصَوَّر على أنه «حوادث جسام» و«قادة عظماء»، وعلى أنه جواهر ينظمها خيطٌ من السرد، كان فكّ مغاليق ماضي الجماعة من خلال السلالات الحاكمة القديمة أمرًا مغريًا أشدّ الإغراء. وهذا ما جاء بفكرة ولايات النمسا العظمى المتحدة التي يكاد غشاؤها الذي يفصل بين الإمبراطورية والأمة، والعرش والبروليتاريا، أن يكون رقيقًا وشفافًا. ولم يكن باور بالاستثناء على هذا الصعيد. فأمثال وليم الفاتح وجورج الأول اللذين لا يتكلّم أيّ منهما الإنكليزية، كانوا لا يزالون يظهرون كحُبّاتٍ في عقد «ملوك إنكلترا» بعيدًا عن أيّ إشكالات. وكان لا يزال بمقدور «القديس» ستيفن (حكم بين عامي 1001 و 1038) أن ينصح خليفته بأن:

«منفعة الأجانب والضيوف تبلغ من العظمة حدّ أن يُمنَحوا المكانة السادسة من حيث الأهمية بين الحلّي الملكية... ذلك أن الضيوف الذين يأتون من مناطق ومقاطعات شتّى يجلبون معهم شتّى اللغات والعادات، وشتّى المعارف والأسلحة. وكلّ ذلك يزيّن البلاط الملكي، ويزيد بهاءه، ويُزَعِبُ القوى الأجنبية المتغطّسة. ذلك أن بلدًا موحد اللغة والعادات هو بلد هشّ وضعيف...»⁽⁶⁰⁾.

لكن مثل هذا الكلام ما كان ليحول مطلقًا دون تألّفه اللاحق بوصفه ملك هنغاريا الأول.

(59) لا شكّ في أنها تعكس أيضًا الجهاز العقلي المميّز لنمطٍ معروف من أنماط المثقف الأوروبي اليساري الذي يفخر بتضلّعه من اللغات الحضارية، وبارثه التنويري، وبفهمه الثاقب لمشكلات أيّ أحد آخر. ففي هذا الفخار تختلط المكوّنات الأممية والأرستقراطية بمقادير متساوية.

Jaszi, p. 3.

(60)

ختامًا، رأينا أن ما دعاها سيتن واتسون باسم «القوميات الرسمية» راحت تظهر في أوروبا منذ أواسط القرن التاسع عشر. وهذه القوميات كانت «مستحيلة» تاريخيًا لولا ظهور القوميات اللغوية الشعبية، ذلك أنها كانت، في حقيقتها، ردات فعل أبدتها مجموعات سلطوية - سلالية حاکمة وأرستقراطية في المقام الأول، لكن ليس حصريًا - حين تهذبت الجماعات المتخيلة الشعبية بالإقصاء أو التهميش. كانت تلك بداية نوع من الانقلاب التكتوني الذي عمّل، بعد عامي 1918 و 1945 على دفع هذه المجموعات إلى مجارير إستوريل ومونت كارلو. وكانت سياسات مثل هذه القوميات الرسمية محافظة، كي لا نقول رجعية، مستمدة من نموذج القوميات الشعبية بالغة العفوية التي سبقتها⁽⁶¹⁾. ولم تكن في النهاية مقتصرة على أوروبا وشرق المتوسط. ذلك أن مجموعات مماثلة في المناطق الآسيوية والأفريقية الشاسعة التي تم إخضاعها في مجرى القرن التاسع عشر اتبعت، باسم الإمبريالية، سياسات مماثلة إلى حد بعيد⁽⁶²⁾. وبانتشارها في الثقافات والتواريخ غير الأوروبية التقطتها في النهاية وحاكتها مجموعات حاکمة

(61) كان ياسي قد توقع الكثير منذ نصف قرن مضى: «قد يتساءل المرء ما إذا كانت التطورات الإمبريالية الأخيرة التي اعترت القومية قد نبعت من مصادر الفكرة القومية الحقّة لا من المصالح الاحتكارية لدى مجموعات معينة غريبة عن مفهوم الأهداف القومية الأصلي». انظر: Jaszi, p. 286. التشديد لي.

(62) تؤكد حالة جزر الهند الهولندية هذه النقطة بدقّة وعلى نحو معكوس، حيث كانت في أيامها الأخيرة لا تزال محكومة إلى حد بعيد عبر لغة نعرفها اليوم على أنها «إندونيسية». وهذا باعتقادي هو المثال الوحيد لمُسْتَعْمَرَة كبيرة بقيت فيها لغة غير أوروبية لغة للدولة حتى النهاية. ويمكن تفسير هذا الشذوذ في المقام الأول بِقَدَم هذه المستعمرة لا غير، حيث قامت في أوائل القرن السابع عشر من خلال شركة الهند الشرقية المتحدة، قبل عصر القومية الرسمية بزمانٍ طويل. ولا شك في أنه كان هناك أيضًا فقدان ثقة معين لدى الهولنديين في العصور الحديثة بأن لغتهم وثقافتهم ذلك الطابع الأوروبي الذي تمكن مقارنته بطابع اللغة الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإسبانية أو الإيطالية (البلجيك في الكونغو كانوا يستخدمون الفرنسية لا الفلمنكية). وأخيرًا، فإن السياسة التعليمية الكولونيالية كانت سياسة محافظة إلى أبعد الحدود: ففي عام 1940 حين كان تعداد السكان الأصليين يفوق السبعين مليونًا بكثير، لم يكن في الجامعة من «المحليين» سوى 637 شخصًا، لم يتخرج منهم بشهادة البكالوريوس سوى 37. انظر: George McTurnan Kahin, *Nationalism and Revolution in Indonesia* (Ithaca: Cornell University Press, 1952), p. 32.

من أجل مزيد من المعلومات عن إندونيسيا، انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

محلية في تلك المناطق القليلة (من بينها اليابان وسيام) التي نجت من الإخضاع المباشر.

أزالت القومية الرسمية، في الحالات كلها تقريبًا، نوعًا من التباين بين الأمة والمملكة السلالية. ومن هنا ذلك التناقض عالمي النطاق: حيث كان على السلوفاك أن يَتَمَجَّجُوا، وعلى الهنود أن يتأنكلوا، وعلى الكوريين أن يتيسبوا، لكنه لم يكن متاحًا لهم أن يلتحقوا برحلات حجّ تتيح لهم أن يتولّوا إدارة المايجيار أو الإنكليز أو اليابانيين. وكانت الوليمة التي دُعوا إليها تتكشف دومًا على أنها وليمة وهمية. ولم يكن السبب وراء كل هذا مقتصرًا على العنصرية؛ بل تعدّاه أيضًا إلى حقيقة أنّ الأمم كانت تبزغ في قلب الإمبراطوريات ذاتها، مثل الأمة الهنغارية والإنكليزية واليابانية. وكانت هذه الأمم أيضًا تُبدي مقاومة غريزية للحكم «الأجنبي». لذلك كان للأيديولوجيا الإمبريالية في حقبة ما بعد عام 1850 طابع نمطيّ مميز هو طابع الخدعة السحرية. وما يشير إلى ذلك هو تلك اللامبالاة التي أبدتها الطبقات الشعبية المتروبولية في النهاية حيال «فقدان» المستعمرات، حتى في حالات كحالة الجزائر حيث كانت قد صدرت قوانين تضمّ المستعمرة إلى المتروبول. وفي النهاية، فإنّ الطبقات الحاكمة، البرجوازية بلا شكّ، والأرستقراطية قبل أيّ شيء آخر، هي التي تندب الإمبراطوريات ذلك الندب المديد الدائم، لكنّ لحزنها على الدوام ذلك الطابع المسرحيّ.

الموجة الأخيرة

أوصلت الحرب العالمية الأولى عصر الملكية السلالية إلى نهايته. وفي عام 1922 كان آل هابسبورغ وآل هوينزولرن وآل رومانوف وآل عثمان قد وُلّوا. وبدلاً من مؤتمر برلين جاءت عصبة الأمم التي لم يُقَصَّ عنها غير الأوروبيين. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، باتت الدولة الأمّة هي المعيار الدوليّ الشرعيّ، حتى إنّ القوى الإمبراطورية الباقية ذاتها أتت إلى عصبة الأمم مرتديةً الزيّ القومي لا البزة الإمبراطورية. وبعد كارثة الحرب العالمية الثانية بلغ مدّ الدولة الأمّة أوجه. وفي أواسط سبعينيات القرن العشرين غدت الإمبراطورية البرتغالية ذاتها شيئاً من الماضي.

كان للدول الجديدة التي نشأت في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية طابعها الخاص، لكن الإحاطة بهذا الطابع من جوانبه كلها تبقى غير ممكنة خارج تعاقب النماذج التي تناولناها وتناولها. وتتمثل إحدى طرائق تأكيد هذا النسب في أن نتذكّر أن عددًا كبيرًا من هذه الأمم (غير الأوروبية بصورة أساسية) اتخذت لغاتٍ أوروبيةً لغات دولة. وإذا ما كانت هذه الأمم قد تشبّعت بالنموذج «الأميركي» على هذا الصعيد، فإنها اتخذت من القومية الأوروبية اللغوية شعبويتها الحماسية، ومن القومية الرسمية توجّوها نحو سياسة الرّؤسنة. وفعلت ذلك لأنّ الأميركيين والأوروبيين كانوا قد خاضوا تجارب تاريخية معقّدة صار يجري تخيلها في كلّ مكان كنماذج تُحتذى، ولأنّ لغات الدولة الأوروبية التي اتخذتها كانت إرث القومية الرسمية الإمبراطورية. وهذا ما يفسّر تلك الحماسة القومية الشعبية الأصيلة، وذلك الغرس المنهجي، بل المكيافيللي، للأيديولوجية القومية من خلال وسائل الإعلام والنظام التربوي

والأنظمة الإدارية وسواها، وهما حماسة وغمسٌ غالبًا ما نراهما معًا في سياسات «بناء الأمة» التي تتبّعها الدولة الجديدة. وبدوره، كان هذا المزج بين القومية الشعبية والقومية الرسمية نتاج شذوذات أو حالات خروج على القياس خلقتها الإمبريالية الأوروبية: اعتبارية الحدود الشهيرة، وضروب الإنتليجنسيا ثنائية اللغة بتوازنها القلق بين شتى ضروب السكّان أحاديي اللغة. لذلك يمكن النظر إلى كثير من هذه الأمم على أنّها مشاريع لا تزال قيد التحقق، لكنها مشاريع يجري تصوّرها بروحية ماتزيني (*) لا بروحية أوفاروف.

لدى النظر في أصول «القومية الكولونiale» الحديثة، سرعان ما يلفتنا تشابه أساسي مع القوميات الكولونiale التي تعود إلى مراحل أسبق: هو التناظر بين الامتداد الإقليمي لكلّ قومية وامتداد الوحدة الإدارية الإمبراطورية السابقة. وهذا التماثل ليس بالعرضي بأيّ حال من الأحوال؛ فهو مرتبطٌ على نحو واضح بجغرافيا كلّ ضَرْبٍ من ضروب الحجّ الكولونالي. ويكمن الفارق في حقيقة أنّ حدود رحلات الحجّ الكريولية في القرن الثامن عشر لم تشكّلها الطموحات المركزية لدى الحكم المطلق في المتروبولات فحسب، بل شكّلتها أيضًا مشكلات الاتصال والنقل الفعلية، وبدائيةٌ تكنولوجية عامة. وفي القرن العشرين كان قد جرى التغلّب على هذه المشكلات إلى حدٍّ بعيد، وجاءت لتحلّ محلّها مشكلة «الرّوسنة» بوجهها الشبيه بوجه جانوس (**).

سبق أن أشرت إلى أنّ الوحدة الإدارية الإمبراطورية كانت قد اكتسبت في أواخر القرن الثامن عشر شيئًا من المعنى القومي لأنّها كانت تحدد دائرة صعود الموظفين الكريول. وكذا الأمر في القرن العشرين أيضًا. ذلك أنّه حتى في الحالات التي كان يأتي شاب إنكليزي أسمر أو أسود كي يتلقّى بعض التعليم أو التدريب في المتروبول، الأمر الذي ما كان ليقدّر عليه سوى قلة من أسلافه الكريول، كانت تلك الحالات في العادة آخر مرّة يقوم فيها بهذا الحجّ

(*) جوزيبي ماتزيني (1805 - 1872) قائد سياسي وناظر قومي إيطالي. يُعدّ روح الحركة القومية الإيطالية الحديثة، وأحد ثلاثة من دعاة وحدتها الكبار (كافور وغاريبالدي وماتزيني).

(**) إله روماني قديم يحرس بوابة السماء؛ ومن هنا تسميته حارس البوابات والمداخل. وكان يُمثّل بوجهين، واحد في الأمام وآخر في الخلف، وأبواب معبده في روما كانت تُترك مفتوحة زمن الحرب وتُغلق زمن السلم. ويُستخدَم اسم جانوس في الإشارة إلى كلّ من ازدواجية الأوجه والحرب.

البيروقراطي. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا كانت قمة تحليقه الحلزوني تتمثل بأعلى مركز إداري أمكنه أن يتولاه: في رانغون أو أكرا أو جورجتاون أو كولومبو. لكنه كان يجد في كل رحلة محدودة رفاق طريق ثنائيي اللغة راح يشعر أنه يشكّل معهم جماعة متنامية. وسرعان ما كان يفهم في رحلته أن مسألة أصله - الإثني أو اللغوي أو الجغرافي - ليس لها تلك الأهمية الكبيرة. وأقصى ما يمكن أن تفعله هو أن تُطلقه في هذا الحجّ لا في ذاك: فهي لا تحدّد منتهاه أو رفقاءه من الناحية الجوهرية. ومن هذا النسق برز تحول الدولة الكولونiale الدقيق، نصف الخفي، والمتدرج خطوة خطوة إلى الدولة القومية، وهو تحول لم يُتَحَ ذلك التواصل الراسخ بين كادر الموظفين فحسب، بل كذلك مجموعة وطيدة من الرحلات التي كان موظفو كل دولة يختبرون عبرها دولتهم هذه⁽¹⁾.

غير أن هذه الرحلات لم تبق بعد منتصف القرن التاسع عشر، خصوصًا في القرن العشرين، مجرد رحلات تقوم بها حفنة من الرّحالة، بل باتت على نحو متزايد رحلات حشود ضخمة متنوعة. وكان ثمة عوامل ثلاثة فاعلة على هذا الصعيد: أولها وأهمها كان التزايد الهائل في الحراك المادي الذي مكّنت منه تلك المنجزات المدهشة التي أتت بها الرأسمالية الصناعية، مثل السكك الحديدية والسفن البخارية في القرن التاسع عشر، والسيارات والطيران في القرن العشرين. وبذلك، سرعان ما باتت الرحلات الطويلة الممتلة إلى البلدان الأميركية القديمة أشياء من الماضي.

يتمثل العامل الثاني في أنّ «الرؤسنة» الإمبراطورية كان لها جانبها العملي فضلًا عن جانبها الأيديولوجي. ذلك أنّ حجم الإمبراطوريات الأوروبية العالمي وأعداد السكّان الخاضعين الهائلة كانا يجعلان استخدام البيروقراطيات المتروبولية الفعّلة، أو حتى الكريولية، أمرًا لا تتوافر له العناصر ولا الموارد. كانت الدولة الكولونiale، والشركات الرأسمالية بعدها بقليل، بحاجة إلى

(1) لم يقتصر ذلك بالطبع على الموظفين، مع أنهم كانوا الجماعة الأساسية. خذوا مثلاً رواية لا تلمسني (وغيرها كثير من الروايات القومية). مع أنّ بعض الشخصيات الأكثر أهمية في نصّ ريزال هم من الإسبان، ومع أنّه كان على بعض الشخصيات الفيليبينية أن تسافر إلى إسبانيا (بعيدًا عن مسرح الرواية)؛ إلا أنّ حدود الرحلة التي كانت تقوم بها أيّ شخصية كانت مقتصرة على ما سيغدو، بعد أحد عشر عامًا من نشر الرواية وعامين من إعدام كاتبها، جمهورية الفيليبين.

جيوش من الموظفين، الذين كان يجب أن يعرفوا لغتين كي يكونوا ذوي نفع، قادرين على التوسط لغويًا بين الأمة المتروبولية والشعوب المُستعمَرة. وتنامت هذه الحاجة بتضاعف وظائف الدولة الاختصاصية في كل مكان بعد منقلب القرن. ذلك أنه ظهر، إلى جانب مأمور الناحية القديم، المسؤول الطبي ومهندس الريّ والعامل الزراعي وأستاذ المدرسة والشرطي... وهلمجرًا. ومع كل توسع للدولة، كانت جمهرة حجيجها الداخلي تنتفخ وتتضخم⁽²⁾.

أمّا العامل الثالث فكان نُشرُ التعليم الحديث، ليس بفعل الدولة الكولونيالية فحسب، بل أيضًا بفعل المنظمات الخاصة الدينية والعلمانية. ولم يَجِرْ هذا التوسع بغية توفير كوادِر الحكومة والشركات فحسب، بل أيضًا بسبب الإقرار المتنامي بما للمعرفة الحديثة من أهمية أخلاقية حتى بالنسبة إلى السكان المستعمَرين⁽³⁾ (بل إن ظاهرة المتعلّم العاطل عن العمل كانت آخذة بالبروز في دول كولونيالية شتى).

ثمّة إقرار عام بمركزية الدور الذي قامت به الإنجليجيسيا في نشوء القومية في المناطق الكولونيالية، خصوصًا أن الكولونيالية كانت قد جعلت كبار المزارعين المحليين، والتجار الكبار، وأصحاب المشاريع الصناعية، بل وطبقة الحرفيين الكبيرة، من الأمور النادرة نسبيًا. وفي كل مكان تقريبًا كانت القوة الاقتصادية إما حكرًا على الكولونيين أنفسهم، أو محل تقاسم غير متكافئ

(2) كي نضرب مثلاً واحدًا فحسب: في عام 1928 كان هناك حوالي 25000 من أبناء البلد المحليين على جدول رواتب جزر الهند الشرقية الهولندية، وشكّل هؤلاء 90 في المئة من إجمالي موظفي الدولة (ومما له دلالة، أن الرواتب والمعاشات متفاوتة كثيرًا بين الموظفين الهولنديين والمحليين، حين يجتمعون، كانت تلتهم حتى 50 في المئة من إنفاق الدولة!). انظر: Amry Vandenbosch, *The Dutch East Indies: Its Government, Problems, and Politics* (Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1944), pp. 171-73.

غير أن الهولنديين كانوا أكثر بتسع مرّات على المستوى البيروقراطي شأنهم شأن الإنكليز في الهند البريطانية (التي لم تكن «دولة محلية»).

(3) حتى في جزر الهند الهولندية المحافظة إلى أبعد الحدود، ارتفع عدد المحليين الذين يتلقون تعليمًا ابتدائيًا على الطريقة الغربية من معدل يبلغ 2987 بين عامي 1900 و 1904 إلى 74698 في عام 1928؛ أما أولئك الذين يتلقون تعليمًا ثانويًا على الطريقة الغربية فزاد عددهم في الفترة ذاتها من 25 إلى 6468. انظر: George McTurnan Kahin, *Nationalism and Revolution in Indonesia* (Ithaca: Cornell University Press, 1952), p. 31.

مع طبقة عاجزة سياسيًا من رجال الأعمال الغرباء (غير المحليين)، مثل اللبنانيين والهنود والعرب في أفريقيا الكولونiale، والصينيين والهنود والعرب في آسيا الكولونiale. وثمة إقرار عام مماثل بأن دور الإنتليجنسيا الطليعي مستمد من تعلّمها ثنائي اللغة، أو من تعلّمها وثنائية لغتها. وكان التعلّم وقراءة المطبوعات قد مكّنا من قيام الجماعة المتخيّلة السابحة في زمن فارغ، متجانس سبق أن تكلمنا عليه. أمّا ثنائية اللغة فعنّت توفير منفذ، عبر لغة الدولة الأوروبية، إلى الثقافة الغربية الحديثة بمعناها الواسع، خصوصًا إلى نماذج القومية والانتماء إلى أمة والدولة الأمة، تلك النماذج المُنتجة في غير مكان في مجرى القرن التاسع عشر⁽⁴⁾.

في عام 1913، قام النظام الكولونيالي الهولندي في باتافيا، بعد أخذ الضوء الأخضر من لاهاي، برعاية مهرجانات ضخمة في أرجاء المستعمرة احتفاءً بالذكرى المئوية لـ «تحرّر هولندا القومي» من الإمبريالية الفرنسية. ولم تصدر أوامر تأكيد المشاركة الفعلية والمساهمات المالية عن الجماعات الهولندية والأوراسية المحلية فحسب، بل أيضًا عن السكان المحليين الخاضعين. واحتجاجًا على ذلك، كتب القومي الجاوي - الإندونيسي الشاب سواردي سرجانغرات (كي حجر ديوانتارا)^(*) مقالته المعروفة «لو كنتُ هولنديًا» باللغة الهولندية:

«في رأيي، أنّ هنالك ما هو في غير محله - وبذيء - حين نطلب (نحن الهولنديين، وأنا لا أزال أتخيّل أنني هولندي) من أبناء البلد أن يخرجوا في تلك المهرجانات التي تحتفل باستقلالنا. إنّنا، أولاً، نجرح مشاعرهم إذ نحتفل باستقلالنا هنا في بلدهم الأصلي الذي نستعمره. ونحن في هذه اللحظة سعداء أشدّ السعادة لمزور مئة عام على تحرير أنفسنا من السيطرة الأجنبية، وكلّ ذلك يجري أمام أعين

(4) يقول أنطوني بارنيت، إنّ ثنائية اللغة أتاحت أيضًا للمثقفين «أن يقولوا لأبناء لغاتهم (المحلية) إنّنا» يمكن أن نكون مثلهم».

(*) سواردي سرجانغرات (كي حجر ديوانتارا) (1889 - 1959) ناشط بارز في حركة استقلال إندونيسيا، صحافي وسياسي ورائد من رواد تعليم الإندونيسيين أيام الاستعمار الهولندي. يُحتفل بمولده في إندونيسيا بوصفه يوم التعليم الوطني.

أولئك الذين لا يزالون تحت سيطرتنا. ألا يخطر في بالنا أن هؤلاء العبيد البؤساء يتوقون إلى لحظة كهذه، يتمكنون فيها من الاحتفال باستقلالهم مثلنا؟ أم لعل سياستنا في تدمير الروح تدفعنا إلى اعتبار الأرواح البشرية كلها ميتة؟ إن كان الأمر كذلك، فنحن نخادع أنفسنا، لأنه ما من جماعة، مهما تكن بدائية، إلا وتقف ضد أي نوع من الاضطهاد. لو كنت هولنديًا، لما نظمتُ احتفالًا بالاستقلال في بلد سُرق منه استقلال شعبه»⁽⁵⁾.

بهذه الكلمات تمكن سواردي من أن يقلب التاريخ الهولندي ضد الهولنديين، بإشارته الجريئة إلى اللحمة بين القومية الهولندية والإمبريالية. وعلاوة على ذلك، فإنه بتحويل نفسه خيالًا إلى هولندي موقت (الأمر الذي ينطوي على دعوة قرائه الهولنديين إلى أن يتحولوا إلى إندونيسيين بالمقابل)، إنما يقوِّض المصائر العنصرية كلها التي تشكّل أساس الأيديولوجية الكولونيالية الهولندية⁽⁶⁾.

هجوم سواردي المركّز هذا - الذي أفرّح جمهوره الإندونيسي بقدر ما أغاظ جمهوره الهولندي - هو مثال على ظاهرة عالمية النطاق من ظواهر القرن العشرين. وهذه الظاهرة هي المفارقة التي انطوت عليها القومية الرسمية الإمبراطورية التي تحتم عليها أن تجلب إلى وعي المستعمرين - ليس عن طريق الاحتفالات البليدة العارضة فحسب، بل عبر حجرات القراءة وغرف الصف أيضًا⁽⁷⁾ - ما كان يُنظر إليه ويُكتب عنه على نحو متزايد بوصفه «تواريخ

(5) ظهرت هذه المقالة في الأصل في *De Express* في 13 تموز/ يوليو 1913، لكنها سرعان ما تُرجمت إلى الإندونيسية ونُشرت في الصحافة المحلية. كان سواردي آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره. ونظرًا إلى كونه أرسقراطيًا تقدميًا ومتعلمًا جيدًا بخلاف المعتاد، انضم إلى واحد من عامة جاوة، هو الدكتور تجيبنتو مانغوينكوسومو، وأحد الأوراسيين، هو إدوارد دويز ديكر، كي يشكلوا الحزب الإندونيسي، أول حزب سياسي في المستعمرة. يمكن للقارئ أن يجد دراسة عن سواردي موجزة، لكنها مفيدة، في: M.A. Savitri Scherer, «Harmony and Dissonance. Early Nationalist Thought in Java», Thesis, Cornell University, 1975, Chapter 2.

تضيف كاتبة المقالة ملحقًا أولًا هو ترجمة إنكليزية لهذه المقالة المعروفة، أخذت منها هذا المقتبس.

(6) لاحظ الرابطة التربوية هنا بين الجماعات «المُتخيَّلة» والجماعات «الخيالية».

(7) من المتفق عليه أن احتفالات عام 1913 كانت تُعبّر عن القومية الرسمية بمعنى آخر أيضًا. ذلك أن «التحرر القومي» المُحتفل به كان في الحقيقة إعادة جيوش التحالف المقدّس الظافرة آل أورانج =

قومية» أوروبية. ولم يكن بمقدور الناشئة الفيتناميين أن يتفادوا تعلّم الفلسفات والثورة، وما يدعو ريجيس دوبريه «عداءنا العلماني لألمانيا»⁽⁸⁾. كما دخلت الماغنا كارتا وأبو البرلمانات والثورة المجيدة التي صيغت كلها بوصفها التاريخ القومي الإنكليزي، إلى المدارس في أرجاء الإمبراطورية البريطانية كلها. وما كان صراع بلجيكا من أجل الاستقلال عن هولندا ليغيب عن كتب مدرسية سيقراها أطفال الكونغو ذات يوم. وكذلك كانت تواريخ الولايات المتحدة الأميركية في الفيليبين، وأخيرًا تواريخ البرتغال في الموزامبيق وأنغولا. والمفارقة المضحكة، بالطبع، هي أنّ هذه التواريخ كانت مكتوبةً انطلاقًا من وعي تاريخي كان يغدو عند منقلب القرن، وفي أرجاء أوروبا كلها، مُعرّفًا ومُحدّدًا قوميًا (البارونات الذين فرضوا الماغنا كارتا على جون البلانتاجيني^(*) لم يكونوا يتكلمون «الإنكليزية»، ولم يكن لديهم تصوّر عن أنفسهم كـ «إنكليز»، لكنهم عرّفوا في صفوف مدارس المملكة المتحدة بعد 700 سنة على أنهم الوطنيون الأوائل).

= (لا إقامة الجمهورية الباتافية في عام 1795)؛ وسرعان ما انفصل نصف الأمة المحرّرة ليشكّل مملكة بلجيكا في عام 1830. لكن ما تشّبه سواردي في غرفة صفّه الكولونيالي هو بلا شك «التحرر القومي». Regis Debray, «Marxism and the National Question», *New Left Review*, no. 105 (September- (8) October 1977), p. 41.

(*) جون البلانتاجيني (1166 - 1216) هو ملك إنكلترا (1199 - 1216)، وخامس أبناء الملك هنري الثاني ملك إنكلترا، تولّى الحكم خلفًا لأخيه ريتشارد قلب الأسد. بعد فترة قصيرة من تتويجه (في عام 1200) تزوج من إيزابيل التي كانت قد خُطبت لأحد النبلاء الفرنسيين، مخالفًا بذلك الأعراف المسيحية، فاشتكى الأخير لملك فرنسا فيليب أوغست الذي استدعى بدوره جون أمام مجلس النبلاء. وأمام تهرب المدعى عليه، انتهز فيليب أوغست الفرصة فقرر بموافقة من المجلس تجريدَه من أملاكه الفرنسية (في عام 1202). حاول جون أن يستعيد أملاكه، فتحالف مع الإمبراطور الجرمانى أوتو الرابع، إلا أن الأخير هُزم أمام الفرنسيين، ثم لاقى جون المصير نفسه في معركة «روش أو مولن» في العام نفسه. في السنة التالية، أضّر الملك على رفض تعيين ستيفان لانغتون أسقفًا على كانتربري، فحلت عليه نقمة البابا، ثم حُرِم من حقوقه الكنسية وأُجبر على أن يضع مملكته تحت سلطة البابا المعنوية. كان لإخفاقات جون في الخارج صدى سلبي داخل إنكلترا، خصوصًا أنه أرهق الشعب بكثرة مطالبه المالية وشروطه التعجيزية، فتعالت الأصوات المعارضة، بالأخص بين كبار النبلاء (البارونات). كانت الحكومة الملكية ضعيفة جدًّا، وفي غفلة عن الحوادث قام النبلاء بالاستيلاء على لندن، وأجبروا الملك على توقيع وثيقة الماغنا كارتا التي حدّت من صلاحيات الملك، وحرّمته من اعتقال الناس بطريقة تعسفية. بعد فترة عاد الملك ليرفض الوثيقة، فاشتعلت نار الحرب الأهلية، وانتهى أمر جون بأن لقي مصرعه في إحدى المعارك.

غير أن هنالك ملمحًا يسمُ الإنتليجنسيا القومية البازغة في المستعمرات ويميّزها إلى حدٍّ ما عن ضروب الإنتليجنسيا القومية نصيرة اللغة المحلية في أوروبا القرن التاسع عشر. ذلك أن هذه الإنتليجنسيا مؤلّفة من فتية يافعين على نحوٍ يكاد يُشكّل صفةً ثابتةً أضفت على يفاعتها هذه دلالة سياسية معقدة، لا تزال تحظى بأهميتها إلى هذا اليوم، على الرغم من تغيرها بمرور الزمن. غالبًا ما يُورّخ لنشوء القومية البورمية (الحديثة/المنظمة) بتأسيس رابطة الشباب البوذية في رانغون في عام 1908، وغالبًا ما يُورّخ لنشوء القومية الملاوية بإقامة اتحاد شباب الملايو في عام 1938. ويحتفل الإندونيسيون في كل عام بما يُدعى قَسَم الشبيبة الذي صاغه مؤتمر الشبيبة القومي في عام 1928 وأقسَم به... وهلمجرا. ولا شك في أن أوروبا كانت حاضرةً بمعنى ما هنا أيضًا، الأمر الذي يتّضح حين نتذكّر إيرلندا الفتاة وإيطاليا الفتاة وما شابه. وفي كلٍّ من أوروبا والمستعمرات كانت «الفتوة» و«الشبيبة» تشيران إلى الدينامية والتقدّم والمثالية القائمة على التضحية والإرادة الثورية. لكن «الفتوة» في أوروبا لم تكن كبيرة الدلالة على حدود سوسولوجية قابلة للتحديد. إذ كان يمكن للمرء أن يكون في منتصف العمر ويبقى جزءًا من إيرلندا الفتاة؛ وكان يمكن له أن يكون أميًا ويظلّ جزءًا من إيطاليا الفتاة. والسبب، بالطبع، أن لغة هاتين القوميتين إما كانت لغةً أمّا محلية متاحةً للأعضاء منذ المهد، أو، كما في حالة إيرلندا، لغةً متروبولية ضربت بجذور عميقة لدى أقسام من السكان على مدى قرون من الفتح حتى أمكن لها هي أيضًا أن تتجلى، على الطريقة الكريولية، بوصفها لغة محلية. ولم يكن ثمة صلة ضرورية بين اللغة والعمر والطبقة والمكانة.

أما في المستعمرات فكانت الأمور مختلفة أشدّ الاختلاف، حيث إن الشبيبة كانت تعني، قبل كلّ شيء، الجيل الأول بين أيّ أعداد كبيرة ممّن حازوا تعليمًا أوروبيًا فصلّهم لغويًا وثقافيًا عن جيل آبائهم كما عن كتلة كبيرة من أقرانهم المُستعمرين (انظر ب. ش. بال). هكذا أقام طلاب مدارس يقرأون الإنكليزية رابطة الشباب البوذي «إنكليزية اللغة» في بورما، وكانت جزئيًا على غرار رابطة الشباب المسيحي. ويجد المرء في جزر الهند الهولندية، من بين أشياء أخرى، جاوة الفتاة وأمبونا الفتاة ورابطة المسلمين الشباب، وكلها ألقاب عسيرة الفهم على أيّ محليّ شاب ليس على معرفة باللسان الكولونيالي. وما كانت تعنيه «الشبيبة» في المستعمرات، في البداية على الأقل، هو «شبيبة

المدارس». وهذا بدوره يذكر مرة أخرى بالدور الفريد الذي قامت به المنظومات المدرسية الكولونiale في تعزيز القوميات الكولونiale⁽⁹⁾.

تشكل حالة إندونيسيا مثالاً معقداً لافتاً على هذه العملية، خصوصاً بسبب حجمها الكبير، وعدد سكانها الضخم (حتى في العهد الكولونالي)، وتشظيها الجغرافي (حوالي 3000 جزيرة)، وتعددتها الديني (مسلمون وبوذيون وكاثوليك وبروتستانت من شتى الأنواع وهندو بالينيون و«أرواحيون»^(*))، وتنوعها الإثني اللغوي (أكثر من 100 جماعة مميزة).

(9) تركيزنا هنا هو على المدارس المدنية. لكن نظائرها العسكرية غالباً ما كانت مهمة أيضاً. ذلك أن الجيش العامل المشتمل على ضباط محترفين، الذي كانت بروسيا رائدته في أوائل القرن التاسع عشر كان يتطلب هرمًا تعليميًا أشد إحصامًا من شبيهه المدني من بعض النواحي، إن لم يكن أشد تخصصًا. وغالبًا ما أدى الضباط الشباب («الترك») الذين تخرجوا في الأكاديميات العسكرية الجديدة أدوارًا مهمة في تطور القومية. ومن الأمثلة على ذلك الميجور تشوكوما نزوغو الذي كان العقل المدبر لانقلاب 15 كانون الثاني/يناير 1966 في نيجيريا. وهو مسيحي من الإيبو، كان بين المجموعة الأولى من النيجيريين الشباب الذين أرسلوا إلى ساندهورست للتدريب بغية تحويل قوة من المرتزة الكولونiale يقوم عليها ضباط بيض إلى جيش وطني، لدى إحراز نيجيريا استقلالها في عام 1960 (وإذا ما كان قد التحق بساندهورست مع بريغادير المستقبل أفريقيا الذي أطاح بحكومته في عام 1966 أيضًا، فإن كل محلي كان مقدراً له أن يعود إلى موطنه الإمبراطوري الخاص). ومن الدلائل اللافتة على قوة النموذج البروسي أن تشوكوما كان قادرًا على قيادة فرق من الهوسا المسلمين في اغتيال ساردونا سوكوتو وغيره من أرستقراطي الهوسا المسلمين، وتالياً تدمير حكومة أبو بكر تافاوا باليوا التي يسيطر عليها الهوسا المسلمون، ولا يقل عن ذلك لفتاً للانتباه بين علامات القومية الناجمة عن المدارس الكولونiale ما أكده لمواطنيه عبر راديو كادونا، قائلاً: «لن نخجلوا بعد الآن من القول إنكم نيجيريون». انظر: Anthony H. M. Kirk-Greene, *Crisis and Conflict in Nigeria: A Documentary Source Book* (London: Oxford University Press, 1971), p.126.

غير أن انتشار القومية آنئذ في نيجيريا كان قليلاً بما يكفي للمسارعة إلى تفسير انقلاب نزوغو القومي بأنه مؤامرة حاكها الإيبو؛ ومن هنا التمردات العسكرية في تموز، والمذابح المدبرة ضد الإيبو في أيلول وتشرين الأول/أكتوبر، وانفصال بيافرا في أيار/مايو 1967. انظر: Robin Luckham, *The Nigerian Military: A Sociological Analysis of Authority and Revolt, 1960-67* (Cambridge: Cambridge University Press, 1971), Passim.

(*) الأرواحية (Animism) ديانات يُعتقد فيها بوجود روح في كل شيء على الإطلاق، البشر والحيوانات والنبات والصخور والظواهر الطبيعية كالرعد والأماكن الجغرافية كالجبال والأنهار... وتعتبر بعض التقاليد الأرواحية أن هنالك روحاً أيضاً في الأشكال التجريدية كالكلمات أو الأفكار. بدأت الأديان كلها في العالم بالشكل الأرواحي، وهي لا تزال اليوم منتشرة في بعض المناطق.

وعلاوةً على ذلك، وكما يوحي اسم «إندونيسيا» شبه الهيليني الهجين^(**)، فإنَّ رقعتها لا تتماشى ولو من بعيد مع أيِّ ملك ما قبل كولونيالي، وعلى العكس، فإن حدودها، على الأقل حتى غزو الجنرال سوهارتو الوحشي تيمور الشرقية البرتغالية سابقًا في عام 1975، كانت تلك الحدود التي خلفها وراءهم آخر الفاتحين الهولنديين (في عام 1910 تقريبًا).

بعض الشعوب على ساحل سومطرة الشرقي ليسوا قريبين ماديًا فحسب، عبر مضائق مَلَقًا، من سكان الساحل الغربي من شبه جزيرة الملايو، بل يرتبطون بهم إثنيًا أيضًا، ويفهم بعضهم لغة بعضهم الآخر، ويدينون بدين واحد... وهلمجرًا. وهؤلاء السومطريون أنفسهم لا يتقاسمون مع الأمبونييين الموجودين على جزر تبعد آلاف الأميال إلى الشرق، لا اللغة الأم ولا الإثنية ولا الدين. ومع ذلك فقد باتوا خلال هذا القرن ينظرون إلى الأمبونييين على أنهم إندونيسيون مثلهم، في حين راحوا ينظرون إلى الملاويين على أنهم أجنب.

ما من شيء رعى هذا الارتباط واحتضنه أكثر من المدارس التي راح النظام في باتافيا يقيمها بأعداد متزايدة بعد منقلب القرن. وكى نرى السبب وراء ذلك، علينا أن نتذكر أنَّ المدارس الحكومية شكّلت تراتبية ضخمة، رفيعة العقلانية وشديدة المركزية، شبيهة في بنيتها ببيروقراطية الدولة ذاتها، في تعارض تام مع المدارس المحلية التقليدية التي كانت مشاريع محلية وشخصية على الدوام (على الرغم من كثرة انتقال الطلاب الأفقي من معلم حسن الصيت من العُلَمَاء إلى آخر، على الطريقة الإسلامية الصالحة). وخلقت الكتب المدرسية الموحدة والشهادات الدراسية وإجازات التعليم الواحدة وتدرّج الفئات العمرية ذلك التدرّج المنتظم الصارم⁽¹⁰⁾ والصفوف والمواد التعليمية عالمًا من التجربة مكتفياً بذاته ومتناسكًا. لكن جغرافيا التراتب لم تكن أقل أهمية، لأنَّ المدارس الابتدائية الموحدة كانت موزعة

(**) اقتبس اسم «إندونيسيا» من الكلمة اللاتينية «إندوس» وتعني الهند، والكلمة الإغريقية «نيسوس» وتعني جزيرة، وبذلك يكون معنى الاسم «الجزر الهندية».

(10) ما كانت فكرة أنَّ طالبًا «أكبر بكثير» من أن يكون في الصف (س) أو (ع) لتخطر في ذهن المدرسة الإسلامية التقليدية، لكنها كانت مسلمة بدهية في المدرسة الكولونiale من النمط الغربي.

على القرى والبلدات الصغيرة في المستعمرة، ومدارس الشباب والكبار المتوسطة في البلدات الأكبر ومراكز المقاطعات، في حين كان التعليم من المرتبة الثالثة (قمة الهرم) مقتصرًا على العاصمة الكولونiale باتافيا ومدينة باندونغ التي بناها الهولنديون على بعد 100 ميل إلى الجنوب الغربي على مرتفعات بريانغان الباردة. هكذا جلبت منظومة المدارس الكولونiale في القرن العشرين إلى الوجود ضروريًا من الحجّ كانت توازي رحلات الموظفين الأقدم. وكانت باتافيا قبله رحلات الحجّ هذه: وليس سنغافورا أو مانيلّا أو رانغون أو حتى العاصمتين الجاويتين القديمتين جوغجاكرتا وسوراكرتا⁽¹¹⁾. وكان الحجيج الغضّ من أرجاء المستعمرة الشاسعة كلها، وليس من أيّ مكان خارجها، يشقّ طريقه الداخلية الصاعدة ويلقي في المدرسة الابتدائية زملاءه الحجيج من قرى مختلفة، لعلّها كانت معادية ذات مرّة، ومن جماعات إثنية لغوية مختلفة في المدرسة الإعدادية، ومن كلّ مكان من المملكة في المعاهد الثانوية في العاصمة⁽¹²⁾. وكان هذا الحجيج يعلمون أيضًا أنّه مهما اختلفت الأمكنة التي أتوا منها فإنهم قد قرأوا الكتب ذاتها وأجروا العمليات الحسابية نفسها. وكانوا يعلمون أيضًا، حتى لو لم يصلوا قطّ إلى هذا الحدّ - ومعظمهم لم يصل - أنّ القبلة هي باتافيا، وأنّ كل هذه الضروب من الترحال تستمدّ «معناها» من العاصمة التي تفسّر في الواقع لماذا «نحن» «هنا» «معًا». بعبارة أخرى، فإنّ تجربة هذا الحجيج المشتركة القائمة على التنافس الودّي، كانت تعطي ما يدرسونه من خرائط المستعمرة (التي تُلوّن على نحو مختلف عن الملايو البريطانية أو الفيليبين الأمريكية) ذلك الواقع الإقليمي النوعي المُتخيّل الذي كان يُبرهن عليه كل يوم من خلال لکنات أقرانهم في الصّف وقسمات وجوهم⁽¹³⁾.

(11) في النهاية، بالطبع، كانت لاهاي وأمستردام وليدن هي القمم؛ لكن أولئك الذين كان بمقدورهم أن يحلموا جدّيًا بالدراسة هناك كانوا حفنة صغيرة.

(12) كونها علمانية، كانت مدارس القرن العشرين مختلطة في العادة، مع أنّ الذكور كانوا الأغلبية الساحقة. ومن هنا علاقات الحب، وغالبًا جدًّا الزيجات، «الناجمة عن مقعد الدراسة» التي تتخطى الحدود التقليدية كلها.

(13) لم ير سوكارنو قطّ إيربان الغربية التي قاتل من أجلها بكل شراسة إلى أن تجاوز الستين من العمر. ونرى هنا، كما في خرائط الصّف الدراسي، أنّ التخيّل يتسرّب إلى الواقع - انظر: لا تلمسني والبيغاء الأجرب.

ما الذي كانوا عليه جميعهم معاً؟ كان الهولنديون واضحين تماماً بهذا الشأن: مهما تكن اللغة الأم التي يتكلمونها، فهُمْ inlanders على نحوٍ لا براء منه، وهذه كلمة لطالما كانت ذات حمولة دلالية متناقضة على نحو غير مقصود، مثل كلمة «natives» الإنكليزية و«indigènes» الفرنسية. ذلك أنّها كانت تعني في هذه المستعمرة، كما في كل مستعمرة منفصلة أخرى، أنّ الأشخاص المُشار إليهم هم في الوقت ذاته «أدنى» و«من هناك» (مثلما أنّ الهولنديين من هناك، كونهم «natives» هولندا). وبالعكس، فإنّ الهولنديين، بمثل هذه اللغة، كانوا يخصّون أنفسهم، إلى جانب التفوق، بصفة «عدم كونهم من هناك». وتشمل الكلمة أنّ الـ inlanders، في دونيتهم المشتركة، حقراء جميعاً بالتساوي، بصرف النظر عن الجماعة الإثنية اللغوية أو الطبقة التي أتوا منها. ولكن حتى هذا التساوي البائس في الوضع كان له محيطه المحدد. ذلك أنّ الـ inlander لم يَنِ يطرح السؤال عن هوية بلده. وإذا ما كان الهولنديون قد تكلموا في بعض الأحيان كما لو أنّ الـ inlanders صنف عالمي، فإنّ التجربة كانت تبين أنّ هذه الفكرة يصعب دعمها في الممارسة. ذلك أنّ الـ inlanders كانوا يتوقفون عند حافة المستعمرة الملونة المرسومة. أما خلف تلك الحافة فكان ثمة «natives»، و indigènes و indios من شتى الأنواع. علاوة على ذلك، فإنّ المصطلحات القانونية الكولونiale كانت تشمل مقولة vreemde oosterlingen (الشرقيين الأجانب) التي كان لها ما لعملة زائفة من رنين مريب، كما لو أنّها «الـ natives الأجانب». إذ كانت لمثل هؤلاء «الشرقيين الأجانب»، الصينيين والعرب واليابانيين بصورة أساسية، مع أنهم قد يكونون ممن يعيشون في المستعمرة، مكانة قانونية سياسية أرفع من مكانة الـ «native natives». بل إنّ الرعب من قوة ملوك ميحي الاقتصادية وبراءتهم العسكرية بلغ بهولندا بالغة الصغر ما يكفي لأن ترفع من المكانة القانونية التي يتمتع بها اليابانيون في المستعمرة، منذ عام 1899 فصاعداً، وتصل بها حد اعتبارهم «أوروبيين شرف». ومن كلّ هذا، وبنوع من التثفيل والترسيب، صارت كلمة inlander - التي تستبعد البيض والهولنديين والصينيين والعرب واليابانيين والـ «natives» والـ indigènes والـ indios - أشدّ تحديداً باطراد في محتواها، إلى أن تحولت فجأة، مثل يرقة ناضجة، إلى فراشة لافطة هي الـ «Indonesian».

صحيح أنّ مفهومي الـ inlander والـ «native» لا يمكنهما قطّ أن يكونا مفهوميين عنصريين عامّين حقاً، إذ إنّهما يضربان بجذورهما على الدوام في

موطن ما معين⁽¹⁴⁾، لكن حالة إندونيسيا ينبغي ألا تسوقنا لأن نفترض أن لكل موطن من المَواطن «ال native» تخومه المحددة سلفاً والثابتة. وثمة مثالان يبيّنان العكس: أفريقيا الغربية الفرنسية والهند الصينية الفرنسية.

في عزّها، كانت مدرسة وليم بونتي للمعلمين في داكارة قمة الهرم التعليمي الكولونيالي في أفريقيا الغربية الفرنسية، مع أنها لم تكن سوى مدرسة ثانوية⁽¹⁵⁾. وكان يأتي إلى وليم بونتي الطلاب مما يُعرف اليوم باسم غينيا ومالي وساحل العاج والسنغال، وما إلى ذلك. وينبغي ألا يدهشنا أن رحلات حج هؤلاء الطلاب التي كانت تنتهي في داكارة، كانت تُقرأ في البداية بمصطلحات أفريقيا [الغربية] الفرنسية التي يُعدّ من بينها مفهوم الزنوجة (Négritude) المتناقض - في إشارته إلى جوهر الانتماء الأفريقي الذي لا يمكن التعبير عنه إلا بالفرنسية، لغة صفوف وليم بونتي - ذلك الرمز الذي لا يُنسى. لكن احتلال مدرسة وليم بونتي موقع القمة كان أمراً عارضاً وسريع الزوال، لأنه مع بناء المزيد من المدارس الثانوية في أفريقيا الغربية الفرنسية، لم يعد من الضروري للطلبة اللامعين أن يقوموا بمثل رحلات الحج البعيدة هذه. وعلى أي حال، فإن المركزية التعليمية التي تميّزت بها مدرسة وليم بونتي لم تضاهيها قط مركزية إدارية مماثلة في داكارة. وقابلية الاستبدال التي تمتع بها طلبة أفريقيا الغربية الفرنسية على مقاعد وليم بونتي لم تضاهيها لاحقاً قابلية

(14) قارن، بخلاف ذلك، «half-breeds» <المولّدون. هجينو النَّسَب> أو «niggers» <الزنوج. السود> الذين كان بمقدورهم، ابتداءً من كاليه <أي ابتداءً من ضفة المانش الفرنسية>، أن يظهروا فجأة في أي مكان على ظهر الكوكب خارج المملكة المتحدة.

(15) عن أصول وتطور هذه المدرسة المعروفة، انظر: Abdou Moumouni, *L'Education en Afrique* (Paris: Maspero, 1964), pp. 41-49.

وعن دلالتها السياسية، انظر: Ruth Schachter Morgenthau, *Political Parties in French-Speaking West Africa* (Oxford: Clarendon Press, 1964), pp. 12-14 and 18-21.

كان مقرّ المدرسة في الأصل في سان لويس ولم يكن لها اسم، ثم انتقلت إلى غوري، قرب داكارة في عام 1913. ثم سميت بعد ذلك باسم وليم ميرلو بونتي، الحاكم العام الرابع لأفريقيا الغربية الفرنسية (1908 - 1915). وأخبرني سيرج ثيون أن الاسم وليم (بخلاف غليوم) كان رائجاً جداً في المنطقة حول بوردو. وهو محقّ بالتأكيد في نسبته هذه الشعبية إلى ما أقامته تجارة الخمر من روابط تاريخية مع إنكلترا؛ لكنه يبدو ممكناً بالمثل أن تكون هذه الشعبية عائدة إلى الحقبة التي كانت فيها بوردو لا تزال جزءاً مكيناً من المملكة التي كانت تُحكّم من لندن.

بيروقراطية لتبديلهم في الإدارة الكولونيالية في أفريقيا الغربية الفرنسية. هكذا، مضى طلبة المدرسة القدامى إلى الوطن ليصبحوا، في النهاية، الزعماء القوميين الغنيين أو المالكين، في حين ظلّوا محتفظين بالرفقة والحميمية التضامنية «الأفريقية الغربية» اللتين فقدتا لدى الأجيال اللاحقة⁽¹⁶⁾.

على نحو يكاد يكون مماثلاً كان لاسم «الهند الصينية» الهجين اللافت معنى مُتخيل واقعي ومُعاش لدى جيل واحد من المراهقين المتعلمين⁽¹⁷⁾. وهذا الكيان، كما يجب أن نتذكر، لم يُعلن رسمياً إلا في عام 1887، ولم يتخذ شكله الكامل كإقليم إلا في عام 1907، مع أن التدخل الفرنسي النشط في المنطقة عموماً يعود إلى قبل ذلك بقرن.

بوجه عام، كان للسياسة التعليمية التي اتبعتها الحكام الكولونياليون في «الهند الصينية» غرضان أساسيان⁽¹⁸⁾، ساهم كلاهما، كما تبين، في نمو الوعي «الهندو صيني». تمثل الغرض الأول في فكّ الروابط السياسية - الثقافية القائمة بين الشعوب المستعمرة والعالم الواقع خلف الهند الصينية مباشرة. وبقدر

(16) لا يبدو أن ثمة شيئاً مشابهاً في أفريقيا الغربية البريطانية، سواء لأنّ المستعمرات البريطانية لم تكن متمادية أو متلاصقة، أم لأنّ لندن كانت من الثروة والليبرالية بما يكفي لأن تقيم المدارس الثانوية في المناطق الكبرى في الوقت ذاته تقريباً، أو بسبب المحلية التي كانت تتمتع بها المنظمات التبشيرية البروتستانتية المنافسة. سرعان ما غدت مدرسة أكيوتا، وهي مدرسة ثانوية أقامت الدولة الكولونيالية في أكرا في عام 1927، قمة أساسية في هرم تعليمي نوعي في ساحل الذهب، وبعد الاستقلال كانت المكان الذي بدأ فيه أبناء الوزراء يتعلمون كيف يخلفون آباءهم. وكان لقمة منافسة، هي مدرسة مفانتسييم الثانوية، ميزة السبق (حيث أسست في عام 1876)، لكنها اتّسمت بالمقابل بعيوب المكان (ساحل الكاب) وشبه الاستقلال عن الدولة (ظلت في أيدي طائفة معينة حتى فترة لا بأس بها بعد الاستقلال). وأنا أدين بهذه المعلومات إلى محمد خمباس.

(17) أدّى هذا المعنى، من بين ما أدّى إليه، إلى قيام حزب شيوعي هندو صيني لجيل واحد (1930 - 1951؟) شارك فيه، لفترة، شباب لغاتهم الأم هي الفيتنامية، أو الخمير، أو اللاوسية. واليوم، يُنظر إلى تشكيل هذا الحزب في بعض الأحيان على أنه مجرد تعبير عن «نزعة توسعية فيتنامية قديمة». الواقع، أن الكومنترن هو الذي أنجب هذا الحزب انطلاقاً من النظام التعليمي (وبدرجة أقل الإداري) في الهند الصينية الفرنسية.

(18) تجري مناقشة هذه السياسة على نحو كثيف وشامل في: Gail Paradise Kelly, «Franco-

Vietnamese Schools, 1918 to 1938,» Phd. Thesis, University of Wisconsin, 1975.

ومن سوء الحظ أن هذه الدراسة تركز بصورة حصرية على سكان الهند الصينية الذين يتكلمون الفيتنامية.

ما تعلق الأمر بـ «كمبودج» و«لاوس»⁽¹⁹⁾، فإنَّ الهدف كان سيام التي سبق أن مارست عليهما سيطرةً متقلّبةً وشاركتهما شعائرَ بوذية الهينايانا ومؤسساتها ولغتها المقدّسة (إضافة إلى ذلك، فإنَّ اللغة وكتابتها في لاوس الواطئة كانت ولا تزال وثيقة الصلة باللغة التايلندية وكتابتها). وانطلاقاً من هذا الاهتمام على وجه التحديد جُرِّبَت الفرنسية أولاً في تلك المناطق التي انتزعت أخيراً من سيام، مع ما دُعي باسم «مدارس بوغودا المُجدّدة» التي خُطِّطَ لها أن تنقل الرهبان الخمير ومريديهم من المدار التايلندي إلى مدار الهند الصينية⁽²⁰⁾.

في شرق الهند الصينية (وهو الاختصار الذي أستخدمه لأشير إلى «تونكين» و«آنام» و«الصين الكوشينية»)، كان الهدف هو الصين والحضارة الصينية. وعلى الرغم من أن السلالات الحاكمة في هانوي وهوي كانت قد دافعت طوال قرون عن استقلالها عن بكين، إلا أنها صارت تُحكّم من خلال نظام حكم مندريني مُصاغ بصورة واعية على غرار نظام الحكم الصيني. كان التعيين في جهاز الدولة يجري بناءً على امتحانات كتابية في الكلاسيكيات الكونفوشية؛ وكانت الوثائق الملكية مكتوبة بالأحرف الصينية؛ والطبقة الحاكمة متصيّنة كثيراً في ثقافتها. واتّخذت هذه الروابط القديمة طابعاً إضافياً غير مرغوب فيه بعد حوالى عام 1895، حين بدأت كتابات إصلاحيين صينيين مثل كانغ يو وي وليانغ شي شاو، وقوميين مثل صن يات صن،

(19) أستخدم هاتين التسميتين اللتين قد تكونان خرقاوين كي ألحّ على الأصول الكولونيلية لهذين الكيانين، حيث جُمِعت «لاوس» من مجموعة من الإمارات المتنافسة على نحو ترك أكثر من نصف السكان الناطقين باللاوسية في سيام. وحدود «كمبوديا» لا تتماشى مع أي رقعة تاريخية محددة للمملكة ما قبل الكولونيلية، ولا مع توزّع الشعوب الناطقة بالخميرية. وانتهى الأمر بوضع مئات الآلاف من هؤلاء البشر إلى الحصار في «الصين الكوشينية»، ليشكّلوا بمرور الوقت تلك الجماعة المميزة التي تُعرف باسم الخمير الحمر (خمير أسفل النهر).

(20) جرى السعي وراء هذا الهدف عبر إقامة مدرسة دي بالي العليا في ثلاثينيات القرن العشرين في بنوم بنه، وهي مدرسة دينية التحق بها الرهبان الذين يتكلمون الخميرية واللاوسية على حدّ سواء. ويبدو أن محاولة تحويل الأنظار البوذية عن بانكوك لم تنجح تماماً. في عام 1942 (بعد فترة قصيرة من استعادة سيام سيطرتها على قسم كبير من شمال غرب «كمبودج» بمساعدة يابانية) أوقف الفرنسيون أستاذاً جليلاً من أساتذة المدرسة لحيازته مواد تعليمية تايلندية هدامة وتوزيعه إياها (الأرجح أن هذه المواد كانت بعضاً من النصوص المدرسية القومية القوية التي أنتجها نظام الفيلد مارشال بليك فيونسونغرام (1938 - 1944) المناهض للفرنسيين بشدة).

تسرب عبر الحدود الشمالية للمستعمرة⁽²¹⁾. على هذا الأساس أُلغيت الامتحانات الكونفوشية في «تونكين» في عام 1915، وفي «آنام» في عام 1918 على التوالي. وبذلك بات التعيين في الخدمة المدنية في الهند الصينية يجري بصورة حصرية عبر منظومة تعليمية كولونiale فرنسية متطورة. علاوةً على ذلك، ارتفعت على نحوٍ واسع مكانة الـ كواك نغو، وهي كتابة لاتينية التصويت كان قد اخترعها في الأصل المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر⁽²²⁾، وتبنتها السلطات للاستخدام في «الصين الكوشينية» منذ أوائل ستينيات القرن الثامن عشر، بقصد فصم الروابط مع الصين - وربما أيضًا مع الماضي المحلي - بجعل السجلات الملكية والآداب القديمة غير متاحة للجيل الجديد من الفيتناميين المستعمرين⁽²³⁾.

أما غرض السياسة التعليمية الثاني فتمثل بإنتاج كمية محسوبة بعناية من الهندوسيين الذين يقرأون الفرنسية ويكتبونها كي يعملوا كنخبة محلية موثوقة سياسيًا وممتنة ومتكيفة ثقافيًا، تملأ مراتب بيروقراطية المستعمرة الخاضعة ومشاريعها التجارية الكبيرة⁽²⁴⁾.

David G. Marr, *Vietnamese Tradition on Trial, 1920-1945* (Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1981), p. 146.

ولم تكن أقل إزعاجًا تلك الترجمات الصينية المَهْرَبَة لكتاب فرنسيين مثيرين للقلق مثل روسو. انظر: Kelly, p. 19.

(22) عادة ما تُعزى هذه الكتابة، في شكلها النهائي إلى المعجمي الموهوب ألكسندر دو رودس الذي نشر في عام 1651 معجمه اللافت *Dictionarium annamiticum, lusitanum et latinum*.
(23) «كان معظم الموظفين الكولونيين الفرنسيين في أواخر القرن التاسع عشر... مقتنعين بأن تحقيق نجاح كولونالي دائم يقتضي تقليص ضروب النفوذ الصيني أشدّ التقليص، بما في ذلك نظام الكتابة. وغالبًا ما نظر المبشرون إلى الفئات الكونفوشية المتعلّمة على أنها العقبة الأساس في وجه تحول فيتنام إلى الكاثوليكية ذلك التحول العام. لذلك كانوا يرون أن التخلص من اللغة الصينية هو في الوقت ذاته عزل فيتنام عن إرثها وتحييد للنخبة التقليدية». انظر: Marr, p. 145.

ويورد كيلى ما يقوله أحد الكتاب الكولونيين على النحو التالي: «في الواقع، إنّ تعليم الـ كواك نغو وحدها... سوف يؤدي إلى إيصال الكتابة الفرنسية، والأدب الفرنسي، والفلسفة الفرنسية وحدها إلى الفيتناميين، وهذا ما نوّده لهم. تلك هي الأعمال التي نرى أنها تفيدهم ويسهل استيعابها: النصوص التي نترجمها إلى الـ كواك نغو ليس غير». انظر: Kelly, p. 22.

(24) انظر: Kelly, pp. 14-15.

أما الشريحة الدنيا الواسعة من سكان الهند الصينية فتحثهم الحاكم العام ألبير سارو (واضع قانون =

لا حاجة هنا لأن نتوقف طويلاً عند تعقيدات نظام التعليم الكولونيالي. يكفي أغراضنا الحالية أن نعلم أن السمة الأساس لهذا النظام هي أنه شكل هرمًا واحدًا، وإن يكن متصدعًا، كانت درجاته العليا كلها تقع في الشرق، حتى أواسط ثلاثينيات القرن العشرين. وعلى سبيل المثال كانت الثانويات الوحيدة التي ترعاها الدولة متوضعة في هانوي وسايغون حتى ذلك الحين؛ وطوال الفترة الكولونiale ما قبل الحرب، كانت الجامعة الوحيدة في الهند الصينية متوضعة في هانوي، «في الشارع ذاته»، إذا جاز القول، الذي يوجد فيه قصر الحاكم العام⁽²⁵⁾. وكان في صفوف متسلقي تلك الدرجات ناطقون بمختلف اللغات المحلية الكبرى في المنطقة الواقعة تحت السيطرة الفرنسية: فيتناميون وصينيون وخمير ولاوسيون (وعدد غير قليل من الكولونيين الفرنسيين الشباب). وكان لا بدّ لتقارب أولئك المتسلقين القادمين من ماي ثو وباتامبانغ وفيتيان وفنه، على سبيل المثال، من أن يشير إلى أنهم «هندوصينيون» بالطريقة ذاتها التي كان لا بدّ لتقارب الطلاب متعددي اللغات والإثنيات في باتافيا وباندونغ من أن يُقرأ على أنهم «إندونيسيون»⁽²⁶⁾. ومع أن هذا الانتماء

= التعليم العام في عام 1917) على «تعليم بسيط، مقتصر على الأساسيات، يتيح للطفل أن يتعلم كل ما هو مفيد له أن يعرفه في عمله المتواضع كمزارع أو صانع كي يحسن ظروف وجوده الطبيعية والاجتماعية». (ص 17).

(25) في عام 1937 كان إجمالي الطلاب المسجلين 631، منهم 580 في كليتي الحقوق والطب. انظر: Kelly, p. 79; وانظر أيضًا: ص 69 - 79 التي تروي تاريخ هذه المؤسسة الغريب، حيث أسست في عام 1906، وأغلقت في عام 1908، وأعيد فتحها في عام 1918، ولم تكن قط، حتى أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، أكثر من مدرسة مهنية يُزعم أنها جامعة.

(26) بما أنني سأركز أدناه على الخمير والفيتناميين، قد يكون هذا هو المكان الملائم كي أشير بإيجاز إلى بعض اللاوسيين البارزين. التحق رئيس وزراء لاوس الحالي، كايسون فومفيان، بكلية الطب في جامعة هانوي في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين. وتخرج رئيس الدولة، الأمير سوفانوفونغ، في مدرسة ألير سارو في هانوي قبل حصوله على درجة في الهندسة من فرنسا. وكان أخوه الأكبر، الأمير فيتسارات راتانافونغسا الذي رأس في فيتيان حكومة لاوس الحرة التي لم تعيش سوى بين تشرين الأول/أكتوبر 1945 ونيسان/أبريل 1946، قد تخرج في شبابه في ثانوية شاسيلوب - لوبا في سايغون. وقبل الحرب العالمية الثانية، كانت المؤسسة التعليمية الأرفع في «لاوس» هي كلية بافي الصغيرة في فيتيان [وهي مدرسة عليا للشباب]. انظر: Joseph J. Zasloff, *The Pathetic Lao: Leadership and Organization* (Lexington, MA: Lexington Books, 1973), pp. 104-105.

وانظر أيضًا: '3349' [pseudonym for Phetsarath Ratanavongsa], *Iron Man of Laos: Prince*

= Phetsarath Ratanavongsa, Trans. John B. Murdoch, Ed. David K. Wyatt, Data Paper; 110 (Ithaca:

إلى الهند الصينية كان واقعياً تماماً، فإنه كان مُتَخَيِّلاً من مجموعة باللغة الصُّغرى، ولمدة لم تكن طويلة. والسؤال هو لماذا تكشف عن أنه سريع الزوال، في حين بقي الانتماء إلى إندونيسيا وراح يتعمق أكثر فأكثر؟

ثمة، أولاً، ما جرى من تغيير واضح في مسار التعليم الكولونيالي، خصوصاً كما كان مُطَبَّقاً في الهند الصينية الشرقية منذ حوالي عام 1917 فصاعداً. ذلك أن التصفية الفورية، أو الوشيكة، لنظام الامتحان الكونفوشي التقليدي دفعت أعداداً متزايدة باطّراد من أفراد النخبة الفيتنامية إلى أن يحاولوا وضع أبناءهم في أفضل المدارس الفرنسية المتاحة، بغية ضمان مستقبلهم في صفوف البيروقراطية. ونجمت عن ذلك منافسة على الأمكنة في المدارس الجيدة القليلة المتاحة أثارت ردّة فعل قوية بين الكولون <المعمّرين>، الذين كانوا يعتبرون هذه المدارس من حقهم وحكراً على الفرنسيين. وتمثل حلّ النظام الكولونيالي لهذه المشكلة بخلق بنية تعليمية «فرانكو - فيتنامية» منفصلة وخاضعة كانت تشدّد، في مراتبها الدنيا، ذلك التشديد الخاص على تعليم اللغة الفيتنامية بالكتابة الـ كواك نغو (مع تعليم الفرنسية كلغة ثانية عبر وسيط الـ كواك نغو)⁽²⁷⁾. ترتّبت على هذا التغيير في السياسة نتيجتان اثنتان. من جهة أولى، عمِلَ نُشْرُ الحكومة مئات آلاف الكتب المدرسية الخاصة بالمراحل التعليمية الأولى بالـ كواك نغو على تسريع انتشار هذه الكتابة التي اخترعها أوروبيون، وساعد من دون قصد في جعلها، بين عامي 1920 و 1945، الأداة

Cornell University, Southeast Asia Program. 1978), pp. 12 and 46.

هذا الرقم «3349» هو الاسم الحركي لفيتسارات راتانافونغسا. ومما له دلالة، في اعتقادي، أن هذا الأخير، في روايته أيام دراسته الأخيرة في باريس، لا يني يتكلم بصورة منتظمة وغير واعية على رفاق صفّه اللاوسيين والخمير والفيتناميين على أنهم «الطلاب الهندوصينيّين». '3349', *Iron Man*, pp. 14-15.

(27) هكذا جرى في عامي 1917 - 1918 إقامة «قسمين محليين» في ثانويتي شاسيلوب - لوبا وألبير سارو اللتين كانتا «موحدتين» في السابق. وهذان «القسمان المحليان» تحوّلا على التوالي في النهاية إلى ثانوية بتروكي وثانوية المحمية (3349), *Iron Man*, pp. 60, 63). مع ذلك، واصلت أقلية من الـ indigènes المحظوظين الالتحاق بالمدارس الفرنسية «الحقيقية» (مثل الأمير نوردوم سيهانوك الذي درس في مراهقته في شاسيلوب - لوبا)، في حين أنّ أقلية من «الفرنسيين» (بصورة أساس أوراسيين ومحليين ذوي مكانة قانونية كالفرنسيين) التحقت بتروكي ومؤسستها الشقيقة في هانوي.

الشعبية للتعبير عن التضامن الثقافي (والقومي) الفيتنامي⁽²⁸⁾. لأنه على الرغم من أن عدد الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة من السكان الناطقين بالفيتنامية لم يكن يتجاوز 10 في المئة في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، إلا أن هذا العدد لا سابق له في تاريخ هذا الشعب. علاوة على ذلك، كان هؤلاء المتعلمون، بخلاف الفئة المتعلّمة الكونفوشية، ملتزمين التزامًا عميقًا بزيادة أعدادهم تلك الزيادة السريعة. (بالمثل، دعمت السلطات في «كمبودج» و«لاوس»، وإن يكن على مستوى محدود أكثر، طبع النصوص المدرسية الابتدائية باللغات المحلية، بقواعد الإملاء والتهجئة التقليدية في البداية وبصورة أساسية، ثمّ بالكتابة اللاتينية لاحقًا وبصورة أضعف)⁽²⁹⁾. من جهة أخرى، عملت هذه السياسة على إقصاء الناطقين بالفيتنامية من غير المحليين المقيمين في الهند الصينية الشرقية. وفي حالة الخمير الحمر في «الصين الكوشينية»، عملت، بالتضافر مع إرادة النظام الكولونيالي السماح لهؤلاء بإقامة مدارس ابتدائية «فرانكو - خميرية» مثل تلك التي شُجّع على إقامتها في المحمية، على إعادة توجيه المطامح نحو أعلى نهر الميكونغ. هكذا راح أولئك المراهقون من الخمير الحمر الذين كانوا يطمحون إلى تعليم أعلى في عاصمة إندونيسيا الإدارية (بل وفي فرنسا بالنسبة إلى قلة مختارة منهم) يقومون على نحو متزايد بالتفاتة عبر بنوم بنه بدلًا من سلوك الطريق السريعة عبر سايغون.

ثانيًا، جرّت في عام 1935 ترقية مدرسة سيسوات في بنوم بنه إلى ثانوية متطورة تابعة للدولة، بمكانة مساوية لمكانة ثانويات الدولة الموجودة في سايغون وهانوي، ومنهاج دراسي مطابق لمنهجها. ومع أن طلابها كانوا في

(28) يلاحظ مار أنّه في عشرينيات القرن العشرين «حتى العضو الأكثر تفاؤلاً بين أعضاء الإنجليجيسيا [التي تكتب بالـ كواك نغو] ما كان يمكن أن يخمن أنّه بعد عقدين فحسب، سيكون مواطنو جمهورية فيتنام الديمقراطية قادرين على القيام بشؤونهم المهمة كلها - السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية والأكاديمية - بالفيتنامية المنطوقة المرتبطة بنظام كواك نغو الكتابي». انظر: Marr, p. 150.

وكان ذلك بمنزلة مفاجأة غير سارة للفرنسيين.

(29) من المفيد أن نعلم أن واحدة من أولى القضايا التي طرحها القوميون الخمير الأوائل في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين هي «التهديد» الذي يمثله تحويل السلطات الكولونيلية الكتابة الخميرية إلى الـ كواك نغو.

البداية يتمون بكثرة إلى عائلات التجار الصينو - خميريين والموظفين الفيتناميين المقيمين (على جَرِي تقاليد المدرسة)، إلا أن نسبة الخمير المحليين راحت تزداد باطراد⁽³⁰⁾. ولعله يكون من الإنصاف القول إنَّ الكمَّ الأكبر من الشباب الناطقين بالخميرية الذين تلقوا تعليمًا في المدارس العليا الفرنسية قد فعلوا ذلك، بعد عام 1940، في العاصمة الكولونiale الصرفة التي بناها المستعمرون لآل نوردوم.

أمَّا ثالثًا، فثمة حقيقة أنه لم يكن هنالك تشاكل بين رحلات الحجّ التعليمية والإدارية في الهند الصينية. ولم يجد الفرنسيون أيَّ حرج في التعبير عن الرأي الذي مفاده أنه إذا كان الفيتناميون غير محلّ ثقة ويتصفون بالجشع، إلا أنهم مع ذلك وبلا شكّ أشدّ حيوية وذكاءً من الخمير واللاوسيين «الشبهين بالأطفال». وعلى هذا الأساس، راحوا يستخدمون الموظفين الفيتناميين ذلك الاستخدام الكثيف في الهند الصينية الغربية⁽³¹⁾. وشكّل الـ 17600 فيتنامي المقيمين في «كمبودج» في عام 1937 - الذين يمثلون أقل من 1 في المئة من بين 19 مليون ناطق بالفيتنامية في المستعمرة، وحوالي 6 في المئة من سكان المحمية - جماعة ناجحة نسبيًا، ما جعل للهند الصينية معنيًا ملموسًا بالنسبة إليهم، كما كان الحال بالنسبة إلى الـ 50000 الذين أرسلوا إلى «لاوس» قبل عام 1945. وكان بمقدور الموظفين من بينهم على نحو خاص، أي أولئك الذين كان يمكن أن يُرسلوا من مكان إلى آخر في أقسام المستعمرة الخمسة كلها، أن يتخيّلوا الهند الصينية بوصفها الخشبة الواسعة التي يواصلون الأداء عليها.

مثل هذا التخيّل كان أقلّ سهولة بالنسبة إلى الموظفين اللاوسيين والخمير، على الرغم من أنه لم يكن هناك أيّ حظر رسمي أو قانوني يحول

(30) لم يَجْر اتّباع هذا النموذج مباشرةً في فيتتيان. ويشير توي إلى أنه في سياق ثلاثينيات القرن العشرين لم يتخرج سوى 52 لاوسيًا من مدرسة بافي [التي يطلق عليها اسم Lycée، أو مدرسة ثانوية، خطأً]، بعكس الفيتناميين الذين تخرج منهم 96. انظر: '3349', Iron Man, p. 40.

(31) ربما تكون هذه الكثافة قد توازت مع تأسيس النظام المدرسي الفرانكو - فيتنامي الذي حاد بالفيتناميين عن منافسة الرعايا الفرنسيين في أجزاء الهند الصينية الشرقية، الأكثر تقدّمًا. وفي عام 1937، كان هناك 39000 أوروبي يعيش في «الصين الكوشينية»، و«آنام»، و«تونكين»، ولم يكن هناك سوى 3100 في «كمبودج» و«لاوس» معًا. انظر: Marr, p. 23.

دون حصولهم على فرصٍ للعمل في أيّ مكان من الهند الصينية. حتى الشباب الأشدّ طموحًا القادمون من جماعة الخمير الحمر في شرق الهند الصينية، البالغ تعدادها في عام 1937 حوالي 326000 ولعلّها تمثل 10 في المئة من مجموع السكّان الناطقين بالخميرية، كانوا يجدون عمليًا أنّ آفاق العمل المتاحة أمامهم خارج «كمبودج» هي آفاق جدّ محدودة. ولعلّ الخمير واللاوسيين كانوا يجلسون إلى جانب الفيتناميين في مدارس اللغة الفرنسية الإعدادية والثانوية في سايجون وهانوي، لكنه لم يكن من المحتمل أن يكملوا ذلك ويشاطروهم الوظائف الإدارية هناك. ومثل الشباب القادمين من كوتونو وأبيدجان في داكار، كان مُقدّرًا لهم أن يعودوا، بالتدريج، إلى «الأوطان» التي رسمها لهم الاستعمار. وبعبارة أخرى، فإنه إذا ما كانت رحلات حجّهم التعليمية موجّهة نحو هانوي، فإنّ رحلاتهم الإدارية كانت تنتهي في بنوم بنه وفيتيان.

من هذه التناقضات برز أولئك الطلبة الذين يتكلّمون الخميرية والذين سيُذكّرون لاحقًا بأنهم أوائل القوميين الكمبوديين. والرجل الذي يمكن أن يُعدّ «أبو» القومية الخميرية، سون نغوك ثانه، كان، كما يشير اسمه الفيتنامي، من الخمير الحمر الذين تعلّموا في سايجون وتسلّموا لفترةٍ وظيفةٍ قانونيةٍ صغيرةٍ في تلك المدينة. لكنه في ثلاثينيات القرن العشرين ترك باريس دلّتا الميكونغ ساعيًا وراء مستقبلٍ واعدٍ أكثر في بلوا تلك الدلتا. أما الأمير سيسوات يوتيفونغ فقد التحق بالمدرسة الإعدادية في سايجون قبل أن يغادر إلى فرنسا من أجل المزيد من الدراسة. وحين عاد إلى بنوم بنه بعد خمسة عشر عامًا، وبعد الحرب العالمية الثانية، ساهم في تأسيس الحزب الديمقراطي (الخميري) وتسلّم منصب رئيس الوزراء في عامي 1946 - 1947. وكان وزير دفاعه، سون فوينساي، قد قام بالرحلات ذاتها. أمّا هوي كانثول، رئيس الوزراء الديمقراطي في عامي 1951 - 1952، فتخرّج من مدرسة المعلمين في هانوي في عام 1931، ثم عاد إلى بنوم بنه، حيث انضم إلى الهيئة التعليمية في ثانوية سيسوات⁽³²⁾. ولعلّ المثال الأبرز على كلّ هذا أن يكون إيو كويوس، الأول في سلسلة مؤسفة من

(32) المواد المتعلقة بسير هؤلاء الرجال تُلطف بتقديمها إليّ ستيف هيدر.

الزعماء السياسيين الخمير الذين قضوا اغتيالاً⁽³³⁾. وُلِدَ إيو كويوس في مقاطعة باتامبانغ في عام 1905 - حين كانت بانكوك لا تزال تحكمها - والتحق بمدرسة محلية من «مدارس باغودا المُجَدَّدة» قبل أن يدخل مدرسة ابتدائية «هندوصينية» في مدينة باتامبانغ. وفي عام 1921 ذهب إلى كلية سيسوات في عاصمة المحمية، ثم إلى كلية التجارة في هانوي، التي تخرّج فيها في عام 1927 وكان الأول على صفّه الذي يقرأ بالفرنسية. ولما كان يأمل في أن يدرس الكيمياء في بوردو، خضع لاختبار المنحة ونجح فيه. لكن الدولة الكولونiale سَدَّت عليه الطريق. وعاد إلى باتامبانغ محلّته، حيث أدار صيدلية، وظلّ كذلك حتى بعد أن استعادت بانكوك المقاطعة في عام 1941. وبعد انهيار اليابان في آب/أغسطس 1945، عاود الظهور في «كمبودج» بصفته برلمانياً ديمقراطياً. ومن اللافت أنّه كان على طريقته حفيداً مباشراً لفقهاء اللغة البارزين في أوروبا الباكورة، حيث قام بتصميم لوحة مفاتيح آلة كاتبة لكتابة الخميرية ونشر مجلدين ضخمين بال- فياسا خمير [اللغة الخميرية]، أو *La Langue Cambodgienne (Un Essai d'étude raisonne)*، كما تشير صفحة العنوان المضلّلة في طبعة عام 1967⁽³⁴⁾. لكنّ هذا النصّ ظهر أول مرّة - المجلد الأول منه فقط - في عام 1947، حين كان مؤلّفه رئيساً للجمعية التأسيسية في بنوم بنه، لا في عام 1937، حين كان يحيا حياة بلادة وخمول في باتامبانغ، وحين لم تكن ثانوية سيسوات قد خرّجت بعد أيّ طلاب يتكلّمون الخميرية، وحين كانت الهند الصينية لا تزال واقعاً وإن يكن عابراً سريع الزوال. أمّا في عام 1947، فلم يعد الناطقون بالخميرية - على الأقل أولئك الذين من «كمبودج» - يلتحقون بصفوف في سايجون أو هانوي. حيث ظهر في المشهد جيل جديد كانت «الهند الصينية» بالنسبة إليه تاريخاً وباتت «فيتنام» بلداً قائماً فعلياً وأجنبياً.

صحيح أنّ الغزوات والاحتلالات الوحشية التي أمر بها ملوك سلالة نغوين في هيو خلال القرن التاسع عشر كانت قد خلّفت ذكريات شعبية مريرة

(33) توفي في عام 1950، في هجوم بالقنابل على مقرّات الحزب الديمقراطي نظّمته يدٌ مجهولة، لكنّها قد تكون يدٌ أميرية.

(34) نشرته مكتبة الأصدقاء الأحرار في بنوم بنه، وكلمة «مضلّل» هنا تعود إلى أنّ النصّ برمته بالخميرية. أمّا تفاصيل سيرة إيو كويوس، المستمدة من الكتاب الصادر في عام 1964 لمناسبة ذكرى إحراق جسّته، فتكرّم بتمريرها إلى ستيف هيدر.

بين الخمير، بمن فيهم أولئك الذين في «الصين الكوشينية» التي قُدِّر لها أن تغدو جزءاً من فيتنام. لكن مرارة مماثلة كانت موجودة في جزر الهند الهولندية: السونديون ضد الجاويين؛ الباتاك ضد المينانكابو؛ الساساك ضد الباليين؛ التوراجا ضد البوغينيين؛ الجاويون ضد الأمبونيين... وهلمجرًا. وما حاولت أن تقوم به تلك السياسة التي تُدعى «السياسة الفدرالية» التي اتبعتها الحاكم العام، الملازم المُرْعِب، هوبرتوس فان موك بين عامي 1945 و 1948 بغية الالتفاف على الجمهورية الإندونيسية الوليدة هو على وجه الدقة استغلال مثل هذه المرارة⁽³⁵⁾. لكن «إندونيسيا» ظلت على قيد الحياة على الرغم من فيض التمردات الإثنية التي لم يكذَّ يخلو منها أي جزء من أجزاء إندونيسيا المستقلة بين عامي 1950 و 1964. ويعود ذلك في جزء منه إلى أن باتافيا ظلت القمة التعليمية حتى النهاية، لكنه يعود أيضًا إلى أن السياسة الإدارية الكولونيالية لم تُعدَّ السونديين المتعلمين إلى «بلاد السوندا»، أو الباتاك إلى أرضهم الأصلية في تلال سومطرة الشمالية. وفي نهاية الحقبة الكولونيالية كانت جميع الجماعات الإثنية اللغوية قد اعتادت فكرة أن هنالك خشبة أرخبيلية لهم أدوارهم التي يؤدونها عليها. لذلك، فإنَّ واحدًا فحسب من تمرّدات الأعوام 1950 - 1964 كانت له طموحاته الانفصالية؛ أمّا الباقي جميعًا فكانت تتنافس ضمن نظام سياسي إندونيسي واحد⁽³⁶⁾.

لا يسعنا، علاوةً على ذلك، أن نتجاهل الحادث اللافت الذي مفاده أن «لغة إندونيسية» برزت في عشرينيات القرن العشرين ذلك البروز الواعي. وكيفية حدوث ذلك لها دلالتها البعيدة التي تبدو جديرةً بأن نحيد عن الموضوع قليلًا من أجلها. لقد سبق أن أشرنا إلى واقعة أن الهولنديين لم يحكموا جزر الهند إلّا إلى حدٍّ معين وبصورة متأخرة. وكيف يمكن أن يكون

(35) انظر: Kahin, Chapter 12, Anthony J. S. Reid, *The Indonesian National Revolution*, 1945-50 (Hawthorn, Victoria: Longman, 1974), chapter 6, Henri J. Alers, *Om een rode of groene Merdeka. Tien jaren binnenlandse politiek. Indonesie, 1943-53* (Eindhoven: Vulkaan, 1956), passim.

(36) تمثّل الاستثناء بجمهورية مولوكاس الجنوبية الجهيضة. ذلك أنه لطالما كان الأمبونيون المتحولون إلى المسيحية يُجنّدون في الجيش الكولونيالي القمعي ذلك التجنيد الكثيف. وكثيرون من هؤلاء قاتل تحت قيادة فان موك ضد الجمهورية الإندونيسية الثورية الوليدة؛ وبعد اعتراف هولندا باستقلال إندونيسيا في عام 1950، كان لدى هؤلاء ما يدفعهم لأن يتوقعوا مستقبلًا غير سار.

الأمر خلاف ذلك، إذا ما كان الهولنديون قد بدأوا فتوحاتهم المحلية في أوائل القرن السابع عشر، في حين لم يَجْر تعليم اللغة الهولندية للـ inlanders على نحوٍ جدي إلا في أوائل القرن العشرين؟ وما جرى بدلاً من ذلك هو تطور لغة دولة غريبة عبر سيرورة بطيئة، وغير مخطّط لها إلى حدٍّ بعيد، انطلاقاً من لغةٍ قديمة مشتركة بين الجزر⁽³⁷⁾. تنتمي هذه اللغة التي دُعيت dienstmaleisch (ربما «لغة الملايو الخدمية» أو «لغة الملايو الإدارية») إلى النمط الذي تنتمي إليه «العثمانية» وتلك «الألمانية المالية» <ärarisch deutsch> التي انبثقت من الثكنات متعددة اللغات في إمبراطورية هابسبورغ⁽³⁸⁾. وكانت لها مكانتها الراسخة بين الموظفين في أوائل القرن التاسع عشر. وحين غدا لرأسمالية الطباعة ذلك الحضور الكبير بعد منتصف القرن، خرجت هذه اللغة إلى السوق والإعلام. ولأنّ مستُخدمِها الأوائل كانوا بصورة أساسية من الصحفيين والناشرين الصينيين والأوراسيين، فإنّ الـ inlanders لم يلتقطوها إلا مع نهاية القرن. وسرعان ما نُسيّ الفرع الـ dienst من شجرة عائلتها ليحلّ مكانه سلف مزعوم من جزر رياو (التي ربما كان من حسن الحظ أن سنغافورا البريطانية قد غدت أهمها منذ عام 1819). وفي عام 1928، وبعد أن شكّلها جيلان من الكتاب والقراء المدنيين، كانت قد غدت جاهزة لأن تتبناها إندونيسيا الفتاة بوصفها اللغة القومية Indonesia bahasa. فلم تنظر إلى الخلف قطّ منذ ذلك الحين.

بيد أنّ الحالة الإندونيسية، المهمة بالطبع، ينبغي في النهاية ألا تضللنا وتسوقنا إلى التفكير بأنّه ما كان بمقدور الهولندية أن تكون اللغة القومية، لو كانت هولندا قوة أكبر⁽³⁹⁾، ووصلت في عام 1850 بدلاً من عام 1600. فلا

(37) انظر ذلك الوصف القيّم في: John Hoffman, «A Foreign Investment: Indies Malay to Indonesia, vol. 27 (April 1979), pp. 65-92. 1901».

(38) شكّل الجيش «شيئاً أشبه بالطائفة اللاقومية التي عاش أفرادها حتى في حياتهم الخاصة على نحوٍ مميّز عن بيئاتهم القومية وغالباً ما كانوا يتحدثون لغة خاصة هي «الألمانية المالية» التي أطلق عليها أنصار الألمانية الأدبية هذا الاسم بقصد السخرية، وعنوا بذلك خليطاً لغوياً غريباً لا يأخذ القواعد النحوية على محمل الجدّ. انظر: Oscar Jaszi, *The Dissolution of the Habsburg Monarchy* (Chicago: University of Chicago Press, 1929), p. 144.

(39) ليس بالمعنى الواضح فحسب. لأن هولندا، لمقاصد وأغراض شتى، لم يكن لديها سوى مستعمرة واحدة، مستعمرة ضخمة ومربحة كثيراً على هذا الصعيد، وكان من العملي تماماً أن تدرّب =

شيء يوحي بأن القومية الغانية أقل واقعية من الإندونيسية لمجرد أن لغتها القومية هي الإنكليزية وليس الأشانتي. ومن الخطأ أيضًا أن نتعامل مع اللغات بالطريقة التي يتعامل بها معها بعض الأيديولوجيين القوميين؛ بوصفها رموزًا للانتماء القومي، مثل الرايات والأزياء والرقصات الشعبية، وبقيّة هذه الأمور. الأهم بكثير في شأن اللغة هو قدرتها على توليد جماعات متخيّلة، وعلى بناء ضروب معينة من التضامن. واللغات الإمبراطورية هي في النهاية لغات محلية، أي إنها لغات محلية محددة بين لغات كثيرة. وإذا ما كانت موزمبيق الراديكالية تتكلم البرتغالية، فمعنى ذلك أن البرتغالية هي الوسيط الذي يجري عبره تخيل الموزمبيق (ويوقف حدودها في الوقت ذاته عند كل من تنزانيا وزامبيا). من هذا المنظور، لا يختلف استخدام البرتغالية في الموزمبيق (أو الإنكليزية في الهند) من الناحية الأساسية عن استخدام الإنكليزية في أستراليا أو البرتغالية في البرازيل. ليست اللغة أداة إقصاء: يمكن لأيّ كان، من حيث المبدأ، أن يتعلّم أيّ لغة كانت. وعلى العكس، فإنّ اللغة في الأساس هي أداة إدناء أو جَمْع، لا يحدّها سوى قدر بابل: ما من أحد يعيش بما يكفي لتعلّم اللغات كلها. واللغة الطباعية هي ما يبتدع القومية، وليست لغة محدّدة بحدّ ذاتها⁽⁴⁰⁾. وإشارة الاستفهام الوحيدة التي تقف إزاء لغات مثل البرتغالية في الموزامبيق والإنكليزية في الهند هي ما إذا

= موظفيها في diensttaal غير أوروبي (واحد). وبمرور الزمن، ظهرت مدارس وكليات خاصة في المتروبول كي تُعدّ موظفي المستقبل من الناحية اللغوية. أمّا بالنسبة إلى الإمبراطوريات متعددة القارات كالإمبراطورية البريطانية فما كان من الممكن لـ diensttaal محلي واحد أن يكون كافيًا.

(40) إنّ وصف مار للتطور اللغوي في الهند الصينية الشرقية موح كثيرًا بهذا الصدد. فهو يلاحظ أنّه في أواخر عام 1910 تقريبًا «كان معظم الفيتناميين المتعلمين يفترضون أنّ الصينية أو الفرنسية، أو كليهما، هما طريقتان أساسيتان للاتصال «الرفيع». انظر: Marr, p. 137.

لكن الأمور سرعان ما تغيرت بعد عام 1920، وكان أحد أسباب ذلك تشجيع الدولة كتابة الكواك نغو الصوتية. ففي ذلك الحين «تنامي الاعتقاد بأنّ الفيتنامية المنطوقة هي مكوّن مهم وربما أساسي من مكوّنات الهوية القومية. بل إنّ المثقفين الذين يتقنون الفرنسية أكثر من لغتهم الأم راحوا يقدّرون أهمية الحقيقة التي مفادها أنّ 85 في المئة على الأقل من أبناء بلدهم يتحدثون اللغة ذاتها» (ص 138). وأدركوا أنّ أشدّ الإدراك دور التعليم الجماهيري في تقدّم الدول الأمم في أوروبا واليابان. لكن مار يبيّن أيضًا أنه لم يكن هنالك لفترة طويلة من الزمن أي ارتباط واضح بين التفضيل اللغوي والموقف السياسي: «تأييد اللغة الفيتنامية الأم لم يكن أمرًا وطنيًا بحدّ ذاته، شأنه شأن تشجيع اللغة الفرنسية الذي لم يكن يدلّ بحدّ ذاته على تواطؤ مع المستعمر أو تعاون معه» (ص 150).

كان النظامان الإداري والتعليمي، خصوصًا الأخير، يمكنهما أن يولدا انتشارًا كافيًا سياسيًا للثنائية اللغوية. ومنذ ثلاثين عامًا مضت، لم يكن هناك تقريبًا أيّ إندونيسي يتكلم الـ *bahasa Indonesia* <الإندونيسية، اللغة القومية> بوصفها لغته أو لغتها الأم؛ حيث كانت لكلّ امرئٍ لغته «الإثنية» الخاصة، وكان لبعضهم، خصوصًا أولئك الذين كانوا في الحركة القومية، *bahasa Indonesia / dienstmaleisch* علاوة على ذلك. واليوم ربما كان هناك ملايين من الإندونيسيين الشباب، من عشرات الخلفيات الإثنية اللغوية، يتحدثون الإندونيسية بوصفها لغتهم الأم.

ليس من الواضح بعد ما إذا كان جيل من الموزامبيقيين الذين لا يتحدثون سوى البرتغالية الموزامبيقية سوف يتولد بعد ثلاثين عامًا من الآن. لكنه ليس ضروريًا، في أواخر القرن العشرين هذه، أن يكون ظهور مثل هذا الجيل الشرط اللازم للتضامن القومي الموزامبيقي. في المقام الأول، نجد أن ضروب التقدم في تكنولوجيا الاتصال، خصوصًا الإذاعة والتلفزيون، توفر للطباعة حلفاء لم يكونوا متاحين منذ قرن مضى، حيث يمكن للبث متعدد اللغات أن يستحضر الجماعة المتخيلة في أذهان الأميين والسكان الذين يتكلمون لغاتٍ أمًا مختلفة (وهنا ثمة ضروب من التشابه مع استحضار العالم المسيحي القروسطي عبر تمثيلات بصرية وفئات متعلمة ثنائية اللغة). وفي المقام الثاني، بات لقوميات القرن العشرين، كما أرى، ذلك الطابع القياسي التركيبي العميق، ذلك أنها تستطيع أن تستند، وهي تستند، إلى أكثر من قرن ونصف القرن من التجربة الإنسانية، وإلى ثلاثة نماذج سابقة من القومية. وهذا ما يبوّئ القادة القوميين موقعًا يمكنهم من أن يستخدموا على نحوٍ واسع الأنظمة التعليمية المدنية والعسكرية المُصاغة على غرار أنظمة القومية الرسمية؛ والانتخابات والتنظيمات الحزبية والاحتفالات الثقافية المصاغة على غرار القوميات الشعبية في أوروبا القرن التاسع عشر؛ وفكرة المواطن - الجمهوري التي جاءت بها البلدان الأميركية إلى العالم. وفوق ذلك كله، فإن فكرة «الأمة» ذاتها باتت الآن معششة على نحوٍ مكين في اللغات الطباعية كلها؛ وبات الانتماء القومي لا ينفصل عن الوعي السياسي.

ما يعنيه كلُّ هذا، في عالم تشكَّل فيه الدولة القومية تلك القاعدة الطاغية، هو أنَّه بات من الممكن الآن تخيّل الأمم من دون التشارك اللغوي؛ ليس بروح الـ *nosotros los Americanos* <نحن الأمريكيين> المحلية، بل انطلاقاً من إدراك عام لما أظهر التاريخ الحديث أنَّه ممكن⁽⁴¹⁾. ويبدو من الملائم، في هذا السياق أن نختم هذا الفصل بالعودة إلى أوروبا لننظر باقتضاب إلى تلك الأمة التي كثيراً ما استُخدم تعددها اللغوي هراوةً لِضَرْبِ أنصار النظريات القومية القائمة على اللغة.

في عام 1891، وفي خضمّ الاحتفالات بذكرى مرور 600 عام على الاتحاد الكونفدرالي بين <كانتونات> شفيتس وأوبفالدن ونيدفالدن، «قررت» الدولة السويسرية أن يكون عام 1291 تاريخ تأسيس سويسرا⁽⁴²⁾. ولهذا القرار الذي انتظر 600 سنة كي يصدر، جوانبه المسليّة، ويشير أصلاً إلى أنَّ الحداثة وليس القِدَم هي التي تميّز القومية السويسرية. بل إنَّ الأمر يصل بكريستوفر هيوز، في كتابه عن سويسرا، حدَّ رؤيته أنَّ احتفالات عام 1891 تسمُّ ولادة هذه القومية، فيقول إنَّه «في النصف الأول من القرن التاسع عشر... كانت القومية تتكى بخفّة على عاتق الطبقات الوسطى المثقفة: مدام دو ستايل [1766-1817]، وفوسيلي [1741-1825]، وأنجيليكا كوفمان [1741-1807]، وسيسموندي [1773-1842]، وبنيامين كونستان [1767-1830]، فهل هم سويسريون جميعاً؟»⁽⁴³⁾ إذا ما كان الجواب الضمني هو «لا»، فإنَّ أهميته تُستمدّ من حقيقة أنَّ النصف الأول من القرن التاسع عشر شهد، في أرجاء أوروبا كلها المحيطة بسويسرا، تبرعم الحركات القومية المحلية التي أدّت فيها «الطبقات الوسطى المثقفة» (اللغويون + الرأسماليون، إذا جاز القول) أدواراً مركزية. فلماذا إذا تأتي القومية إلى

(41) أقول «ممكن» لأنه من الواضح أنَّ هنالك وَفَرَةً من الحالات التي رُفِضَتْ فيها، وتُرفَضُ، هذه الإمكانية. والتفسير، في مثل هذه الحالات، كباكستان القديمة، ليس التعددية الثقافية - الإثنية، بل رحلات الحجّ الممنوعة.

(42) Christopher Hughes, *Switzerland* (New York: Praeger, 1975), p. 107.

هذا النص الممتاز الذي يُعبّر سيتن واتسون عن إعجابه به بحق، هو أساس النقاش الذي يلي.

(43) Hughes, p. 218.

قمتُ بإقحام التواريخ بنفسِي.

سويسرا متأخرة بهذا القدر، وما العواقب التي خلفها التأخر على شكلها النهائي (خصوصاً، ما تتميز به من تعدد معاصر في «لغاتها القومية»؟)

يكمن جزء من الجواب في شباب الدولة السويسرية التي يلاحظ هيزر بامتعاض أنه يصعب تعقبها إلى أبعد من عامي 1813 - 1815 «من دون شيء من المراوغة»⁽⁴⁴⁾. وهو يذكّرنا بأن أول إدخال لمفهوم المواطنة السويسرية الفعلية، وإدخال حق التصويت المباشر (للمذكور)، ووضع حدٍّ للمكوس والمناطق الجمركية «الداخلية» كانت من إنجازات الجمهورية الهلفتية^(*) التي فرض وجودها الاحتلال الفرنسي في عام 1815. ولم تشمل الدولة أعداداً مهمة من الناطقين بالإيطالية إلا في عام 1803، مع ضمِّ <كانتون> تيسينو. ولم تكسب مناطق فالي وجنيف ونيوشاتل المأهولة بناطقين بالفرنسية من الحلف المقدس المناهض لفرنسا إلا في عام 1815، مقابل الحياد ودستور محافظ إلى حدٍّ بعيد⁽⁴⁵⁾. والحال، أن سويسرا متعددة اللغات القائمة اليوم هي نتاج أوائل القرن التاسع عشر⁽⁴⁶⁾.

أمّا العامل الثاني فكان تأخر البلاد (الذي عمّل، بالتضافر مع تضاريسها الوعرة وافتقارها إلى الموارد القابلة للاستغلال، على الحيلولة دون ضمّها إلى جيرانها الأشدّ قوة منها). وقد يكون من الصعب اليوم أن نتذكّر أن سويسرا كانت بلدًا فقيرًا حتى الحرب العالمية الثانية، مع مستوى معيشة لا يبلغ سوى

Hughes, p. 85.

(44)

(*) تمثل الجمهورية الهلفتية (1798 - 1803) (Helvetic Republic) في تاريخ سويسرا محاولة مبكرة لفرض سلطة مركزية على سويسرا التي كانت، حتى ذلك الحين، مؤلفة بصورة أساسية من كانتونات ذات حكم ذاتي يجمعها حلف عسكري مهلهل، ومناطق مفتوحة مثل فود. والاسم هو نسبة للشعب الهلفتي. ولما كانت القوة العسكرية الفرنسية هي التي فرضت الترتيب الدستوري، فإن هذه الجمهورية لم تدم سوى خمس سنوات ولم تحظ بين مواطنيها بدعم شعبي واسع. ومع ذلك، فقد بقيت في سويسرا الحالية بعض أوجه تلك الجمهورية.

(45) إضافة إلى أرغاو وسانت جالن وغريسونز. وهذه الأخيرة تحظى بأهمية خاصة اليوم لأنها الوطن الباقي للغة الرومانشية Romansch، وهي اللغة الأكثر سويسرية بين لغات البلاد القومية، مع أنها لم تحقق هذه المكانة إلا في العام 1937! انظر: Hughes, pp. 59 and 85.

(46) يمكن أن نلاحظ بصورة عابرة أن مدام دوستايل لم تعيش كي ترى ولادة سويسرا هذه. وإضافة إلى ذلك، فإن عائلتها، مثل عائلة سيسموندي، هي من جنيف، التي كانت دويلة مستقلة خارج «سويسرا» حتى العام 1815. فلا عجب إذاً أن القومية السويسرية قد اتكأت «بخفة» على عاتق هؤلاء.

نصف مستوى المعيشة في إنكلترا، كما كانت بلدًا زراعيًا على نحوٍ طاعٍ. وفي عام 1850 لم يكن سوى ما يقارب 6 في المئة من السكان يعيشون في مناطق تتمتع بالحد الأدنى من المدنية، ولم يرتفع هذا الرقم في عام 1920 إلا إلى 27.6 في المئة⁽⁴⁷⁾. هكذا كانت أغلبية السكان طوال القرن التاسع عشر من الفلاحين المستقرين من دون حراك (ما عدا ذلك التصدير القديم للشباب القادرين على احتمال العمل مرتزقة وحرسًا بابويًا). ولم يكن تأخر البلاد تأخرًا اقتصاديًا فحسب، بل تأخرًا سياسيًا وثقافيًا أيضًا. ذلك أن حلفًا مهملًا من الأوليغارشيات الأرستقراطية الكانتونية كان يحكم «سويسرا القديمة» التي لم تتغير مساحتها بين عامي 1515 و 1803، وكان معظم سكانها يتكلمون هذه اللهجة أو تلك من بين اللهجات الألمانية الكثيرة. أمّا «سرّ استمرار الكونفدرالية زمنًا طويلًا فكان طبيعتها المزدوجة. ذلك أنها كانت تبدي، في مواجهة الأعداء الخارجيين، القدر الكافي من وحدة شعوبها، أمّا في مواجهة التمرد الداخلي فكانت تبدي القدر الكافي من وحدة أوليغارشياتها؛ فإذا ما تمرّد الفلاحون، كما كانوا يفعلون مرّات ثلاث أو ما يقاربها في كل قرن، وُضِعَت الخلافات جانبًا وقَدِّمَت حكومات الكانتونات الأخرى يد العون التي غالبًا - وليس دائمًا - كانت تذهب لمصلحة الحكّام»⁽⁴⁸⁾. وفي ما عدا غياب المؤسسات الملكية، فإنّ اللوحة لا تختلف كثيرًا عن لوحة تلك الإمارات الصغيرة داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي لم يكن يحصرها العدوّ، والتي تمثل ليشتنشتاين، على حدود سويسرا الشرقية، آخر آثارها الغربية الباقية⁽⁴⁹⁾.

Hughes, pp. 173 and 274.

(47)

كان مقدّرًا لأيّ «طبقة وسطى مثقفة» في القرن التاسع عشر أن تكون صغيرة جدًا.

Hughes, p. 86.

(48)

التشديد لي.

(49) وسم غيا ب الملكيات أيضًا الرابطة الهانزية، وهي حلف سياسي ضعيف من الإشكالي أن ننسب إليه صفات الدولة أو الأمة. >ضمّت الرابطة الهانزية عددًا من المدن التجارية في منطقة بحر الشمال والبلطيق، واستمرت من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر. ضمت في البداية ثلاث مدن ألمانية: لوبيك وهامبورغ وكولن، ثم تزايد عدد المدن المنضوية تحت لوائها حتى بلغ 80 مدينة في القرن الرابع عشر. شكّلت هذه المدن نواة الرابطة الهانزية التي أقامت لها محطات تجارية عدة في نوفغورود (روسيا) وبيرغن (النرويج) ولندن وبروج (بلجيكا). بدأت مرحلة الأفول عندما لحقت بلوبيك وهي المدينة التي كانت مركزًا لها، هزائم قاسية على يد الدانمارك في الأعوام 1543 - 1535.<

ومما له دلالة أنه في أواخر عام 1848، بعد ما يقارب الجيلين على قيام الدولة السويسرية، كانت الانقسامات الدينية القديمة أشدّ بروزًا على الصعيد السياسي من الانقسامات اللغوية. ومن اللافت بما يكفي أن البروتستانتية كانت محظورة في المناطق التي يُشار إليها على أنها كاثوليكية، وأن الكاثوليكية كانت ممنوعة في المناطق التي تُعتبر بروتستانتية؛ وأن هذه القوانين كانت تُطبّق بحزم (في حين كانت اللغة مسألة خيار واقتناع شخصيين). ولم تحتل اللغة مكان الدين، ويغدو البلد ممزقًا إلى مناطق لغوية محدّدة إلا بعد عام 1848، في أعقاب الانقلابات الثورية في أرجاء أوروبا كلها وانتشار الحركات القومية نصيرة اللغات المحلية ذلك الانتشار العام (عندئذ، غدا الدين مسألة خيار شخصي)⁽⁵⁰⁾.

أخيرًا، يشير استمرار كثير من اللهجات الألمانية التي لا تفهم واحدها الأخرى في بعض الأحيان - في مثل هذا البلد الصغير - إلى تأخر وصول رأسمالية الطباعة والتعليم الحديث الموحد إلى معظم المجتمع السويسري الفلاحي. هكذا كانت الـ *Hochsprache* (الألمانية الطباعية)، حتى وقت متأخر جدًا، تتمتع بمكانة لغة الدولة التي تتمتع بها الـ *ärarisch deutsch* > الألمانية المالية < الـ *dienstmaleisch* > ربما «لغة الملايو الخدمية» أو «لغة الملايو الإدارية» <. بل إن هيزر يلاحظ أنه يُتَوَقَّع من الموظفين «الكبار» اليوم أن يكونوا على معرفة فعلية بلغتين فدراليتين، الأمر الذي ينطوي على أن هذه المقدرة ليست متوقّعة من مرؤوسيههم. وهذا ما يقوله على نحو غير مباشر التوجيه الفدرالي الصادر في عام 1950 والذي يلحّ على أن يكون «السويسريون الألمان المتعلّمون متمكّنين من الفرنسية، شأنهم شأن السويسريين الطليان المتعلّمين»⁽⁵¹⁾. نحن في الواقع أمام وضع لا يختلف كثيرًا في جوهره عن وضع الموزامبيق؛ حيث نجد طبقة سياسية ثنائية اللغة جاثمة فوق تشكيلة من السكان أحادية اللغة، إنما مع اختلاف واحد بين الوضعين، هو أن «اللغة الثانية» هي لغة جارٍ قوي وليست لغة حاكم كولونيالي سابق.

Hughes, p. 274.

(50)

Hughes, pp. 59-60.

(51)

التشديد لي.

مع ذلك، وفي ضوء الحقيقة التي مفادها أن اللغة الألمانية كانت في عام 1910 اللغة الأم لحوالي 73 في المئة من السكان، والفرنسية لـ 22 في المئة، والإيطالية لـ 4 في المئة، والرومانشية لـ 1 في المئة (ونادرًا ما تغيرت هذه النسب على مرّ العقود)، قد يكون من المدهش أنه لم تجر محاولة للألمنة في النصف الثاني القرن التاسع عشر، وهي حقبة القوميات الرسمية. ولا شك في أن ضروريًا من الحماسة القوية للألمانية كانت موجودة حتى عام 1914. كانت الحدود بين ألمانيا وسويسرا الألمانية مفتوحة على مداها. وكانت التجارة والاستثمارات، فضلًا عن الأرستقراطيين والمهنيين، تتنقل جيئةً وذهابًا بحرية تامة. لكن سويسرا كانت متاخمةً أيضًا لقوتين أوروبيتين أخريين كبيرتين: فرنسا وإيطاليا، وكانت المخاطر السياسية التي يمكن أن تترتب على الألمنة مخاطر واضحة. لذلك كانت المساواة القانونية بين الألمانية والفرنسية والإيطالية الوجه الآخر من العملة التي يشكّل حياذ سويسرا وجهها الأول⁽⁵²⁾.

تشير الدلائل السابقة كلها إلى أن القومية السويسرية تُفهم على أفضل وجه كجزء من «الموجة الأخيرة». وإذا ما كان هيوز محقًا في تحديد تاريخ ولادتها بعام 1891، فإنها لا تكبر القومية البورمية أو الإندونيسية بأكثر من عقد. بعبارة أخرى، نشأت القومية السويسرية في مرحلة من التاريخ العالمي غدت فيها الأمة معيارًا دوليًا، وكان يمكن فيها «صياغة» الانتماء إلى أمة بطريقة أعقد بكثير مما جرى حتى ذلك الحين. وإذا ما كانت بنية سويسرا المحافظة سياسيًا، والمتأخرة اقتصاديًا واجتماعيًا، قد «أخرت» نشوء القومية⁽⁵³⁾، فإن كون مؤسساتها السياسية ما قبل الحديثة لم تكن ملكية سلالية أو ملكية أحادية قد ساعد في الحيلولة دون إفراطات القومية الرسمية (قارن ذلك مع مثال سيام الذي تناولناه في الفصل السادس). وأخيرًا، وكما في أمثلة جنوب شرق آسيا، فإن ظهور القومية السويسرية عشية ثورة الاتصالات في

(52) نادرًا ما يخفي رفع مكانة الرومانشية في عام 1937 هذه الصورة الأصلية.

(53) كانت بنية هنغاريا الاجتماعية متأخرة أيضًا، لكن الأرستقراطيين الماجيار كانوا وسط إمبراطورية سلالية ضخمة متعددة الإثنيات، لم تشكّل فيها جماعتهم اللغوية المزعومة سوى أقلية، وإن تكن أقلية بالغة الأهمية. أما الأوليغارشية الأرستقراطية في سويسرا الصغيرة، الجمهورية فلم تكن قط مهددة على هذا النحو.

القرن العشرين جعل من الممكن، ومن العملي، «تمثيل» الجماعة المتخيلة بطرائق لم تتطلب الأحادية اللغوية.

في الختام، لعلّه يجدر بنا أن نعيد صوغ الحجاج العام الذي يشمل هذا الفصل. وهو أن قوميات «الموجة الأخيرة»، ومعظمها في مناطق آسيا وأفريقيا الكولونيلية، كانت في الأصل ردًا على الإمبريالية العالمية جديدة الأسلوب التي جعلتها منجزات الرأسمالية الصناعية ممكنة. وكما يقول ماركس بطريقته الفريدة «إن حاجة البرجوازية إلى سوق لمنتجاتها متوسّعة باطراد تطارد هذه البرجوازية في أرجاء الأرض كلها»⁽⁵⁴⁾. لكن الرأسمالية عملت أيضًا، خصوصًا بنشرها الطباعة، على خلق قوميات في أوروبا هي قوميات شعبية نصيرة للغات المحلية، قوّضت بدرجات مختلفة المبدأ السلالي القديم، وحثت كل سلالة حاكمة على تجنيس ذاتها. وبدورها، أدّت القومية الرسمية - التي هي مزيج من المبدأ القومي الجديد والمبدأ السلالي القديم (الإمبراطورية البريطانية) - إلى ما يمكن أن ندعوه، بصورة ملائمة، باسم «الرؤسنة» في المستعمرات خارج أوروبا. وتشابك هذا النزوع الأيديولوجي مع المقتضيات العملية ذلك التشابك المُحكّم. كانت إمبراطوريات أواخر القرن التاسع عشر أكبر بكثير وأبعد من أن تحكمها حفنة من المواطنين. علاوةً على ذلك، كانت الدولة تناهز الرأسمالية وتعمل بسرعة على تكثير وظائفها، في كلّ من المتروبولات والمستعمرات. وهذه القوى مجتمعة هي التي ولّدت الأنظمة المدرسية «الرؤسنة» التي كان من بين ما قصّد منها أن تنتج الكوادر الخاضعة المطلوبة لكلّ من الدولة والبيروقراطيات المتكاملة في كلّ واحد. وهذه الأنظمة المدرسية، المركزية والموحدة، خلقت رحلات حجّ جديدة تمامًا كانت لها في العادة قبلاتها في عديد من العواصم الكولونيلية، ذلك أنّ الأمم المخبوءة في باطن الإمبراطوريات لم يعد يُسمح لها بمزيد من الصعود الداخلي. وكثيرًا ما كان لرحلات الحج التعليمية هذه ما يوازيها، أو يماثلها في المجال الإداري.

Karl Marx and Friedrich Engels, «The Communist Manifesto», in: *Selected Works* (54)

(Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1958), vol. I, p. 37.

ومن غير ماركس كان يمكن أن يصف هذه الطبقة التي غيرت العالم بأنها كانت «مُطاردة».

وهذا التشابك بين رحلات الحج التعليمية والإدارية المحددة هو الذي وفر الأساس الإقليمي لـ «جماعات متخيلة» جديدة أمكن فيها للمحليين أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم «قوميون». وكان توسع الدولة الكولونiale الذي دعا «المحليين» إلى المدارس والوظائف، إذا جاز استخدام كلمة «دعا»، وتوسع الرأسمالية الكولونiale الذي أقصاهم عن مجالس الإدارة، إذا جاز استخدام كلمة «أقصى»، قد جعلتا الإنتليجنسيات المنعزلة، ثنائية اللغة، غير المتصلة بالبرجوازيات المحلية القوية هي الناطق الأساس والأول باسم القومية الكولونiale، إلى درجة غير مسبوقة.

غير أن هؤلاء، بوصفهم إنتليجنسيات ثنائية اللغة، وقبل كل شيء بوصفهم إنتليجنسيات في أوائل القرن العشرين، كان لهم نفاذ، داخل الصف وخارجه، إلى نماذج الأمة والانتماء القومي والقومية التي جرى استخلاصها من التجارب الفوضوية المضطربة التي شهدتها ما يزيد على قرن من التاريخ الأميركي والأوروبي. وعملت هذه النماذج، بدورها، على إضفاء شكل على آلاف الأحلام الجديدة. ونُسخت دروس القومية الكريولية، والقومية اللغوية المحلية، والقومية الرسمية بتراكيب شتى، وحُورّت، وحُسّنت. وأخيراً، ومع تغيير الرأسمالية وسائل الاتصال المادي والفكري ذلك التغيير المتسارع، وجدت الإنتليجنسيات طرائق لتجاوز الطباعة في توليد الجماعة المتخيلة وتوسيعها لتطال ليس الجماهير الأمية فحسب، بل حتى الجماهير المتعلمة التي تقرأ لغات مختلفة.

الوطنية والعنصرية

حاولتُ في الفصول السابقة أن أحدد معالم السيرورات التي صارت من خلالها الأمة محلَّ تخيل، ثمَّ محلَّ اقتداءٍ وتحويلٍ وتحويل، ما إن تمَّ تخيلها. وكان من الضروري أن يُعنى مثل هذا التحليل في المقام الأول بالتغير الاجتماعي وأشكال الوعي المختلفة. لكن من المشكوك فيه ما إذا كان التغير الاجتماعي أو الوعي المتحوّل، بحدّ ذاتهما، يكفيان لتفسير الرابط الذي يشعر به البشر تجاه مخترعات خيالاتهم، أو ما يدفع هؤلاء البشر لأن يكونوا مستعدين للموت من أجل هذه المخترعات، إذا ما أعدنا إحياء السؤال الذي سبق أن طرحناه في بداية هذا الكتاب.

في عصرٍ شاع فيه إلحاح المثقفين التقدميين، الكوزموبوليتانيين (خصوصًا في أوروبا؟) على ما تتسم به القومية من طابع شبه مرضي، وعلى جذورها الضاربة في تربة الخوف من الآخر وكراهيته، وعلى ضروب ألفتها مع العنصرية⁽¹⁾، من المفيد أن نذكر أنفسنا بأن الأمم تُلهم الحب الذي غالبًا ما يكون حبًا عميقًا منطويًا على التضحية بالنفس. وتُظهر مُنتجات القومية الثقافية - من شعر ونثر قصصي وموسيقى وفنون تشكيلية - هذا الحب بوضوح شديد في آلاف الأشكال والأساليب. بالمقابل، فإنّه

(1) انظر المقطع الموجود في: Tom Nairn, *The Break-up of Britain* (London: New Left Books, 1977), pp. 14-15.

وقول هوبسباوم المنطوي على شيء من التبسيط: «الحقيقة الأساسية [هي] أن الماركسيين كماركسين ليسوا قوميين»، انظر: Eric Hobsbawm, «Some Reflections on 'The Break-up of Britain'», *New Left Review*, no. 105 (September-October 1977), p.10.

من النادر حقًا أن نجد منتجات قومية مماثلة تعبّر عن الخوف والنفور⁽²⁾. حتى في حالة الشعوب المستعمرة التي لديها مبرر فعلي لأن تشعر بالكراهية تجاه حكّامها الإمبرياليين، من المدهش أن نرى مدى الضالة التي يتّسم بها عنصر الكراهية في هذه الضروب من التعبير عن الشعور القومي. وها هنا، على سبيل المثال، المقاطع الأولى والأخيرة من قصيدة *Ultimo Adiós* <الوداع الأخير> المعروفة التي كتبها ريزال وهو ينتظر حكم الإعدام على أيدي الإمبريالية الإسبانية:

1- Adiós, Patria adorapa, region del sol querida

Perla del Mar de Oriente, nuestro perdido edén,

A darte voy, alegre, la triste vida;

Y fuera más brillante, más fresca, más florida,

También por ti la diera, la diera port u bien

12- Entonces nada importa me pongas en olvido

Tu atmósfera, tu espacio, tus valles cruzaré;

Vibrante y limpia nota sere par tu oído;

Aroma, luz, colores, rumor, canto, gemido,

Constante repitiendo la esencia de mi fe.

13- Mi Patria idolatrada, dolor de mis Dolores,

Querida Filipinas, oye el postrer adios.

(2) هل يمكن أن تخطر ببال القارئ مباشرة ثلاث من تراتيل الكراهية؟ إنّ المقطع الثاني من فليحفظ الله الملكة/الملك <النشيد الوطني الإنكليزي> مكتوب على ذلك النحو الدالّ: «اظهر، أيها الربّ إلّها/ شتّت أعداءها/ أعداءه/ اجعلهم يسقطون؛/ أنخر سياساتهم/ أخبط جيّلتهم الماكرة؛/ آمالنا معلقة عليك؛/ فليحفظنا الله جميعاً». لاحظوا أنّ هؤلاء الأعداء لا هوية لهم ويمكن أن يكونوا من الإنكليز كما يمكن أن يكونوا أيّ أحد آخر لأنهم أعداؤها/ أعداؤه وليسوا «أعداءنا». والنشيد برّمته تسبيحُ بحمد الملكيّة، وليس بحمد الأمة/ أيّ أمة، حيث لا تُذكر هذه الأخيرة قط.

Ahí, te dejo todo: mis padres, mis amores.

Voy donde no hay esclavos, verdugos ni opresores;

Donde la fe no mata, donde el que reina es Dios.

14- Adiós, padres y hermanos, trozos del alma mía,

Amigos de la infancia, en el perdido hogar;

Dad gracias, que descanso del fatigoso día;

Adiós, dulce extranjera, mi amiga, mi alegría;

Adiós, queridos seres. Morir es descansar.

1 - وداعًا، يا أرضي العزيزة، يا محبوبة الشمس،
يا لؤلؤة بحار الشرق، أيتها الفردوس المفقود!
سوف أهبك هذه الحياة، بكل سرور؛
ولو كانت أجمل، وأينع، وأكمل،
لكنني تخليت عنها كذلك، من أجل خيرك...

12 - ما الذي يعنيه إذا أن تنسني، ما دمتُ
قادرًا على استكشاف كل ملاذ عزيز من ملاذاتك؟
كوني نابضة ونقية، مثل نغمة؛
كوني عبيرًا، نورًا، نغمًا؛ كوني أغنية أو علامة، من جديد؛
وكرري، في ذلك كله، لحن إيماني.

13 - أيتها الأرض التي أقدسها، أضغي إلى وداعي الأخير!
أيتها الفيليبين، يا حبي، يا ألبي الأقسى من كل الآلام،
إنني أغادركم جميعاً، جميع من أحب أشد الحب،
لأمضي حيث لا عبيد ولا طغاة،
حيث الإيمان لا يقتل، والله فوق الجميع.

14 - وداعاً يا كل من تسعهم رuchi -
آه يا أهلي وأصدقائي في وطني المسكين؛
فلتشكروا أن أيام اضطهادي بلغت نهايتها؛
وداعاً، أيها الغريب الجميل، يا مسرتي وصديقي؛
وداعاً، يا أعزائي. الموت راحة⁽³⁾.

لاحظوا أن الأمر لا يقتصر على عدم ذكر ريزال جنسية «الطغاة»، بل يتعداه إلى أنه يعبر عن وطنيته المحمومة ذلك التعبير الرائع بـ «لغتهم»⁽⁴⁾.

يمكن أن نفكّ بعض الأسرار التي تنطوي عليها طبيعة هذا الحب السياسي من خلال الطرائق التي تصف بها اللغات موضوعها: إما باستخدام مفردات القرابة (الوطن الأم، patria، Vaterland) أو باستخدام مفردات الموطن (heimat، أو tanah air [الأرض والماء، هي العبارة التي تدلّ على أرخبيل الإندونيسيين الأصلي]). يشير هذان النوعان من المفردات إلى شيء يرتبط به

(3) Jaime de Veyra, *El 'Ultimo Adios' de Rizal: estudio critico-expositivo* (Manila: Bureau of Printing, 1946), pp. 29-90. and 101-102 (the translation).

(4) لكنها سرعان ما تُرجمت إلى لغة التاغالوغ بفضل الثوري الفيليبيني العظيم أندريس بونيفاشيو. وتوجد هذه الترجمة في: Veyra, pp. 107-109.

المرء ذلك الارتباط الطبيعي. وكما سبق أن رأينا، فإنَّ ثمة شيئاً لم يَجْر اختياره في كلِّ ما هو «طبيعي». وعلى هذا النحو، يكون الانتماء إلى أمة شيئاً ينطوي عليه لون الجلد ونوع الجنس والنَّسب وتاريخ الميلاد؛ أي كلِّ تلك الأشياء التي لا نملك من أمرها أيَّ شيء. ويحسُّ المرء في هذه «الروابط الطبيعية» ما يمكن أن ندعوه «جمال الـ *gemeinschaft*»^(*). بعبارة أخرى، ثمة هالة من النزاهة وغياب المصلحة تحيط بهذه الروابط، لأنَّها على وجه التحديد روابط غير مُختارة.

صحيحٌ أنَّه كُتب الكثير في العقدين الماضيين عن فكرة «العائلة بوصفها بنية تُفصح عن القوة»، لكن مثل هذا التصور غريب بلا شكَّ عن الأغلبية العظمى من الجنس البشري. الأخرى، أنَّه يُنظر إلى العائلة تقليدياً على أنَّها ميدان الحبِّ والتضامن النزيهين البعيدين عن المصلحة. وبالمثل، فإنَّه إذا ما كان المؤرِّخون والدبلوماسيون والسياسيون وعلماء الاجتماع على ألفة تامة بفكرة «المصلحة القومية»، فإنَّ الميزة الأساس للأمة بالنسبة إلى معظم البشر العاديين مهما تكن طبقاتهم هي أنَّها بعيدة عن المصلحة. ولهذا السبب على وجه التحديد، يمكن لها أن تطالب بالتضحيات.

سبق أن أشرنا إلى أنَّ استثنائية حروب هذا القرن الكبرى لا تكمن في المدى غير المسبوق الذي فتحتهُ أمام البشر كي يمارسوا القتل، بل في الأعداد الضخمة من البشر الذين كانوا مقتنعين بأن يضحّوا بحيواتهم. أليس مؤكّداً أن أعداد القتلى تفوق بصورة هائلة أعداد القتلة؟ لا تأتي فكرة التضحية القصوى إلا مصحوبة بفكرة الطهر، عبر الهلاك.

يفترض موتُ المرء في سبيل الوطن، وهو موت لا يختاره المرء في العادة، عَظَمَةً أخلاقية لا يمكن أن يبلغها الموت في سبيل حزب العمال، أو الجمعية الطبية الأميركية، أو حتى في سبيل منظمة العفو الدولية، لأنَّ هذه

(*) يشير مصطلح *gemeinschaft* إلى علاقة اجتماعية عضوية ناشئة عفويًا وتتسم بصلات متبادلة قوية من العاطفة والقرابة ضمن تقليد أو تراث معيّن، كما تشير إلى جماعة أو مجتمع يتسمان بهذه العلاقة. وهو يُفهم على نحو أفضل لدى مقارنته بمصطلح *gesellschaft* الذي يشير إلى نمط من العلاقة الاجتماعية المطوّرة على نحو عقلاني والتي تتسم بروابط بين الأشخاص تعاقدية وبعيدة عمّا هو شخصي، كما يشير إلى مجتمع أو جماعة يتسمان بهذه العلاقة. والاقتراح، هنا، هو ترجمة المصطلح الأول بـ «جماعة» والثاني بـ «مجتمع».

كلها كيانات يمكن للمرء أن ينضم إليها أو يغادرها بمشيئته. كذلك يستمدّ الموت في سبيل الثورة عَظَمَتَهُ من درجة الشعور بأنّها ذلك الشيء الطاهر في جوهره (إذا تخيّل البشر البروليتاريا على أنّها مجرد جماعة تلهث وراء الثلاجات أو العُطل أو السلطة، فما هو المدى الذي يمكن أن يبلغوه، بمن فيهم أفراد هذه الطبقة ذاتها، في استعدادهم لأن يموتوا في سبيلها؟)⁽⁵⁾. والمفارقة الساخرة أنّه بقدر ما تُحسّ التأويلات الماركسية للتاريخ (تُحسّ وليس يُفكّر بها) على أنّها تمثيلات لضرورة لا مفرّ منها، فإنّها قد تكتسب أيضًا هالة من الطُّهر والنزاهة.

ربما كان مفيدًا هنا أن نعود مرّة أخرى إلى اللغة. وما نلاحظه، أولًا، هو ما تتسم به اللغات من قِدَم، بما في ذلك تلك اللغات التي يُعرّف أنّها حديثة. ذلك أن أحدًا لا يستطيع أن يحدد تاريخ ولادة أيّ لغة من اللغات. وكلّ منها تبدو طالعة على نحو غامضٍ من ماضٍ بلا أفق (بقدر ما أن الإنسان العاقل هو إنسان ناطق، فإنّه يبدو من الصعب أن نتخيّل أصلًا للغة أحدث من النوع ذاته). هكذا تبدو اللغة على أنّها تضرب بجذورها أبعد من أيّ شيء آخر في المجتمعات المعاصرة. وفي الوقت ذاته، فإنّ ما من شيء يربطنا بالموتى عاطفيًا مثل اللغة. وحين يسمع الناطقون بالإنكليزية كلمات «Earth to earth, ashes to ashes dust to dust»^(*) - التي جرى إبداعها منذ أربعة قرون ونصف القرن - فإنهم يحسّون بتلك الحميمية الشبحيّة التي ينطوي عليها التزامن عبر الزمن الفارغ، المتجانس. ولا يُستمدّ ثقل هذه الكلمات من معناها المهيّب إلّا جزئيًا؛ فهو يأتي أيضًا عن «إنكليزية» هي «إنكليزية» الأسلاف.

ثمّة، ثانيًا، نوعٌ خاصٌّ من الجماعة المتعاصرة لا يشير إليها سوى اللغة وحدها، من خلال الشعر والأغاني قبل أيّ شيء آخر. خذوا، على سبيل المثال، ضروب النشيد الوطني التي تُشَدّ في المناسبات الوطنية.

(5) ينبغي لهذا الصوغ بأيّ حال من الأحوال ألا يؤخذ على أنّ الحركات الثورية لا تسعى وراء أهداف مادية. لكن هذه الأهداف لا يُنظر إليها كمجموعة من المكتسبات الفردية، بل على أنّها الشروط الضرورية لما يدعو إليه روسو من bonheur <سعادة> مشتركة.

(*) «من التراب وإلى التراب، من الرماد وإلى الرماد، من الغبار وإلى الغبار»، من كتاب الصلوات.

مهما كانت الكلمات مبتذلة والألحان تافهة، يظل هذا الإنشاد منظومًا على تجربة من التزامن. في مثل هذه اللحظات على وجه التحديد، يردّد أناس يجهلون بعضهم بعضًا كلّ الجهل الأبيات ذاتها باللحن ذاته. والصورة: توافق الأصوات على طبقة واحدة⁽⁶⁾. يوفّر إنشاد المارسيليز وفالسنگ ماتيلدا وإندونيسيا رايا(*) مناسبة لتوافق الأصوات على نغمة واحدة، لتحقيق الجماعة المتخيّلة ذلك التحقيق المادي الطنان (كذلك يفعل الإصغاء إلى تلاوة الشعر الطقسي الاحتفالي [وربما الترداد الصامت مع تلك التلاوة]، كأن نصغي إلى مقاطع من كتاب الصلوات). ويا لإيثار هذا التوافق في الأصوات وغيريته! فإذا ما كنّا ندرك أنّ الآخرين ينشدون هذه الأناشيد حين نشدها وكما نشدها تمامًا، فإنّه ليس لدينا أيّ فكرة عمّن هم، أو عن المكان الذي ينشدون فيه، أبعد من مرمى السمع. ولا شيء يربطنا جميعًا سوى الصوت المُتخيّل.

من ثمّ، فإنّ مثل هذه الجوقات تقبل الالتحاق بها على مرّ الوقت. إذا ما كنتُ ليتوانيًا، فإنّ ابنتي قد تكون أسترالية. وسوف يجد ابنُ إيطالي مهاجرٍ إلى نيويورك في الآباء الحجاج^(**) أسلافًا له. وإذا ما كان ثمّة هالة من القدريّة تحيط بالانتماء إلى قومية، فإنّ تلك القدريّة منغرسه في التاريخ. ومن الأمثلة على ذلك مرسوم سان مارتن الذي يقضي بتعميد الهنود الناطقين بلغة الكيتشوا كـ «بيروفيين»، وهي حركة تبدي ضروبًا من الألفة مع الهداية الدينية أو التحول الديني. يبيّن هذا المثال أنّ الأُمَّة قد جرى تصوّرها منذ البداية في اللغة، وليس في الدم، وأنّ المرء يمكن أن «يُدعى إلى» الجماعة المُتخيّلة.

(6) قارن هذه الجوقة الكورالية التي تنشد بلا آلات موسيقية بلغة الحياة اليومية التي عادةً ما تُختبَر على أنّها حوار وتبادل على طريقة الجوقة المنقسمة فريقين.

(*) المارسيليز (Marseillaise) هو النشيد الوطني الفرنسي، وفالسنگ ماتيلدا (Waltzing Matilda) أغنية شعبية أسترالية بالغة الشهرة لدرجة أنّه يُشار إليها على أنّها النشيد الوطني غير الرسمي لأستراليا، أما إندونيسيا رايا (Indonesia Raya) فهو النشيد الوطني الإندونيسي.

(**) يُطلَق اسم الآباء الحجاج (Pilgrim Fathers) على البيوريتانيين الإنكليز الذين قرّوا من إنكلترا لأسباب دينية، على متن السفينة مي فلاور، إلى هولندا أولاً ثم إلى أميركا الشمالية حيث أسسوا مستعمرة بلايموث في ماساشوستس في عام 1620 وعانوا كثيرًا إلى درجة أنّ قصتهم صارت موضوعًا أساسيًا في تاريخ الولايات المتحدة وثقافتها.

واليوم، أيضًا، تقبل حتى أشدّ الأمم انعزالًا مبدأ التجنيس (يا للكلمة الرائعة!)،
بصرف النظر عن المصاعب التي تضعها في وجه تطبيقه العملي.

وإذ تُرى الأمة على أنّها، في آنٍ معًا، قَدَرٌ تاريخي وجماعة متخيّلة عبر
اللغة، فإنّها تبرز بوصفها مفتوحة ومغلقة في الوقت ذاته. ومما يوضح هذه
المفارقة تلك الإيقاعات المتبدّلة في هذه الأبيات المعروفة <لشارلز وولف>
عن موت جون مور في معركة كورونا^{(7)(*)}:

1. Not a drum was heard, no, a funeral note,

As his corse to the rampart we hurried;

Not a soldier discharged his farewell shot

O'er the grave where our hero we buried.

2. We buried him darkly at dead of night,

The sods with our bayonets turning;

By the struggling moonbeam's misty light,

And the lantern dimly burning.

3. No useless coffin enclosed his breast,

Nor in sheet no, in shroud we wound him;

But he lay like a warrior taking his rest,

With his martial cloak around him...

Charles Wolfe, «The Burial of Sir John Moore,» in: *The Poems of Charles Wolfe* (London: (7)
Bullen, 1903), pp. 1-2.

(*) شارلز وولف (1791 - 1823) شاعر إيرلندي، عادةً ما يُذكر بسبب قصيدته المشار إليها
«تشيع السّرّ جون مور في كورونا». والسّرّ جون مور (1761 - 1809) هو عسكري إنكليزي برتبة
فريق، ويُعرف أيضًا باسم جون كورونا. اشتهرَ بما أدخله على التدريب العسكري من إصلاحات
وباستشهاده في معركة كورونا، 16 كانون الثاني/يناير 1809 التي هزم فيها الجيش الفرنسي بقيادة
المشير سول خلال حرب شبه الجزيرة الإيبيرية.

5. We thought, as we hollowed his narrow bed,
And smoothed down his lonely pillow,
That the foe and the stranger would tread o'er his head,
And we far away on the billow...

8. Slowly and sadly we laid him down,
From the field of his fame fresh and gory;
We carved no. a line, and we raised no. a stone-
But left him alone with his glory!

1 - لم يُسمع طَبْلٌ، ولا لحن جنائزي،
ونحن نسرع بجثمانه إلى الحصن؛
لم يطلق جنديٌّ طلقةً وداع
فوق القبر حيث دُفِنَ بطلنا.

2 - دفناه في جوف الليل البهيم،
حفرنا الأرض بحرابنا؛
في ضوء القمر الكابي،
والمصباح الخافت.

3 - لم يُغلق عليه نعشٌ عديم الغناء،
لم نلقه في ملاءةٍ أو كفن؛
بل استلقى مثل محارب يأخذ قسطه من الراحة،
وعبائه العسكرية قربته...

5 - خَطَرُ لَنَا، وَنَحْنُ نَحْفِرُ سَرِيرَهُ الضَّيِّقِ،

وَنَضَعُ وَسَادَتَهُ الْوَحِيدَةَ،

أَنَّ أَقْدَامَ الْعَدُوِّ وَالْغَرِيبِ قَدْ تَطَأَ عِنْدَ رَأْسِهِ

وَنَحْنُ بَعِيدُونَ نَرْكَبُ الْأَمْوَاجَ...

8 - بَيْطَاءٌ وَحَزْنٌ أَرْقَدْنَاهُ.

وَمَنْ حَقَلَ شَهْرَتَهُ النَّصِيرُ الْمَشِيرُ؛

لَمْ نَنْقُشْ سَطْرًا، أَوْ نَرْفَعُ حَجَرًا،

بَلْ تَرَكْنَاهُ وَحِيدًا مَعَ مَجْدِهِ.

تحتفي هذه الأبيات بواحدة من الذكريات البطولية بذلك الجمال الذي لا يمكن فصله عن اللغة الإنكليزية، فلا يمكن ترجمته، ولا يسمعه سوى الناطقين بها وقرائها، لكن كلاً من مور والشاعر الذي يندبه كانا إيرلنديين. وما من سبب يمنع حفيد «أعداء» مور الفرنسيين أو الإسبان من أن يلتقط تمامًا رنين القصيدة: فالإنكليزية، مثل أي لغة أخرى، متاحة دومًا لناطقين جدد، وسامعين جدد، وقراء جدد.

اسمعوا توماس براون^(*)، يلخص في جملتين تاريخ الإنسان بطوله وعرضه⁽⁸⁾:

(*) السَّرُّ توماس براون (1605 - 1682) كاتب إنكليزي ترك أعمالاً تعكس تبحره في حقول متنوعة من بينها الطب والدين والعلوم والفلك، كما تعكس فضولاً عميقاً حيال عالم الطبيعة، بتأثير من الثورة العلمية التي أحدثتها استقصاءات فرنسيس بيكون، في حين امتاز إيمانه المسيحي بتسامحه ومودته تجاه الإنسانية في حقبة لم تكد تعرف التسامح. أديب بارع، تعج أعماله بالإحالات إلى الكلاسيكيات ومصادر الكتاب المقدس وإلى شخصيته ذات الحساسية المفرطة. يتنوع أسلوبه الأدبي تبعاً للجنس الذي يكتب فيه، ما يضيف غنى على نثره المتميز. ومع أنه غالباً ما يوصف بالسوداوي، فإن كتاباته تتميز أيضاً بالظرف والفكاهة المرهفة.

Thomas Browne, *Hydriotaphia, Urne-Buriall, or A Discourse of the Sepulchral Urnes* (8)

Even the old ambitions had the advantage of ours, in the attempts of their vainglories, who acting early and before the probable Meridian of time, have by this time found great accomplishment of their designs, whereby the ancient Heroes have already out-lasted their Monuments, and Mechanical preservations. But in this latter scene of time we cannot expect such Mummies unto our memories, when ambition may fear the Prophecy of Elias, and Charles the Fifth can never hope to live within two Methusela's of Hector.

«حتى المطامح القديمة كانت لها مزية مطامحنا، في تجريب ضروب صلفها، التي بگرت إلى العمل قبل هاجرة الزمن المتوقعة، وحققت في حينها منجزات عظيمة هي التي صممتها، أطال من خلالها الأبطال القدماء أعمار نُصُبهم، ومحفوظاتهم الميكانيكية. غير أنه لا يسعنا في هذا المشهد الحالي من مشاهد الزمن أن نتوقع وجود مثل هذه المومياوات بين تذكاراتنا، إذ يمكن للطموح أن يخشى نبوءة إلياس، ولا يمكن قطّ لتشارلز الخامس أن يأمل بأن يعيش ذكره كما عاش ذكر هيكتور ضعف سنّي متوشالch»^(*).

ها هنا تُجمّع مصر القديمة واليونان ويهودا مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة، لكن جَمَعَهُم عبر آلاف السنين وآلاف الأميال يتمّ ضمن خصوصية نشر براون الإنكليزي في القرن السابع عشر⁽⁹⁾. ومن الممكن ترجمة هذا

lately found in Norfolk (London: Noel Douglas Replicas, 1927), pp. 72-73.

وفي شأن «the probable Meridian of time»، قارن مع الأسقف أوتو الفريسنغي.
(*) هاجرة الزمن هي حوالي عام 1000م، منتصف تاريخ العالم. وما تنبأ به إلياس هو أن العالم لن يدوم أكثر من ستة آلاف عام، من 4000 ق. م إلى 2000م. أمّا الجملة الأخيرة فتعني أنّ شهرة هكتور دامت ضعف عمر متوشالch الذي يشير الكتاب المقدس إلى أنه بلغ من العمر ما لم يبلغه أي إنسان على وجه الأرض، 969 سنة؛ أمّا شهرة تشارلز الخامس (الذي ولد في عام 1500) فلا يمكن أن تمتد لأكثر من حوالي 500 عام قبل أن تحلّ نهاية العالم.
(9) ومع ذلك، فإنّ «إنكلترا» لا تُذكر في هذا الجَمْع. وهذا يذكّرنا بتلك الصحف المحلية التي جلبت العالم كله، عبر اللغة الإسبانية، إلى كاراكاس وبوغوتا.

المقطع، بالطبع، إلى حدٍّ ما، غير أنَّ الروعة المهولة في «Probable Meridian of time»، و«Mechanical preservations»، و«Such Mummies unto our memories»، و«two Methusela's of Hector» لا يمكن أن تقشعر لها سوى أبدان قراء الإنكليزية.

إنَّها روعة مهولة تفتح على مداها لقارئ الإنكليزية، هنا في هذه الصفحة. أمَّا الروعة التي لا تقلُّ هولاً في الأسطر الأخيرة من «Yang Sudah Hilang»⁽¹⁰⁾ للكاتب الإندونيسي العظيم برامويديا أنانتا توير^(*)، والتي توجد مطبوعة هنا أيضاً، فغالباً ما تكون مستغلقة على قارئ الإنكليزية ذاك⁽¹¹⁾:

Suara itu hanya terdengar beberapa detik saja dalam hidup. Getarannya sebentar berdengung, takkan terulangi lagi. Tapi seperti juga halnya dengan kali Lusi yang abadi menggarisi kota Blora, dan seperti kali itu juga, suara yang tersimpan menggarisi kenangan dan ingatan itu mengalir juga – mengalir kemuaranya, elaut yang tak bertepe. Dan tak seorangpun tahu kapan laut itu akan kering dan berhenti berdeburan.

Hilang.

Semua itu sudah hilang dari jangkauan panc[h]a- indera.

إذا ما كانت كلُّ لغة قابلةً للاكتساب، فإنَّ اكتسابها يستغرق جزءاً مهماً من حياة الشخص: وكلُّ فتح جديد يُقاس قبالة العمر القصير. وما يحدُّ من نفاذ المرء إلى اللغات الأخرى ليس كتامتها بل كونه من الفانين. ومن هنا

Pramoedya Ananta Toer, *Tjerita dari Blora* (Jakarta: Balai Pustaka, 1952), pp. 15-44, at (10) p. 44.

(*) برامويديا أنانتا توير (1925 – 2006) روائي وقاصّ ومقاليّ ومساجل ومدوّن لتواريخ بلده إندونيسيا وشعبه. تمتد أعماله من الحقبة الاستعمارية، مروراً بكفاح إندونيسيا من أجل الاستقلال، واحتلال اليابان لها خلال الحرب العالمية الثانية، وصولاً إلى عهد نظامي سوهارنو وسوهارتو السلطويين، وهي مفعمة بالتاريخ الشخصي والقومي.

(11) مع ذلك، أصغوا إلى هذه الكلمات! لقد عدّلت التهجئة الأصلية بحيث تتماشى مع العرف الحالي وكي أجعل المقبوس برمته مسألة صوتية.

ذلك القدر من الخصوصية الذي تتمتع به كل لغة من اللغات. كان الإمبرياليون الفرنسيون والأميريكيون قد حكموا الفيتناميين واستغلّوهم وقتلوهم على مدى سنوات طويلة. لكنه مهما كان ما ولّوا به الأدبار، فإن اللغة الفيتنامية بقيت. ومن هنا ذلك الحق الذي غالبًا ما نجده على «استغلاق» اللغة الفيتنامية، وذلك اليأس الغامض الذي يولد تلك الرطانات الحقودة التي ترطن بها الكولونيات المحتضرة: «ratons»، «gooks»^(*)... الخ⁽¹²⁾ (ما من ردّ في النهاية على الخصوصية الهائلة التي تتسم بها لغة المستعمر سوى الانسحاب أو المزيد من المذابح).

مثل هذه النعوت هي، في تكوينها الضمني، نعوتٌ عنصرية مميزة، ويفيد فكّ مغاليق هذا التكوين في الكشف عمّا يجعل نايرن مخطئًا أصلاً في رؤيته أنّ العنصرية ومعاداة السامية تُستمدّان من القومية، وفي قوله إنّ «الفاشية، حين يُنظر إليها بعمقٍ تاريخيٍّ كافٍ، تخبرنا عن القومية أكثر مما تخبرنا عن أيّ حادث آخر»⁽¹³⁾. وعلى سبيل المثال، فإنّ كلمة مثل «slant» <مائلة>، المختصرة من العبارة «slant-eyed» <أصحاب العيون المائلة>، لا تقتصر على التعبير عن عداوة سياسية عادية، بل تتعدّى ذلك إلى محوها الانتماء إلى أمة بردها الخصم إلى قسمات وجهه البيولوجية⁽¹⁴⁾. فهي تُنكر «الفيتنامي» بحلولها محلّ كلمة «فيتنامي»؛ شأنها شأن «raton» التي تنكر «الجزائري» بحلولها محلّ كلمة «جزائري». وهي تعمل، في الوقت ذاته، على وضع «الفيتنامي» في خليط لا اسم له إلى جانب «الكوري» و«الصيني»، و«الفيليبيني»... وهلمجرًا. ولعل طابع هذا المعجم من المفردات يزداد

(*) «gooks» كلمة مهينة أشدّ الإهانة كان الأميركيون يطلقونها على أبناء الشرق الأقصى، خصوصًا الفيتناميين، وتعني الوسخ والقذارة، و«ratons» كلمة مهينة مثلها كان الفرنسيون يطلقونها على أبناء شمال أفريقيا، خصوصًا الجزائريين، وتعني فتران.

(12) المنطق الذي يقف خلف مثل هذه الرطانات هو على النحو التالي: 1 - سوف أموت قبل أن يُتاح لي اختراق لغتهم. 2 - إنني أملك من القوة ما يجبرهم على أن يتعلموا لغتي. 3 - لكن ذلك يعني اختراق خصوصيتي. ونعتهم بأنهم «gooks» هو مجرد ثأر بسيط.

Nairn, pp. 337 and 347.

(13)

(14) لاحظوا أنه ما من مقابل واضح وواع لكلمة «مائل». فهل تشكّل كلمة «مدور» مثل هذا المقابل؟ أم أنها «مستقيم»؟ أم «بيضوي»؟

وضوحًا عندما نضعه إزاء كلمات أخرى من فترة الحرب الفيتنامية مثل «Charlie» و«V.C»، أو من حقبة أسبق، مثل «Boches»، و«Huns»، و«Japs» و«Frogs»^(*)، لا تُطلق كلها إلا على جنسية واحدة بعينها، وبذلك تسلّم، عبر الكراهية، بانتفاء الخصم إلى عصبية أمم ما⁽¹⁵⁾.

حقيقة الأمر أنّ القومية تفكّر بلغة المصائر التاريخية، في حين تحلم العنصرية بضروب من التلوّث أبدية، تُتَنَاقَل منذ أوائل الزمن عبر سلسلة لا نهاية لها من التسافدات المقيّنة: خارج التاريخ. الزوج زواج إلى الأبد، بفضل فرشاة القار الخفيّة؛ واليهود، ذرية أبراهام، يهود إلى الأبد، بصرف النظر عن جوازات السفر التي يحملونها أو اللغات التي ينطقونها ويقرأونها (هكذا كان الألماني اليهودي، بالنسبة إلى النازي، أفكًا على الدوام)⁽¹⁶⁾.

والحال، إنّ أصل الأحلام العنصرية هو في أيديولوجيات الطبقة، لا في أيديولوجيات الأمة: خصوصًا في مزاعم الألوهة بين الحكّام ومزاعم النّسل والدم «الأزرقين» أو «الأبيضين» بين الأرستقراطيات⁽¹⁷⁾. فلا عجب إذا أنّ أبا

(*) Charlie و V.C، لفظتان تنطويان على إهانة كان يُشار بهما إلى الفيتكونغ. والـ Boches، لفظة مهينة يشير بها الفرنسيون إلى الألمان. والـ Huns، هي أيضًا لفظة تُستخدم كإهانة للألمان، خصوصًا بعد الحرب العالمية الأولى، وهي مستمدّة من الهان، وهم شعب بدوي رعوي غزا أوروبا في القرنين الرابع والخامس. أما الـ Japs، فلفظة تُستخدم كإهانة لليابانيين، في حين تُستخدم الـ Frogs لإهانة الفرنسيين.

(15) في الحقيقة، ليس في حقبة أسبق فحسب. ثمة نفحة من دكان الأنثيكات تصدر عمّا يقوله ريجيس دوبريه: «لا يسعني أن أتصوّر أيّ أمل لأوروبا إنّ لم يكن تحت هيمنة فرنسا الثورية التي تمسك راية الاستقلال بقوة. إنني لأتساءل في بعض الأحيان إنّ لم تكن الأسطورة «المناهضة للـ Boche» وعداؤنا العلماني لألمانيا سيغدوان ذات يوم لا غنى عنهما لإنقاذ الثورة، أو حتى لإنقاذ إرثنا الديمقراطي - القومي». انظر: Regis Debray, «Marxism and the National Question», *New Left Review*, no. 105 (September-October 1977), p. 41.

(16) تكمن أهمية ظهور الصهيونية وولادة إسرائيل في أنّ الأولى تسمّ إعادة تخيل جماعة دينية قومية بوصفها أمة، لها وجودها بين الأمم الأخرى، في حين تشير الثانية إلى تغيّر خيميائي من المؤمن التائه إلى الوطني المقيم.

(17) «من طرف أرستقراطية الأرض جاءت تصورات التفوق الموروث لدى الطبقة الحاكمة، وحساسية المنزلة، وهي سمات ظلّت بارزة وصولًا إلى فترة متقدمة من القرن العشرين. وباغتذاء هذه التصورات من منابع جديدة، أمكن لها لاحقًا أن تغدو أشدّ سوقيّة وأن تروق للشعب الألماني ككل متمثلةً في عقائد التفوق العرقي». انظر: Barrington Moore, *Social Origins of Dictatorship and Democracy*. Lord and Peasant in the Making of the Modern World (Boston: Beacon Press, 1966), p. 436.

العنصرية الحديثة المفترض لم يكن قومياً من البرجوازية الصغيرة، بل جوزيف آرثر، كونت دي غوبينو⁽¹⁸⁾، وأن العنصرية ومعاداة السامية، بوجه عام، لا تتجلى عبر الحدود القومية، بل ضمنها. وبعبارة أخرى، فإنهما لا تبرران الحروب الخارجية بل القمع والسيطرة الداخليين⁽¹⁹⁾.

حيثما تطورت العنصرية خارج أوروبا في القرن التاسع عشر، كانت مقترنة على الدوام بالسيطرة الأوروبية، وذلك لسببين اثنين متقاربين: أولهما وأهمهما كان نشوء القومية الرسمية و«الرؤسنة» الكولونيالية. ذلك أن القومية الرسمية، كما سبق أن ألاحظنا مراراً، كانت في العادة ردّاً من طرف الجماعات الملكية السلالية والأرستقراطية المهدّدة - أي من طرف الطبقات العليا - على القومية الشعبية نصيرة اللغة المحلية. وكانت العنصرية الكولونيالية واحداً من العناصر الكبرى في ذلك التصوّر لـ «إمبراطورية» حاولت أن تجمع بين الشرعية السلالية والجماعة القومية. وفعلت ذلك بتعميم مبدأ التفوق الفطري الموروث الذي كان يركز عليه وضعها الداخلي الخاص (مهما كان هذا الارتكاز مزعزعا)، على مناطق شاسعة من الممتلكات وراء البحار، وهو ما نشر على نحو خفيّ (أو ليس خفياً إلى هذا الحدّ) الفكرة التي مفادها أنّه إذا ما كان اللوردات الإنكليز، مثلاً، متفوقين بصورة طبيعية على بقية الإنكليز، فذلك ليس مهماً: بقية الإنكليز هؤلاء لا يقلّون تفوقاً على أهل البلد المستعمر الخاضعين. بل إنّ ثمة إغراء يدفع المرء إلى القول إنّ وجود الإمبراطوريات الكولونيالية عمل على تدعيم معاقل الأرستقراطية الداخلية، إذ بدت كأنّها تثبت على نطاق عالمي وحديث تلك التصورات القديمة عن السلطة والامتياز.

(18) لتواريخ غوبينو دلالتها الكاملة. إذ وُلِدَ في عام 1816، بعد عامين من عودة البوربون إلى عرش فرنسا. وبرز في مهنته الدبلوماسية بين عامي 1848 و 1877، في ظلّ إمبراطورية لوي نابليون الثانية ونظام ماري إدمي باتريس مورييس، كونت دي مكماهون، القنصل الإمبريالي السابق في الجزائر، ذلك النظام الملكي الرجعي. أمّا كتابه مقالة في تفاوت الأعراق البشرية فظهر في عام 1854: هل يُفترض بنا أن نقول إنّ ذلك كان ردّاً على ثورات 1848 القومية الشعبية المناصرة للغة المحلية؟

(19) لم تقف عنصرية جنوب إفريقيا، في عصر فورستر وبوتا، في طريق العلاقات الودية مع السياسيين السود البارزين في بعض الدول الإفريقية المستقلة (مهما يكن الحذر في تلك العلاقات). وإذا ما كان اليهود قد عانوا التمييز في الاتحاد السوفياتي، فإن ذلك لم يحل دون قيام علاقات فاعلة محترمة بين بريجنيف وكيسنجر.

استطاعت الإمبراطوريات الكولونيالية أن تفعل ذلك بشيء من النجاح لأنها، بجهازها البيروقراطي المتوسّع بسرعة وسياساتها في «الرؤسنة»، أتاحت لأعداد كبيرة من البرجوازيين والبرجوازيين الصغار - وهنا سببنا الثاني - أن تؤدي دور الأرستقراطي خارج الملعب الأساسي: أي في كلّ مكان من الإمبراطورية ما عدا الوطن الأم. ويجد المرء في كلّ مستعمرة هذه اللوحة الحيّة(*) غير المسلية: السيّد البرجوازي يلهج بالشعر ووراءه خلفية من القصور الفسيحة والحدائق الممتلئة بأشجار السنط والجهنمية، وفريق ضخّم من الخدم وساسة الخيل والجناينية والطهارة والمربيات والخادّات والغسّالات، وقبل كلّ شيء الخيول⁽²⁰⁾. حتى أولئك الذين لم يتدبّروا أمر العيش على هذا النحو، مثل العزّاب الشباب، كانت لهم مع ذلك تلك المكانة الملتبسة إلى أبعد حدّ التي كان يتمتع بها نبيل فرنسي عشية ثورة من ثورات الفلاحين:

«في مولمين، في بورما السفلى [وهذه البلدة الغامضة تحتاج إلى شرح بالنسبة إلى القراء في المتروبول]، كنتُ مكروهاً لدى أعداد كبيرة من البشر؛ وكانت تلك هي المرّة الوحيدة في حياتي التي كنت فيها مهمّاً بما يكفي لأن يحصل لي ذلك. كنت الضابط المسؤول عن قسم الشرطة في البلدة»⁽²¹⁾.

ما جعل هذه «القوطية المدارية» ممكنة هو تلك القوة الساحقة التي منحتها الرأسمالية المتطورة للمتروبول؛ وهي قوة بلغت من العظمة حدّاً أبداً وراء الكواليس، إذا جاز القول. وأفضل مثال على ظهور الرأسمالية في زيّ إقطاعي - أرستقراطي هو الجيوش الكولونيالية التي كانت تتميز عن جيوش المتروبول ذلك التميّز سيئ الصيت الذي غالباً ما كان يظهر حتى على الصُعد

(*) اللوحة الحيّة (Tableau vivant) تعبير يشير إلى مشهد يقدّمه على الخشبة ممثلون يرتدون الأزياء الملائمة لكنهم يقفون صامتين وبلا حراك كما لو أنهم في لوحة أو صورة.

(20) يمكن للقارئ أن يجد مجموعة مدهشة من صور مثل هذه اللوحات الحيّة في جزر الهند

الهولندية (مع نصّ ساخر تلك السخرية الأنيقة) في: E. Breton de Nijs, *Tempo Doeloe* (Amsterdam: Querido, 1973).

George Orwell: «Shooting an Elephant» in: *The Orwell Reader* (New York: Harcourt- (21)

Brace-Jovanovich, 1956), p. 3.

ما بين قوسين مربعين هو من إضافتي بالطبع.

المؤسسية الشكلية⁽²²⁾. هكذا كنا نجد في أوروبا «الجيش الأول» الذي يتم جمعه عبر تجنيد المواطنين في المتروبول ذلك التجنيد الواسع؛ ويتم تصوّره أيديولوجيًا على أنه المدافع عن الوطن (Heimat)؛ ويرتدي أفراده الخاكي العملي، الذي يُراد لنفعه وليس لجماله أو أناقته؛ ويُسلّح بأحدث الأسلحة المتوافرة؛ ويُعزّل أيام السلم في ثكنات، ويُنزّل أيام الحرب في الخنادق أو خلف مدفعيات الميدان الثقيلة. أمّا خارج أوروبا فكان ثمة «الجيش الثاني» الذي يُجمّع (تحت مستوى الضباط) من الأقليات الدينية أو الإثنية المحلية كي يعملوا مرتزقة؛ ويتم تصوّره أيديولوجيًا كقوة شرطة داخلية؛ ويكون متأهبًا للقتل في السرير أو قاعة الرقص؛ ويُسلّح بالسيوف وسواها من الأسلحة المصنوعة المُنسّقة؛ ويظهر في الأماكن العامة أيام السلم، وعلى ظهور الخيل أيام الحرب. وإذا ما كانت هيئة الأركان العامة البروسية، وهي المعلم العسكري لأوروبا كلها، تركّز على التضامن الغفل بين مختلف الفرق المتخصصة، من مدفعية وسكك حديد وهندسة وتخطيط استراتيجي وما شابه، فإنّ الجيش الكولونيالي يركّز على المجد والكثافات والبطولة الفردية ولعبة البولو^(*)، والتملّق بين ضباطه (أمّا قدرته على فعل ذلك فتأتي من أنّ الجيش الأول والبحرية موجودان في الخلفية). وظلّت هذه العقلية على قيد الحياة لفترة طويلة من الزمن. وكتب ليوتي في تونكين في عام 1894⁽²³⁾:

Quel dommage de n'être pas venu ici dix ans plus tôt! Quelles carrières à y fonder et à y mener. Il n'y a pas ici un de ces petites lieutenants, chefs de poste et de reconnaissance, qui ne développe en 6 mois plus d'initiative, de volonté, d'endurance, de *personnalité*, qu'un officier de France en toute sa carrière.

(22) كان الـ KNIL (Koninklijk Nederlandsch-Indisch Leger)، أو الجيش الملكي الهولندي في جزر الهند الشرقية، منفصلاً تمامًا عن الـ KL (Leger Koninklijk)، الجيش الملكي الهولندي، في هولندا. ومنذ البداية تقريبًا، كان الـ Légion Étrangère، الفيلق الأجنبي الفرنسي، ممنوعًا قانونيًا من القيام بعمليات على الأرض الفرنسية في قارة أوروبا.

(*) البولو: لعبة رياضية شبيهة بالهوكي تمارس على متون الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية.

(23) التشديد لي: Louis-Hubert-Gonzalve Lyautey, *Lettres du Tonkin et de Madagascar* (1894-1899) (Paris: Librairie Armand Colin, 1946), p. 84, Letter of 22 December 1894, from Hanoi.

«ألا ليتك جئت إلى هنا قبل عشر سنين! يا للدروب التي كنت ستشقّها وتسلكها. ما من واحد هنا من هؤلاء الضباط الصغار، ورؤساء مكاتب الاستطلاع، إلا ويُظهِر من المبادرة والعزيمة والتحمّل وقوة الشخصية، في ستة شهور، ما يظهره ضابط فرنسي طول فترة خدمته».

في تونكين، في عام 1951 نجد أنّ جان دو لاتر دو تاسيني(*) «الذي كان يروقه الضباط الذين يجمعون بين الشجاعة و«الأناقة»، راقه على الفور الفارس الأنيق [الكولونيل دو كاستري]**] بقبّعته السباهية ووشاحه الأحمرين الزاهيين وسوطه الرائع وجَمْعِهِ بين التساهل في السلوك ومظهر الدوق، ما جعله ذلك الشخص الذي لا يُقاوَم بالنسبة إلى النساء في إندونيسيا في خمسينيات القرن العشرين كما كان بالنسبة إلى الباريسيات في ثلاثينيات القرن العشرين»⁽²⁴⁾.

(*) جان دو لاتر دو تاسيني (1889 - 1952)، ضابط فرنسي ومارشال فرنسا بعد وفاته. غداً واحداً من الشخصيات العسكرية البارزة في القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ديغول خلال الحرب العالمية الثانية. أحرز نجاحاً لافتاً كقائد في الحرب الهندو الصينية الأولى.

(**) الكولونيل كريستيان دو لا كروا دو كاستري (1902 - 1991) قائد فرنسي في معركة ديان بيان فو في عام 1954.

Bernard B. Fall, *Hell is a Very Small Place. The Siege of Dien Bien Phu* (New York: (24) Vintage, 1968), p. 56.

يمكن للمرء أن يتخيّل شبح كلاوسفيتز وهو يرتجف. [السباهي كلمة عثمانية الأصل كانت تعني فرسان «الجيش الثاني» من المرتزقة غير النظاميين في الجزائر]. صحيح أنّ فرنسا ليوتي ودو لاتر كانت فرنسا جمهورية. إلا أنّ الـ Grande Muette (البكماء الكبرى) > في بداية الجمهورية الفرنسية الثالثة، لم يكن للمواطنين في أثناء خدمتهم العسكرية ولا للضباط حق التصويت بسبب انعدام ثقة الجمهوريين بالجيش، ومن هنا لقب «البكماء الكبرى» > الثرثرة في الأغلب كانت منذ بداية الجمهورية الثالثة مأوى الأرستقراطيين الذين كانوا يُقصون عن السلطة على نحو متزايد في مؤسسات الحياة العامة المهمة الأخرى كلها. وفي عام 1898 كان ربع العمداء والألوية من الأرستقراطيين. بل إنّ سلك الضباط هذا الذي سيطر عليه الأرستقراطيون كان حاسماً بالنسبة إلى الإمبريالية الفرنسية في القرنين التاسع عشر والعشرين. «إنّ السيطرة الحازمة المفروضة على الجيش في المتروبول لم تمتدّ قط ذلك الامتداد الكامل لتطال فرنسا ما وراء البحار. ويعود جزء من توسّع الإمبراطورية الفرنسية في القرن التاسع عشر إلى مبادرة منفلة قام بها القادة العسكريون في المستعمرات. فغرب أفريقيا الفرنسي هو إلى حدّ بعيد من صنع الجنرال فيديرب، وتدين الكونغو الفرنسية بقسط كبير من امتدادها إلى الغزوات العسكرية المستقلة =

من المؤشرات الموحية الأخرى على أصل العنصرية الكولونiale الأرسقراطى أو الأرسقراطى الزائف ذلك «التضامن بين البىض» الذى عادةً ما كان يربط بين الحكام الكولونىالىن من متروبولات قومىة مختلفة، بصرف النظر عن ضروب التنافس والصراع فى ما بينهم. هذا التضامن، بطابعه اللافت العابر للدول، يذكر مباشرةً بالتضامن الطبقي بين أرسقراطىى أوروبا فى القرن التاسع عشر، عبّر مشاركة واحداهم الآخر مواسم الصيد والمنتجعات وقاعات الرقص؛ كما يذكر بالأخوة بين «الضباط والسادة» التى عبّر عنها فى القرن العشرين ما ضمته اتفاقية جنيف من أن يلقى ضباط العدو الأسرى معاملة مميزة، بخلاف الأنصار أو المدنيين.

يمكن لنا أن نتابع نقاشنا الذى أجريناه إلى الآن من طرف الشعوب المستعمرة هذه المرة. فمن اللافت، بصرف النظر عن آراء بعض الأيدىولوجيين الكولونىالىن، أن ذلك الكيان المشبوه الذى يُعرف باسم «العنصرية المعكوسة» كان محدودًا جدًا فى الحركات المناهضة للاستعمار. من السهل أن نخدعنا اللغة على هذا الصعيد. وعلى سبيل المثال، فإن كلمة لوندو الجاوىة (المشتقة من هولندى أو نيدرلاندى) لم تكن تقتصر فى معناها على «الهولنديين» بل تشير إلى «البىض» عمومًا. لكن الاشتقاق ذاته يبيّن أن المعنيين كانا متداخلين بالفعل، بالنسبة إلى الفلاحين الجاويين الذين نادرًا ما صادفوا أى «بىض» سوى الهولنديين. وبالمثل، فإن «les blancs» فى المستعمرات الفرنسية، كانت تعنى الحكام الذين لم يكن من الممكن التمييز بين فرنسيّتهم وبياضهم. وبقدر ما أعلم، فإن لوندو أو blanc لم تكونا منظويتين على تقليل الاحترام والخطّ من الشأن⁽²⁵⁾.

= التى كانت تستهدف الداخل. وضباط الجيش هم المسؤولون أيضًا عن سياسات الأمر الواقع التى أدت إلى جعل تاهيتى محمية فرنسية فى عام 1842، كما أدت، بدرجة أقل، إلى احتلال فرنسا تونكين فى الهند الصينية فى ثمانينيات القرن التاسع عشر... وفى عام 1897 ألغى غالىنى الملكية فى مدغشقر دونما إبطاء وقام بترحيل الملكة، كلّ ذلك من دون أن يستشير الحكومة الفرنسية التى قبلت لاحقًا هذا الأمر الواقع...». انظر: John Steward Ambler, *The French Army in Politics, 1945-1962* (Columbus: Ohio State University Press, 1966), pp. 10-11 and 22.

(25) لم أسمع قطّ بأى كلمة بذئّة تشير إلى «الهولنديين» أو «البىض» سواء فى الإندونيسية أو الجاوىة، بخلاف ذلك الكثر من الكلمات الأنكلوساكسونية البذئّة: niggers > لإهانة الزوج، wops > لإهانة الإيطاليين، kikes > لإهانة اليهود، gooks, slants, fuzzywuzzies > لإهانة السودانيين والزوج عمومًا، ومثات غيرها. ولعلّ هذا الخلوّ من الرطانات العنصرية يصحّ بالدرجة الأولى على الشعوب =

على العكس، فإنَّ روح القومية المناهضة للكولونيلية هي روح دستور جمهورية كاتاغالوغان (1902) الذي يفطر القلوب، جمهورية ماكاريو ساكاي قصيرة الأجل الذي نصَّ من بين أشياء أخرى، على أنَّه:

«لن يرفع أيُّ تاغالوغي، وُلِدَ في هذا الأرخبيل التاغالوغي، أيَّ شخصٍ فوق البقية بسببٍ من عرقه أو لون بشرته؛ فالأشقر والأسمر والغني والفقير والمتعلِّم والجاهل متساوون تمامًا جميعهم، ويجب أن يكونوا قلبًا واحدًا. وقد تكون هنالك فروق في التعليم أو الثروة أو المظهر، لكنه ما من فروق قطَّ في الطبيعة الجوهرية والقدرة على العمل من أجل قضية⁽²⁶⁾».

لا يصعب على المرء أن يجد أشياء مشابهة في الطرف الآخر من العالم. المكسيكيون المولِّدون الذين يتكلمون الإسبانية يردُّون نسبهم، ليس إلى الفاتحين القشتاليين، بل إلى الأزتيك والمايا والتولتيك والزابوتيك الذين يكادون أن يكونوا قد طُمِسوا. أمَّا الوطنيون الثوريون في الأورغواي، وهم أنفسهم من الكريول، فاتَّخذوا اسم توباك أمارو، آخر الثوار المحليين العظماء ضد الاضطهاد الكريولي، الذي مات تحت تعذيب لا يُوصَف في عام 1781.

قد يبدو منطويًا على تناقض ومفارقة أن تكون الأشياء التي تشير إليها هذه الارتباطات كلها أشياء «مُتخيَّلة»: الأخوة التاغالوغ الغُفل الذين لا ملامح لهم، أو القبائل المُبادَّة، أو روسيا الأم، أو الـ tanah air (البلد الأم، كما يُدعى في إندونيسيا وماليزيا). لكن حبَّ الوطن لا يختلف بهذا الصدد عن العواطف الأخرى التي لا تخلو من عنصر التخيل الشغوف (وهذا هو السبب في أنَّ النظر إلى ألبومات الصور الخاصة بزفاف أشخاص غرباء هو أشبه بدراسة

= المستعمرة. أما السود في أميركا - وفي غير مكان من دون شك - فقد طوروا معجمًا مضافًا متنوعًا honkies, ofays > كلتاهما تُستخدمان في إهانة البيض <... إلخ).

(26) ورد هذا في: Reynaldo Clemena Iletto, *Pasyon and Revolution: Popular Movements in the*

Philippines, 1840-1910 (Manila: Ateneo Press, 1979), p. 218.

دامت جمهورية ساكاي الثورية حتى عام 1907، حين أسره الأميركيون وأعدموه. وكفي نفهم الجملة الأولى يجب أن نتذكَّر أنَّ ثلاثة قرون من الحكم الإسباني والهجرة الصينية كانت قد أنتجت شعبًا مختلطًا ضخمًا في تلك الجزر.

مخطط يضعه عالم آثار للدور الأرضي من حدائق بابل المعلقة). العين بالنسبة إلى العاشق، تلك العين العادية، المحددة التي وُلِدَ بها أو وُلِدَت بها، هي كاللغة بالنسبة إلى الوطني، مهما تكن اللغة التي جعلها التاريخ لغته أو لغتها الأم. عبّر تلك اللغة التي يصادفها عند ركبة أمّه ولا يفارقها إلا إلى القبر، تتم استعادة الماضي، ويجري تخيل الألفة والزمالة، ويُحَلَم بالمستقبل.

ملك التاريخ

بدأنا هذه الدراسة الموجزة بالحروب الأخيرة بين جمهورية فيتنام الاشتراكية وكمبوديا الديمقراطية وجمهورية الصين الشعبية؛ ومن الملائم تمامًا، إذًا، أن نعود في النهاية إلى نقطة الانطلاق تلك. فهل يساعد أي شيء مما قلناه إلى الآن في تعميق فهمنا اندلاع تلك الحروب؟

صدر عن توم نايرن في كتابه تفكك بريطانيا ما هو قيم في شأن العلاقة بين المنظومة السياسية البريطانية ومنظومات بقية العالم الحديث:

«وحدها [المنظومة البريطانية]، بخلاف سواها، مثلت ذلك «النمو التقليدي، البطيء الذي كان نتاج اختراع مدروس ناجم عن نظرية». أمّا تلك الأخرى التي جاءت لاحقًا فـ «حاولت أن تستخلص بضربة واحدة تلك الثمار التي أسفرت عنها تجربة دولة طوّرت مؤسساتها على مدى قرون عدّة»... ولأنّ التجربة الإنكليزية - البريطانية لاحقًا - كانت الأولى، فقد ظلّت مميّزة. ولأنّ المجتمعات البرجوازية اللاحقة أتت ثانيًا، إلى عالم كانت الثورة الإنكليزية قد نجحت فيه وامتدّت، فإنّه ما كان بمقدورها أن تكرر هذا التطور الباكر. لقد ولّدت دراستها ومحاكاتها شيئًا مختلفًا جوهريًا: ذلك المذهب الحديث حقًا، مذهب الدولة المجرّدة أو «البعيدة عمّا هو شخصي»، التي أمكنت محاكاتها في التاريخ اللاحق بسبب طبيعتها المجرّدة.

قد يُنظر إلى هذا بالطبع على أنّه المنطق العادي الذي يحكم سيرورات التطور. وهو عيّنة باكرة على ما تمّ تعظيم شأنه لاحقًا

بالقَاب مثل «قانون التطور المشترك واللامتكافئ». نادراً ما يكون التكرار الفعلي أو المحاكاة الفعلية ممكنين، سواء سياسياً أم اقتصادياً أم اجتماعياً أم تكنولوجياً، لأنَّ العالم يكون قد تغيَّر أصلاً ذلك التغيَّر الكبير بالعلَّة الأولى التي تُنسخ⁽¹⁾.

ما يقوله نايرن عن الدولة الحديثة يصح بالقَدْر ذاته على المفهومين التوأمين اللذين تُعدُّ بلداننا الاشتراكية الثلاثة المتصارعة ضروباً من التجسيد المعاصر لهما: الثورة والقومية. ولعلَّه من السهل كثيراً أن ننسى أنَّ هذا الزوج، مثل الرأسمالية والماركسية، هو زوج مُخترع، يستحيل المحافظة على براءتيِّ اختراعه. ذلك أنَّ هاتين البراءتين موجودتان كي تتم قرصنتهما، إذا جاز القول. ومن هذه القرصنات، ومنها فحسب، يأتي هذا الشذوذ المعروف أو الخروج على القياس: مجتمعات مثل كوبا وألبانيا والصين، تدفعها اشتراكيَّتها الثورية لأن تتصور أنَّها «متقدِّمة» على مجتمعات مثل فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة، لكن إنتاجها المنخفض، ومستويات معيشتها البائسة، وتكنولوجياها المتأخرة تدفع لأن يُنظر إليها بالمثل على أنَّها «خلف» تلك المجتمعات (ومن هنا حلم شو إن لاي الكئيب بلحاق بريطانيا الرأسمالية في عام 2000).

سبقت الإشارة إلى أنَّ هوبسباوم كان محقِّقاً في ما لاحظته من أنَّ «الثورة الفرنسية لم يَقم بها أو يَقْدِّها حزب مُنظَّم أو حركة مُنظَّمة بالمعنى الحديث، ولا رجال يحاولون تحقيق برنامج منهجي». لكن أمر التجربة الفرنسية، وبفضل رأسمالية الطباعة، لم يقتصر على استحالة اجتثاثها من ذاكرة البشر، بل تعدَّاه إلى إمكانية التعلُّم منها. إذ خرج البلاشفة ممَّا يقارب قرناً كاملاً من التنظير القياسي النمطي والتجريب العملي، وصنعوا أول ثورة «مُخطَّط لها» ناجحة (مع أنَّ النجاح لم يكن ممكناً لولا انتصارات هندنبيرغ الباكرة عند تاننبرغ والبحيرات المازورية^(*)).

(1) انظر: Tom Nairn, *The Break-up of Britain* (London: New Left Books, 1977), pp. 17-18.

التشديد لي. والمقبوس داخل هذه الفقرة هو من كتاب: Charles Frederick Strong, *Modern Political Constitutions*, 8th Rev. ed. (London: Sedgwick and Jackson, 1972), p. 28.

(*) إشارة إلى الهزائم المنكرة التي أنزلها القائد العسكري الألماني هندنبيرغ ورئيس أركانه لودندورف بالروس في بداية الحرب العالمية الأولى في تاننبرغ ثم عند البحيرات المازورية. ومن المعروف أنَّ ثمة علاقة وثيقة بين ثورة تشرين الأول/أكتوبر البلشفية والحرب العالمية الأولى.

وحاولوا تطبيق برنامج منهجي (مع أنَّ الارتجال كان سائدًا في الممارسة). ويبدو من الواضح أيضًا أنَّه من دون مثل هذا التخطيط والبرنامج ما كان ليخطر في الذهن قيام ثورة في مملكة لم تكد تدخل عهد الرأسمالية الصناعية. لكن النموذج الثوري البلشفي غدا ذلك النموذج الحاسم بالنسبة إلى ثورات القرن العشرين كلها لأنَّه جعلها قابلةً للتصوّر في مجتمعات لا تزال أشدَّ تأخرًا من روسيا (وهذا يعني أنه استهلَّ إمكانية تغيير مجرى التاريخ، إذا جاز القول). وأثبتت تجارب ماو تسي تونغ البارعة الأولى إمكانية استخدام هذا النموذج خارج أوروبا. وبذلك يمكن أن نرى في حالة كمبوديا نوعًا من وصول هذه السيرورة القياسية النمطية إلى ذروتها، حيث كانت «الطبقة العاملة» في هذا البلد تشكّل في عام 1962 أقلَّ من 2.5 في المئة من القوة العاملة الراشدة القوية البالغة مليونين ونصف المليون، وكان «الرأسماليون» يشكّلون أقلَّ من 0.5 في المئة⁽²⁾.

خضعت القومية منذ نهاية القرن الثامن عشر، وعلى نحوٍ مشابهٍ كثيرًا، لسيرورة تعديل وتكييف، تبعًا لاختلاف المناطق والأنظمة السياسية والاقتصادات والبنى الاجتماعية. وتمثّلت النتيجة بانتشار «الجماعة المتخيّلة» إلى كلّ مجتمع معاصر يمكن تصوّره. وإذا ما كان من الجائز أن نضرب كمبوديا الحديثة مثالًا على ارتحال «الثورة» القياسية النمطية، فلعله يكون من المنصف أن نضرب فيتنام مثالًا على ارتحال القومية القياسية النمطية، وذلك من خلال غارات سريعة نشّنها على اسم هذه الأمة.

عند تتويجه في عام 1802 تمنى الملك جيا لونغ أن تُدعى مملكته باسم «نام فيت»، وأرسل المبعوثين كي يحصل على موافقة بيجين. لكن المانشو ابن السماء أصرَّ على أن يكون الاسم «فيت نام». أما السبب وراء قلب الاسم على هذا النحو فهو التالي: «إنَّ «فيت نام» (أو بالصينية يُوه - نان) تعني، بصورة تقريبية، «جنوب فيت (يُوه)»، وهي مملكة فتحها الهان قبل سبعة عشر قرنًا

(2) تبعًا لحسابات إدون ويلز، على أساس الجدول 9 في النتائج النهائية لتعداد السكان لعام 1962 التي أصدرتها وزارة التخطيط والمعهد الوطني للإحصاء والأبحاث الاقتصادية في كمبوديا. ويقسم ويلز بقية السكان العاملين على النحو التالي: موظفون حكوميون وبرجوازية صغيرة جديدة 8 في المئة؛ برجوازية صغيرة تقليدية (حرفيون... إلخ) 7.5 في المئة؛ بروليتاريا زراعية 1.8 في المئة؛ فلاحون 78.3 في المئة. ولم يكن هناك سوى أقلَّ من 1300 رأسمالي يملكون مشاريع مانيفاكترية فعلية.

وَيُغْتَقَدُ أَنَّهَا الْيَوْمَ مَقَاطِعَتِي كَوَانْغَتُونْغْ وَكَوَانْغِي الصِّينِيِّينَ، فَضْلًا عَنْ وَادِي النهر الأحمر. أمّا اسم «نام فيت» الذي أطلقه جيا لونْغ فيعني «فيت/يُوهُ الجنوبية»، وينطوي عمليًا على مطالبة بالمملكة القديمة. وكما يقول ألكسندر وودسايد، فإنَّ «اسم «فيتنام» لم يكن يحظى عمومًا بكثير من الاحترام لدى الحكّام الفيتناميين منذ قرنٍ مضى، شأنه في هذا القرن، نظرًا إلى صدوره عن بيجين. ولأنَّ هذه التسمية هي تسمية مصطنعة، فإنها لم تُستخدَم بتلك الكثافة سواء من الصينيين أم الفيتناميين. وتمسك الصينيون باسم «آنام»، وهي كلمة مُهينة من عهد سلالة التانغ... أمّا البلاط الفيتنامي فاخترع اسمًا لمملكته خاصًا به في عامي 1838 - 1839، ولم يهتم لأمر إبلاغ الصين. وراح هذا الاسم الجديد، داي نام، «الجنوب العظيم» أو «الجنوب الإمبراطوري»، يظهر على نحوٍ منتظم في وثائق البلاط والمصنّفات التاريخية الرسمية. لكنه لم يبق على قيد الحياة إلى الوقت الراهن»⁽³⁾. هذا الاسم الجديد هو اسم لافت من ناحيتين: الأولى، أنه لا يحوي عنصر «الفيت». والثانية أنَّ مرجعيته الإقليمية، أو المنطقة التي يشير إليها، تبدو علائقية محض، أو منسوبة إلى سواها: «جنوب» (المملكة الوسطى)⁽⁴⁾.

يذكرنا الدفاع الفيتنامي الفخور هذه الأيام عن اسم فيت نام الذي اخترعه الملك المانشو في القرن التاسع عشر وقصَّده به الازدراء بقول رينان الذائع إنَّ الأمم لا بد من أن تكون قد «نسيت أشياء كثيرة»، لكنه يذكرنا أيضًا، ويا للتناقض، بما تتميز به القومية من قوة خيال.

حين ينظر المرء إلى فيتنام في ثلاثينيات القرن العشرين أو إلى كمبوديا في ستينياته، يجد تشابهات كثيرة، على الرغم من الفروق كلها: أعداد ضخمة من الفلاحين الأميين المُستَغَلَّين، طبقة عاملة هزيلة، برجوازية متناثرة،

Alexander B. Woodside, *Vietnam and the Chinese Model. A Comparative Study of* (3) *Vietnamese and Chinese Government in the First Half of the Nineteenth Century* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971), pp. 120-121.

(4) ليس هذا بالشيء المدهش تمامًا. ذلك أنَّ «البيروقراطي الفيتنامي كان يبدو صينيًا؛ والفلاح الفيتنامي كان يبدو من جنوب شرق آسيا. وكان على البيروقراطي أن يكتب الصينية، ويرتدي الأرواب صينية الطراز، ويركب مخملاً صيني الطراز، بل ويتبع الأمزجة والطرائق الصينية في الاستهلاك اللافت، مثل احتفاظه ببركةٍ للأسماك الذهبية في حديقته الجنوب شرق آسيوية». انظر: Woodside, p. 199.

وإنتليجنسيا صغيرة، منقسمة⁽⁵⁾. وما من محلل معاصر رزين، حين ينظر بصورة موضوعية إلى هذه الشروط، كان ليتنبأ في أيّ من هاتين الحالتين بالثورة التي سرعان ما أتت، أو بانتصاراتها المُنْهَكة (والحال، أن هذا يصحّ إلى حدّ بعيد، ولأسباب تكاد تكون مماثلة، على الصين في عام 1910). وما جعل هاتين الثورتين ممكنتين، في النهاية، هو «الثورة المُخَطَّط لها»، و«تخيّل الأمة»⁽⁶⁾.

لا يمكن أن تُعزى سياسات نظام بول بوت إلى ثقافة الخمير التقليدية أو إلى قسوة قادتها وما لديهم من جنون الارتياب وحنون العظمة إلا بصورة محدودة تمامًا. إذ نال الخمير حصّتهم من المستبدين المصايين بجنون العظمة؛ لكن بعض هؤلاء كان مسؤولاً عن أنكور^(*). الأهمّ بكثير هو نماذج ما استمدته الثورات، ويمكن أن تستمدّه، وما كان يجب، ولا يجب، أن تستمدّه من فرنسا واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية والصين وفيتنام، والكتب كلها التي كُتبت عنها بالفرنسية⁽⁷⁾.

(5) بحسب إحصاء عام 1937 كان بين 93 و 95 في المئة من السكان الفيتناميين لا يزالون يعيشون في مناطق ريفية. ولم تكن نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة بأيّ لغة تتجاوز 10 في المئة من السكان. ولم يكن عدد الذين أكملوا الابتدائية العليا (الدرجات من 7 إلى 10) يتجاوز 20000 بين عامي 1920 و 1938. وما دعاه الماركسيون الفيتناميون باسم «البرجوازية المحلية» - التي وصفها مار بأنها تتألف أساسًا من ملاك الأرض الغائبين، إلى جانب بعض المقاولين وقلة قليلة من الموظفين الذين يشغلون مناصب عليا - لم تكن تشكّل في مجملها سوى حوالى 10500 عائلة، أو حوالى 0.5 في المئة من السكان. انظر: Woodside, pp. 25-26, 34 and 37.

قارن مع المعطيات في الهامش (2) من الفصل الحالي.

(6) كما هو الحال بالنسبة إلى البلاشفة، كان ثمة كوارث ميمونة: بالنسبة إلى الصين، الغزو الياباني الكثيف في عام 1937؛ بالنسبة إلى فيتنام، انهيار خط ماجينو واحتلالها القصير من اليابان؛ بالنسبة إلى كمبوديا، التسرب الكثيف الذي راحت تتسرّبه الحرب الأميركية على فيتنام داخل مناطقها الشرقية بعد آذار/مارس 1970. وتقوّض النظام القديم في كل حالة من هذه الحالات، سواء كان نظام الكومنتانغ أم نظامًا استعماريًا فرنسيًا، أم نظامًا ملكيًا إقطاعيًا، بفعل قوى خارجية.

(*) أنكور مدينة تقع في أعماق الغابات في وسط كمبوديا، ومعابدها التي تعود إلى إمبراطورية الخمير القديمة من أشهر المواقع التاريخية في العالم، وأبرزها على الإطلاق معبد أنكور وات الذي بناه سريافرمان الثاني. وازدهرت إمبراطورية الخمير لمدة 600 عام من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وكانت حضارة متطورة للغاية، كما يتضح من أكثر من ألف معبد ونظام معقد للري في منطقة أنكور.

(7) قد يشير المرء بـ«نعم» للتجنيد الجماعي (levée en masse) والإرهاب (Terror)، وبـ«لا» =

يصحّ الشيء ذاته على القومية. القومية المعاصرة هي وريثة قرنين من التغيّر التاريخي. وتتميّز هذه الضروب من الإرث بأنّها لها حقاً وجهي جانوس، نظراً إلى الأسباب كلها التي حاولت أن أرسم خطوطها العامة. ذلك أنّ المورّثين لا يقتصرون على سان مارتين وغاريبالدي، بل يتعدّونهما إلى أوفاروف وماكولي، وكما رأينا، كانت «القومية الرسمية» منذ البداية سياسة واعية، ترمي إلى حماية الذات، وترتبط ذلك الارتباط الوثيق بالحفاظ على المصالح السلالية - الإمبراطورية. لكنها ما إن «غدت ظاهرة للعيان» حتى باتت قابلة للنسخ، مثل الإصلاحات العسكرية البروسية في أوائل القرن التاسع عشر، لدى التشكيلة ذاتها من الأنظمة السياسية والاجتماعية. وكان الملمح الدائم بين ملامح هذا النمط من القومية، ولا يزال، هو رسميتها؛ أي ذلك الشيء النابع من الدولة، ويخدم مصالح الدولة أولاً وأخيراً.

هكذا يكتسي نموذج القومية الرسمية أهميته قبل كلّ شيء لحظة ينجح الثوار في الإمساك بزمام الدولة، ويكونون لأول مرة في ذلك الوضع الذي يتيح لهم أن يستخدموا سلطة الدولة في تحقيق رؤاهم. وما يزيد هذه الأهمية هو حقيقة أنّه حتى الثوار الراديكاليين الأشدّ عزيمةً عادةً ما يرثون الدولة من النظام المنهار. ويكون بعض هذا الموروث رمزياً، لكن ذلك لا يجعله أقلّ أهمية. فعلى الرغم من عدم ارتياح تروتسكي، عادت عاصمة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية إلى العاصمة القيصرية القديمة موسكو؛ ومنذ ما يزيد على 65 عاماً وقادة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي يرسمون سياستهم في الكرملين، قلعة السلطة القيصرية القديمة، من بين جميع المواقع الممكنة في أقاليم الدولة الاشتراكية الشاسعة. وبالمثل، فإنّ عاصمة جمهورية الصين الشعبية هي عاصمة المانشو (في حين نقل شانغ كاي شيك العاصمة إلى نانكينغ)، ويجتمع قادة الحزب الشيوعي الصيني في

= للترميدور والبونابرتية، بالنسبة إلى فرنسا؛ «نعم» لشيوعية الحرب، والتجميع، ومحاكمات موسكو، «لا» للنائب (السياسة الاقتصادية الجديدة) ونزع الستالينية، بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي؛ «نعم» لشيوعية حرب العصابات الفلاحية، والقفزة الكبرى إلى الأمام، والثورة الثقافية، «لا» لمؤتمر لوشان، بالنسبة إلى الصين؛ «نعم» لثورة آب/أغسطس والتصفية الرسمية للحزب الشيوعي في الهند الصينية في عام 1945، «لا» للتنازلات المؤذية الممنوحة للأحزاب الشيوعية «الكبيرة» التي شكّلت اتفاقيات جنيف مثلاً عليها، بالنسبة إلى فيتنام.

مدينة أبناء السماء المحرّمة. والحال، إنّ قلة قليلة وحسب من القيادات الاشتراكية، إنّ كان ثمة أحد، هي التي لم تتسلّق إلى تلك المقاعد البالية، الدافئة. وعلى مستوى أقلّ وضوحًا، يرث الثوّار المتصرون أيضًا شبكة أسلاك الدولة القديمة: في بعض الأحيان الموظّفين والمخبرين، وعلى الدوام الملفات والأضابير والمحفوظات والقوانين والسجلات المالية والإحصاءات والخرائط والمعاهدات والمراسلات والمذكرات، وهلمجرا. ومثل النظام الكهربائي المعقد في أي بيت كبير هرب مالكة، فإنّ الدولة تنتظر أن تمتد يد المالك الجديد إلى المفتاح لكي تعود بدرجة كبيرة إلى ما كانت عليه من إشراقها القديم.

لذلك لا ينبغي أن يدهش المرء كثيرًا إذا ما كانت القيادات الثورية تلعب، بصورة واعية أم غير واعية، دور سيّد العزبة. ما يخطر في ذهننا هنا لا يقتصر على تماهي دجوغاشفيلي < ستالين > مع إيفان غروزني، أو تعبير ماو عن إعجابه بالطاغية تشن شيه هوانغ تي، أو إحياء جوزيف بروز < تيتو > الأبهة والطقوس الروريتانية^{(8)(*)}. بل إنّ «القومية الرسمية» تدخل أساليب القيادات ما بعد الثورية بطريقة أشدّ حزمًا بكثير. وما أعنيه بذلك أن مثل هذه القيادات تتبنى بسهولة الـ nationalnost^(**) المزعومة لدى الملوك السلاليين القدماء والدولة الملكية السلالية. وبطريقة ارتجاعية لافتة، يغدو الملوك السلاليون الذين لم يكونوا يعرفون أيّ شيء عن «الصين»، أو «يوغوسلافيا»، أو «فيتنام»، أو «كمبوديا» مواطنين وأبناء بلد (حتى لو لم يكونوا على الدوام أولئك المواطنين أو أبناء البلد «الجديرين»). ومن هذه التسوية أو هذا التوفيق تأتي على الدوام مكيافيلية «الدولة» التي تشكّل ملمحًا لافتًا جدًّا من ملامح

(8) انظر الوصف الاستثنائي، وغير السجاليّ بأي حال من الأحوال، في: Milovan Djilas, *Tito, The Story from inside*, Translated by Vasilije Kojac and Richard Hayes (London: Weidenfeld and Nicolson, 1980), chapter 4, especially pp. 133 ff.

(*) روريتانيا (Ruritania) بلد خيالي أبدعه أنطوني هوب، صاحب رواية سجين زندا، وشكّل الخلفية التي تجري عليها أحداث هذه الرواية وسواها من روايات هوب وعدد من الكتاب الآخرين. بل إنّ الصفة روريتاني صارت تُقرّن إلى جنس قصصي يُعرّف بالرومانسيات الروريتانية، فضلًا عن استخدامها في الإشارة إلى ما هو افتراضي وخيالي.

(**) لهذه الكلمة الروسية المعنى الذي لكلمة «قومية» أو «nationality»، إنّما بارتباط أكبر مع الإثنية والعرق، ولذلك فهي أقرب إلى الجنسية والتجنيس.

الأنظمة ما بعد الثورية بخلاف الحركات القومية الثورية. كلما زاد تجنيس الدولة الملكية السلالية القديمة، زادت إمكانية أن تُلفّ زينتها القديمة الفخمة حول الأكتاف الثورية. وصورة أنكور وات الذي بناه سُريافرمان الثاني، المنقوشة على علم كمبوديا الديمقراطية الماركسية (كما على أعلام جمهورية لون نول الألعبوبة وكمبوديا سيهانوك الملكية)، ليست كناية عن التُّقى والإيمان بل عن القوة والسلطة⁽⁹⁾.

أمّا تركيزي على القيادات فلأن القيادات، لا الشعب، هي التي تراث لوحات التحكم والقصور. وما من أحد يتصوّر، كما أزعّم، أنّ جماهير الشعب الصيني الغفيرة تهتمّ أدنى اهتمام بما يحدث على طول الحدود الكولونيالية بين كمبوديا وفيتنام. كما أنه من غير الوارد على الإطلاق أن يكون الفلاحون الخمير والفيتناميون قد أرادوا تلك الحروب بين الشعبين، أو أن يكونوا قد استُشيروا في الأمر. هذه الحروب هي بالمعنى الفعلي «حروب قادة» عادةً ما تُحشد فيها القومية الشعبية باسم الدفاع عن النفس (من هنا تلك الحماسة الخافتة في الصين خصوصًا، حيث لا تتمتع لغة الدفاع عن النفس إلا بقدر قليل من المعقولية والمنطق، على الرغم من الشعارات المكتوبة بأضواء النيون ضد «الهيمنة السوفياتية»)⁽¹⁰⁾.

ليست الصين، وفيتنام وكمبوديا، فريدة في كلّ هذا بأيّ حال من الأحوال⁽¹¹⁾. وهذا هو السبب في أنّه ما من أسس متينة للأمل بالألا يجري

(9) من الواضح أنّ النزعات التي رسمنا خطوطها العامة أعلاه لا تميّز الأنظمة الماركسية الثورية وحدها بأيّ حال من الأحوال. وما يدفع إلى التركيز على مثل هذه الأنظمة هنا هو الالتزام الماركسي التاريخي بالأممية البروليتارية وبتدمير الدول الإقطاعية والرأسمالية، ثم الحروب الهندوسينية الجديدة. ويجد القارئ تفسيرًا لما يشتمل عليه نظام سوهارتو اليميني في إندونيسيا من أيقونات ورموز قديمة في كتابي: Benedict R. O'Gorman Anderson, *Language and Power: Exploring Political Cultures in Indonesia* (Ithaca: Cornell University Press, 1990), chapter 5.

(10) الفرق بين اختراعات «القومية الرسمية» واختراعات الأنماط الأخرى هو عادة كالفرق بين الأكاذيب والأساطير.

(11) من جهة أخرى، ربما أمكن للمؤرخين في نهاية هذا القرن أن ينسبوا جزءًا غير قليل من ضروب الإفراط «القومية الرسمية» التي ارتكبتها الأنظمة الاشتراكية ما بعد الثورية إلى التنافر بين النموذج الاشتراكي والواقع الزراعي.

السير على هَدْيٍ ما اجتريته هذه البلدان من سوابق الحروب بين الدول الاشتراكية، أو بأن يتم التخلّص سريعاً من جماعة الأمة الاشتراكية المتخيّلة. لكنه لن يكون بالإمكان القيام بأيّ شيء مفيد للحيلولة دون مثل هذه الحروب أو الحدّ منها ما لم نتخلّ عن خرافات مثل الخرافة التي تقول إنّ «الماركسيين كماركسيين ليسوا قوميين»، أو إنّ «القومية مرض من أمراض التطور التاريخي الحديث»، ونبذل بدلاً من ذلك ما بوسعنا كي نتعلّم تجربة الماضي الواقعية والمتخيّلة.

سبق لفالتر بنيامين أن كتب عن ملاك التاريخ، قائلاً:

«وجهه ملتفتٌ صوب الماضي، وحيث نتصور سلسلةً من الحوادث، يرى كارثةً واحدةً لا تني تكوّم الأنقاض فوق الأنقاض وتلقيها عند قدميه. والملاك يودّ أن يبقى، وأن يحيي الموتى، ويجمع ما تحطّم. لكنّ عاصفةً تهبّ من الفردوس؛ وقد أمسكت بجناحيه بتلك القوة حتى لم يعد بوسعه أن يضمّهما، وراحت تدفعه بصورة لا تُقاوم نحو المستقبل الواقع خلفه، في حين يعلو أمامه الحطام حتى يبلغ عنان السماء. ما ندعوه التقدم هو هذه العاصفة»⁽¹²⁾.

لكن الملاك خالد، ووجوهنا متّجهة صوب المجهول أمامنا.

Walter Benjamin, *Illuminations* (London: Fontana. 1973), p. 259.

(12)

عين الملاك هي عين كاميرا متحركة قادرة على الالتفات إلى الوراء، وأمامها يتجمع مؤقتاً حطام فوق حطام على طريق سريعة لا نهاية لها قبل أن تختفي عند الأفق.

التعداد والخريطة والمتحف

كتبْتُ في الطبعة الأولى من الجماعات المتخيَّلة عن «تلك الحماسة القومية الشعبية الأصيلة وذلك الغرس المنهجي، بل المكيافيللي، للأيديولوجية القومية من خلال وسائل الإعلام والنظام التربوي والأنظمة الإدارية وسواها، وهما حماسة وغرسٌ غالبًا ما نراهما معًا في سياسات «بناء الأمة» التي تتبَّعها الدول الجديدة»⁽¹⁾. وكنت أفترضُ آنئذٍ بنوع من قِصرِ النظر أنَّ القومية الرسمية في العوالم المستعمَرة في آسيا وأفريقيا صيغت مباشرةً على غرار القومية الرسمية في الدول الملكية السلافية في أوروبا القرن التاسع عشر. وأقنعني التفكير الذي تلا ذلك بأنَّ هذه النظرة هي نظرة متسرَّعة وسطحية، وبأنَّ النسب المباشر يجب تتبَّعه في تَخيلات الدولة الكولونيالية. قد يبدو هذا الاستنتاج مدهشًا، أول وهلة، لأنَّ الدول الكولونيالية عادةً ما كانت مناهضةً للقومية، وغالبًا ما كانت تلك المناهضة عنيفةً. لكنه حين ينظر المرء تحت الأيديولوجيات والسياسات الكولونيالية إلى القواعد التي كانت تستخدمها، منذ أواسط القرن التاسع عشر، سيجد بلا شكَّ أن خط النسب يتَّضح مزيدًا من الوضوح.

إنَّها لقليلة جدًا تلك الأشياء التي تُظهِرُ هذه القواعد بالقدر الذي تُظهِرها به ثلاث من مؤسسات السلطة التي ابتُدِعَتْ قبل منتصف القرن التاسع عشر لكنها عملت على تغيير شكلها ووظيفتها ما إن دخلت المناطق المستعمَرة عصر الاستنساخ الآلي. هذه المؤسسات الثلاث هي التعداد والخريطة والمتحف التي صاغت معًا، وعلى نحوٍ عميق، الطريقة التي تخيلت بها الدولة

(1) انظر الفقرة الثانية من الفصل السابع من هذا الكتاب.

الكولونيلية مجال نفوذها وسلطانها: طبيعة البشر الذين تحكمهم، وجغرافيا أملاكها، وشرعية أسلافها. وكي أستكشف طابع هذا التواشج سوف أقصر اهتمامي في هذا الفصل على جنوب شرق آسيا، لأنّ استنتاجاتي مترددة، وما أزعمه من تخصّص جدّي مقصور على هذه المنطقة. لكن جنوب شرق آسيا يوفر للمهتمين بالتاريخ المقارن مزايا خاصة، ذلك أنه يشمل مناطق استعمرتها القوى الإمبريالية «البيضاء» كلها تقريباً - بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وهولندا والولايات المتحدة - فضلاً عن اشتماله على سيام التي لم تُستعمر. وسوف يكون القراء الذين يحوزون معرفة أكبر من معرفتي بالأجزاء الأخرى من آسيا وأفريقيا في موقع يمكنهم من الحكم على صحة آرائي في نطاق تاريخي وجغرافي أوسع.

التعداد

كان عالم الاجتماع تشارلز هيرشمان قد بدأ، في بحثين قيّمين نُشرا مؤخراً، دراسة عقليات الكولونيين البريطانيين الذين قاموا على إجراء التعداد في مستوطنات المضائق^(*) وشبه جزيرة ملايو، وخلفائهم الذين عملوا لدى دولة ماليزيا المندمجة المستقلة⁽²⁾. وما تُظهره الصور طبق الأصل التي يقدمها هيرشمان من «بيانات الهوية» التي كانت تسعى وراءها التعدادات المتعاقبة منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى فترة قريبة من الآن هو سلسلة من التغيرات السريعة على نحو استثنائي، والاعتباطية في الظاهر، كانت تتجمّع من خلالها هذه البيانات وتنفصل، وتتجمّع من جديد، وتختلط، وتُعيد الترتيب على نحو متواصل (لكن مع بقاء البيانات الفاعلة سياسياً على رأس القائمة على الدوام).

(*) تشكّلت هذه المستوطنات في عام 1826 بجمع مستوطنات سنغافورا (ومعها مجموعة جزر كريسماس وكوكوس كيلينغ) وبنانغ (ومعها مقاطعة ولسيلي) وملقا. وفي عام 1912 غدت لوبوان المستوطنة الرابعة. كانت هذه المستوطنات تحت سيطرة شركة الهند الشرقية البريطانية، ثم أديرت مباشرة من الإدارة البريطانية. وفي الحرب العالمية الثانية احتلتها اليابان. وفي عام 1946 تفككت ومضى كل في سبيله الخاص.

Charles Hirschman: «The Meaning and Measurement of Ethnicity in Malaysia: An Analysis (2) of Census Classifications,» *Journal of Asian Studies*, vol. 46, no. 3 (August 1987), pp. 555-582, and «The Making of Race in Colonial Malaya: Political Economy and Racial Ideology,» *Sociological Forum*, vol. 1, no. 2 (Spring 1986), pp. 330-362.

وما يتوصل إليه هيرشمان من هذه التعدادات هو استنتاجين أساسيين: الأول هو أن بيانات التعداد كانت تغدو عرقية على نحو أوضح وأشد حصرية، كلما طالت المرحلة الكولونiale⁽³⁾. وأن الهوية الدينية، من جهة أخرى، راحت تختفي بصورة تدريجية كيانٍ تعداديٍّ أساسيٍّ. هكذا اختفى «الهندوس» - الذين كانوا يُصنّفون إلى جانب «الكلنج» و«البنغال» - بعد التعداد الأول في عام 1871. وبقي «البارسيون» حتى تعداد عام 1901 حيث واصلوا الظهور - مجموعين مع «البنغال» و«البورميين» و«التاميل» - تحت بيان «التاميل وغيرهم من سكان الهند الأصليين». أمّا الاستنتاج الثاني فهو أن الفئات العرقية الكبيرة جرى الحفاظ عليها، بوجه عام، بل وتركزت بعد الاستقلال، إنّما مع إعادة تحديدها وتصنيفها باعتبارها «ماليزية» و«صينية» و«هندية» و«أخرى». بيد أن الحالات الشاذة استمرت حتى ثمانينيات القرن العشرين. وفي تعداد عام 1980 ظهر «السيخ» على نحو مزعج بوصفهم فئة فرعية شبه إثنية - إلى جانب «الملاواليين» و«التيلينغو» و«الباكستانيين» و«البنغلادشيين» و«التاميل السريلانكيين» و«السريلانكيين الآخرين» - تحت العنوان العام «هنود».

لكن صور هيرشمان الرائعة المطابقة للأصل تشجّع المرء على أن يمضي أبعد من اهتماماته التحليلية المباشرة. خذوا، على سبيل المثال، تعداد عام 1911 في ولايات الملايو الفدرالية الذي يضع تحت عنوان «سكان الملايو بحسب العرق» ما يلي: «الملاويون» و«الجاويون» و«الساكاي» و«البنجاريون» و«البونانيون» و«المنديلنج» (كذا) و«الكرينشيون» (كذا) و«الجامبيون» و«الأشينيون» و«البوجيون»... وآخرون. ومن بين هذه «الجماعات» يعود أصل الجميع ما عدا (معظم) «الملاويين» و«الساكاي» إلى جزر سومطرة وجاوة وبورنيو الجنوبية والسيليبس، وكلها أجزاء من مستعمرة الهند الشرقية الهولندية الضخمة المجاورة. لكن هذه الأصول من خارج ولايات الملايو الفدرالية لم تحظ بأي اعتراف من القائمين على التعداد الذين أبقوا عيونهم

(3) كان ثمة تشكيلة مدهشة من «الأوروبيين» الذي يجري تعدادهم طوال الحقبة الكولونiale. لكنهم في حين كانوا لا يزالون يُصنّفون في عام 1881 تحت عناوين مثل «مقيم» و«عابر» و«سجين» باتوا في عام 1911 يُجمَعون معًا بوصفهم أفراد «عرق (أبيض)». ومن المتفق عليه أن القائمين على التعداد كانوا في حيرة من أمرهم في شأن الخانة التي يضعون فيها أولئك الذين يسمونهم بـ«اليهود».

منخفضة ومتواضعة لا تتعدى حدودهم الكولونيالية الخاصة، وهم يحددون «ملاويهم» (ولا حاجة إلى القول إنَّ الهولنديين القائمين على التعداد، عبر البحار، كانوا يقيمون تخيلاً مختلفاً لـ «الملاويين» بوصفهم إثنية صغرى إلى جانب، لا فوق، «الأشيين» «والجاويين» وما شابه). ويشير «الجامبيون» و«الكرينشيون» إلى مكانين، لا إلى أي شيء يمكن تحديده كإثنية لغوية ولو من بعيد. ومن غير المحتمل إلى أبعد حدٍّ أن يكون أكثر من جزء بالغ الصغر من أولئك الذين صُنِّفوا في فئات أساسية أو فرعية قد نظروا إلى أنفسهم في عام 1911 تحت مثل هذه التسميات. وهذه «الهويات» التي تخيلها عقل الدولة الكولونيالية التصنيفي، كانت لا تزال تنتظر تجسيداً سرعان ما سيجعله الاختراق الإداري الإمبراطوري ممكناً. وما يُلاحظ، علاوةً على ذلك، هو شغف القائمين على التعداد بالكمال وعدم الالتباس. من هنا عدم إطاقتهم تلك التحديدات المتعددة، أو «المتحولة» سياسياً، أو «المشوَّشة» أو المتبدلة. ومن هنا تلك الفئة الفرعية الغربية التي نجدها تحت كل جماعة عرقية، ألا وهي فئة «الآخرين» التي ينبغي ألا تخلط على الإطلاق مع «الآخرين» الآخرين. ويكمن تخيل التعداد في أنَّ كلَّ أحدٍ موجود فيه، وأنَّ لكلَّ أحد مكاناً واحداً - واحداً فقط - واضحاً أشدَّ الوضوح. ما من كسور.

لما كانت أصول هذا النمط من التخيل الذي تمارسه الدولة الكولونيالية أقدم من تعدادات سبعينيات القرن التاسع عشر، فإنَّه من المفيد، كي نفهم تماماً سبب الجذوة العميقة التي اتَّسمت بها تعدادات أواخر القرن التاسع عشر على الرغم من ذلك، أن ننظر إلى الوراء إلى الأيام الأولى من الاختراق الأوروبي لجنوب شرق آسيا. يكفي هنا أن نعرض مثالين نستمدّهما من الأرخييلين الفيليبيني والإندونيسي. إذ حاول وليم هنري سكوت، في كتاب مهم صدر مؤخراً، أن يعيد على نحو بالغ التدقيق بناء البنية الطبقيّة للفيليبين قبل الهسبانية، على أساس أقدم السجلات الإسبانية⁽⁴⁾. ويُدرِك سكوت تمام الإدراك، بوصفه مؤرخاً متخصصاً، أنَّ الفيليبين تدين باسمها إلى فيليب الثاني «الإسباني»، وأنَّ الأرخييل، لولا الحظوظ التَّعسّة أو الطيبة، كان يمكن أن يقع

William Henry Scott: «Filipino Class Structure in the Sixteenth Century,» *Cracks in the* (4)
Parchment Curtain (Manila: New Day, 1982), chapter 7.

بأيدي الهولنديين أو الإنكليز، ويُقسَّم سياسيًا، أو يُعاد تركيبه مع فتوحات أخرى⁽⁵⁾. لذلك فإنَّ من المغربي أن نعزوَّ اختيار سكوت اللافت للموضوع إلى إقامته الطويلة في الفيليبين وتعاطفه القوي مع قومية فيليبينية لا تزال منذ قرن إلى الآن تقتفي آثار جنة السكان الأصليين. لكنَّه من طيّب الحظوظ أنَّ الأساس العميق لتشكيل خياله كان المصادر التي أُجبر أن يعتمد عليها. والحقيقة أنه حيثما غامر رجال الدين والفاثون في تلك الجزر كان بصرهم يقع، في الساحل، على principales (أمرء) و hidalgos (نبلاء) و pecheros (عامّة) و esclavos (عبيد): في ما يشبه العزب التي جرى استمدادها من التصنيفات الاجتماعية في إيبيريا أواخر القرون الوسطى. وتوفّر الوثائق التي خلفوها وراءهم كمًّا وافرًا من الأدلة المادية على أنَّ معظم «النبلاء» لم يكن واحدهم يعلم بوجود الآخر في الأرخبيل الضخم والمُبْعَثَر ومشتَّت السكان، وأنهم حين كانوا يعلمون بوجود بعضهم بعضًا، عادةً ما كان واحدهم ينظر إلى الآخر لا بصفته نبيلًا، بل عدوًّا أو عبدًا مُحْتَمَلًا. لكن قوة الشبكة كانت عظيمة جدًّا إلى درجة أنَّ مثل هذه الأدلة هُمِّشَت في خيال سكوت، لذلك كان من الصعب عليه أن يرى أن «البنية الطبقيّة» في المرحلة ما قبل الكولونiale هي تخيل «إحصائي» أبدع من مؤخّرات السفن الإسبانية. وحيثما ذهبت هذه السفن كان يلوح لها النبلاء والعبيد الذين ما كان لهم أن يُجْمَلُوا على هذا النحو، أي «بنويًا»، إلا من دولة كولونiale في أطوارها الأولى.

أمّا بالنسبة إلى إندونيسيا فنملك، بفضل البحث الذي أجراه ماسون هودلي، وصفًا مفصّلًا لقضية مهمة صدر الحكم النهائي فيها في سيريبون، وهي مدينة

(5) في النصف الأول من القرن السابع عشر، تعرّضت المستوطنات الإسبانية في الأرخبيل لهجوم متكرر كانت تشنه عليها قوات الـ Vereenigde Oost-Indische Compagnie > شركة الهند الشرقية المتحدة>، أكبر شركة عظمى «عابرة للقوميات» في تلك الحقبة. ويدين المستوطنون الكاثوليك الأتقياء بقسط كبير من بقائهم على قيد الحياة إلى الحامي الكافر القديم الذي أبقي ظهر أمستردام إلى الحائط خلال شطر كبير من حكمه. ولو أفلحت شركة الهند الشرقية المتحدة، ربما لغدت مانिला، وليس باتافيا [جاكرتا] هي مركز الإمبراطورية «الهولندية» في جنوب شرق آسيا. وفي عام 1762 أخذت لندن مانिला من إسبانيا، واحتفظت بها ما يقارب السنتين. ومن اللافت أن نلاحظ أن مدريد لم تستعدها إلا مقابل فلوريدا، والممتلكات «الإسبانية» الأخرى شرق المسيسيبي، من بين الأماكن كلها. ولو سارت المفاوضات على نحو مختلف، لأمكن للأرخبيل أن يرتبط سياسيًا بالملايو وسنغافورا خلال القرن التاسع عشر.

ساحلية وميناء في جاوة، في نهاية القرن السابع عشر⁽⁶⁾. ومن حسن الحظ أن السجلات الهولندية (سجلات شركة الهند الشرقية المتحدة) والسيريبونية المحلية لا تزال متاحة. فلو بقيت الرواية السيريبونية وحدها لكُنَّا عرفنا المُتَّهم بالقتل على أنه موظف كبير في البلاط السيريبوني، وعرفنا لقبه وحسب، كي أريا مارتا نينغارت، لا اسمه الشخصي. أما سجلات شركة الهند الشرقية المتحدة فتشير غاضبة إلى هويته أنه صيني؛ وهذه هي المعلومة المهمة الوحيدة التي تنقلها عنه هذه السجلات. من الواضح إذاً أن البلاط السيريبوني كان يصنّف البشر بحسب المرتبة والمكانة، بينما كانت الشركة تصنفهم بحسب شيء يشبه «العرق». وما من سبب مهما يكن لأن نعتقد أن المُتَّهم بالقتل - الذي تُبثُّ مكانته الرفيعة انتماءه وانتماء أسلافه القديم إلى المجتمع السيريبوني، بصرف النظر عن أصولهم - كان ينظر إلى نفسه على أنه صيني. كيف، إذاً، توصلت شركة الهند الشرقية المتحدة إلى هذا التصنيف؟ من أيّ مؤخرة سفينة أمكنها أن تتخيل أنه صيني؟ لا شك في أن ذلك لم يكن ممكناً إلا من مؤخرات تلك السفن التجارية الضارية التي كانت تجوب البحار بلا توقّف، وبأمر مركزي، من ميناء إلى آخر بين خليج ميرغوي <في بورما> وفم نهر يانغتسي كيانغ <في الصين>. وكان أن تخيلت الشركة بعينها العابرة للمحيطات سلسلة لا تنتهي من الـ Chinezen، مثلما كان الفاتحون قد رأوا سلسلة لا تنتهي من النبلاء، ناسية سكان المملكة الوسطى المتغايين؛ وعدم الفهم المتبادل بين كثير من لغاتهم المنطوقة؛ والأصول الاجتماعية والجغرافية المحددة لجالياتهم الموجودة في سواحل جنوب شرق آسيا. وعلى أساس هذا التعداد المُخترع بدأت الشركة الإلحاح على أن أولئك الذين تحت سيطرتها وقامت بتصنيفهم على أنهم Chinezen يجب أن يلبسوا وقيموا ويتزوجوا ويُدفنوا ويرثوا تبعاً لذلك التعداد. ومن اللافت أن الإيبيرين في الفيليبين بتفكيرهم الأضيّق والأبعد عن التجارة كانوا قد تخيلوا صنفاً تعدادياً مختلفاً تماماً: هو ما دعوه باسم Sangley. وكلمة Sangley كانت قد أُدخلت إلى اللغة الإسبانية من كلمة sengli الهوكينية، وتعني «تاجر»⁽⁷⁾. ويمكن للمرء أن

(6) Mason C. Hoadley, «State vs. Ki Aria Marta Ningrat (1696) and Tian Siangko (1720-21)» (unpublished ms., 1982).

(7) انظر على سبيل المثال: Edgar Wickberg, *The Chinese in Philippine Life, 1850-1898* (New Haven: Yale University Press, 1965), chapters 1 and 2.

يتخيل إسبان ما قبل هذا التعداد وهم يسألون التجار الذين جلبتهم السفن التجارية إلى مانيلا: «من أنتم؟» فيُجاب عليهم بصورة واضحة: «نحن تجّار»⁽⁸⁾. ولأن الإيبيريين لم يجوبوا البحار الآسيوية السبعة، ظلوا طوال قرنين من الزمان في حالة من التشوش وضيق التفكير المريح. ولم تتحول Sangley إلى «Chinese» إلا ببطء، إلى أن اختفت في أوائل القرن التاسع عشر مفسحة المجال أمام كلمة chino على طريقة شركة الهند الشرقية المتحدة.

لذلك، لم يتمثل التجديد الفعلي الذي جاء به من قاموا بتعداد سبعينيات القرن التاسع عشر في بناء تصنيفات عرقية - إثنية، بل في التكميم المنهجي. حاول الحكّام ما قبل الكولونيين في العالم الجاوي - الملاوي إجراء عمليات عدّ للسكان الواقعين تحت سيطرتهم، لكن هذه العمليات أخذت شكل سجل الضرائب أو قوائم التجنيد. كانت أغراضها ملموسة ومحددة: التتبع المستمر لأولئك الذين يمكن أن تُفرض عليهم الضرائب والخدمة العسكرية؛ ذلك أن هؤلاء الحكّام لم يكونوا مهتمين سوى بالفائض الاقتصادي والقوة البشرية التي يمكن تسليحها. ولم تختلف أنظمة الحكم الأوروبية الأولى في هذه المنطقة عن سابقتها ذلك الاختلاف الكبير على هذا الصعيد. إلا أن السلطات الكولونالية بعد عام 1850 راحت تستخدم وسائل إدارية متزايدة التعقيد في عدّها السكان، بمن فيهم النساء والأطفال (الذين كان الحكّام السابقون يتجاهلونهم في كلّ مرّة)، تبعاً لمتاهة من الخانات التي ليس لها غرض مالي أو عسكري مباشر. وفي سالف الأيام، عادةً ما كان أولئك الرعايا الذين يتوجّب عليهم دفع الضرائب أو الالتحاق بالخدمة العسكرية يدركون جيّدًا قابليّتهم للعدّ؛ فالحاكم والمحكوم كانا يفهمان واحداهم الآخر أحسن الفهم على هذا الصعيد، وإن يكن ذلك الفهم فهمًا عدائيًا. أمّا بحلول عام 1870 فكان بمقدور المرأة «الصينية - الكوشينية» التي لا تدفع الضرائب، ولا تُجنّد، أن تمضي حياتها، سعيدة أو تعيسة، في مستوطنات المضائق، من دون أن تدرك أيّما إدراك أنّ هذا ما كان قد خُطّط لها من الأعلى. وهنا تغدو خصوصية التعداد الجديد واضحة. إذ حاول بكلّ عناية أن يعدّ موضوعات

(8) كانت السفن التجارية تبادل الحرير والبورسلين الصينيين بالفضة المكسيكية، وكانت مانيلا

مخزن هذه التجارة لأكثر من قرنين.

تخيّله المحموم. ونظرًا إلى ما يتّسم به نظام التصنيف من طبيعة حَضْرِيّة، ونظرًا إلى منطق التكميم ذاته، كان لا بدّ لـ «الصيني - الكوشيني» من أن يُفهم على أنّه رقم واحد في سلسلة قابلة للجمع من «الصينيين - الكوشينيين» الذين يمكن استبدال واحد منهم بالآخر، داخل نطاق الدولة بالطبع. وضربت هذه الطوبوغرافيا الديموغرافية بجذور اجتماعية ومؤسّساتية عميقة مع تضاعف حجم الدولة الكولونيالية ووظيفتها. وعملت بهدي من خريطتها المُتخيّلة على تنظيم بيروقراطياتها في مجالات التعليم والقضاء والصحة العامة والشرطة والهجرة، تلك البيروقراطيات التي كانت تبنّيها على أساس تراتبيات عرقية - إثنية مع أنّها عادةً ما كانت تُفهم على أنّها سلاسل متوازية. وخلق انسياب السكّان الخاضعين عبر شبكة المدارس والمحاكم والعيادات ومراكز الشرطة ومكاتب الهجرة المتفاوتة «عاداتٍ مروريةً» منحت تهويمات الدولة الباكّة حياةً اجتماعية فعلية.

لا حاجة إلى القول إنّ الأمر لم يكن سهلًا على الدوام، وإنّ الدولة كثيرًا ما اصطدمت بحقائق مزعجة. أهمّ هذه الحقائق على الإطلاق كان الانتماء الديني الذي شكّل أساسًا لجماعاتٍ مُتخيّلة بالغة القِدَم وشديدة الاستقرار لا تتماشى مع الخريطة - الشبكة السلطوية الخاصة بالدولة العلمانية. واضطرّ الحكّام بدرجاتٍ مختلفة، وفي شتّى مستعمرات جنوب شرق آسيا، إلى أن يجروا تسويات قدرة، خصوصًا مع الإسلام والبوذية. وعلى الأخص، واصلت ازدهارها تلك المزارات والمدارس والمحاكم الدينية التي كان يحدّد دخولها الخيارُ الذاتي الشعبي الفردي، لا التعداد. ونادرًا ما كان بمقدور الدولة أن تفعل ما يزيد على محاولة تنظيم هذه المؤسّسات وتحديدّها وعدّها وتوحيد معاييرها وإخضاعها لمؤسّساتها الخاصة⁽⁹⁾، ولأنّ المعابد والمساجد والمدارس والمحاكم كانت خارجةً على القياس من الناحية الطوبوغرافية، فُهِمَت على أنّها مناطق محرّرة، بل قلاع - في بعض الأحيان - يمكن للمناهضين للكولونيالية المتدينين، ولاحقًا القوميين، أن يخرجوا منها إلى القتال. وجرت، في الوقت ذاته، محاولات متكررة لفرض نوعٍ من الاتساق بين التعداد

(9) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب، حيث يجري الكلام على ما بذلته الكولونيالية الفرنسية من جهد لفصل البوذية في كمبوديا عن روابطها القديمة مع سيام.

والطوائف الدينية من خلال فرض الطابع الإثني على هذه الأخيرة سياسيًا وقانونيًا، بقدر ما كان ذلك ممكنًا. وكانت هذه المهمة سهلة نسبيًا في ولايات الملايو الفدرالية الكولونiale. ودُفِعَ بأولئك الذين اعتبرهم نظام الحكم من سلسلة «الملاويين» إلى محاكم «سلاطينهم» المخصصين التي كانت تُدار في جزئها الأكبر بحسب الشريعة الإسلامية⁽¹⁰⁾. هكذا عوملت كلمة «مسلم» على أنها مجرد اسم آخر لـ «الملاوي» (وظل الأمر كذلك إلى ما بعد الاستقلال في عام 1957 حين بذلت جماعات سياسية معينة جهدًا لعكس هذا المنطق واعتبار كلمة «ملاوي» اسمًا آخر لـ «المسلم»). أمّا في الهند الشرقية الهولندية الشاسعة والمتغايرة، حيث قامت مجموعة من المنظمات التبشيرية المتصارعة في نهاية الحقبة الكولونiale بعمليات تنصير كبيرة في مناطق متفرقة واسعة، فواجه دافع مماثل عقبات كبيرة. لكن عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته شهدت، حتى هناك، تنامي المسيحيات «الإثنية» (الكنيسة الباتاكية والكنيسة الكاروية ولاحقًا الكنيسة الداياكية... وما إلى ذلك) التي يعود جزء من ظهورها إلى تخصيص الدولة الجماعات التبشيرية المختلفة بمناطق للمتصّرين الجدد تبعًا لطوبوغرافيا وتعداد كل جماعة. لم تحقق باتافيا مع الإسلام نجاحًا مماثلًا. ولم تجرؤ على منع الحجّ إلى مكة، مع أنها حاولت أن تحول دون نمو أعداد الحجيج، وخفّرت أسفارهم، وتجسست عليهم من نقطة أمامية في جدّة وُضِعَت لهذا الغرض. ولم يكن أيّ من هذه الإجراءات كافيةً للحيلولة دون اشتداد صلات المسلمين في الهند الشرقية مع العالم الإسلامي الشاسع، خصوصًا تلك التيارات الفكرية الجديدة التي كانت تنبعث من القاهرة⁽¹¹⁾.

الخريطة

بيد أن القاهرة ومكة راح يُنظر إليهما، في هذه الأثناء، بطريقة جديدة غريبة، فلم تعودا مجرد موقعين في جغرافيا إسلامية مقدّسة، بل باتتا أيضًا نقطتين على صفحات ورقية شملت نقاطًا لباريس وموسكو ومانيل وكاراكاس؛

William R. Roff, *The Origins of Malay Nationalism* (New Haven; London: Yale University Press, 1967), pp. 72-4.

Harry J. Benda, *The Crescent and the Rising Sun: Indonesian Islam under the Japanese Occupation* (The Hague and Bandung: van Hoeve, 1958), chapter 1-2.

ولم تعد العلاقة المستوية بين هذه النقاط، سواء كانت مدنسة أم مقدسة، تتحدد بما يزيد على الطيران بخط مستقيم محسوب رياضياً. كانت الخريطة المركاتورية(*) التي جاء بها المستعمرون الأوروبيون قد بدأت، عبر الطباعة، بتشكيل خيال البشر في جنوب شرق آسيا.

تتبع المؤرخ التايلندي ثونغشاي وينيشاكول في أطروحة ألمعية حديثة تلك السيرورات التي ظهرت من خلالها «سيام» بحدودها المرسومة إلى حيز الوجود بين عامي 1850 و 1910⁽¹²⁾. وتأتي أهمية الرواية التي يقدمها هذا المؤرخ من أن سيام لم تستعمر، على الرغم من أن ما بات حدودها، في النهاية، رسمه الاستعمار. لذلك يمكن للمرء، في حالة تايلند، أن يرى بذلك الوضوح غير المعتاد ظهور عقلية دولة جديدة ضمن بنية سلطة سياسية «تقليدية».

لم تعرف سيام، حتى تتويج راما الرابع الألمعي (المونغكوت في فيلم الملك وأنا) في عام 1851، سوى نوعين من الخرائط، كان كلاهما يدويًا: لم يكن عصر الاستنساخ الآلي قد بزغ هناك بعد. وأول هذين النوعين ما يمكن أن ندعوه باسم «الكوزموغراف» أو «صورة الكون»، وهو تمثيل شكلي رمزي للعوالم الثلاثة التي يتألف منها الكون البوذي التقليدي. ولم يكن الكوزموغراف منظمًا أفقيًا، كما هي خرائطنا؛ بل كان سلسلة من السماوات فوق الأرضية وضروب الجحيم تحت الأرضية حُشرت في العالم المرئي على طول محور شاقولي واحد. ولم يكن مفيدًا لأي رحلة سوى تلك التي تُرحل بحثًا عن الجدارة والخلاص. أما النوع الثاني المُدنس تمامًا فكان عبارة عن رسوم بيانية لإرشاد الحملات العسكرية والسفن. ولأن هذه الرسوم الإرشادية كانت منظمة بصورة تقريبية باستخدام الربعية(**)، كان من الضروري كتابة خصائصها الأساسية كملحوظات في أوقات المسير والإبحار لأن واضعي الخرائط لم

(*) الخريطة المركاتورية (The Mercatorian map) هي خريطة تظهر فيها خطوط الطول والعرض على شكل خطوط مستقيمة وليست منحنية.

Thongchai Winichakul, «Siam Mapped: A History of the Geo-Body of Siam,» Phd. Thesis, (12) University of Sydney, 1988.

(**) الربعية (The quadrant) أداة لقياس الزوايا كانت تُستخدم في الإبحار أو رصد النجوم.

يكن لديهم أيّ تصوّر تقني لمسألة القياس أو التدرّج. ونظرًا إلى كونها لا تغطي سوى الحيّز الأرضي، المُدَنّس، فإنّ هذه الرسوم الإرشادية عادةً ما كانت تُرسم بمنظور مائل غريب أو بخليط من المنظورات، كما لو أنّ عيون الرسامين التي عودتها الحياة اليومية أن ترى المنظر أفقيًا، على مستوى العين، كانت قد تأثرت من دون أن تشعر بشاقولية الكوزموغراف. ويشير ثونغشاي إلى أنّ هذه الخرائط الإرشادية، المحلية على الدوام، لم توضع في سياق جغرافي مستقر، أكبر، وأنّ نظرة عين الطائر التي غدت عُرفًا في الخرائط الحديثة كانت غريبة عنها كلّ الغرابة.

لم يكن ثمة حدود واضحة في أيّ من هذين النوعين من الخرائط. وما كان واضعوها ليفهموا الصياغة الأنيقة التالية التي صاغها ريتشارد موير:

«إنّ للحدود الدولية، الموافقة لخطوط التقاء أراضي الدول المتجاورة، أهمية خاصة في تقرير حدود السلطة ذات السيادة وتحديد الحيّز المكاني الذي تحتله المناطق التابعة سياسيًا لكلّ دولة... الحدود... تقع حيث تقطع خطوط الالتقاء الشاقولية بين الدول ذات السيادة سطح الأرض... وبوصفها خطوط التقاء شاقولية، فإنه ليس للحدود مدى أفقي...»⁽¹³⁾.

كانت أحجار الحدود ونقاط العلام المماثلة موجودة، بل تضاعفت على طول الأطراف الغربية للمملكة حيث راح البريطانيون يدفعون هذه الحدود من بورما السفلى. لكن هذه الأحجار لم تكن توضع على نحو متواصل عند الممرات الجبلية والمخاضات النهرية الاستراتيجية، وغالبًا ما كانت تقع على مسافات كبيرة عن الأحجار المماثلة التي يضعها العدو. وكانت تُقرأ أفقيًا، على مستوى العين، على أنّها نقاط امتداد للسلطة الملكية، «لا من الجو». ولم يبدأ زعماء تايلند إلا في سبعينيات القرن التاسع عشر النظر إلى الحدود على أنها أجزاء من خطٍّ خرائطيّ متواصل لا يتوافق مع أي شيء مرئي على الأرض، بل يرسمُ حدود سيادةٍ حصريّةٍ محشورةٍ بين سيادات أخرى. وفي عام 1874 ظهر أول كتاب مدرسي جغرافي، وضعه المبشّر الأميركي ج. و. فان دايك، وكان

Richard Muir, *Modern Political Geography* (New York: Macmillan, 1975), p. 119.

(13)

نتائجًا باكرًا لرأسمالية الطباعة التي كانت تكتسح سيام في ذلك الوقت. وفي عام 1882 أسس راما الخامس في بانكوك مدرسة خاصة لوضع الخرائط. وفي عام 1892 عمّد وزير التربية الأمير دامرونغ راجانوفاب إلى جعل الجغرافيا مادة إجبارية للمستوى الثانوي الأدنى، وذلك في إطار تدشينه نظام المدارس الحديثة على مستوى البلاد. وفي عام 1900، أو حواله، نُشر فوميسات سايام [جغرافيا سيام] لمؤلفه و. غ. جونسون، الذي بات نموذجًا لكل جغرافيات البلد المطبوعة منذ ذلك الحين فصاعدًا⁽¹⁴⁾. ويلاحظ ثونغشاي أن التقارب الموجه بين رأسمالية الطباعة وما قدّمته هذه الخرائط من تصوّر جديد للواقع المكاني كان له تأثيره المباشر في معجم مفردات السياسة التايلندية. ذلك أنه بين عامي 1900 و 1915 اختفت الكلمتان التقليديتان كرونغ وموانغ إلى حدّ بعيد، لأنهما كانتا تصوّران منطقة السيادة باعتبارها عواصم مقدّسة، ومراكز سكانية واضحة، غير متمادية⁽¹⁵⁾. وحلّت مكانهما كلمة بارثيت «بلد» التي صورت منطقة السيادة باعتبارها مكانًا إقليميًا ذا حدود ليست مرئية⁽¹⁶⁾.

مثل التعدادات، وضعت الخرائط على النمط الأوروبي الأساس لتصنيف شامل، وسأقت متجّيها ومستخدميها البيروقراطيين صوب سياسات ذات نتائج ثورية. ومنذ اختراع جون هاريسون للكرونومتر في عام 1761، تلك الأداة التي مكّنت من حساب خطوط الطول ذلك الحساب الدقيق، بات سطح الكوكب المنحني برمته واقعًا في إيسار شبكة هندسية وضعت البحار الفارغة في مربعات والمناطق غير المُستكشفة في خانات مُقاسة⁽¹⁷⁾. وكان يجب على المستكشفين والمسّاحين والقوات العسكرية أن تنجز مهمة «ملء» الخانات، إذا جاز التعبير. وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في جنوب شرق آسيا، عصر المسّاحين العسكريين الذهبي، سواء كانوا كولونيين أم تايلنديين، بعد ذلك

Winichakul, pp. 105-110 and 286.

(14)

(15) يجد القارئ مناقشة مفصلة للتصوّرات القديمة عن السلطة في جاوة (التي تتماشى، مع اختلافات بسيطة، مع التصورات التي وُجدت في سيام القديمة)، في: Benedict R. O'Gorman Anderson, *Language and Power: Exploring Political Cultures in Indonesia* (Ithaca: Cornell University Press, 1990), chapter 1.

Winichakul, p. 110.

(16)

David S. Landes, *Revolution in Time: Clocks and the Making of the Modern World* (17) (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1983), chapter 9.

بقليل. وكان هؤلاء في طريقهم إلى إخضاع المكان للرقابة ذاتها التي كان القِيمون على التعداد يسعون إلى فرضها على الأشخاص. وتواصل تحالف الخريطة والسلطة، قياسًا إثر قياس، وحربًا بعد حرب، ومعاهدة خلف معاهدة. وكما يقول ثونغشاي بحق:

«تري معظم نظريات الاتصال، وكذلك الفهم الشائع، أنَّ الخريطة تجريد علمي للواقع. ذلك أنَّ الخريطة تقتصر على تمثيل شيء موجود «هناك» مسبقًا وبصورة موضوعية. أمَّا في التاريخ الذي وَصَفْتُهُ، فهذه العلاقة معكوسة. الخريطة سابقة على الواقع المكاني، لا العكس. بعبارة أخرى، الخريطة نموذج لما تقصد أن تمثله وليست نموذجًا منه... وغدت أداة فعلية لِمَلَمَسَةِ إسقاطات تُسَقَط على سطح الأرض. وباتت الخريطة الآن ضرورية لآليات الإدارة الجديدة وللجيوش كي تؤكّد ما تدّعيه من حقوق... وبات الخطاب الذي ينطوي عليه وَضْعُ الخرائط الإطارَ المفهومي الذي تجري ضمنه وتخدمه العمليات الإدارية والعسكرية على حدٍّ سواء»⁽¹⁸⁾.

عند مُنْقَلَب القرن، ومع الإصلاحات التي أجراها الأمير دامرونغ في وزارة الداخلية (وهذا اسمُ خرائطيّ دقيق)، وَضِعَت إدارة المملكة في النهاية على أساسٍ خرائطيّ - إقليميٍّ تمامًا، على غرار ما سبق فعله في المستعمرات المجاورة.

ليس من الحكمة أن نُغْفِل التداخل الحاسم بين الخريطة والتعداد، لأنَّ الخريطة الجديدة عملت بقوة على قَطْع تلك السلاسل اللانهائية من «الهاكيين» و«السريلانكيين من غير التاميل» و«الجاويين» التي كان جهاز التعداد الرسمي يستحضرها، لأغراض سياسية، من خلال تحديده المناطق التي تنتهي عندها. بالمقابل، عَمِلَ التعداد، من خلال نوع من التثليث الديموغرافي، على ملء الطوبوغرافيا الرسمية للخريطة سياسيًا.

بزغ من هذه التغيرات تجسّيدان للخريطة (كلاهما أنشأته الدولة الكولونيالية في مرحلتها الأخيرة) كانا بمنزلة تصوّر مسبق مباشر لقوميات

جنوب شرق آسيا الرسمية في القرن العشرين. تمثل التجسيد الأول في أن الأوروبيين كثيرًا ما حاولوا أن يضيفوا الشرعية على نشر سلطتهم بطرائق شبه قانونية، نظرًا إلى إدراكهم التام أنهم يشغلون في هذه المناطق المدارية مكانة المتطفل، لكنه المتطفل القادم من حضارة كان قد ترسّخ فيها قانون الإرث وقانون نقل ملكية المكان الجغرافي منذ وقتٍ طويل⁽¹⁹⁾. وكان من بين الطرائق الأكثر شيوعًا «وراثتهم» تلك السیادات التي كان يدّعيها الحكّام المحليون الذين أطاح بهم الأوروبيون أو أخضعوهم. وفي كلا الحالين كان مغتصبو السلطة ينكبّون، في مواجهة الأوروبيين الآخرين خصوصًا، على إعادة بناء تاريخ ملكية ما بات لديهم من أملاك جديدة. من هنا ظهور «الخرائط التاريخية»، في أواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، التي قصّدت منها أن تبين، عبر خطابٍ خرائطيٍّ جديد، قِدم وحداتٍ إقليمية معيّنة رُسمت حدودها بأشدّ ما يكون التدقيق. هكذا كان لسلاسل مُرتّبة زمنيًا من هذه الخرائط أن تُبرز إلى الوجود نوعًا من الرواية السّيريّة السياسية عن المملكة، وهي رواية كانت تتصف في بعض الأحيان بعمقٍ تاريخي هائل⁽²⁰⁾. وبدورها، عمدت الدول الأمم التي غدت في القرن العشرين وريثة الدول الكولونiale إلى تبني هذه الرواية، وإن تكن قد عدّلتها في أغلب الحالات⁽²¹⁾.

(19) لا أعني الإرث المتعلّق بالملكية الخاصة للأرض وبيعها بالمعنى المعتاد فحسب. الأهم من ذلك ما كان يمارسه الأوروبيون من نقلٍ سياسي لملكية الأرض، مع سكّانها، عن طريق الزيجات الملكية. كانت الأميرات، عند الزواج، يجلبن لأزواجهنّ دوقيات وإمارات صغيرة، وكان يجري التفاوض على هذه الضروب من نقل الملكية و«توقع». وما كان لأيّ دولة في آسيا قبل الكولونiale أن تتصوّر القول المأثور: *Bella gerant alii, tu, felix Austria, nube*!

<فليشعل الآخرون الحروب، أمّا أنت أيتها النمسا المحظوظة فتزوجي>.

(20) انظر: Winichakul, p. 387.

حيث يتناول استيعاب الطبقة الحاكمة هذا النمط من التخيل. «تبعًا لهذه الخرائط التاريخية، لم يعد الكيان الجغرافي خاصيّة حديثة بل دُفع إلى الوراء أكثر من ألف عام. هكذا تساعد الخرائط التاريخية في رفض أي اقتراح يقول إنّ الانتماء إلى أمة لم يظهر إلا في الماضي القريب، وعلى استبعاد المنظور الذي يرى أنّ سيام الحالية كانت نتيجةً لضروب من الشقاق. وكذلك أيّ فكرة مفادها أنّ سيام كانت ثمرة الاتصال بينها وبين القوى الأوروبية».

(21) لم يكن هذا التبنّي خدعةً مكيا فيلية بأي حال من الأحوال. إذ كان لدى القوميين الأوائل في مستعمرات جنوب شرق آسيا كلها ذلك الوعي الذي شكلته بعمق «هيئة» الدولة الكولونiale ومؤسساتها. انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

تمثل التجسيد الثاني في الخريطة - بوصفها - لوغو. ولهذا التجسيد أصول قد يكون من المنطقي القول إنها بريئة: هي ما كانت تمارسه الدول الإمبراطورية من تلوين مستعمراتها على الخرائط بصباغ إمبراطوري؛ ففي خرائط لندن الإمبراطورية عادةً ما كانت المستعمرات البريطانية تُلوّن بالأحمر الزهري، والفرنسية بالأزرق الأرجواني، والهولندية بالبنّي المصفر... وهلمجرًا. وبتلوينها على هذا النحو، كانت كلّ مستعمرة تبدو مثل قطعة قابلة لأن تُفصل وحدها من لعبة الصور المُقطّعة. وحين غدا مفعول «الصور المُقطّعة» هذا معتادًا وشائعًا، صار من الممكن فصل كلّ «قطعة» عن سياقها فصلًا كاملاً. وبات من الممكن، في الشكل النهائي، إزالة الشروح التفسيرية كلها: خطوط الطول والعرض، أسماء الأماكن، علامات الأنهار والبحار والجبال، والجيران. وبذلك بُتّنا إزاء علامةٍ صُرِف، لم تُعدّ مقيدةً إلى العالم. وبهذا الشكل دخلت الخريطة سلسلةً قابلةً للاستنساخ إلى ما لا نهاية، وبات من الممكن تحويلها إلى ملصقات وأختام رسمية وترويسات وأغلفة مجلات وكتب مدرسية وأغطية مناوئ وجدران فنادق. ولأن الخريطة - اللوغو يمكن تمييزها على الفور وتُرى في كلّ مكان، اخترقت عميقًا الخيال الشعبي، وبات رمزًا قويًا للقومية الوليدة المناهضة للكلونيالية⁽²²⁾.

تشكّل إندونيسيا الحديثة مثالًا جيدًا ومؤلمًا على هذه السيرة. في عام 1828 أقيمت أول مستوطنة هولندية مصابة بالحمى على جزيرة غينيا الجديدة. ومع أنّ هذه المستوطنة توجّب إخلاؤها في عام 1836، أعلن التاج الهولندي

(22) يمكن للمرء أن يرى في كتابات نك يواكين، الأديب الفيليبيني البارز المعاصر والوطني بلا شك، كيف يؤثّر الشعار بقوة حتى في العقول الأشدّ صقلًا. يكتب يواكين عن الجنرال أنطونيو لونا، البطل التراجيدي الذي خاض الكفاح ضد الأميركيين في عامي 1898 - 1899، أنه هُرع كي «يؤدي الدور الذي بات غريزيًا في الكريول على مدى ثلاثة قرون: الدفاع عن شكل الفيليبين في وجه مخرب أجنبي». انظر: Nick Joaquin, *A Question of Heroes* (Manila: Ayala Museum, 1977), p. 164.

(التشديد لي). وهو يلاحظ في غير مكان، على نحوٍ مدهش، أنّ «حلفاء إسبانيا الفيليبينيين، من متنصرين ومرترقة الذين أرسلوا ضد الثائر الفيليبيني لعلهم أبقوا الأرخبيل إسبانيًا ومسيحيًا، لكنهم حالوا أيضًا بينه وبين التفكك»؛ وأنهم «كانوا يقاتلون (بصرف النظر عن نوايا الإسبان) من أجل الحفاظ على وحدة الفيليبين». انظر: Joaquin, p. 58.

سيادته على ذلك الجزء من الجزيرة الواقع غرب خط الطول 141 درجة (وهو خط غير مرئي ولا يوافق شيئاً على الأرض، لكنه موجود في الخانة التي تشمل فضاءات كونراد الفارغة^(*) التي راحت تتضاءل شيئاً فشيئاً)، باستثناء بعض المناطق الساحلية المتمادية التي اعتبرت تحت سيادة سلطان تيدور. ولم تُشترَ لاهاي حصة السلطان إلا في عام 1901، لتضمّ غينيا الجديدة الغربية إلى جزر الهند الهولندية: في الوقت الملائم لتحويل الخريطة إلى لوغو. وبقيت أجزاء واسعة من المنطقة بين فضاءات كونراد الفارغة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ وكان معظم تلك الحفنة من الهولنديين الموجودين هناك من المبشرين والمنقّبين عن المعادن وحراس السجون التي اعتُقل فيها القوميون الإندونيسيون الراديكاليون العنيدون. واختيرت المستنقعات إلى الشمال من ميروك، عند الطرف الجنوبي الشرقي الأقصى من غينيا الجديدة الهولندية، كموقع لهذه المرافق، وذلك على وجه الدقة لأنّ هذه المنطقة كانت تُعدّ نائية تماماً عن بقية المستعمرة، ولأنّ سكانها المحليين «من العصر الحجري» كانوا يُعدّون مُطَهَّرين تماماً من التفكير القومي⁽²³⁾.

عمل اعتقال القوميين في غينيا الجديدة الغربية، ودفنهم هناك في أغلب الأحيان، على إعطاء هذه المنطقة مكانة مركزية في فولكلور الكفاح ضد الكولونيالية، وجعلها موقعاً مقدّساً في الخيال القومي: إندونيسيا حرة، من سابانغ (عند الطرف الشمالي الغربي من سومطرة) إلى ميروك، ومن سواها؟ ولم يشكّل أيّ فارق على الإطلاق أن ما من قوميّ قطّ، سوى بضع مئات من المعتقلين، كان قد رأى غينيا الجديدة بأمّ عينيه قبل ستينيات القرن العشرين. لكن الخرائط - اللوغو الكولونيالية الهولندية انتشرت عبر المستعمرة مُظهِرة غينيا الجديدة الغربية من دون أيّ شيء إلى الشرق منها، وعملت من دون قصد على تعزيز الروابط المُتخيَّلة المتنامية. وحين اضطر الهولنديون، في أعقاب الحروب المريرة المناهضة للكولونيالية بين عامي 1945 و 1949 إلى التخلي لولايات إندونيسيا المتحدة عن السيادة على الأرخبيل، حاولوا

(*) المقصود هنا هو الروائي الإنكليزي، البولوني الأصل، جوزيف كونراد وما يشير إليه في روايته قلب الظلام من فضاءات فارغة على الخريطة.

Robin Osborne, *Indonesia's Secret War, The Guerrilla Struggle in Irian Jaya* (Sydney: (23)

Allen and Unwin, 1985), pp. 8-9.

(لأسباب لا حاجة إلى أن نتوقف عندها هنا) أن يفصلوا غينيا الجديدة الغربية مرة أخرى، بإبقائها مؤقتًا تحت الحكم الكولونيالي، وإعدادها لتكون ذات انتماء قومي مستقل. ولم يأت عام 1963 حتى تخلّى الهولنديون عن هذا المشروع، نتيجة الضغط الدبلوماسي الأمريكي الكثيف والغارات العسكرية الإندونيسية. عندها فحسب قام الرئيس سوكارنو لأول مرة، وفي الثانية والستين من عمره، بزيارة منطقة ظلّ يخطب من أجلها من دون كلل طيلة أربعة عقود. ويمكن أن نعزو العلاقات المؤلمة اللاحقة بين سكان غينيا الجديدة الغربية ومبعوثي الدولة الإندونيسية المستقلة إلى حقيقة أن الإندونيسيين كانوا صادقين إلى هذا الحدّ أو ذاك في اعتبار هؤلاء السكان «أخوة وأخوات»، في حين أن هؤلاء الآخرين، في معظمهم، كانوا يرون الأمور على نحوٍ مختلف أشدّ الاختلاف⁽²⁴⁾.

يدين هذا الاختلاف بالكثير إلى التعداد والخريطة. إذ خلق نأْيُ غينيا الجديدة ووعورة أرضها عبر آلاف السنين ضَرْبًا من التشردم اللغوي الاستثنائي. وحين ترك الهولنديون المنطقة في عام 1963 قدّروا أن هنالك ما يزيد على 200 لغة، مستغلّق بعض معظمها على بعضه الآخر، منتشرة بين السكان الذين لا يزيد تعدادهم على 700000⁽²⁵⁾، بل إنّ كثيرًا من الجماعات «القبلية» الأبعد كانت تجهل واحدها وجود الأخرى. لكن المبشرين والموظفين الهولنديين، خصوصًا بعد عام 1950، راحوا يبذلون جهدًا جدّيًا من أجل «توحيد» تلك الجماعات من خلال إجراء التعدادات ومدّ شبكات الاتصال وفتح المدارس وإقامة البنى الحكومية فوق القبلية. وأُطلِقَتْ هذا الجهد دولة كولونiale كانت،

(24) شهدت غينيا الجديدة الغربية (وصارت تدعى إيريان جايا؛ أي إيريان العظمى) كثيرًا من الحوادث الدموية منذ عام 1963، ويعود ذلك في جزء منه إلى عسكرة الدولة الإندونيسية منذ عام 1965، ويعود في جزء آخر إلى نشاطات حرب العصابات الفاعلة المتقطعة التي تمارسها منظمة تحرير بابوا، لكن هذه الضروب من القسوة تبهت مقارنة مع وحشية جاكارتا في تيمور الشرقية البرتغالية سابقًا، حيث يُقدَّر أن ثلث السكان البالغ تعدادهم 600000 قتلوا في الأعوام الثلاثة الأولى من غزو عام 1976 بسبب الحرب والمجاعة والمرض و«إعادة التوطين». ولا أحسب من الخطأ أن نشير إلى أن الفارق يعود في جزء منه إلى غياب تيمور الشرقية عن ضروب اللوغو الخاصة بجزر الهند الشرقية الهولندية، وإلى غيابها أيضًا، حتى عام 1976، عن تلك الخاصة بإندونيسيا.

كما لاحظنا من قبل، فريدة في أنها لم تحكم جزر الهند عن طريق لغة أوروبية في المقام الأول، بل من خلال «الملاوية الإدارية»⁽²⁶⁾. ومن هنا كانت غينيا الجديدة الغربية قد «ترعرعت» على اللغة ذاتها التي نشأت عليها إندونيسيا (والتي غدت اللغة القومية لاحقًا). والمفارقة الساخرة أن الباهاسا إندونيسيا غدت بذلك اللغة المشتركة لقومية بابوانية غربية، أو غينية غربية جديدة بازغة⁽²⁷⁾.

غير أن ما جمع معًا قومي بابوا الغربية الشباب المتنازعين في الأغلب كان الخريطة، خصوصًا بعد عام 1963. وعلى الرغم من أن الدولة الإندونيسية غيرت اسم المنطقة من غينيا الجديدة الغربية، إلى إيريان الغربية أولًا، ثم إلى إيريان جايا، فإنها تقرأ واقعها المحلي انطلاقًا من أطلس الحقبة الكولونيالية الذي ينظر من عل. وقد يعرف بعض الأنثروبولوجيين والمبشرين والموظفين المحليين شيئًا عن الندانين والأسمات والباوديين، ويفكرون بأمرهم. لكن الدولة ذاتها، وعبرها الشعب الإندونيسي ككل، لا ترى سوى شبح «إيرياني» (أورانغ إيريان) سُمي على اسم الخريطة؛ ولأنه شبح، لا بد من تخيله في شكل أشبه باللوغو: ملامح «شبه زنجية»، قضيب ذو أغمدة... وما إلى ذلك. هكذا يبرز جنين جماعة قومية «إيريانية»، يحدّها خط الطول 141 والمقاطعات المجاورة من شمال مولوكاس وجنوبها، وذلك بطريقة تذكّرنا بالكيفية التي جرى بها في البداية تخيل إندونيسيا ضمن بنى جزر الهند الشرقية الهولندية في أوائل القرن العشرين، تلك البنى العنصرية. وعندما قتلت الدولة في عام 1984 أرنولد آب، أبرز الناطقين باسم هذه الجماعة وأشدّهم جاذبية، كان أمينًا لمتحف بنته الدولة مكرّس للثقافة «الإيريانية» (المحلية) (*).

(26) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

(27) أفضل علامة على هذا هي أن اسم المنظمة القومية المناهضة لإندونيسيا التي تخوض حرب العصابات، أورغانيزاسي بابوا ميرديكا (OPM)، مؤلف من كلمات إندونيسية. (*) أرنولد آب (1945 - 1984) من قادة الثقافة في بابوا الغربية، أنثروبولوجي وموسيقي وأمين متحف جامعة سيندرواسيه، كان ينشر الثقافة البابوانية من خلال برنامج إذاعي أسبوعي. لكن كثيرين اعتبروا دراسته الثقافة والموسيقى البابوانية وأداءه لهما تحديًا لما كانت تبذله الحكومة الإندونيسية من جهد ضد القومية والهوية البابوانيتين. وفي وقت وفاة آب، كان ثمة محاولات قوية لتوحيد الشعوب الإندونيسية في ظل ثقافة طابعها الأساس والمسيطر هو الطابع الجاوي. في تشرين الثاني/نوفمبر 1983 أُلقت القوات الخاصة الإندونيسية القبض على آب وسجنته وعذبت لاشتباها بتعاطفه مع حركة بابوا الحرة، على الرغم من أنها لم توجه له أي تهمة. وفي نيسان/أبريل 1984 قُتل بطلقة في الظهر، وادّعت الروايات الرسمية أنه كان يحاول الهرب.

المتحف

ليست الصلة بين مهنة أرنولد آب واغتياله بالصلة العفوية العارضة على الإطلاق. ذلك أن كلا المتحف والخيال المتحفّي سياسي على نحو عميق. وكون جاكارتا البعيدة هي التي أقامت المتحف الذي كان أرنولد آب أمينه إنما يُظهر لنا كم تعلمت إندونيسيا الدولة الأمّة الجديدة من سلفها المباشر، جزر الهند الشرقية الهولندية الكولونiale. ويشير انتشار المتاحف الراهن في أرجاء جنوب شرق آسيا إلى سيرورة عامة من الوراثة السياسية تفعل فعلها. ولا بدّ لفهم هذه السيرورة من أن ننظر إلى علم الآثار الكولونيالي الجديد في القرن التاسع عشر الذي جعل مثل هذه المتاحف أمراً ممكناً.

حتى أوائل القرن التاسع عشر لم يُبدّ حكام جنوب شرق آسيا الكولونياليون سوى اهتمام بالغ الضالة بآثار الحضارات التي أخضعوها. وكان توماس ستامفورد رافليس، المبعوث المشووم من كالكوتا وليم جونز^(*)، أول موظّف كولونيالي بارز لا يكتفي بتكديس مجموعة شخصية ضخمة من الـ *objets d'art* <الأعمال الفنية> المحلية فحسب، بل يدرس تاريخها أيضاً على نحو منهجي⁽²⁸⁾. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً راحت عظمة بوروبودور وأنغكور وباغان ومواقع قديمة أخرى تُنبش، بسرعة متزايدة، وتُزاح عنها الأشجار وتُقاس وتُصوّر ويُعاد بناؤها وتُسجّج وتُحلّل وتُعرض⁽²⁹⁾. وغدت

(*) السّر وليم جونز (1746 - 1794) لغوي ودارس تاريخ الهند القديم، عُرف بطرحه وجود علاقة بين اللغات الهندوأوروبية وبتأسيسه الجمعية الآسيوية في كالكوتا. أمّا توماس ستامفورد رافليس (1781 - 1826) فهو من أشهر الذين ساهموا في توسّع الإمبراطورية البريطانية، ويُعدّ المؤسس لمدينة سنغافورا.

(28) في عام 1811، استولت قوات شركة الهند الشرقية على الممتلكات كلها في جزر الهند (كان نابليون قد ضمّ هولندا إلى فرنسا في العام السابق). حكم رافليس في جاوة حتى عام 1815. وكتابه الضخم تاريخ جاوة ظهر في عام 1817، قبل عامين من تأسيسه سنغافورا.

(29) يشكل تحويل بوروبودور إلى متحف، وهو أكبر معبد بوذي في العالم، مثلاً على هذه السيرورة. ففي عام 1814، «اكتشفه» نظام رافليس، وأزاح عنه الأشجار. وفي عام 1845 أُنقذ المغامر الفنان الألماني العصامي شيفر السلطات الهولندية في باتافيا بأن تمّوله كي يلتقط للمعبد أول صور شمسية على صفائح مفضضة. وفي عام 1851 أرسلت باتافيا فريقاً من مُستخدمي الدولة، بقيادة المهندس المدني ف. سي. ويلسن، لإجراء مسح منهجي للنقوش وتقديم مجموعة «علمية» كاملة من الصور المطبوعة على الحجر. وفي عام 1874، نشر د. سي. ليمانز، مدير متحف العاديات في ليدن، =

مديريات الآثار الكولونiale مؤسسات قوية ومهنية، تحشد خدمات بعض الموظفين - الباحثين من ذوي المقدرة الاستثنائية⁽³⁰⁾.

سوف نشرّد بعيداً لو حاولنا أن نستكشف تماماً لماذا حدث هذا، حين حدث. ولعلّه يكفي أن نشير هنا إلى أن التغيّر كان مترافقاً مع أفول نظامي الحكم الكولونيين التجاريين لشركتي الهند الشرقية العظيمين، ونشوء مستعمرة حديثة حقاً مرتبطة بالمتروبول مباشرة⁽³¹⁾. عندئذٍ، باتت هيئة الدولة

= نزولاً عند رغبة وزير المستعمرات، أول بحث علمي ضخّم؛ واعتمد في ذلك اعتماداً كبيراً على صور ويلسن، كونه لم يزر الموقع بنفسه على الإطلاق. وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، أجرى المصور المحترف كيفاس مسحاً فوتوغرافياً شاملاً من النمط الحديث. وفي عام 1901، أنشأ النظام الكولونالي لجنة العاديات. وبين عامي 1907 و 1911، أشرفت هذه اللجنة على ترميم المعبد بأكمله، وهو ترميمٌ أجراه على نفقة الدولة فريق يقوده المهندس المدني فان إيرب. وتعرّز وضع اللجنة في عام 1913، اعترافاً بهذا النجاح بلا شك، فارتقت لتغدو هيئة العاديات التي حافظت على الآثار غاية في الترتيب والأناقة حتى نهاية المرحلة الكولونiale. انظر: C. Leemans, *Boro-Boudour* (Leiden: Brill, 1874), pp. ii-iv, and N. J. Krom, *Inleiding tot de Hindoe-Javaansche Kunst*, 2nd Rev. ed. (The Hague: Nijhoff, 1923), chapter 1.

(30) كان فايسروي كُرزون (1899 - 1905) ذلك المهتمّ بالعاديات الذي «نشط» المسح الأثري للهند، كما يقول غروسلييه، ووضع الأمور في نصابها، إذ قال: «إنّه... لمن واجبنا بالمثل أن نحفر ونكتشف، وأن نصنّف، ونعيد الإنتاج ونصف، وأن ننسخ ونفكّ الرموز، وأن نرعى ونحافظ» (ما كان فوكو ليقول ذلك على نحو أفضل). وفي عام 1899 جرى تأسيس دائرة الآثار في بورما - التي كانت آنئذٍ جزءاً من الهند البريطانية - وسرعان ما بدأت باستعادة باغان. وفي العام السابق كان قد جرى تأسيس الـ *Ecole Française d'Extrême-orient* (المعهد الفرنسي للشرق الأقصى) في سايفون، ليتلوّه تأسيس مديرية المتاحف والآثار التاريخية في الهند الصينية. وبعد استيلاء الفرنسيين مباشرة على سيمريب وياتامبانغ من سيام في عام 1907 أسست هيئة للحفاظ على أنغكور كي تضيفي طابع كُرزون على أشدّ آثار جنوب شرق آسيا القديمة رهبةً وروعة. انظر: Bernard Philippe Groslier, *Indochina* (Cleveland; New York: The World Publishing Company, 1966), pp. 155-157, 174-7.

كما لاحظنا من قبل، فإن لجنة العاديات الكولونiale الهولندية كانت قد أسست في عام 1901. والانسجام بين هذه الأعوام - 1898 و 1899 و 1901 - لا ينمّ على الجِدّة والاهتمام البالغين اللذين كانت القوى الكولونiale المتنافسة تراقب بهما واحدها الأخرى فحسب، بل ينمّ أيضاً عن تلك التغيرات العميقة التي كانت تعترّي الإمبريالية عند منقلب القرن. وكما كان من المتوقّع، واصلت سيام المستقلة السير على هذه الطريق ببطء أكبر. فلم تؤسّس هيئة الآثار إلا في عام 1924، والمتحف الوطني في عام 1926. انظر: Charles Higham, *The Archaeology of Mainland Southeast Asia* (New York; Cambridge: Cambridge University Press, 1989), p. 25.

(31) تمت تصفية شركة الهند الشرقية المتحدة بسبب إفلاسها في عام 1799. لكن مستعمرة =

الكولونيات مرتبطة ذلك الارتباط الوثيق بهيبة الوطن الأم فوقها. وتركز الجهد الأثري بقوة وبصورة واضحة على ترميم الآثار المهيبة (وراحت هذه الآثار توضع على الخرائط بقصد نشرها العام والتشريف بها: كان ثمة نوع من تعداد الموتى يجري الآن). ولا شك في أن هذا الإلحاح كان يعكس نزعات استشراقية عامة. لكن ضروب التمويل الضخمة الموظفة تتيح لنا أن نشبه بأنه كان لدى الدولة أسبابها الخاصة، غير العلمية. وثمة ثلاثة من هذه الأسباب تشير إلى ذاتها مباشرة، والأخير من بينها هو الأشد أهمية بلا جدال.

ما يلاحظ، في المقام الأول، هو التزامن في التوقيت بين الاندفاع الأثري وأول صراع سياسي على سياسات الدولة التعليمية⁽³²⁾. إذ حث «التقدميون» - من كولونيين ومحليين على حد سواء - على توظيف أكبر الاستثمارات في التدريس الحديث. ووقف في وجههم صف من المحافظين الذين كانوا يخشون العواقب طويلة الأمد التي يمكن أن تترتب على مثل هذا التدريس، ويفضلون أن يبقى المحليون محليين. ويمكن، في هذا الضوء، أن ننظر إلى عمليات ترميم الآثار - التي سرعان ما تلاها طبعات رعتها الدولة من النصوص الأدبية التراثية - على أنه نوع من البرنامج التعليمي المحافظ الذي استُخدم أيضًا ذريعة لمقاومة ضغط التقدميين. أمّا السبب الثاني فيتمثل في أن برامج إعادة البناء الرسمية الأيديولوجية عادة ما تضع بُناة الآثار والمحليين الكولونيين في تراتبية معينة. وفي بعض الحالات، كما في جزر الهند الشرقية الهولندية حتى ثلاثينيات القرن العشرين، كانت الفكرة الرائجة

= جزر الهند الهولندية تعود إلى عام 1815، حين استعاد الحلف المقدس استقلال هولندا، وأُجلس وليم الأول البرتغالي على العرش الهولندي الذي اخترعه نابليون وأخوه اللطيف لوي لأول مرة في عام 1806. أمّا شركة الهند الشرقية البريطانية فبقيت قائمة حتى التمرد الهندي الكبير في عام 1857.

(32) أسست لجنة العاديات الحكومة ذاتها التي أطلقت (في عام 1901) «السياسة الأخلاقية» الجديدة في جزر الهند، وهي سياسة كانت تهدف لأول مرة إلى إقامة نظام تعليمي على النمط الغربي يطاول أعدادًا كبيرة من المستعمرين. وأوجد الحاكم العام بول دومير (1897 - 1902) كلاً من مديرية المتاحف والآثار التاريخية في الهند الصينية والجهاز التعليمي الحديث في المستعمرة. وفي بورما، بدأ التوسع الضخم في التعليم العالي - حيث تضاعف عدد طلبة المدارس الثانوية ثمانية أضعاف بين عامي 1900 و 1940، من 27.401 إلى 233.543، وتضاعف عدد الطلبة الجامعيين عشرين ضعفاً، من 115 إلى 2.365 - مع انطلاق عمل دائرة الآثار في بورما. انظر: Robert H. Taylor, *The State in Burma* (London: C. Hurst & Co, 1987), p. 114.

أن هؤلاء البناة لا ينتمون فعلياً إلى «العرق» ذاته الذي ينتمي إليه المحليون أهل البلد (فهم مهاجرون هنود «في الحقيقة»)⁽³³⁾. وفي حالات أخرى، كما في بورما، كان المُتَخَيَّل أن انحطاطاً دنيوياً جعل المحليين المعاصرين عاجزين عن إنجاز تلك المآثر التي أنجزها «أسلافهم» المزعمون. وإذا يُنظر في هذا الضوء إلى الآثار التي أعيد بناؤها، وتُقارن بما يحيط بها من بؤس ريفي، فإنها تقول للمحليين: إن مجرد وجودنا لهو دليل على أنكم كنتم على الدوام، أو غدوتم منذ زمن بعيد، عاجزين عن تحقيق العظمة وعن حكم أنفسكم على حدٍّ سواء.

أما السبب الثالث فيمضي بنا أعمق وأقرب إلى الخريطة. إذ سبق أن رأينا عند مناقشة «الخريطة التاريخية»، كيف راحت أنظمة الحكم الكولونيالية تربط نفسها بالقديم بقدر ما تربطها بالفتح، وذلك في الأصل لأسباب مكيافيلية مباشرة تماماً تتعلق بالشرعية. لكنه بمرور الوقت راح الكلام القاسي العلني عن الحق بالفتح يقل شيئاً فشيئاً، ويزداد شيئاً فشيئاً الجهد الرامي إلى إيجاد شرعيات بديلة. كان مزيدٌ من الأوروبيين يولدون في جنوب شرق آسيا، ويُغرون بأن يتخذوه وطناً لهم. وإذا تزايد ارتباط علم الآثار بالسياحة، أتاح للدولة أن تظهر كحارس لتراثٍ عام، لكنه تراث محليٍّ أيضاً. وكان من المتوجب إدخال المواقع المقدسة القديمة إلى خريطة المستعمرة، وخيِّمت هيبتها العريقة فوق واضعي هذه الخريطة (تلك الهيئة التي كان على الدولة أن تحييها إذا ما كانت قد اختفت، كما هو الحال في الأغلب). ومما يوضح هذا الوضع المتناقض بدقّة حقيقة أن الآثار التي أعيد بناؤها غالباً ما كانت تُحاط بمروج خضراء حسنة التنسيق، وتوضع لها لوحات شارحة هنا وهناك، مشفوعةً بالتواريخ. بل إنها كان يجب أن تبقى خاليةً من البشر، ما عدا السياح الذين يطوفون على مهل (فلا احتفالات دينية أو رحلات حجّ قدر الإمكان). وبتحويلها إلى متحف على هذا النحو فإن هذه الآثار كان يُعاد تحديد موقعها بوصفها عدّة دولة كولونيالية علمانية وزيتها.

(33) لا يزال المثقفون والأثريون والموظفون التايلنديون المحافظون يصرون إلى اليوم، وبعد أن تأثروا بهذا النوع من التفكير، على نسبة أنغكور إلى الخُم الغامضين الذين اختفوا من دون أثر، والذين من المؤكد أنه لا صلة لهم مع كمبوديي هذه الأيام المُحتقرين.

لكن القابلية اللانهائية للاستنساخ كانت، كما سبق القول، سمة مميزة لأدوات هذه الدولة المدنسة، حيث غدت ممكنة تقنيًا من خلال الطباعة والتصوير الضوئي، أما سياسيًا وثقافيًا فمن خلال عدم إيمان الحكام أنفسهم بقُدسية هذه المواقع المحلية. ويمكن أن نتبين نوعًا من المتوالية في كل مكان: (1) تقارير أثرية كثيفة ومتقنة، مشفوعة بعشرات الصور، توثق عملية إعادة بناء أطلال محددة بعينها؛ (2) كتب للاستهلاك العام تعجّ بالصور التوضيحية، وتشمل لوحات تمثيلية للمواقع الكبرى كلها التي أعيد بناؤها ضمن المستعمرة (ويكون من الأفضل بكثير، كما في جزر الهند الهولندية، إذا ما أمكن وضع المزارات الهندوسية - البوذية قرب المساجد الإسلامية المرّمة)⁽³⁴⁾. وبفضل رأسمالية الطباعة، بات ذلك النوع من التعداد المصوّر لميراث الدولة متاحًا أمام رعاياها، مهما تكن كلفته باهظة؛ (3) إضفاء عام لطابع اللوغو، الأمر الذي بات ممكنًا من خلال سيرورات التدنيس التي أشرنا إلى خطوطها العامة أعلاه. وتعدّ الطوابع البريدية، بسلاسلها المميزة - طيور، فواكه، حيوانات مدارية، وآثار أيضًا لم لا؟ - مثالًا دالًا على هذه المرحلة. لكنّ البطاقات البريدية والكتب المدرسية تتبع المنطق ذاته. ومن هناك لا يبقى سوى خطوة واحدة إلى السوق: فندق باغان وفروج بوروبودور المقلّي... وهلمجرًا.

كان هذا النوع من علم الآثار الذي نضج في عصر الاستنساخ الآلي سياسيًا على نحو عميق، إلى درجة أنّ الجميع تقريبًا، بمن في ذلك موظفو الدولة الكولونيالية (الذين بات المحليون يشكلون 90 في المئة منهم في معظم جنوب شرق آسيا في ثلاثينيات القرن العشرين)، لم يكونوا واعين لهذه الحقيقة. كان الأمر كلّه قد صار عاديًا ويوميًا. وقابلية الاستنساخ العادية

(34) من الأمثلة الدالة المتأخرة على هذا كتاب الفن الإندونيسي القديم *Ancient Indonesian Art* للباحث الهولندي أ. ج. بيرنت كيمبرز الذي يصف نفسه بأنه «مدير سابق للآثار في إندونيسيا [كذا]». ويجد المرء في الصفحتين 24 و 25 خريطين تبيين مكان المواقع القديمة. أولى هاتين الخريطين دالة على نحو خاص، لأن شكلها المستطيل (الذي يحده من الشرق خط الطول 141) يشمل طوعًا أم كرها مينداناو الفيليبين إضافة إلى بورنيو الشمالية البريطانية - الماليزية وشبه جزيرة ملايو وسنغافورا. وكلها خالية من المواقع، بل ومن أيّ تسمية مهما تكن، ما عدا حالة واحدة، لا يمكن تفسيرها، هي «قدح» (Kedah). ويجري التحول من الهندوسية - البوذية إلى الإسلام بعد اللوحة 340.

واليومية اللانهائية التي تتسم بها عدّة الدولة وزينتها هي على وجه الدّقة ما كشف القوة الفعلية التي تتميز بها هذه الدولة.

لعلّه من غير المدهش كثيرًا أن تكون دول ما بعد الاستقلال التي أبدت ضروبًا لافتة من التواصل مع أسلافها الكولونيين، قد ورثت هذه الشكل من الإتحاف السياسي. وعلى سبيل المثال عرض نوردوم سيهانوك في الإستاد الرياضي الوطني في بنوم بنه، في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1968، وكجزء من الاحتفالات بالذكرى الخامسة عشرة لاستقلال كمبوديا، نموذجًا ضخّمًا من الخشب والورق المقوّى لمعبد بايون العظيم في أنغكور⁽³⁵⁾. وكان هذا النموذج فظًا وخشّنًا على نحوٍ خاص، لكنه حقق الغرض الذي أقيم من أجله: التعرّف الفوري إليه من خلال تاريخ من إضفاء طابع اللوغو عرفته الحقبة الكولونالية. «آه، هذا بايوننا»، إنّما مع إقصاء ذكرى المرممين الكولونيين الفرنسيين ذلك الإقصاء التام. وبذلك يغدو معبد أنغكور وات الذي أعاد الفرنسيون بناءه على هيئة «الصورة المُقطّعة» مرة أخرى، الرمز المركزي لرايات نظام سيهانوك الملكي، ونظام لون نول العسكري، ونظام بول بوت اليعقوبي على التوالي، كما سبق أن لاحظنا في الفصل التاسع.

اللافت أكثر هو تلك الأدلة على الوراثة التي نجدها على المستوى الشعبي. ومن الأمثلة الموحية بهذا الشأن تلك السلسلة من الرسوم التي أمرَ بها وزير التربية في إندونيسيا في خمسينيات القرن العشرين وتصور حوادث في التاريخ القومي. كان من الواجب أن تُنتج تلك الرسوم إنتاجًا جماهيريًا كثيفًا وتوزّع على المدارس الابتدائية كلها، ليتمكنّ الإندونيسيون الصغار من أن يعلّقوا على جدران صفوفهم - وفي كلّ مكان - تمثيلات بصرية لماضي بلادهم. أمّا الخلفيات فوسّمت في معظمها بالأسلوب الطبيعي - العاطفي المتوقع الذي ميّز الفنّ التجاري في أوائل القرن العشرين، في حين أُخذت الشخصيات البشرية إما من المجسّمات المتحفية الخاصة بالحقبة الكولونالية أو من الدراما الشعبية شبه التاريخية وإيانغ أورانغ. بيد أن أشدّ ما يسترعي

(35) يمكن للقارئ أن يجد بعض الصور الالفة، في: *Kambuja*, 45 (15 December 1968).

الانتباه في تلك السلسلة هو تمثيل معبد بوروبودور^(*) الذي يُقدّم للأطفال. فهذا الأثر الضخم الذي يحوي 450 صورة لبوذا، و 1460 صورة حجرية و 1212 صورة تزيينية، هو مخزن هائل للنحت الجاوي القديم. لكن الفنان الجيد يتخيّل المعجزة أيام عزّها في القرن التاسع الميلادي بنوع من الضلال المثقّف. ذلك أنّ البوروبودور مدهون بالأبيض كلّّه، من دون أيّ أثر ظاهر للنحت. ومحاطٌ بمروج مشدّبة جيّداً وشوارع تحفّ بها الأشجار المترامية من كلّ جانب، فلا يبدو للعين أيّ كائن بشري واحد⁽³⁶⁾. وقد يرى بعضهم أنّ هذا الخلوّ يعكس قلق دّهان مسلم معاصر في مواجهة واقع بوذي قديم. لكنني أتوقّع أنّ ما نراه هو سليل مباشر وغير واع للآثار الكولونيالية: البوروبودور بوصفه من عدّة الدولة وزينتها، وبوصفه لوغّو. وما من بوروبودور إلا ويتمتع بقوة أكبر بوصفه علامة على الهوية القومية نظراً إلى إدراك الجميع موقعه في سلسلة لا نهائية من البوروبودورات المماثلة.

هكذا يوضح التعداد والخريطة والمتحف، بارتباطهم معاً، الأسلوب الذي كانت تنظر به الدولة الكولونيالية في مراحلها الأخيرة إلى منطقة نفوذها. كانت «سداة» هذا التفكير تلك الشبكة التصنيفية الشاملة التي أمكن تطبيقها بمرونة لا تنتهي على كلّ ما يقع تحت سيطرة الدولة، سواء كانت سيطرة فعلية أم مُتخيّلة: البشر والمناطق والأديان واللغات والمنتجات والآثار... وهلمجرّاً. ويتمثّل أثر الشبكة على الدوام في القدرة على القول عن أيّ شيء

(*) بوروبودور من المعالم السياحية التي تجذب الزائرين من أنحاء العالم، نال شهرة واسعة ويُعد إحدى عجائب الدنيا السبع. تم بناؤه في القرن التاسع في فترة حكم الملك سيلاندر، وعندما تضاعف تأثير الديانة البوذية في المنطقة، قلّ الاهتمام بهذا المعبد واندثرت معالمه حتى اكتشفته في عام 1814 الحكومة الهولندية المستعمرة، وكان المبنى في حالة انهيار وجزء كبير منه مدفوناً تحت الأرض. تمت إعادة بنائه في الفترة بين عامي 1905 و 1910، ثم تم ترميمه للمرة الثانية في الفترة بين عامي 1973 و 1983 من الأونيسكو.

يبلغ طوله 42م. ويتكوّن من عشرة طوابق، وتمتاز طوابقه الثلاثة الموجودة في القمة بشكلها المستدير حيث يوجد في داخلها تماثيل تغطي جدران الطوابق السبعة الأخرى بالنحت البارز.

(36) يعتمد النقاش هنا على مادة جرى تحليلها بصورة أكمل في: Anderson, *Language and*

Power, chapter 5.

إنه هذا، وليس ذاك؛ وإنه ينتمي إلى هنا، وليس إلى هناك. فهو مُقَيَّد ومُحَدَّد وقابلٌ - من حيث المبدأ - للعدِّ إذاً. (كانت خانات التعداد المضحكة الحاوية على صنف «الآخرين» بوصفه صنفًا أساسيًا أو فرعياً تغطي كل ضروب الشذوذ أو الخروج على القياس الواقعية عن طريق *trompe l'oeil* <سراب> بيروقراطي مذهل). أمّا «لحمة» هذا التفكير فكانت ما يمكن للمرء أن يدعوه التسلسل: افتراض أن العالم مؤلّف من جموع قابلة للمضاعفة والتكرار. وأنّ الشيء المُحَدَّد يقف على الدوام كممثلٍ موقت لسلسلةٍ ما، ويجب أن يُعامل على هذا النحو. وهذا هو السبب في أنّ الدولة الكولونيالية تخيلت سلسلةً صينية قبل أيّ صيني، وسلسلة قومية قبل ظهور أيّ قوميين.

ما من أحدٍ جاء باستعارة تعبّر عن هذا الإطار العقلي أفضل من تلك التي جاء بها الروائي الإندونيسي العظيم برامويديا أنانتا توير الذي عنّون الجزء الأخير من ثلاثيته عن المرحلة الكولونيالية روماه كاكّا، أو البيت الزجاجي. وهو صورةٌ للمراقبة الشاملة قويةٌ مثل بانوبتيكون بنتام^(*). ذلك أنّ طموح الدولة الكولونيالية لا يقتصر على أن تخلق تحت سيطرتها منظرًا بشريًا واضحًا تمامًا؛ فشرط هذا «الوضوح» أن يكون لكلّ امرئٍ، وكلّ شيءٍ، رقمًا متسلسلاً⁽³⁷⁾. وهذا النمط من التخيّل لم يأت من فراغ. فهو نتاج تكنولوجيات الإبحار والفلك وقياس الزمن والمراقبة والتصوير والطباعة، فما بالك بالقوة الدافعة العميقة التي هي قوة الرأسمالية.

هكذا شكّل التعداد والخريطة القواعد التي ستمكّن في النهاية من قيام «بورما» و«البورميين»، و«إندونيسيا» و«الإندونيسيين». لكنّ مَلَمَسَة هذه الإمكانيات - تلك المَلَمَسَة التي تتسم اليوم بحياة يومية فاعلة، بعد انقضاء فترة

(*) البانوبتيكون (panopticon) سجن يتيح تصميمه الدائري حول برج مراقبة مركزي مراقبة جميع السجناء بوساطة حارس واحد، لكن هذه الكلمة صارت تُطلق على كلّ تصميم يتيح الرؤية والمراقبة الشاملتين، وفكرة البانوبتيكون هي للفيلسوف والمنظر الاجتماعي النفعي الإنكليزي جيريمي بنتام. (37) من الثمرات السياسية النموذجية التي تسفر عنها تخيلات البيت الزجاجي - وهي ثمرة يدركها برامويديا السجين السابق على نحوٍ مؤلم - بطاقة الهوية الشخصية التي يجب على كلّ إندونيسي راشد أن يحملها معه الآن طوال الوقت. فهذه البطاقة الشخصية تناظر التعداد: فهي تمثل نوعًا من التعداد السياسي، مع تثقيبات خاصة لأولئك الذين ينتمون إلى سلسلة «الهدّامين» أو «الخونة» الفرعية. ومن الملحوظ أن هذا النمط من التعداد لم يكتمل إلا بعد تحقيق الاستقلال القومي.

طويلة على زوال الدولة الكولونيالية - تدين بالكثير إلى تخيل الدولة الكولونيالية الخاص كلاً من التاريخ والسلطة. فعلم الآثار كان مشروعاً لا يمكن تخيله في جنوب شرق آسيا ما قبل الكولونيالي؛ ولم تتبنه سيام التي لم تُستعمر إلا في مرحلة لاحقة من اللعبة، وعلى طريقة الدولة الكولونيالية. وكان أن خلق سلسلة من «الآثار القديمة»، موزعة ضمن الخانة الجغرافية - الديموغرافية التصنيفية «جزر الهند الهولندية» و«بورما البريطانية». وإذ يجري تصوّر الأطلال في إطار هذه السلسلة المُدَنّسة، فإنّ كلّ طلل يغدو متاحاً للمراقبة والتكرار الذي لا نهاية له. ولما كانت مديريات الآثار التي أقامتها الدولة الكولونيالية قد مكّنت تقنياً من جمع السلاسل في شكل خرائطي ومصوّر، أمكن لهذه الدولة ذاتها أن تعتبر السلاسل، وصولاً إلى الأزمنة التاريخية، بمنزلة ألبوم لأسلافها. والشيء الأساس ليس قطّ البوروبودور عينه، ولا الباغان ذاته، اللذين ليس للدولة أيّ اهتمام جوهري بهما ولا تربطها بهما سوى الصلات الأثرية. والسلاسل القابلة للنسخ والتكرار هي التي خلقت عمقاً تاريخياً للحقل الذي ورثته بسهولة خليفة الدولة ما بعد الكولونيالية. وكانت الثمرة المنطقية الأخيرة هي اللوغو - لوغو «باغان» أو «الفيليبين»، لا فرق مهمّاً - الذي عمِلَ - بسبب من فراغه وانقطاعه عن أيّ سياق وانطباعه في الذاكرة البصرية وقابليته للاستنساخ اللانهائي في كلّ اتجاه - على جمع التعداد والخريطة، السداة واللحمة، في عناق لا سبيل إلى مخّوه.

الذاكرة والنسيان

المكان حديثًا وقديمًا

نيو يورك، نونا لئون، نوفيل أورليانز، نونا ليسانوا، نوني أمستردام. كان الأوروبيون في القرن السادس عشر قد بدأوا تلك العادة الغربية المتمثلة بتسمية الأماكن النائية، في الأمريكيتين وأفريقيا أولاً، ثم في آسيا وأستراليا وأوقيانيا، على نحوٍ يشير إلى أنها طبقات «جديدة» من أسماء أماكن «قديمة» (إذاً) في بلدانهم الأصلية، بل كانوا يحافظون على هذا التقليد حتى حين كانت مثل هذه الأمكنة تنتقل إلى أسيااء إمبراطورين آخرين، هكذا تحولت نوفيل أورليانز بهدوء إلى نيو أورليانز، ونوني زيلاند إلى نيو زيلاند.

بوجه عام، لم تكن تسمية المواقع السياسية والدينية على أنها «جديدة» جديدة كثيراً بحد ذاتها. ثمة في جنوب شرق آسيا، على سبيل المثال، مدنٌ قديمة إلى حدٍّ معقول تشمل أسماءها تعبيراً يدلُّ على الجدة: شيانغماي (المدينة الجديدة)، كوتا بهرو (البلدة الجديدة)، بيكانبارو (السوق الجديدة). لكنَّ لكلمة «الجديد» في هذه الأسماء، على الدوام، معنى «الخلف» أو «الوارث» لشيءٍ ما مضى. و«الجديد» و«القديم» يرتبطان تعاقبياً، ولا يكفَّ أولهما عن الظهور كما لو أنه يستمدُّ بركةً من ثانيهما الذي انقضى. وما يدهش في التسميات الأميركية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر هو أن «الجديد» و«القديم» كانا يُفْهَمان تزامنياً، أي على أنهما موجودان معاً ضمن زمن فارغ، متجانس. وبذلك كانت فيزكايا توجد إلى جانب نونا فيزكايا، ونيو لندن إلى جانب لندن: تعبيرٌ عن تنافس أخويٍّ وليس عن وراثة.

ما كان لمثل هذه الجدة التزامية أن تظهر تاريخياً قبل أن تغدو جماعات كبيرة من البشر في موقع يتيح لها أن تنظر إلى نفسها على أنها تعيش حيوات موازية لحيوات جماعات كبيرة أخرى من البشر؛ فيسيرون قُدماً على المسار ذاته من غير شك ولو لم يجمع بينهم أي لقاء على الإطلاق. وبين عامي 1500 و 1800 كان تراكم الاختراعات التكنولوجية في ميادين بناء السفن والإبحار وقياس الزمن ورسم الخرائط، وبتوسط من رأسمالية الطباعة، قد جعل هذا النمط من التخيل ممكناً⁽¹⁾. وغداً من الممكن أن نتصور أننا نقطن الألبيلانو البيروفية، أو البامباس في الأرجنتين، أو قرب موانئ «نيو» إنكلند، ونشعر مع ذلك أننا مرتبطون بمناطق أو جماعات معينة، على بعد آلاف الأميال، في إنكلترا أو شبه الجزيرة الإيبيرية. وصار بمقدور المرء أن يعي تماماً أنه يشارك في لغة وعقيدة دينية (بدرجات مختلفة)، وعادات، وتقاليد، من دون أي أمل كبير بأن يلتقي شركاءه في أي يوم من الأيام⁽²⁾.

كي ينشأ هذا الإحساس بالتوازي أو التزامن، وكي تكون له عواقب سياسية مهمة أيضاً، لم يكن ضرورياً أن تكون المسافة بين الجماعات المتوازية واسعة فحسب، بل كان ضرورياً أيضاً أن تكون الأحداث من بينها كبيرة الحجم ودائمة الاستقرار، فضلاً عن كونها خاضعة بقوة للأقدم. وتحققت هذه الشروط في الأمريكيتين كما لم تتحقق من قبل قط. في المقام الأول، جعل اتساع الأطلسي والشروط الجغرافية المختلفة تماماً على ضفتيه، من

(1) بلغ التراكم ذروته الجنوبية في البحث «الدولي» (أي الأوروبي) عن قياس دقيق لخط الطول، وهذا ما يرويهِ لاندس بشكل مدهش في: David S. Landes, *Revolution in Time: Clocks and the Making of the Modern World* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1983). Chapter 9.

وفي عام 1776، حين أعلنت المستعمرات الثلاث عشرة استقلالها، نشرت الـ *Gentleman's Magazine* هذا النعي المقتضب لجون هاريسون: «كان ميكانيكياً عبقرياً، ونال جائزة [من وستمنستر] قدرها 20000 باوند لقاء اكتشافه خط الطول [كذا]».

(2) تشير الصفحات الأولى من رواية برامويديا أنانتا توير التاريخية العظيمة بومي مانوزيا [أرض البشر] إشارة بارعة إلى انتشار هذا الوعي لاحقاً في آسيا. في هذه الرواية يعجب البطل القومي الشاب من أنه ولد في التاريخ ذاته الذي وُلِدَتْ فيه فيلهلمينا الملكة المقبلة: 13 آب/أغسطس 1889. «لكنه في حين كانت عتمة الليل تلف جزيرتي، كان بلدها يستحم بنور الشمس؛ فإذا ما عانق سواد الليل بلدها، التمعت جزيرتي في الظهيرة الاستوائية»، انظر: Pramoedya Ananta Toer, *Bumi Manusia* (Jakarta: Hasta Mitra, 1980), p. 4.

المستحيل قيام ذلك النوع من استيعاب السكان التدريجي في وحدات سياسية - ثقافية أكبر كتلك التي حوّلت لاس إسباناس إلى إسبانيا وأدخلت اسكتلندا في المملكة المتحدة. ثانيًا، كان حجم الهجرة الأوروبية إلى البلدان الأميركية مدهشًا، كما لاحظنا في الفصل الرابع. وفي نهاية القرن الثامن عشر كان هناك ما لا يقلّ عن 3200000 «أبيض» (لا يزيد عدد القادمين من شبه الجزيرة بينهم على 150000) من أصل 16900000 هم سكّان إمبراطورية البوربون الإسبانية الغربية⁽³⁾. وعَمِلَ حجم هذا المجتمع المهاجر بحدّ ذاته، بقدر ما عمل تفوّقه العسكري والاقتصادي والتكنولوجي الكاسح في مواجهة السكان الأصليين، على ضمان حفاظه على تماسكه الثقافي وصعوده السياسي المحلي⁽⁴⁾. أمّا ثالثًا فكان المتروبول الإمبراطوري متوفرًا على أجهزة بيروقراطية وأيديولوجية كبيرة، أتاحت له طوال قرون كثيرة أن يفرض إرادته على الكريول (يكفي المرء أن يفكر بالمشكلات اللوجستية وحدها كي يجد أن قدرة لندن ومدريد على خوض حروب طويلة مضادة للثورة في وجه المعمّرين الكولونيين الأميركيين المتمردين هي قدرة لافتة تمامًا).

ما يشير إلى جدّة هذه الشروط كلها هو ما تُظهِره من تباين مع الهجرات الصينية والعربية الكبرى (والمعاصرة تقريبًا) إلى جنوب غرب آسيا وشرق أفريقيا. ذلك أنّ هذه الهجرات نادرًا ما كان «مُخَطَّطًا لها» من أيّ متروبول، بل

(3) لا حاجة إلى القول إنّ «البياض» كان مقولة قانونية تربطها بالوقائع الاجتماعية المعقدة علاقات غير مباشرة. وكما يقول المحرّر نفسه: «نحن الذريّة الخسيصة للإسبان اللصوص الذين أتوا إلى أميركا كي يسلبوها كلّ ما تملك ويتناسلوا مع ضحاياهم. ثم إنّ أبناء الزنا الذين نجموا عن تلك الضروب من الجماع راحوا يتصلون بذريّة العبيد الذين نُقِلوا من أفريقيا». التشديد لي. انظر: John Lynch, *The Spanish-American Revolutions, 1808-1826* (New York: Norton, 1973), p. 249.

على المرء أن يحذر من الزعم أنّ ثمة أيّ شيء «أوروبيّ أبديّ» في هذه الـ *criollismo*. ولتذكّر جميع أولئك الدا سوزات السنهال - البوذيين المؤمنين، وأولئك الدا سيلفات الفلورينزين - الكاثوليك الأتقياء، وأولئك السوربانوز المانييليين - الكاثوليك المتشككين الذين يؤدون أدوارًا اجتماعية واقتصادية وسياسية غير إشكالية في سيلان وإندونيسيا والفيليبين المعاصرة، فذلك يساعد المرء في أن يدرك أنّ الأوروبيين يمكن، في الظروف الملائمة، أن يجري امتصاصهم بهدوء في ثقافات ليست أوروبية.

(4) قارن ذلك مع مصير السكان الأفريقيين المهاجرين بأعدادهم الضخمة. آليات الاستعباد الوحشية هي التي ضمنت ليس تشتهم الثقافي - السياسي فحسب، بل أيضًا ذلك الزوال السريع لإمكانية تخيل جماعات سوداء في فنزويلا وغرب أفريقيا تتحرك على مسارٍ متوازٍ.

نادرًا ما أدت إلى علاقات خضوع مستقرة. وفي الحالة الصينية كان التوازي الطفيف الوحيد هو تلك السلسلة الاستثنائية من الرحلات التي كانت تضرب بعيدًا عبر المحيط الهندي وقادها، في أوائل القرن الخامس عشر، الأدميرال الخصيّ الألمعيّ تشنغ خه^(*). وكان المقصود بهذه المبادرات الجريئة التي جرت بأوامر من الإمبراطور يونغ لو^(**) أن تعزز احتكار البلاط للتجارة الخارجية مع جنوب شرق آسيا والمناطق الأبعد إلى الغرب، والوقوف في وجه عمليات السلب والنهب التي كان يقوم بها التجار الصينيون أصحاب التجارات الخاصة⁽⁵⁾. لكن إخفاق هذه السياسة كان جليًا في منتصف القرن، لذلك تخلى المينغ عن مغامراتهم وراء البحار وفعلوا ما بوسعهم للحيلولة دون الهجرة من المملكة الوسطى. وأدّى سقوط جنوب الصين في أيدي المانشو في عام 1645 إلى موجة كبيرة من اللاجئين إلى جنوب شرق آسيا

(*) تشنغ خه، ويسمى بالعربية حجي محمود شمس، بحار صيني مسلم ولد في عام 1371 في أسرة مسلمة من قومية هوي بمقاطعة يونان في جنوب غرب الصين. تربى في بلاط الأمير تشو دي من أسرة مينغ، أمير منطقة يان (منطقة بيجين حاليًا). قام برحلات عديدة زار فيها البلدان التي تقع على سواحل المحيط الهندي وجنوب آسيا وأفريقيا ووصل إلى منطقة الخليج والبحر الأحمر ومكة المكرمة، وكان ذلك في سبع رحلات بحرية استغرقت 28 عامًا، حاملاً معه بضائع كثيرة من المنسوجات الحريرية والمجوهرات والعقاقير الطبية الصينية. تعتبر رحلات تشنغ خه سابقة على رحلات البحار الإيطالي كريستوفر كولمبس والبحار البرتغالي فاسكو دي غاما والبحار البرتغالي ماجلان. إذ وصل إلى سواحل أميركا قبل كولومبوس، وإلى أستراليا قبل كوك، واحتفلت الصين في عام 2005 بمرور 600 سنة على أولى رحلاته الضخمة البحرية التي عبر بها المحيط، من خلال عرض بعض الآثار ذات العلاقة وإصدار مجموعة من الطوابع بهذه المناسبة، معتبرة إياه «رسول المهمات الدبلوماسية» و«رجل السلام» الذي جاب المحيطات ولم يشعل حربًا ولم يقتل أحدًا، ولم يفعل ما فعله كولومبوس بالهنود الحمر، سكان أميركا الأصليين، ولا ما فعله كوك البريطاني بسكان أستراليا الأصليين!

(**) الإمبراطور يونغ لو أو يونغلي (1360 - 1424) هو الإمبراطور الثالث لأسرة مينغ في الصين، تولى الحكم بين عامي 1402 و 1424. قام بنقل العاصمة من نانجينغ (Nanjing) إلى بيجين حيث ظلت عاصمة على مدار الأجيال التالية، وقام بتشييد المدينة المحرمة هناك بين عامي 1406 و 1420. كما رمم وأعاد فتح قناة الصين الكبرى حتى يتمكن من تقديم الدعم للعاصمة بيجين الجديدة في الشمال مع المحافظة على التدفق المستمر والثابت للبضائع وإمدادات الطعام الجنوبية. وقام بتفويض البحار تشنغ خه في معظم الرحلات البحرية الاستكشافية. وأيد نظام اختبارات الخدمة المدنية لتعيين مسؤولي الحكومة المتعلمين بدلاً من اتباع النظام البسيط للترقية والتعيين.

O. W. Wolters, *The Fall of Srivijaya in Malay History* (Ithaca: Cornell University Press, (5) 1970), Appendix C.

ما كان يمكن أن يخطر في بالهم أي نوع من الروابط السياسية مع السلالة الحاكمة الجديدة. أما سياسة التشينغ التالية فلم تختلف جوهرياً عن سياسة المينغ في أواخر حكمهم. وفي عام 1712، على سبيل المثال، أصدر الإمبراطور كانغ شي (*) مرسوماً يحظر كل تجارة مع جنوب شرق آسيا ويعلن أن حكومته سوف «تطلب من الحكومات الأجنبية أن تعيد جميع الصينيين في الخارج إلى وطنهم كي يُعَدَمُوا»⁽⁶⁾. وكانت آخر موجة كبيرة من الهجرة عبر البحار في القرن التاسع عشر عندما تفككت السلالة الحاكمة وازداد الطلب على العمالة الصينية غير الماهرة في جنوب شرق آسيا الكولونيالي وفي سيام. ولأن جميع المهاجرين تقريباً كانوا منقطعين سياسياً عن بيجين، وكانوا أميين يتكلمون لغات غير مفهومة واحدها للآخرى، امتصوا إلى هذا الحد أو ذاك في ثقافات محلية أو خضعوا ذلك الخضوع الحاسم للأوروبيين المتقدمين⁽⁷⁾.

أما العرب فانطلقت هجراتهم في معظمها من حضرموت التي لم تكن متروبولاً فعلياً قط أيام الإمبراطوريتين العثمانية والمغولية. ولعل أفراداً مغامرين وجدوا سبلاً لإقامة إمارات محلية، كالتاجر الذي أسس مملكة بونتياناك^(**) في بورنيو الغربية في عام 1771، لكنه تزوج امرأة محلية من هناك، وسرعان ما فقد «عروبته» إن لم يكن قد فقد إسلامه أيضاً، وبقي

(*) كانغ شي (1654 - 1722)، رابع إمبراطور من أسرة تشينغ في الصين. حكم بين عامي 1662 و 1722. منح الصين سنوات من السلام، وشجّع التطور الداخلي. ودبّر جمع نصوص كلاسيكية صينية، ورعى الفنانين، والعلماء والصُّنَّاع، ومدَّ بالمعونة الكبيرة مصانع الخزف الصيني. وكانت حروبه لضم الأراضي والبلدان المجاورة له سريعة وناجحة. وكانت التبيت من البلدان التي استولى عليها. ومع أنه كبح جماح النشاطات التبشيرية المسيحية، بقي على علاقات حميمة مع المسيحيين، حتى إنه استخدمهم في بلاطه.

(6) ورد في: G. William Skinner, *Chinese Society in Thailand* (Ithaca: Cornell University Press, 1957), pp. 15-16.

(7) بدت الجماعات الصينية عبر البحار كبيرة بما يكفي لأن تثير جنون ارتياب أوروبي عميق حتى منتصف القرن الثامن عشر، حين توقفت المذابح التي كان يرتكبها الغربيون ضد الصينيين. أما بعد ذلك فتحول هذا التقليد المقيت صوب السكان الأصليين.

(**) أسست سلطنة بونتياناك في عام 1771 في كالمتان الغربية في إندونيسيا على يد تاجر أو علماء من حضرموت. في ذلك العام انتشرت شائعات عن وجود مناجم للماس في بونتياناك فتوجه عبد الرحمن القادري إلى المنطقة وكان تاجراً وتزوج من ابنة السلطان. لم يستطع عبد الرحمن أن يتولى سدة الحكم إلا بعد دخول المستعمر الهولندي في عام 1778.

خاضعًا للإمبراطوريتين الهولندية والإنكليزية الصاعدتين في جنوب شرق آسيا، وليس لأيّ قوة في الشرق الأدنى. وفي عام 1832 أسس السيد سعيد^(*)، حاكم مسقط، قاعدة قوية على الساحل الأفريقي الشرقي واستقرّ في جزيرة زنجبار التي جعلها مركزًا اقتصاديًا مزدهرًا لزراعة القرنفل. لكنّ البريطانيين استخدموا الوسائل العسكرية لإجباره على قطع صلاته بمسقط⁽⁸⁾. وهكذا، لم يفلح العرب ولا الصينيون، مع أنهم غامروا عبر البحار بأعداد كبيرة جدًا وخلال القرون ذاتها تقريبًا التي غامر فيها الأوروبيون الغربيون، في إقامة جماعات كريولية متماسكة، غنية، تعي ذاتها، وتخضع لمركز متروبولي كبير. لذلك فإنّ العالم لم يشهد قط نشوء بَصْرَاتٍ جديدة أو ووهانات جديدة >نسبةً إلى مدينتي البصرة ووهان، على التوالي<.

يساعدنا ازدواج البلدان الأمريكية، وما يقف وراءه من أسباب رسمنا خطوطها العريضة آنفًا، في أن نفّسر لماذا بزغت القومية في العالم الجديد أولًا، وليس في القديم⁽⁹⁾. كما أنّه يلقي الضوء على ملمحين محددين من ملامح الحروب الثورية التي نشبت في العالم الجديد بين عامي 1776 و 1825. من جهة أولى، لم يحلم أيّ من الثوريين الكريول بالإبقاء على الإمبراطورية سالمة لا تُمسّ والاكْتفاء بإعادة ترتيب تقاسم السلطة الداخلي، وعكّس علاقة الخضوع السابقة بنقل المتروبول من موقع أوروبي إلى موقع أميركي⁽¹⁰⁾. بعبارة أخرى، لم يكن الهدف إقامة لندن جديدة تخلف لندن

(*) السيد سعيد بن سلطان (1791 - 1856)، تولى مقاليد الحكم في عام 1806، واتسع النفوذ العماني في عهده إلى أقصى مداه، حيث امتدت الإمبراطورية العمانية من بندر عباس على ضفاف الخليج العربي إلى ميناء زنجبار على الساحل الشرقي لأفريقيا، إضافة إلى بعض الجزر الواقعة في منطقة الخليج وبحر العرب والمحيط الهندي بما فيها أرخبيل جزر القمر.

Marshall G. Hodgson, *The Venture of Islam*, 3 vols. (Chicago: Chicago University Press, (8) 1974), vol. 3, pp. 233-235.

(9) من العلامات المدهشة على عمق المركزية الأوروبية أنّ الكثير الكثير من الباحثين الأوروبيين يصوّرون، على الرغم من الأدلة كلها، على اعتبار القومية اختراعًا أوروبيًا.

(10) لكن، لنلاحظ حالة البرازيل المنطوية على مفارقة. ففي عام 1808، فرّ الملك جواو السادس من البرتغال إلى ريو دي جانيرو هربًا من جيوش نابليون. ومع أنّ ويلنغتون طرد الفرنسيين في عام 1811، فإنّ الملك المهاجر الذي كان يخشى القلاقل الجمهورية في بلاده بقي في أميركا الجنوبية حتى عام 1822، حيث كانت الريو بين عامي 1808 و 1822 مركز إمبراطورية عالمية تمتد إلى أنغولا =

القديمة، أو تطيح بها، أو تدمرها، بل ضمان توازيهما المتواصل (ويمكن استنتاج مدى جدّة هذا التفكير من تاريخ الإمبراطوريات السابقة الآفلة التي غالبًا ما كانت تنطوي على حلم تغيير المركز القديم). ومن جهة أخرى، على الرغم من أنّ هذه الحروب سببت قُدْرًا كبيرًا من المعاناة وكانت موسومةً بكثيرٍ من البربرية، إلا أنّ مخاطرها كانت مخفّضة على نحو غريب. ولم يكن الكريول في أميركا الشمالية ولا الجنوبية يخشون الإبادة الجسدية أو إعادتهم إلى السخرة، كما خشي كثير من الشعوب الأخرى التي صادف أن كانت في طريق الإمبريالية الأوروبية بقوتها العارمة التي تبید كل من يعترضها. كان الكريول في النهاية «بيضًا»، و«مسيحيين»، وناطقين بالإسبانية أو الإنكليزية، كما كانوا الوسطاء الضروريين للمتروبولات إذا ما أريد لثروة الإمبراطوريات الغربية الاقتصادية أن تبقى تحت سيطرة أوروبا. ولذلك كانوا تلك الجماعة المهمّة الموجودة خارج أوروبا والتي لا حاجة بها لأن تخشى من أوروبا تلك الخشية المؤسّسة، على الرغم من خضوعها لها. وبذلك ظلّت تلك الحروب الثورية منطوية على شيء من الاطمئنان، على الرغم من شراستها، إذ كانت حروبًا بين أقارب⁽¹¹⁾. وهذه الرابطة العائلية هي التي ضمنت، بعد فترةٍ من الحدّة والعنف، إمكانية إعادة وصل ما انقطع من الروابط الثقافية، وأحيانًا السياسية والاقتصادية، الوثيقة بين المتروبولات السابقة والأمم الجديدة.

الزمن حديثًا وقديمًا

إذا كانت أسماء الأماكن الغربية التي ناقشناها أعلاه قد مثّلت لكريول العالم الجديد ذلك التمثيل المجازي قدرتهم البازغة على تخيل أنفسهم كجماعات توازي تلك التي في أوروبا وتضاهيها، فإنّه كان لحوادث استثنائية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر أن تضيفي على هذه الجدّة معنىً جديدًا ومفاجئًا تمامًا. ولا شكّ في أنّ أول هذه الحوادث كان إعلان (المستعمرات

= والموزمبيق وماكاو وتيمور الشرقية. لكن هذه الإمبراطورية كان يحكمها أوروبي لا أميركي.

(11) لا شكّ في أنّ هذا ما أتاح للمحرّر أن يقول في لحظةٍ إن ثورة زنجية، أي ثورة عبيد، هي «أسوأ ألف مرة من غزو إسباني» (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب). ذلك أن ثورة العبيد، إذا ما نجحت، قد تعني الإبادة الجسدية للكريول.

الثلاث عشرة) الاستقلال في عام 1776، والدفاع العسكري الناجح عن ذلك الإعلان في الأعوام التي تلت. وكان أن شُعرَ بهذا الاستقلال، وبحقيقة أنه استقلال جمهوري، باعتباره شيئاً غير مسبوق على الإطلاق، مع أنه شُعرَ به أيضاً، ما إن قام على الأرض، باعتباره معقولاً ومنطقياً تماماً. لذلك، عندما مكّن التاريخ الثوريين الفنزويليين في عام 1811 من أن يضعوا دستوراً لأول جمهورية فنزويلية، لم يجدوا أيّ صَغَارٍ في أن يستعيروا حرفياً من دستور الولايات المتحدة الأميركية⁽¹²⁾. ذلك أن ما كتبه أهل فيلادلفيا لم يكن في عيون الفنزويليين شيئاً أميركياً شمالياً، بل كان شيئاً له صحته وقيمه الكونيتين. وما هي إلا فترة وجيزة، في عام 1789، حتى ضاهى انفجار الثورة الفرنسية البركاني في العالم القديم انفجار العالم الجديد⁽¹³⁾.

يصعب اليوم أن نعيد في الخيال خَلْقَ شرطٍ حياتي كان يُشعر فيه أن الأمة شيء جديد تماماً. لكن الأمر كان كذلك في تلك الحقبة. ولم يُشر إعلان الاستقلال في عام 1776 مطلقاً إلى كريستوفر كولومبس، أو رونوك^(*)، أو الآباء الحجاج، ولم يضع الأسس لتبرير الاستقلال بأيّ طريقة «تاريخية»، بمعنى تسليط الضوء على قَدَمِ الشعب الأميركي. والأعجب من ذلك أن الأمة الأميركية لم يرد ذكرها. كان ثمة حَدْسٌ عميق بأن هنالك قطيعة جذرية مع الماضي - «نَسْفٌ لِمُتَّصِلِ التاريخ»؟ - تحصل وتنتشر وبسرعة. وما من شيء يمثل هذا الحَدْسَ أفضل من القرار الذي اتخذته الجمعية الوطنية في تشرين الأول/أكتوبر 1793 بإلغاء التقويم المسيحي الذي دام قرونًا وإطلاق حقبة عالمية جديدة

(12) Gerhard Masur, *Simon Bolivar* (Albuquerque: University of New Mexico Press, 1948), p. 131.

(13) كانت الثورة الفرنسية بدورها تُضاهى في العالم الجديد بانفجار تمرد توسان لوفرتور في عام 1791، الذي أدى في عام 1806 إلى إقامة عبيد هايتي ثاني جمهورية مستقلة في نصف الكرة الغربي.

(*) رونوك (Roanoke) أول مستعمرة إنكليزية في الأمريكيتين، وكانت مشروعاً موله السير والتر رالي في أواخر القرن السادس عشر لإقامة مستوطنة إنكليزية دائمة. وبين عامي 1885 و 1887 حاولت مجموعات عدة إقامة هذه المستوطنة، لكنهم إما كانوا يهجرونها أو يختفون. وآخر مجموعة من المستعمرين اختفت بعد أن قضت ثلاث سنوات من دون إمداد من إنكلترا، ما أدى إلى نشوء لغز متواصل عُرف باسم «المستعمرة الضائعة»، والفرضية الأرجح أن أولئك اندمجوا في إحدى قبائل السكان الأصليين.

تبدأ بالسنة رقم واحد التي تبدأ بإلغاء النظام القديم وإعلان الجمهورية في 22 أيلول/ سبتمبر 1792⁽¹⁴⁾ (ما من ثورة تالية كان لديها مثل هذه الثقة الرفيعة بالجدة، خصوصاً أن الثورة الفرنسية كانت تُرى على الدوام باعتبارها السلف).

من هذا الإحساس العميق بالجدة جاءت أيضاً عبارة *nuestra santa revolución* <ثورتنا المقدسة>، تلك العبارة المستحدثة الجميلة التي أبدعها خوسيه ماريا موريلوس إي بافون (مُعلن جمهورية المكسيك في عام 1813)، قبل وقت قصير من إعدامه على يد الإسبان⁽¹⁵⁾، ومنه أيضاً جاء مرسوم سان مارتين في عام 1821 الذي يقضي بأن «السكان الأصليين لن يُطلق عليهم في المستقبل اسم الهنود أو المحليين؛ فهم أبناء البيرو ومواطنوها وسوف يُدعون بالبيروفيين»⁽¹⁶⁾. وفعلت هذه الجملة بـ «الهنود» و/ أو «المحليين» ما فعلته الجمعية الوطنية في باريس بالتقويم المسيحي: حيث ألغت التسمية القديمة وأطلقت حقبة جديدة تماماً. هكذا يسمُّ «البيروفيون» و«السنة رقم واحد» قطيعة عميقة وبليغة مع العالم القائم.

غير أن الأمور لم يسعها أن تبقى على هذا النحو طويلاً للأسباب ذاتها التي كانت قد عجّلت بإحساس القطيعة في المقام الأول. وفي الربع الأخير من القرن الثامن عشر كانت بريطانيا وحدها تصنع بين 150000 و 200000 ساعة كل عام، كثيرٌ منها للتصدير. وربما كان إجمالي التصنيع الأوروبي قريباً آنئذٍ من 500000 ساعة كل عام⁽¹⁷⁾. وكانت الصحف بأعدادها المتلاحقة المتسلسلة جزءاً مألوفاً من الحضارة المدنية. وكذلك كانت الرواية، بما تملكه من إمكانات بارزة في تمثيل أفعال متزامنة في زمنٍ فارغ متجانس⁽¹⁸⁾. وكان ثمة شعور متزايد بأن التوقيت الكوني الذي جعل ضروب اقتراننا

(14) كان وردسورث الشاب في فرنسا في عام 1791 - 1792، وكتب لاحقاً في التمهيد هذين

البيتين التذكاريين الشهيرين:

كانت نعمة أن تكون حياً في ذلك الفجر،

أما أن تكون شاباً فكان النعيم ذاته! (التشديد لي).

Lynch, pp. 314-315.

(15)

(16) كما وردت في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

Landes, pp. 230-231 and 442-443.

(17)

(18) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

المتزامنة عبر المحيطات أمرًا مفهومًا يقتضي نظرةً إلى السببية الاجتماعية هي نظرة دنيوية، متسلسلة؛ وكان هذا الإحساس بالعالم يسارع الآن إلى إحكام قبضته على الخيال الغربي. وبذلك يغدو مفهومًا أنه لم يمر عقدان على إعلان السنة رقم واحد حتى أُسس أول كرسيين أكاديميين لمادة التاريخ، في عام 1810 في جامعة برلين، وفي عام 1812 في سوربون نابليون. وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر صار التاريخ «فَرْعًا» رسميًا له سلسلته الطويلة والرصينة من المجلات المتخصصة⁽¹⁹⁾. وبسرعة كبيرة أفسحت السنة رقم واحد المجال لعام 1792 ميلادي⁽²⁰⁾، وصارت القطيعة الثورتان لعامي 1776 و 1789 تُصَوَّران على أنَّهما مطمورتان في سلسلة تاريخية وبذلك على أنَّهما سابقتان تاريخيتان ونموذجان تاريخيان.

من هنا، لم يعد بمقدور أعضاء ما يمكن أن ندعوه حركات «الجيل الثاني» القومية، تلك الحركات التي تطورت في أوروبا بين عامي 1815 و 1850 تقريبًا، وكذلك الجيل الذي ورث الدول القومية المستقلة في البلدان الأميركية، أن «يعيدوا التقاط/ تلك القطيعة الأولى الرائعة الشجاعة» التي اجترحها أسلافهم الثوريون. هكذا راحت المجموعتان لأسباب مختلفة وبعواقب مختلفة تقرأان القومية جينالوجيًا > في سلسلة نسبها <، كتعبير عن تقليد تاريخي من الاستمرارية المتسلسلة.

لم تلبث القوميات الجديدة في أوروبا أن تخيلت ذاتها على أنَّها «يقظةٌ من سُبات»، وهو مجاز غريب تمامًا على البلدان الأميركية. ومنذ عام 1803

(19) يجد القارئ تناولاً متقناً لهذا التحول في: Hayden White, *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe* (Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1973), pp. 135-143.

(20) لكنها كانت ميلادية مع فارق. فقبل القطيعة كان هذا التعبير (Anno Domini) (ميلادية، أو بعد الميلاد) لا يزال محتفظًا بعبير لاهوتي يفوح من داخل لاتينيته القروسطية، مهما تكن هشة في الأنحاء المستنيرة. وكان يستحضر ما حدث في بيت لحم من اقتحام الأبدية الزمن الدنيوي. أما بعد القطيعة، واختصاره إلى (A.D) (ب. م) فانضم إلى الاختصار (B.C) (ق. م) (Before Christ) (قبل المسيح) الذي كانت تستخدمه لغة محلية (هي الإنكليزية)، وكان يحيط بتاريخ كوني متسلسل (كان علم الجيولوجيا الجديد يسهم فيه مساهمات باهرة). ولعلنا نحكم على عمق الهوة الكبيرة بين Anno Domini و B.C/A.D بملاحظة أنَّ العالمين البوذي والإسلامي لا يتخيّلان، إلى اليوم، أي حقبة موسومة بـ «قبل غوتاما بوذا» أو «قبل الهجرة». وكلاهما يزعجها ذلك الاختصار الغريب B.C.

(كما رأينا في الفصل الخامس) كان القومي اليوناني الشاب أدامانتوس كورائس يقول لجمهور باريس متعاطف: «لأول مرة تتفحص الأمة [اليونانية] منظر جهلها الشنيع وترتعد إذ ترى بأمّ العين تلك المسافة التي تفصلها عن مجد أسلافها». وهذا مثال دقيق تمامًا على الانتقال من الزمن الجديد إلى القديم. ذلك أن «لأول مرة» لا تزال تردد أصداء قطيعتي 1776 و 1789، لكنّ عيني كورائس الجميلتين تلتفتان ليس إلى الأمام إلى مستقبل سان مارتن، بل وراء، مرتعتين، إلى أمجاد الأسلاف. ولن يمرّ وقت طويل قبل أن يخبو هذا الاقتران المتهلّل، وتحلّ محله يقظة «متواصلة»، نمطية، من كبوة بعد ميلادية الطراز، تُقاس ضمن إطار زمنيّ متسلسل: يقظة هي عودة مضمونة إلى جوهر أصليّ.

لا شكّ في أنّ كثيرًا من العناصر المختلفة ساهمت في شعبية هذا المجاز المدهشة⁽²¹⁾. وسوف أقصر، لأغراضنا الراهنة، على ذكر اثنين منها: في المقام الأول، أخذ هذا المجاز في الحسبان إحساس التوازي والمقارنة الذي ولدت منه القوميات الأميركية، والذي عمل نجاح الثورات القومية الأميركية على تعزيزه في أوروبا أشدّ التعزيز. وبدا على أنّه يفسّر لماذا ظهرت الحركات القومية بغتة وعلى نحوٍ غريب في العالم القديم المتحضّر متأخرةً على نحو واضح عنها في العالم الجديد الهمجي⁽²²⁾. وبقراءة اليقظة على أنّها يقظة متأخرة، وإنّ كانت مُشارّةً من بعيد، فتحت ماضيًا هائلًا يقبع خلف حقبة السبات الطويلة. أمّا في المقام الثاني فوفّر هذا المجاز صلةً استعاريةً حاسمةً بين القوميات الأوروبية الجديدة واللغة. وكما سبق أن لاحظنا، كانت الدول الكبرى في أوروبا القرن التاسع عشر كيانات سياسية متعددة اللغات إلى أبعد حدّ، ولم تكد حدودها تتماشى قطّ مع الجماعات اللغوية. وكان معظم أفرادها

(21) حتى أواخر عام 1951 كان لا يزال بمقدور الاشتراكي الإندونيسي الذكي ليتونغ موليا سيتوروس أن يكتب أنّه: «حتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت الشعوب الملونة لا تزال تغطّ في سبات عميق، في حين كان البيض منكبين على العمل في كلّ حقل من الحقول». انظر: Lintong Mulia Sitorus, *Sedjarah Pergerakan Kebangsaan Indonesia [History of the Indonesian National Movement]* (Jakarta: Pustaka Rakjat, 1951), p. 5.

(22) لعلّ من الممكن القول إنّ هذه الثورات كانت، في أعين الأوروبيين، الحوادث السياسية المهمة الأولى التي جرت عبر الأطلسي.

المتعلمين قد ورثوا من العصور الوسطى عادة النظر إلى لغات معينة - إن لم تكن بعدئذ اللاتينية، فالفرنسية أو الإنكليزية أو الإسبانية أو الألمانية - على أنها لغات حضارة. وكان الأغنياء الهولنديون في القرن الثامن عشر يفخرون بأنهم لا يتحدثون سوى الفرنسية في وطنهم؛ وكانت الألمانية لغة الثقيف في أنحاء كثيرة من الإمبراطورية القيصرية الغربية، خصوصاً في بوهيميا «التشيكية». ولم ينظر أحد قبل أواخر القرن الثامن عشر إلى هذه اللغات باعتبارها تنتمي إلى أي جماعة محددة إقليمياً. أمّا بعد ذلك بقليل، ولأسباب رسمنا خطوطها العريضة في الفصل الثالث، بدأت اللغات المحلية «غير المتحضرة» تعمل سياسياً بالطريقة ذاتها التي سبق للمحيط الأطلسي أن عمّل بها: أي «فصل» الجماعات القومية الخاضعة عن الممالك السلالية القديمة. ولأنه كان في طليعة معظم الحركات القومية الشعبية الأوروبية أناس متعلمون غير معتادين في الأغلب على استخدام هذه اللغات المحلية، فإن هذا الشذوذ الغريب كان بحاجة إلى تفسير. ولم يبدُ أن ثمة تفسيراً أفضل من «السبات»، لأنه يتيح لأولئك الإنتليجنسيين والبرجوازيين الذين راحوا يعون أنفسهم بوصفهم تشيكاً أو هنغاريين أو فنلنديين أن يصوّروا دراستهم اللغة أو الفولكلور أو الموسيقى التشيكية أو الماجيارية أو الفنلندية على أنها «إعادة اكتشاف» شيء لطالما كان معروفاً في قرارته العميقة (بل إنه، ما إن يبدأ المرء بالتفكير بقوميته من حيث الاستمرار، فإن قلة من الأشياء فحسب هي التي تبدو ضاربة بجذورها العميقة في التاريخ بقدر اللغات التي لا يمكن قطّ أن تُحدّد تواريخ ولادتها)⁽²³⁾.

أمّا في البلدان الأميركية فكانت المشكلة مطروحةً على نحو مختلف. من جهة أولى، لم تأت ثلاثينيات القرن التاسع عشر حتى جرى الاعتراف الدولي بالاستقلال القومي في كلّ مكان تقريباً. وغداً بذلك إرثاً، واضطر، بوصفه إرثاً، أن يدخل سلسلة جينالوجية <أو سلسلة نسب>. لكن الوسائل الأوروبية المتطورة لم تكن متاحةً حالاً. ولم تكن اللغة قطّ قضيةً في الحركات القومية الأميركية. وكما رأينا، فإنّ مُقاسمة المتروبول لغةً مشتركةً (وديانة

(23) بيد أنّ العمق التاريخي ليس لانتهائي. وفي لحظة محددة تختفي الإنكليزية فجأةً متحوّلةً إلى فرنسية نورماندية وأنكلوساكسونية؛ والفرنسية إلى لاتينية وفرانكية «ألمانية»... وهلمجرًا. وسوف نرى أدناه كيف تحقّق لهذا الحقل مزيدٌ من العمق.

مشتركة وثقافة مشتركة) هو تحديدًا ما جعل التخيلات القومية الأولى ممكنة. ولا شك في أن هنالك حالات لافتة يكتشف فيها المرء نوعًا من التفكير «الأوروبي» وهو يعمل عمله الباكر. وعلى سبيل المثال، فإن معجم اللغة الإنكليزية الأميركي^(*) الذي وضعه نوح وبستر في عام 1828 (أي في «الجيل الثاني») كان القصد منه إعطاء تصريح رسمي بطبع لغة أميركية ذات نسب مميز عن نسب الإنكليزية. وفي الباراغوي، مكّن التقليد الجزويتي في استخدام لغة الغواراني في القرن الثامن عشر من أن تصبح لغة «محلية» ليست إسبانية قط لغة قومية، في ظل دكتاتورية خوسيه غاسبار رودريغيز دو فرانسيا^(**) الطويلة بما عُرف عنها من رهاب الأجانب (1814 - 1840). أمّا على وجه العموم، فإن ما من محاولة لإعطاء قومية ما عمقًا تاريخيًا عن طريق الوسائل اللغوية إلا وواجهت عقبات كأداء. ويكاد الكريول جميعًا أن يكونوا قد التزموا مؤسساتيًا (عن طريق المدارس والإعلام المطبوع والعادات الإدارية... وما إلى ذلك) باللسنة أوروبية لا أميركية محلية. وكل إلحاح مفرط على ضروب النسب اللغوي إنما يهدّد بأن يشوّش على وجه التحديد «ذكرى الاستقلال» التي كان الحفاظ عليها أمرًا أساسيًا.

وُجِدَ الحلُّ الذي أمكن تطبيقه آخر الأمر في كلٍّ من العالمين القديم والجديد، في التاريخ، أو الأخرى في التاريخ المحبوك بطرائق محدّدة. وكنا قد لاحظنا السرعة التي أعقب بها كرسيًا التاريخ السنة رقم واحد. ويلاحظ هايدن وايت، أن ولادة الخمسة الأبرز بين عباقرّة التأريخ الأوروبي في ربع القرن الذي تلا القطيعة التي اجترحتها الجمعية الوطنية في الزمن ليست أقل إثارة من هذه القطيعة ذاتها: رانكه في عام 1795، ميشليه في عام 1798،

American Dictionary of the English Language.

(*)

(**) د. خوسيه غاسبار رودريغيز دو فرانسيا (1766 - 1840)، قانوني وسياسي باراغوياني، وواحد من أوائل زعماء الباراغواي بعد استقلالها عن إسبانيا. هو في الأصل أستاذ للفلسفة، دخل مجلس النواب في أثناء عمله محاميًا وترقى إلى أن استلم رئاسة المجلس. بعد الإعلان عن قيام جمهورية الباراغواي صار زعيمًا سياسيًا مهمًا في أميركا الجنوبية، ونُصّب في النهاية قائدًا أعلى قبل أن يغدو دكتاتورًا مدى الحياة. سعى، بإلهام من مثل الثورة الفرنسية، إلى إقامة دولة طوباوية على أساس كتاب روسو العقد الاجتماعي. ومع أنه كافح من أجل المساواة، فإنّه حطم بقسوة كل معارضة وأقام دولة بوليسية، وسجن جميع من اتهمهم بأنهم محرّضين. وهو انعزالي، أدار الدولة بين عامي 1814 و 1840 من دون أيّ تأثير يُذكر بالخارج.

توكفيل في عام 1805، وماركس وبوركهارت في عام 1818⁽²⁴⁾. ومن بين الخمسة، ربما كان طبيعيًا أن يكون ميشليه الذي عيّن نفسه مؤرخًا للثورة، أوضح مثال على التخيّل القومي الوليد، لأنّه كان أول من كتب بوعي بالنيابة عن الموتى⁽²⁵⁾. وإليكم هذا المقطع المميّز⁽²⁶⁾:

Oui, chaque mort laisse un petit bien, sa mémoire, et demande qu'on la soigné. Pour celui qui n'a pas d'amis, il faut que le magistrat y supplée. Car la loi, la justice, est plus sûre que toutes nos tendresses oublieuses, nos larmes si vite séchées. Cette magistrature, c'est l'Histoire. Et les morts sont, pour dire comme le Droit romain, ces *miserabiles personae* dont le magistrat doit se préoccuper. Jamais dans ma carrière je n'ai pas perdu de vue ce devoir de l'historien. J'ai donné à beaucoup de morts trop oubliés l'assistance dont moi-même j'aurai besoin. Je les ai exhumés pour une seconde vie ... Ils vivent maintenant avec nous qui nous sentons leurs parents, leurs aims. Ainsi se fait une famille, une cité commune entre les vivants et les morts.

«أجل، ما من ميّت إلا ويترك إرثًا وذكريات، ويطالبنا بأن نهتمّ بها. أمّا مَنْ لا صديق له، فيجب أن ينوب عنه القضاء. ذلك أن القانون والعدالة أشدّ ثقةً من حناننا للنساء، ومن دموعنا التي سرعان ما تجفّ. وهذا القضاء هو التاريخ. والموتى، كما يقول التشريع الروماني، هم أولئك الأشخاص المساكين الذين يجب أن يهتمّ بهم

White, p. 140.

(24)

كان هيغل المولود في عام 1770 في أواخر عشرينياته حين اندلعت الثورة، لكن محاضرات في فلسفة التاريخ لم تُنشر إلا في عام 1837، بعد وفاته بستة أعوام.

White, *Metahistory*.

(25)

Jules Michelet, «Histoire du XIXe Siècle», in: *Oeuvres Complètes*, edited by Paul Viallaneix (Paris: Flammarion, 1982), vol. XXI, p. 268, in the preface to volume 2 («Jusqu'au 18e Brumaire») of his uncompleted «Histoire du XIXe Siècle».

وأنا أدين لكتاب هايدن وايت *Metahistory* بهذه الإشارة، لكن ترجمة وايت ليست وافية.

القضاء. ولم أُنسَ قطّ في مسيرتي المهنية أن أُغنى بواجب المؤرّخ هذا. ومنحتُ الموتى المنسيين ذلك الحضور الذي سأحتاجه أنا نفسي في يوم من الأيام. نبشتهم من قبورهم ودفعتهم إلى حياة ثانية... إنهم يعيشون بيننا الآن ونشعر أننا أهلهم وأصدقائهم. وبذلك تقوم عائلة ومدينة مشتركة بين الأحياء والأموات».

أوضح ميشليه هنا وفي مواضع أخرى أنّ أولئك الذين نبشهم من القبور لم يكونوا بأيّ حالٍ من الأحوال جَمْعًا عشوائيًا من الموتى الغُفْل، المنسيين، بل كانوا أولئك الذين مَكَّنَتْ تضحياتهم، عبر التاريخ، من قيام قطيعة عام 1789 وظهور الأمة الفرنسية التي تعي ذاتها، حتى حين لم يفهم الضحايا هذه التضحيات على أنها تضحيات. وفي عام 1842 قال عن هؤلاء الموتى: «يلزمهم أوديب كي يحلّ أحجيتهم التي لم يحسّوا بها، ويعلمهم معنى كلماتهم وأفعالهم التي لم يفهموها»⁽²⁷⁾.

ربما كانت هذه الصيغة غير مسبوقة. ذلك أنّ ميشليه لا يزعم أنّه يتكلم بالنيابة عن أعداد كبيرة من البشر الموتى الغُفْل فحسب، بل يؤكّد أيضًا، وبسلطة شديدة الوقع، أنّ بمقدوره أن يُفصح عمّا عنوه «حقًا» وأرادوه «حقًا»، لكنهم «لم يفهموه» هم أنفسهم. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، لم يُعد صمت الأموات عقبة تحول دون نبش أعماق رغباتهم.

بهذه الروح، راح المزيد والمزيد من قومي «الجيل الثاني» في البلدان الأميركية وسواها يتعلمون الكلام «نيابةً» عن الموتى الذين كان من المستحيل، أو من غير المرغوب فيه، إقامة صلة لغوية معهم. وساعدت مثل هذه القَيْعَرَة^(*) المعكوسة على فتح الطريق أمام نوعٍ من الـ indigenismo <الأصالة> التي تعي

(27) ورد ذلك في: Roland Barthes, *Michelet par lui-meme* (Bourges: Editions du Seuil, 1954), p. 92.

والمجلد الذي يحوي هذا المقبوس من بين الأعمال الكاملة لم يُنشر بعد.
(*) القَيْعَرَة (Ventriloquism) التكلّم من غير حركات الكلام، كأنّ الكلام آتٍ من غير مكان التكلّم أو من شخص آخر.

ذاتها، خصوصًا في بلدان أميركا الجنوبية. شيء يكاد يبدو جنونيًا: مكسيكيون يتكلمون بالإسبانية «نيابةً» عن حضارات «هندية» سابقة على كولومبس لا يفهمون لغاتها⁽²⁸⁾. أمّا مدى الثورية التي تميّز بها هذا النوع من النّش فيظهر بمزيدٍ من الوضوح حين نقارنه بصيغة فيرمين دو فارغاس التي أوردناها في الفصل الثاني: في حين كان فيرمين يفكر مسرورًا بـ «إبادة» الهنود الأحياء، بات كثير من أحفاده السياسيين مسكونًا بـ «تذكّرهم»، بل بـ «التكلم نيابةً عنهم»، ولعلّ السبب الدقيق وراء ذلك هو أنّهم كانوا، حتى ذلك الحين، كثيرًا ما أبدو.

عودة الطمأنينة بعد قتل الأخوة

من اللافت، في صيغ «الجيل الثاني» الذي ينتمي إليه ميشليه، أنّ تركيز الاهتمام هو دومًا على نّش البشر والحوادث التي يحيق بها خطر النسيان⁽²⁹⁾. وهو لا يرى أيّ حاجة لأن يفكر في «النسيان». أمّا حين نشر رينان عمله ما الأمة؟ في عام 1882 - بعد أكثر من قرن على إعلان الاستقلال في فيلادلفيا، وثمانية أعوام على وفاة ميشليه نفسه - فكانت الحاجة إلى النسيان على وجه التحديد هي التي شغلته. انظروا مثلاً إلى هذه الصياغة التي سبق أن أوردناها في الفصل الأول:

Or, l'essence d'une nation est que tous les individus aient beaucoup de choses en commun, et aussi que tous aient oublié bien des choses... Tout citoyen français doit avoir oublié la Saint-Barthélemy, les massacres du Midi au XIII-e siècle.

(28) بالمقابل، ليس في المكسيك كلها سوى تمثال واحد لهيرنان كورتيس. وهذا النّصب الذي أُدْخِلَ بحذرٍ وحرصٍ في كوة خاصة في مكسيكو سيتي، لم يُقَمْ إلا في أواخر سبعينيات القرن العشرين، حين أقامه نظام خوسيه لوبيز بورتيللو البغيض.

(29) لا شك أن ذلك يعود إلى ما عاناه في شطر كبير من حياته في ظل الشرعيات المستعادة أو البديلة. والتزامه بالعام 1789 وبفرنسا واضح ذلك الوضوح المثير في رفضه أن يقسم بالولاء للوي نابليون. ونظرًا إلى طرده المفاجئ من وظيفته في الأرشفة الوطني، عاش قريبًا من الفقر حتى مماته في العام 1874. وهذا يعني أنّه عاش بما يكفي ليشهد سقوط الدّجال واستعادة المؤسسات الجمهورية.

«والحال، إنّ جوهر الأمة يتمثل في امتلاك جميع الأفراد أشياء مشتركة وفي أنّ لديهم أشياء ينسونها... فلا بدّ لكلّ مواطن فرنسي من أن يكون قد نسي سان بارتليمي، ومذابح ميدي في القرن الثالث عشر»⁽³⁰⁾.

أول وهلة، قد تبدو هاتان الجملتان بسيطتين مباشرتين⁽³¹⁾. لكن بضع دقائق من التأمل كفيلة بأن تكشف مدى الغرابة التي تتسمان بها في الحقيقة. مما يُلاحظ، مثلاً، أنّ رينان لا يجد سبباً لأن يشرح لقرائه معنى «سان بارتليمي» أو «مذابح ميدي في القرن الثالث عشر». لكن مَنْ سوى «الفرنسي»، إذا جاز القول، يفهم في الحال أنّ «سان بارتليمي» إشارة إلى المذبحة الوحشية التي ارتكبتها الملك شارل التاسع من أسرة فالوا وأمه الفلورنسية في 24 آب/أغسطس 1572 بحقّ الهوغونوت^(*)؛ وأنّ «مذابح ميدي» إلماعٌ إلى إبادة الألبين في منطقة واسعة بين البيرينيه وجنوب الألب بتحريض من إنوسنت الثالث، وهو بين صفٍّ طويل من البابوات الأثمين أشدهم إثماً^(**)؟ كما أنّ رينان لا يجد غضاضةً في افتراض «ذكريات» في عقول قرائه مع أنّ الحوادث ذاتها وقعت قبل 300 و 600 عام. وما يلفت أيضاً هو التركيب القاطع doit avoir oublié - «لا بدّ من أن يكون قد نسي» - (لا doit oublier، «يمكن أن يكون قد نسي»)، الأمر الذي يشير، بالنبرة المهددة التي لقوانين

(30) وُلِدَ رينان في عام 1823، بعد ربع قرن على ولادة ميشليه، وقضى شطراً كبيراً من شبابه في ظلّ النظام القومي الرسمي الكلبي الذي أقامه من اضطهّد ميشليه.

(31) فهمتهما على هذا النحو في عام 1983، للأسف.

(*) الهوغونوت، بروتستانتيو فرنسا خلال الصراع الديني في القرن السادس عشر والسابع عشر. تكاثر عددهم في أواخر القرن السادس عشر، وأدّى النزاع بينهم وبين الكاثوليك إلى نشوب الحروب الدينية (1562 - 1598). تمّ لهم انتصار موقت عندما ارتقى هنري الرابع العرش (وكان في الأصل بروتستانتيّاً) في عام 1589، وعندما منحهم مرسوم نانت في عام 1598 الحرية المدنية وقدراً كبيراً من الحرية الدينية، حتى إذا ألغي هذا المرسوم في عام 1685 اضطرّ كثيرون منهم إلى الفرار إلى سويسرا وإنكلترا وأميركا.

(**) ثمة سخرية هنا باللعب على الكلمات بين «آثم» guiltier و«بريء»، إذ تعني كلمة Innocent <إنوسنت> البريء.

التجنيد العسكري وإيرادات الدولة، إلى أنَّ النسيان الضروري للمآسي القديمة هو واجبٌ مدني معاصر رئيس. والحال، إنَّ قرّاء رينان يُقال لهم إنَّهم «لا بدَّ من أن يكونوا قد نسوا» ما تفترض كلمات رينان أنَّهم يتذكرونه بصورة طبيعية!

كيف لنا أن نفهم هذا التناقض؟ لعلنا نبدأ بملاحظة أنَّ الاسم الفرنسي المفرد «سان بارتليمي» ينطوي على القتل والقتلى؛ أي أولئك الكاثوليك والبروتستانت الذين أدّوا دورًا محليًا واحدًا في الحرب المقدّسة غير المقدّسة الكبيرة التي اندلعت في وسط أوروبا وشمالها في القرن السادس عشر، والذين من المؤكّد أنَّهم ما كانوا ينظرون إلى أنفسهم بارتياح إنَّهم جميعًا «فرنسيون». وبالمثل، فإنَّ «مذابح ميدي في القرن الثالث عشر» تحجب الضحايا والقتلة الذين لا أسماء لهم خلف فرنسيّة «ميدي» القحّة. ولا حاجة برينان إلى أن يُذكر قرّاءه بأنَّ معظم الألبين القتلى كانوا يتكلمون البروفنسالية أو الكاتالانية، وأنَّ قتلهم أتوا من أنحاء مختلفة من أوروبا الغربية. ويتمثّل أثر هذا المجاز في تصوير فصول من الصراعات الدينية الضخمة التي وقعت في أوروبا العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث على أنَّها حروب قتل بين أخوة - هم الفرنسيون أبناء الأمة الواحدة، ومن سواهم؟ - قبل أن تُعاد إليهم الطمأنينة. ولأننا نستطيع أن نكون على ثقة بأنَّ الأغلبية الساحقة من معاصري رينان الفرنسيين ما كانوا ليسمعوا قطّ، لو تُركوا وشأنهم، بـ «سان بارتليمي» أو «مذابح ميدي»، فإننا ندرك أننا إزاء حملة تاريخية منهجية، تقوم بها الدولة عبر نظامها المدرسي بصورة أساسية كي «تذكر» كل شابة فرنسية وشاب فرنسي بسلسلة من المذابح القديمة التي باتت الآن مدوّنة بوصفها «تاريخ العائلة». وتلك الـ «لا بدَّ من أن يكونوا قد نسوا» المآسي التي يحتاج المرء على الدوام لأن «يُذكر» بها تتكشف على أنَّها وسيلة مميزة في البناء اللاحق للجينالوجيات <أو الأنساب> القومية (وإنه لمن الدالّ أن رينان لم يقل إنَّ على كلّ فرنسي أن «يكون قد نسي» كومونة باريس. ففي عام 1882 كانت ذكرى الكومونة لا تزال واقعية وليست أسطورية، ومؤلمة بما يكفي لأن تجعل من الصعب قراءتها تحت عنوان «إعادة الطمأنينة بعد اقتتال الأخوة»).

لا حاجة إلى القول إنّه ليس ثمة في كلّ هذا، ولم يكن فيه، أيّ شيء فرنسي على نحوٍ خاص. وهنالك صناعة تعليمية هائلة تعمل من دون توقّف

على قسّر الشباب الأميركي على تذكّر/ نسيان عداوات الأعوام 1861 - 1865 بوصفها حرباً «أهلية» عظيمة بين «أخوة» لا بين دولتين أمتين سيدتين، كما كانت لفترة وجيزة. (لكن بمقدورنا أن نكون على ثقة بأنه لو نجحت الكونفدرالية في الحفاظ على استقلالها، لكان شيءٌ بعيدٌ كلَّ البعد عن الأخوة حلَّ في الذاكرة محلّ هذه «الحرب الأهلية»). وتقدّم كتب التاريخ المدرسية الإنكليزية مشهداً مسلياً، هو مشهدُ أبٍ مؤسّسٍ عظيمٍ يُعلّم كلَّ طفل في المدرسة أن يدعوهُ ولیم الفاتح. لكن هذا الطفل نفسه لا يُعلّم أن ولیم لم يكن يتكلم الإنكليزية، بل وما كان بمقدوره أن يتكلمها، لأن اللغة الإنكليزية لم تكن موجودة في زمنه؛ كما لا يُقال لهذا الطفل ما الذي فتحه هذا الفاتح. ذلك أن الجواب المنطقي الحديث الوحيد لا بدّ من أن يكون أنه فتح إنكلترا، الأمر الذي يحوّل الضاري النورماندي القديم إلى سلفٍ لنابليون وهتلر أشدّ نجاحاً. لذلك، فإن كلمة «الفاتح» تنجز ذلك النوع من الحذف الذي تنجزه «سان بارتليمي»، فتذكّر المرء بشيء لا بدّ من نسيانه في الحال. هكذا يلتقي ولیم النورماندي وهارولد الساكسوني في ميدان معركة هاستنغز، كأخوين على الأقل، إن لم يكن كشريكين في رقصة.

من اليسير بلا شكّ أن نعزو هذه الحالات القديمة من إعادة الطمأنينة بعد اقتتال الأخوة إلى حسابات موظفي الدولة الباردة. لكنها تعكس على مستوى آخر إعادة تشكيل عميقة للخيال لم تكد تعيها الدولة، ولم يكن لها، وليس لها الآن، سوى سيطرة بسيطة عليها. وفي ثلاثينيات القرن العشرين مضى بشرٌ من جنسيات كثيرة ليقاتلوا في شبه الجزيرة الإيبيرية لأنهم كانوا ينظرون إليها على أنّها المجال الذي كانت فيه القوى والقضايا التاريخية العالمية موضع خطر. وحين بنى نظام فرانكو الذي عاش طويلاً نصب وادي الشهداء^(*)، قصرَ عضوية مدينة الموتى المكفهرّة هذه على أولئك الذين ماتوا، كما يرى، في النضال

(*) وادي الشهداء (بالإسبانية: Valle de los Caídos)، هو نصب تذكاري أمر ببنائه الدكتاتور الإسباني فرانسيكو فرانكو. ويضم قبور أكثر من ثلاثين ألفاً ممن قاتلوا في الحرب الأهلية الإسبانية (1936 - 1939) في صفّ الجبهة القومية، إضافة إلى جثة خوسي أنطونيو بريمو دي ريفيرا، مؤسس الكتائب الإسبانية (الفالانخيس)، وفرانكو نفسه. في عام 1958 قررت الحكومة الإسبانية إنشاء مزار للجنود المحسوبين على الجانب الجمهوري، شريطة أن يكونوا كاثوليك. ومن معالم المبنى صليب ضخّم بارتفاع 150 م يمكن مشاهدته من على بعد 40 كلم.

العالمي ضد البلشفية والإلحاد. لكن «ذكرى» حرب أهلية «إسبانية» راحت تبزغ على هوامش الدولة، مع أن هذه «الذكرى» لم تُغذُ رسمياً إلا بعد وفاة الطاغية الماكر، وما تلاه من انتقال سلس بصورة مذهشة إلى الديمقراطية البرجوازية، وهو انتقال أدت فيه هذه «الذكرى» دوراً حاسماً. وعلى هذا النحو أيضاً، جرى في الأفلام والقصص السوفياتية تذكّر/ نسيان الحرب الطبقية الضخمة التي اندلعت بين عامي 1918 و 1920، بين جبال البامير ونهر الفيستولا بوصفها حرب «نا» الأهلية، مع أن الدولة السوفياتية، عمومًا، تتمسك بقراءة ماركسية أرثوذكسية للصراع.

تُعَدّ القوميات الكريولية في البلدان الأميركية ذات دلالة على هذا الصعيد. ذلك أن الدول الأميركية، من جهة أولى، ظلت ضعيفة على مدى عقود، بل وبعيدة عن المركزية، ومتواضعة كثيرًا في طموحاتها التعليمية. ومن جهة أخرى، كانت المجتمعات الأميركية، حيث يقف المستوطنون «البيض» إزاء العبيد «السود» و«المحليين» الذين أبعد نصفهم، متصدعة داخليًا إلى درجة لم تبلغها أوروبا قط. ومع ذلك فإن تخيل تلك الأخوة الذي لا يمكن من دونه أن تولد إعادة الطمأنينة بعد اقتتال الأخوة، يتجلى بصورة باكرة على نحو لافت، وليس من دون شعبية صادقة ومدهشة. وتشكل الولايات المتحدة الأميركية مثالًا جيدًا جدًا على هذا التناقض.

في عام 1840، وفي خضمّ حرب قاسية دامت ثماني سنوات ضدّ السيمينول(*) في فلوريدا (وبينما كان ميشليه يستدعي أوديبه)، نشر جيمس فينيمور كوبر حكايته المستكشف، وهي الرابعة من بين خمس حكايات في سلسلة الجورب الجلدي التي حظيت بشعبية هائلة. ومن الأساسي في هذه الرواية (وفي زميلاتها كلها ما عدا الأولى) ما يدعو ليزلي فيدلر «الحبّ القاسي الذي لا يكاد يُفصح عنه، لكنه أكيد» الذي يجمع بين حارس الغابة «الأبيض» ناتي بمبو والزعيم النبيل شينغاشوك («شيكاجو»!)⁽³²⁾ من ديلاوير.

(*) السيمينول (Seminoles)، قبيلة هندية كانت تعيش في فلوريدا، وعاشت في البداية في جورجيا كفرع من قبائل كريك لكنها انفصلت عنهم واتجهت إلى الجنوب في بدايات القرن الثامن عشر (وهذا ما يعنيه اسمها بلغة الكريك: المنفصلون)، ثم خاضت ثلاثة حروب ضد الولايات المتحدة أولها كان في عامي 1817/1818 عندما كانت تحت الحكم الإسباني وثانيها بين عامي 1835 و 1842 بعد قرار

غير أن الخلفية الرينانية لأخوة الدم التي تجمع بينهما ليست ثلاثينيات القرن التاسع عشر القاتلة بل الأعوام المنسية المتذكّرة الأخيرة من الحكم الإمبراطوري البريطاني. فكلا الرجلين يُصوّر على أنه «أميركي» يقاتل من أجل البقاء: ضدّ الفرنسيين وحلفائهم «المحليين» («المنغو»*) («الأشرار»)، وعملاء جورج الثالث الخونة.

و حين صوّر هرمان ملفل، في عام 1851، إسماعيل وكويكوج في السرير معًا في حانة النفّاث («كذلك استلقيت أنا وكويكوج في عرس قلبينا، قرنين مطمئنين متحابين»)، فإنه أضفى على الهمجي البولينيّزى النبيل طابعًا أميركيًا ساخرًا على النحو التالي:

«... لكنني على يقين من أن رأسه كان رأسًا ممتازًا إذا نظرت إليه من زاوية علم فراسة الدماغ؛ قد يبدو مضحكًا، لكنّه ذكرني برأس الجنرال واشنطن كما نراه في تماثيله المعروضة للناس؛ ففيه ما في رأس واشنطن من انحدار مُقَعَّنَس متدرّج بانتظام فوق الحاجبين، ولديه حاجبان شديدا البروز كأكمتين طويلتين يتكاثف الشجر في قمتهما. كان كويكوج هو جورج واشنطن وقد تطور في اتجاه بدائي»⁽³³⁾.

نقلها إلى الأراضي الجديدة في الغرب، وقادها زعيم يدعى أوسولا خلال الحرب لكنه قتل عندما كان يستعد للهدنة، وبعد الحرب تم نقل كثير منهم إلى ما أصبح لاحقًا ولاية أوكلاهوما.

Leslie Fiedler, *Love and Death in the American Novel* (New York: Stein and Day, 1966), (32) p. 192.

يقرأ فيدلر هذه العلاقة قراءة نفسية وتاريخية، بوصفها مثالاً على إخفاق القصّ الأميركي في التعامل مع الحب البالغ بين الجنسين وهوسه بالموت، وغشيان المحارم، والإيروسية المثلية البريئة. لكن ما يفعل فعله هنا، باعتقادي، ليس إيروسية قومية بل قومية أضفي عليها الطابع الإيروسي. فالروابط بين ذكر وذكر في مجتمع بروتستانت يحرّم بكلّ صرامة ومنذ البداية اختلاط الأجناس، توازيها ضروب «الحب المقدس» بين رجل وامرأة في قصّ أميركا اللاتينية القومي، حيث سمحت الكاثوليكية بنمو عدد ضخم من السكّان الـ *mestizo* (المولّدين) (ومما له دلالة أن الإنكليزية كانت قد استعارت كلمة «*mestizo*» من الإسبانية).

(*) المنغو (Mingo)، فرع من الإيروكوا الأميركيين الأصليين نشأ من قبائل هاجرت غربًا إلى أوهايو أواسط القرن الثامن عشر. أجبر معظمهم على الانتقال إلى كنساس ولاحقًا إلى أوكلاهوما.

Herman Melville, *Moby Dick* (London; Toronto: Cassell, 1930), p. 71.

(33)

لا بدّ من أن الكاتب استطاب كثيرًا العبارة الأخيرة الخبيثة.

بقي على مارك توين أن يبدع في عام 1881، بعد أن مضت فترة معقولة على «الحرب الأهلية» وعلى إعلان لنكولن تحرير العبيد، أول صورة باقية لأسود وأبيض بوصفهما «أخوين» أميركيين: جَمْ وَهَكَ اللذان يشردان مع التيار في المسيسيبي الواسع⁽³⁴⁾. لكن الخلفية هي الـ antebellum > فترة ما قبل الحرب < المنسية/ الممتدّرة التي لا يزال فيها الأسود عبداً.

ما تبيّنه بوضوح تخيّلات الأخوة اللافتة التي شهدتها القرن التاسع عشر هذه، والتي بزغت «بصورة طبيعية» في مجتمع مزقته العداوات العرقية والطبقية والمناطقية العنيفة، هو أن القومية في عصر ميشليه ورينان كانت تمثل شكلاً جديداً من الوعي الذي نشأ حين لم يعد ممكناً عيش الأمة أو اختبارها على أنها جديدة، في لحظة الذروة من التمزق والقطيعة.

سيرة الأمم

ما من تغير عميق في الوعي إلا ويجلب معه، بحكم طبيعته ذاتها، ضروباً مميزة من النسيان. ومن ضروب النسيان هذه تنبع، في ظروف تاريخية معينة، روايات وسرديات. ذلك أنه بعد اختبار التغيرات الفيزيولوجية والانفعالية التي يُحدثها النضج، يغدو من المستحيل «تذكر» وعي الطفولة. يا لتلك الآلاف من الأيام التي مرّت بين الطفولة الأولى وأوائل البلوغ كيف تختفي أبعد مما يطاله التذكر المباشر! ويا لغرابة أن تحتاج عوناً من شخص آخر كي يُعلّمك أن هذا الصغير العاري في الصورة المُصفّرة، المنبطح على دثارٍ أو مهدٍ ماذا ذراعيه وساقيه، هو أنت. والصورة، ذلك الوليد الجميل لعصر الاستنساخ الآلي، ليست سوى الدليل الأكثر حسماً بين كومةٍ حديثة ضخمة من الأدلة الوثائقية (شهادات الميلاد، اليوميات، التقارير، الرسائل، السجلات الطبية... وما شابه) التي تسجّل نوعاً من الاستمرار الواضح وتلخّ في الوقت ذاته على ضياعه من الذاكرة. ومن هذا التغريب يأتي مفهوم الشخصية، أو الهوية (أجل، أنت والصغير العاري شخص واحد) التي لا بدّ من أن تُسرّد، لأنه لا يمكن تذكرها. وعلى الضدّ من تبيان البيولوجيا أن كلّ خلية واحدة في الجسم البشري تُستبدّل

(34) يحسن بنا أن نلاحظ أن نشر هكليري فنّ لمارك توين سبق ببضعة شهور فحسب إثارة رينان

أمر «سان بارتليمي».

في غضون سبعة أعوام، فإن سرديات السيرة الذاتية والسيرة تُغرق أسواق
الرأسمالية الطباعية عامًا بعد عام.

تتوضع هذه السرديات في زمن فارغ متجانس، شأنها شأن الروايات
والصحف التي عرضنا لها في الفصل الثاني، الأمر الذي يجعل إطارها تاريخيًا
وخلفيتها اجتماعية. وهذا هو السبب في أن كثيرًا من السَّير الذاتية يبدأ بظروف
الأبوين والأجداد التي لا يمكن أن يملك عنها من يكتب سيرته الذاتية سوى
أدلة ظرفية، نصية؛ وفي أن كاتب السيرة يبذل غاية الجهد كي يسجل التاريخين
الروزناميين، الـ ب. م لحدثين سَيريين لا يمكن للشخص الذي تُكتب سيرته
أن يتذكرهما قط: تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة. وما من شيء يذكّرنا بحدّاته
هذا السرد بتلك الحدة التي يذكّرنا بها مفتاح إنجيل متى. فهذا الإنجيلي يقدم
لنا قائمة بسيطة بثلاثين ذكرًا أنجب واحد منهم الآخر على التوالي، من أبراهام
وصولًا إلى يسوع المسيح (ولا تُذكر امرأة إلا مرة واحدة، لا لأنها والدّة، بل
لأنها مؤايّة وليست يهودية). ولا نجد أيّ تواريخ خاصة بأيّ من أسلاف
يسوع، دَع عنك المعلومات الاجتماعية أو الثقافية أو الفيزيولوجية أو السياسية.
وهذا النمط من السرد (الذي يعكس أيضًا تلك القطيعة في بيت لحم التي
غدت ذكرى) كان معقولًا تمامًا لدى النسابة القديس لأنه لم يكن يتصور
المسيح «شخصية» تاريخية، بل ابن الله الفعلي.

كما هو الحال مع الأشخاص المُحدّثين، كذلك هو الحال مع الأمم. ذلك
أن إدراك الانغراس في زمن علماني، متسلسل، مع كلّ ما ينطوي عليه ذلك من
تواصل واستمرار، وكذلك من «نسيان» لتجربة الاستمرار هذه - نسيان هو نتاج
ضروب القطيعة التي شهدتها أواخر القرن الثامن عشر - إنما يولّد الحاجة إلى
سَرْد «الهوية». وهي مهمة موكولة إلى قاضي ميشليه. لكن هناك فارقًا أساسيًا
في رسم الحبكة بين سرد الشخص وسرد الأمة. في قصة «الشخص» العلمانية
ثمة بداية ونهاية. ذلك أنه يبرز من جينات أبيه وأمه وظروفهما الاجتماعية إلى
مرحلة تاريخية قصيرة، ليؤدي دورًا هناك حتى مماته. ولا يكون ثمة شيء بعد
ذلك سوى آثار الصَّيت أو النفوذ الباقية (تصوّروا كم سيبدو غريبًا، اليوم، أن
تُنهى قصة حياة هتلر بالإشارة إلى أنه في 30 نيسان/أبريل 1945 مضى إلى
الجحيم مباشرة). أمّا الأمم فليس لها تلك الولادات التي يمكن تحديدها

بصورة واضحة، كما أنَّ ميثاتها، إنَّ كانت تحدث على الإطلاق، ليست طبيعية قط⁽³⁵⁾. ولأنَّه ما من مُنشئ، فإنَّ سيرة الأُمَّة لا يمكن كتابتها على النحو الإنجيلي، «نزولاً في الزمن»، عبر سلسلة توالدية طويلة. والبديل الوحيد هو صياغتها «صعوداً في الزمن»؛ باتجاه إنسان بيجين، وإنسان جاوه، والملك آرثر، أينما ألقى مصباح عالم الآثار بصيصه المتقطع. لكن هذه الصياغة موسومة بميثاتٍ تبدأ، في عكسٍ مثيرٍ للجينالوجيا <أو الأنساب> التقليدية، من حاضرٍ هو الأصل والمنشأ. فالحرب العالمية الثانية تنجب الحرب العالمية الأولى؛ ومن <معركة> سيدان <1870> تأتي <معركة> أوسترليتز <1805>؛ وسَلَفُ انتفاضةٍ وارسو <1943> هو دولة إسرائيل.

بيد أنَّ الميثات التي تبني سيرة الأُمَّة هي من نوع خاص. ففي الصفحات الـ 1200 من كتابه المهيِّب المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني لم يذكر فيرنان بروديل «سان بارتليمي» رينان إلّا مروراً، مع أنَّها حدثت على وجه الضبط في منتصف حكم هذا الملك من آل هابسبورغ. يقول المعلم <بروديل> (المجلد 2، ص 223):

les événements sont poussière، ils traversent l'Histoire comme des lueurs brèves. A peine naissent-ils qu'ils retournent déjà à la nuit et souvent à l'oubli.

«ما الحوادث إلّا هباءً منثوراً، فهي تعبر التاريخ عبور ومضات قصيرة، وما تكاد تنشأ حتى تعود إلى الظلمة وغالبًا ما يلفّها النسيان».

الميثات المهمّة، عند بروديل، هي تلك الحوادث الغُفل التي لا عدّ لها، والتي تتيح له، وقد جُمِعت وأخذت معدلاتها الوسطية العلمانية، أن

(35) سُلِّك المصطلح الجديد «genocide» <إبادة> مؤخراً للتعبير عن مثل هذه القيامات.

يرسم صورة الشروط الحياتية بطيئة التغير التي يعيشها ملايين البشر الغفل الذين لا تحتلّ قوميتهم بين الأسئلة التي تُطرح بشأنهم سوى موقع السؤال الأخير.

بيد أنّ سيرة الأمة تُتزع من مقابر بروديل المتراكمة بلا رحمة، ضدّ معدّل الوفيات السائر، والانتحارات مضرب المثل، والشهادات المريرة، والاغتيالات، والإعدامات، والحروب، والمحارق. لكن هذه الميئات العنيفة، وخدمة لأغراض السرد، لا بدّ من أن يجري تذكّرها/ نسيانها على أنّها «ميئاتنا الخاصة».

القومية الغربية والقومية الشرقية

هل ثمة فارق مهم؟ (*)

إنها لمن النعم أننا لم نعد نسمع كثيرًا عن القيم الآسيوية، تلك «القيم» التي كانت بلاغتها من الصفاقة حدّ التحول إلى عبارات ملطّفة يطلقها قادة بعض الدول تبريرًا للحكم السلطوي ومحابة الأقارب والفساد. وعلى أيّ حال، كانت الأزمة المالية في عام 1997 قد وجّهت ضربة قاسية إلى زعم هؤلاء أنّهم وجدوا طريقًا سريعة إلى النماء والازدهار الاقتصادي الدائمين. لكن أمر الفكرة التي مفادها وجود شكل آسيوي مميز من القومية لا يقتصر على أنّها لا تزال منتشرة بيننا على نطاق واسع، بل يتعدّى ذلك إلى أن جذورها تعود إلى أكثر من قرن من الزمان⁽¹⁾؛ ذلك أن أصولها الأبعد تكمن على نحو واضح تمامًا في ما أبدته الإمبريالية الأوروبية العنصرية من إصرار سيئ الصيت على أن «الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا». بيد أن عددًا من القوميين، في أجزاء مختلفة من آسيا وفي وقت مبكر من القرن العشرين، راح يستخدم هذا الإصرار على قسمة عنصرية غير قابلة للعلاج، بغية حشد المقاومة الشعبية ضد سيطرة كانت حينئذ غربية تمامًا. فهل لمثل هذه القسمة الجذرية ما يبررها حقًا، أكان على الصعيد النظري أم على الصعيد التجريبي؟ لا أعتقد، من جهتي، أنّ الفروق الأهم بين القوميات - في الماضي، أو اليوم، أو في المستقبل القريب - تنبع من الانقسام إلى شرق وغرب. وأقدم

(*) نشر بندكت أندرسن هذا المقال في: *New Left Review*, no. 9 (May- June 2001), pp. 31-42.

وإضافته إلى الكتاب كفصل منه هي من المترجم.

Text of an address delivered in Taipei, April 2000.

(1)

القوميات في آسيا - مثل الهند والفيليبين واليابان - هي أقدم من كثير من القوميات الموجودة في أوروبا وأراضي أوروبا وراء البحار، مثل كورسيكا واسكتلندا ونيوزيلندا وإستونيا وأستراليا وأوسكادي، وهلمجرًا. وتبدو القومية الفيليبينية، في أصولها - ولأسباب واضحة - شديدة الشبه بقومية كوبا وقوميات أميركا اللاتينية القارية؛ وتبدي قومية ميجي أوجه شبه واضح بقوميات أواخر القرن التاسع عشر الرسمية التي نجدها في تركيا العثمانية وروسيا القيصرية وبريطانيا العظمى الإمبراطورية؛ وتشبه القومية الهندية في شكلها ما يجده المرء في إيرلندا ومصر. ويجب أن نضيف أيضًا أن ما يعدّه الناس الشرق والغرب مختلف بصورة جوهرية على مرّ الزمن. وعلى مدى أكثر من قرن شاعت الإشارة إلى تركيا العثمانية في اللغة الإنكليزية باسم Sick Man of Europe <رجل أوروبا المريض>، على الرغم من توجّه سكانها الديني الإسلامي، ولاتزال تركيا اليوم تسعى جاهدة إلى الدخول في المجموعة الأوروبية. وفي أوروبا التي اعتادت النظر إلى نفسها باعتبارها مسيحية - ناسيةً ألبانيا المسلمة - تتنامى أعداد المسلمين بسرعة يومًا بعد يوم. ولطالما عُدت روسيا قوة آسيوية، ولا يزال في أوروبا كثير من البشر الذين يفكّرون على هذه النحو. ويمكن أن نضيف أن في اليابان نفسها بعضًا ممن يعتبرون أنفسهم نوعًا من البيض. ثمّ أين يبدأ الشرق وأين ينتهي؟ تقع مصر في أفريقيا، لكنها لطالما كانت جزءًا من الشرق الأدنى إلى أن باتت الآن، مع توقّف استخدام مصطلح الشرق الأدنى، جزءًا من الشرق الأوسط. أمّا بابواغينيا الجديدة فتقع في الشرق الأقصى بالنسبة إلى أوروبا، شأنها شأن اليابان، لكنها لا تنظر إلى نفسها على هذا النحو. وتحاول دولة تيمور الشرقية الجديدة الصغيرة الشجاعة أن تقرر إن كانت ستغدو جزءًا من جنوب شرق آسيا أم جزءًا من أوقيانوسيا التي يمكن النظر إليها من زوايا نظر معينة - مثل ليما ولوس أنجلوس - على إنها الغرب الأقصى.

زادت من إرباك هذه المشكلات هجرات السكان الجماعية عبر حدود أوروبا وآسيا التي افترض أنها ثابتة. ومنذ افتتاح موانئ المعاهدات(*) في

(*) موانئ المعاهدات (Treaty Ports)، الاسم الذي أطلق على المدن المرافئ في الصين واليابان وتايوان وكوريا التي فتحت أمام التجارة الحرة بموجب معاهدات ظالمة.

الصين في عام 1842 بدأ ملايين البشر من المملكة السماوية يعبرون البحار - إلى جنوب شرق آسيا وأستراليا وكاليفورنيا - ولاحقًا، إلى أرجاء الدنيا. وأخذت الإمبريالية الهنود إلى أفريقيا وجنوب شرق آسيا وأوقيانوسيا والكاريببي؛ وأخذت الجاويين إلى أميركا اللاتينية وجنوب أفريقيا وأوقيانوسيا؛ وأخذت الأيرلنديين إلى أستراليا. وذهب اليابانيون إلى البرازيل، والفيليبينون إلى إسبانيا... وهلم جرا. وعجلت الحرب الباردة وتداعياتها من هذا التدفق الذي شمل الكوريين والفيتناميين واللاوسيين والتايلنديين والماليزيين والتاميل... وغيرهم. من هنا الكنائس في كوريا والصين واليابان؛ والمساجد في مانشستر ومرسيليا وواشنطن العاصمة؛ ومعابد البوذية والهندوسية والسيخ في لوس أنجلوس وتورونتو ولندن ودكار. ويشير كل ما في الاتصالات المعاصرة إلى أن هذه التدفقات سوف تتواصل وربما تتسارع: حتى اليابان التي سبق أن كانت مغلقة، لديها من المقيمين الأجانب الآن ما يفوق ما كان لديها في أي وقت مضى من تاريخها، وتوضح معطياتها السكانية أن المزيد من المهاجرين أمر أساس إذا ما أريد لنموها وازدهارها أن يتواصلا.

ما ستسفر عنه هذه الهجرات - ما تنتجه من هويات وما ستنتجه منها - مسائل بالغة التعقيد، ولا تزال بلا إجابات إلى حد بعيد. ولعلّه يروقكم أن أقحم حكاية شخصية مقتضبة في شأن هذا الموضوع.

منذ حوالي أربع سنوات، درّست حلقة بحثية تتعلق بالقومية لطلاب الدراسات العليا في جامعة ييل، وطلبتُ في البداية من كل طالب أن يذكر هويته القومية، ولو كانت مجرد هوية مؤقتة. كان في الصف ثلاثة طلاب بدوا لي «صينيين» من ملامح وجوههم ولون بشراتهم. لكن إجاباتهم فاجأتني كما فاجأت الجميع، فالأول الذي يتقن تمامًا التحدث بلكنة الساحل الغربي الأميركي أكد جازمًا إنه «صيني»، على الرغم من تبيننا إنه ولد في أميركا ولم يرَ الصين قط. أمّا الثاني فقال بهدوء إنه «يحاول أن يكون تايوانيًا». إذ تحدّر من عائلة من الكومنتانغ(*) كانت قد انتقلت إلى تايوان مع تشيانغ كاي شيك في

(*) الكومنتانغ، أو الحزب القومي الشعبي الصيني، أسس في بيجين في 15 آب/أغسطس 1912 تحت شعار أمة واحدة وبأهداف قومية ديمقراطية اشتراكية تجسّد الوحدة الصينية والتحرر من الاستعمار والإمبريالية وإقامة النظام الاشتراكي. وتوصل إلى حكم جمهورية الصين في عام 1928.

عام 1949، وولد في تايوان، وتحددت هويته هناك: لذلك، هو ليس «صينيًا». وقال الثالث بغضب «أنا سنغافوري، اللعنة. تعبت من الأميركيين الذين يحسبونني صينيًا، لستُ صينيًا!» هكذا، اتضح أن الصيني الوحيد هو الأمريكي.

القوميات الكريولية

إن لم تكن الفروق بين الشرق والغرب، بين أوروبا وآسيا، هي الأكثر واقعية أو إثارة للاهتمام بين المحاور التي يجب التفكير بالقومية على أساسها، كما أرى، فما عساها تكون بدائلها الأكثر فائدة؟ واحد من التصورات الأساسية في كتابي الجماعات المُتَخَيَّلَة أنَّ القوميات بأصنافها كلها لا يمكن أن تُفهم من دون التفكير في الأشكال السياسية القديمة التي بزغت منها: الممالك، خصوصًا الإمبراطوريات من النوع ما قبل الحديث أو الحديث الباكر. وكان أقدم أشكال القومية - ذلك الذي دعوته القومية الكريولية - قد نشأ من ضروب التوسّع الكبرى التي توسّعتها بعض هذه الإمبراطوريات عبر البحار، باتجاه مناطق نائية في كثير من الأحيان، لكن ليس دائمًا. كان رواد ذلك سكانًا مستوطنين من البلد القديم، يتقاسمون مع المتروبول الدين واللغة والعادات لكنهم يشعرون على نحو متزايد باضطهاد هذا المتروبول لهم واغترابهم عنه. وتشكل الولايات المتحدة ودول أميركا اللاتينية المختلفة التي استقلت بين عامي 1776 و 1830 أشهر أمثلة هذا النوع من القومية. وعاجلاً أم آجلاً، بات تاريخ هذه القوميات الكريولية المميّز، خصوصًا مزجها السكاني بين المستوطنين والشعوب الأصلية، دع عنك التقاليد والجغرافيات والمناخات المحلية... وهلمجرًا، واحدًا آخر من مبرراتها.

لا تزال مثل هذه القوميات الكريولية حيّة إلى حدّ بعيد، بل يمكن القول إنها تنتشر؛ ذلك أنَّ قومية المستوطنين الفرنسيين في كيبك لا تزال قيد النشوء منذ أواخر خمسينيات القرن العشرين، ولا تزال تتأرجح على شفا الانفصال عن كندا. وفي بلدي، أيرلندا، لا تزال قضية «المستوطنين» في الشمال تلك القضية الملهبة التي حالت إلى الآن دون توحيد البلاد بصورة كاملة. وكان بعض من أقدم القوميين في الجنوب، أعضاء أيرلندا الفتاة الذين أطلقوا تمرد عام 1798، قد تحدّث من عائلات مستوطنين أو من

عائلات مختلطة بين المستوطنين والسكان الأصليين ذوي الأصول السلتيّة - الكاثوليكية، وهذه هي حال أجدادي الذين شاركوا في هذا التمرد. أمّا الأستراليون والنيوزيلنديون فهم الآن بصدد إقامة قوميات كريولية الطابع، في محاولة لتمييز أنفسهم من المملكة المتحدة بإدماج عناصر من التقاليد الأصليّة والماورية(*) ورمزياتها. قد تبدو هذه الأمثلة كلها غريبة. لكنني سأخاطر بارتكاب شيء من الإساءة، وأطرح أنّ بعض ملامح القومية التايوانية هي كريولية أيضًا على نحو واضح، شأنها شأن بعض ملامح القومية السنغافورية، وإن يكن على غير مزاج.

الدوائر الأساسيّة لهذه القوميات هي المستوطنون في «ما وراء البحار» من المناطق الساحلية الجنوبية الشرقية للمملكة السماوية، وبعض الهاربين من الدولة الإمبراطورية، وبعض الذين أرسلتهم إلى هناك تلك الدولة. فرض هؤلاء المستوطنون أنفسهم على السكان الموجودين من قبل، بصورة سلمية واندماجية في بعض الأحيان وبالغالب في أحيان أخرى، بطريقة تذكّرنا بنيوزيلندا والبرازيل، وبفنزويلا وبوير جنوب أفريقيا. لكن هذه البلدان الكريولية التي تتقاسم مع المتروبول درجات متفاوتة من الدين والثقافة واللغة تمكّنت بمرور الوقت من تطوير تقاليد ورمزيات وتجارب تاريخية مميزة، وخطّت في النهاية نحو الاستقلال السياسي حين شعرت أن المركز الإمبراطوري شديد الوطأة أو شديد البعد. وينبغي ألاّ نبيح لأنفسنا الإفراط في التشديد على الأهمية الفريدة التي تتسم بها خمسون سنة من وجود تايوان تحت الحكم الإمبريالي الياباني. في النهاية، عانى المستوطنون الفرنسيون في كيبك ما يقرب من 200 عام من الحكم الإمبراطوري البريطاني، وعانى الهولنديون في جنوب أفريقيا الشيء ذاته على مدى نصف قرن. وليس من السهل القول إن الثقافة الإمبريالية اليابانية كانت أشدّ غربة عن الثقافة «الصينية» وراء البحار قياسًا بما كانت عليه الثقافة الإمبريالية البريطانية من غربة عن الثقافة «الفرنسية» و«الهولندية» وراء البحار.

لا يمكن لنا أن ندّعي أيّ تمييز سهل أيضًا بين عنصرية الكريول الأوروبيين أو الغربيين وعنصرية الكريول الآخرين. كانت الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا

(*) الماوري (Maori) سكان نيوزيلندا البولينيزيون الأصليون.

والأرجنتين عنصرية للغاية، لكنه يصعب القول إنَّ أهل كيبك أكثر عنصرية من مهاجري جنوب شرق الصين إلى تايوان أو من المهاجرين اليابانيين إلى البرازيل. وإذا ما كان هذا الكلام صحيحًا، فإننا نكون أمام شكل كريولي للقومية يبرز في القرون الثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرين، والواحد والعشرين بلا شك، في الأمريكتين، وأوروبا، وأفريقيا، وأستراليا ونيوزلندا، وكذلك في آسيا. إنها ظاهرة عالمية، ولها أثر جانبي غير متوقَّع: وجود كثير من الأمم اليوم تتقاسم الإسبانية أو الفرنسية أو الإنكليزية أو البرتغالية (بمنوعاتها الخاصة)، من دون أن تتخيل أيَّ أمة منها إنها «تمتلك» هذه اللغة. وإنه لمن المستحب أن نفكر بـ«الصينية» وهي تسارع إلى السير في أعقابها متبعةً هذا السبيل.

ثمة شكل ثانٍ من القومية، ناقشته باستفاضة في كتابي الجماعات المتخيلة، يبدو ذا صلة هنا، هو ما سمَّيته القومية الرسمية، في أثر هيو سيتن واتسون. نشأ هذا الشكل من القومية تاريخيًا كردة فعل رجعية على القوميات الشعبية المنطلقة من تحت، والموجهة ضد الحكام والأرستقراطيين والمراكز الإمبريالية. وأشهر مثال للقومية الرسمية هو روسيا الإمبراطورية، حيث بسط القيصرية حكمهم على مئات الجماعات الإثنية وكثير من الطوائف الدينية، وكانوا في دوائرهم الخاصة يتكلمون الفرنسية، علامةً على اختلافهم الحضاري عن رعاياهم. وبدا الأمر كما لو أنَّ الفلاحين الروس هم وحدهم الذين يتكلمون الروسية. لكن انتشار القوميات الشعبية في الإمبراطورية في القرن التاسع عشر (الأوكرانية والفنلندية والجورجية... وهلمجرًا)، دفع القيصرية إلى أن يحسموا أمر أنَّهم روس قوميون في النهاية، وإلى أن يشرعوا في ثمانينيات القرن التاسع عشر - أي منذ 120 سنة فحسب - بسياسةٍ قاتلة من رُؤسنة رعاياهم، أو جعل القيصرية ورعاياهم الشعب الواحد ذاته إذا جاز التعبير، وهذا على وجه التحديد ما كانوا قد تحاشوه من قبل. بهذه الطريقة ذاتها حاولت لندن (بنجاح كبير) أنكلَّة إيرلندا، وحاولت ألمانيا الإمبراطورية (بأقل قدر من النجاح) ألَّمنة حصَّتها من بولندا، وفرضت فرنسا الإمبراطورية (بنجاح نسبي) اللغة الفرنسية على كورسيكا الناطقة بالإيطالية، وفرضت الإمبراطورية العثمانية (من دون أي نجاح) اللغة التركية على العالم العربي. وكما قلتُ سابقًا، فإنَّه بُذلَّ جهد مضمّن، في كلِّ حالة من هذه الحالات، لمطّ جلد الأمة الضيق القصير على جسد الإمبراطورية القديمة الشاسع.

هل كان هذا الشكل من القومية غريبًا أو أوروبيًا فريدًا؟ لا أظن ذلك ممكنًا. لننظر مثلاً في حالة اليابان الغربية التي تناولها مؤخرًا كتاب لافيتيسا موريس سوزوكي⁽²⁾، توضح فيه بتفصيل رائع ما رافق عودة مييجي^(*) من تحول مفاجئ في الطريقة التي كان ينظر بها سكان الجزر من الأينو والريوكيو بعضهم إلى بعض ويتعامل بعضهم مع بعض. ولطالما كانت سياسة شوغونية توكوغاوا منع الأينو من ارتداء ملابس اليابانيين التوكوغاويين أو اتخاذ عاداتهم وتقاليدهم؛ وبالمثل، كان المبعوثون من الريوكيو الذين يجلبون الإتاوة إلى إيدو يتلقون تعليمات بأن يرتدوا ملابس صينية على أكبر قدر ممكن من الغرابة والاختلاف. وفي كلتا الحالتين كانت الفكرة الأساس فصل هذه الشعوب الطرفية (البربرية) قدر الإمكان عن المركز الإمبراطوري. أمّا مع صعود قومية مييجي الرسمية فكانت هناك سياسة معاكسة تمامًا: صار الأينو والريوكيو يُعدّان الآن نوعين بدائيين وقديمين من العرق الياباني ذاته، شأنهم شأن أوليغارشي مييجي أنفسهم. وبُذِلَ كل جهد، مُقنِع في بعض الأحيان وقسري في أكثرها، لِيُبيّنَ هؤلاء (بقدر متفاوت من النجاح). ويمكن القول إن السياسة الإمبراطورية اللاحقة في كوريا وتايوان اتّبعَت المنطق ذاته. كان على الكوريين أن يتخذوا أسماء يابانية ويتكلموا اللغة اليابانية، وكان على التايوانيين أن يحذوا حذوهم، كما الأخوة الأصغر سنًا. كان يُعتقد أنّ عليهم في النهاية أن يغدوا يابانيين، ولو من الدرجة الثانية، تمامًا مثل الإيرلنديين في المملكة المتحدة حتى عام 1923، ومثل البولنديين في ألمانيا حتى عام 1920.

بيد أن الحالة الأشدّ إثارة والأكثر انطواءً على مفارقة هي حالة الإمبراطورية السماوية التي حكمتها سلالة مانشو - وتكلّم المانشو أيضًا - من عام 1644 حتى انهيارها قبل أقلّ من 90 عامًا (ولا غرابة في هذا، بالطبع؛ إذ لم يكن ثمة

(2) Tessa Morris-Suzuki, *Re-Inventing Japan: Time, Space, Nation* (New York: Armonk, 1998).

(*) عودة مييجي (Meiji Restoration)، أو إصلاح مييجي، فترة انتقالية من تاريخ اليابان، في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر، عرفت فيها البلاد تحولات جذرية واسعة سياسية واجتماعية، بعد أكثر من قرنين من حكم سلالة التوكوغاوا. قادت هذه العودة إلى إنهاء شوغونية أسرة التوكوغاوا وفترة إيدو التي صاحبته، ودخلت البلاد بعدها الفترة المعاصرة من تاريخها. والشوغونية (shogunate) من شوغن (shogun)، وهو اللقب الذي كان يُطلق على الحاكم العسكري لليابان منذ عام 1192 حتى نهاية فترة إيدو في عام 1868.

سلالة إنكليزية في بريطانيا العظمى منذ القرن الحادي عشر: لم يكن أول حاكمين من العائلة المالكة الحالية، جورج الأول وجورج الثاني الألمانين، يعرفان الإنكليزية تقريبًا، وما كان أحد ليهتم لذلك). ومن العلامات المهمة على جذّة القومية الصينية أن هذا الوضع اللافت لم يكن يزعج سوى قلة قليلة حتى قبل نحو 110 أعوام. ولم تجر أي محاولة لِمَنْشَنَة السكان أو حتى بيروقراطية الماندارين، لأنَّ هيبة الحُكَّام كانت تقوم، كما في أماكن أخرى، على الاختلاف، لا على التشابه. وحاولت الإمبراطورة الأرملة(*)، في النهاية فحسب، أن تستغل العداء الشعبي تجاه الإمبرياليين الغربيين باسم التراث الصيني، لكن الأوان كان قد فات؛ وتلاشت السلالة في عام 1911، كما تلاشى المانشو، إلى حدّ ما. ومع أن الكاتب الأكثر شهرة في الصين اليوم، وانغ شو، هو مانشو، فإنه لا يذيع هذه الحقيقة.

حين نشأت القومية الصينية في النهاية، كان ذلك متأخرًا بعض الشيء في التوقيت التاريخي العالمي، وهذا ما أتاح للي تشاو(**) الرائع كتابة مقالة مهمة عن الصين في ربيعها، حين كانت فتية كلّ الفتوة وجديدة كلّ الجدة. بيد أن القومية الصينية نشأت في وضع بالغ التميز، لا تشبهه سوى قلة قليلة من الأوضاع في العالم. في تلك الفترة، كانت الإمبرياليات المختلفة، بما فيها الإمبريالية اليابانية، قد اخترقت الصين ذلك الاختراق العميق، لكن الصين لم تُستعمر فعليًا. كان ثمة كثير من الإمبرياليات المتنافسة في ذلك الحين، وحتى بريطانيا العظمى التي كانت تجد صعوبة في ابتلاع الهند الشاسعة، كان وجهها يمتقع إذ تفكّر في ابتلاع إمبراطورية الصين الأوسع (ربما تكون إثيوبيا الإمبراطورية هي الشبه الأقرب). علاوة على ذلك، وبقدر ما كان للصين

(*) حكمت الإمبراطورة الأرملة أو الإمبراطورة الأم الصين أكثر من 47 عامًا بين عام 1861

ووفاتها في عام 1908.

(**) لي تشاو أو لي دازهاو (1888 - 1927) أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الصيني، كان أستاذًا في جامعة بيجين، ألهمه انتصار الثورة الروسية فراح يدرس الماركسية ويحاضر فيها. وفي عام 1921، غدت المجموعات الدراسية التي أقامها الحزب الشيوعي الصيني. عمل لي على تنفيذ الحزب الشيوعي الصيني سياسة الأممية الشيوعية (الكومنترن) في التعاون مع حزب صينيات صين القومي. اعتقله زهانغ زولين، وهو واحد من أسياد الحرب، وشنقه. أثار أفكاره عن ثورة الفلاحين الفقراء واضحة لدى ماو تسي تونغ.

الإمبراطورية حدودٌ حقيقية، فإنها كانت تتشارك هذه الحدود مع قيصرية ضعيفة تتروّسن وفي مراحلها الأخيرة. كان انتصار البحرية اليابانية على الأسطول القيصري قد وقع قبل ستة أعوام فقط من انهيار سلالة المانشو، وقبل 12 عامًا من بلوغ القيصرية نهايتها الدموية. كل هذا شجّع معظم قومي الجيل الأول في الصين على تصوّر أن بمقدور الإمبراطورية أن تتحول إلى أمّة، من دون كبير عناء. كان هذا أيضًا حلم أنور باشا(*) في اسطنبول في الحقبة ذاتها، وحلم العقيد منغستو هيلامريام في أديس أبابا بعد ثلاثة أجيال، وحلم العقيد فلاديمير بوتين في موسكو اليوم. وجمعوا بذلك، من دون كثير من التفكير، بين القومية الشعبية لدى الحركة المناهضة للإمبريالية العالمية النطاق والقومية الرسمية التي برزت في أواخر القرن التاسع عشر؛ ونحن نعلم أن هذه الأخيرة كانت قومية انبثقت من الدولة، لا من الشعب، ونُظر إليها من جانب السيطرة على الأرض، لا من جانب التحرر الشعبي. من هنا ذلك المشهد الغريب؛ مشهد شخص مثل صن يات صن، القومي الشعبي الأصل الذي كانت له أيضًا مطالباته السخيفة بأراضٍ في مناطق شتّى من جنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى، بناءً على فتوحات إقليمية حقيقية أو خيالية قام بها الحكّام من السلالات الملكية الذين يُفترض بقوميته الشعبية أن تقارعها، وكثير منها ليس صينيًا. وتولّى كلٌّ من الكومنتانغ والحزب الشيوعي الصيني أمر هذا الميراث لاحقًا بنسب مختلفة باختلاف الأوقات والمراحل.

الحال، إن الإمبراطورية السماوية السابقة لم تكن فريدة تمامًا على النحو الذي عرضته. لقد تقبّل وارثوها في أوقات مختلفة، وبدرجات متفاوتة، أنواعًا من الحدود والدول الجديدة التي شكّلتها الإمبريالية والقومية المناهضة

(*) إسماعيل أنورباشا، ويعرف لدى الغرب باسم أنور باشا (1881 - 1922)، قائد عسكري عثماني وأحد قادة حركة تركيا الفتاة. ولد في اسطنبول وتخرج في الكلية الحربية ضابطًا. انضم إلى الاتحاد والترقي، وشارك في ثورة 1908 ضد السلطان العثماني، كما شارك في حرب طرابلس ضد الإيطاليين، سافر إلى إسطنبول ليصبح وزيرًا للحربية في الدولة العثمانية. خلال الحرب العالمية الأولى قاد الجيش الثالث العثماني ضد الروس في معركة بالقوقاز، ثم تصدى للحملة البريطانية في العراق، وقاد القوات العثمانية في العراق، ونجح في صد هجوم الجيش البريطاني ومنعه من دخول بغداد في عام 1916، لكنه سرعان ما تراجع وانهزم، واستطاع الإنكليز احتلال بغداد في عام 1917. قُتل في بخارى خلال حرب ضد الحكومة البلشفية في وسط آسيا في عام 1922. يُعتبر أنور باشا أحد القادة العثمانيين الذين خططوا لمجازر الأرمن والأشوريين.

للاستعمار، في المحيط على الأقل: منغوليا وكوريا وفيتنام وبورما والهند وباكستان. وأتى هذا القبول أيضًا من الفكرة الجديدة التي مفادها أن الصينيين أمة، ما يجعلها، إذاً، ومن النواحي الأساسية، مثل عشرات الدول الأخرى الممثلة في الأمم المتحدة وفي عصبة الأمم قبلها. وبين المؤرخون التايوانيون أيضًا أن الجماعات الحاكمة في البرّ الرئيس تقبلت في أوقات مختلفة بين عامي 1895 و 1945، وضع تايوان كمستعمرة يابانية، ودعمت نضال الشعب التايواني من أجل الاستقلال عن اليابان، كما فعلت في بعض الأحيان مع الشعب الكوري. وسبق أن قلت إن التناقضات اللافتة اليوم في البرّ الرئيس بين القومية الشعبية والقومية الرسمية ليست بالتناقضات الفريدة؛ إذ يمكن أن نجدها في أجزاء أخرى من العالم، لكنها تتسم اليوم بأهمية خاصة بسبب حجم الصين الضخم، وتعداد سكانها الكبير، ونظامها الذي يبدي، بعد تخليه عن الاشتراكية التي سبق أن برر بها دكتاتوريته، كلّ علائم التحول إلى القومية الرسمية بغية تجديد شرعية حكمه.

مشاهد من الماضي والمستقبل

ثمة ميزة أخرى للقومية الرسمية تميّزها في أنحاء المعمورة كلها من غيرها من أشكال القومية. ولعلّ من الإنصاف القول إنه سبق لجميع المجتمعات المنظّمة أن اعتمدت في تأمين تماسكها (جزئيًا) على رؤى للماضي ليست شديدة التضاد بعضها مع بعض. وكان تناقل هذه الرؤى يجري عبر التراث الشفوي والشعر الشعبي والتعاليم الدينية وسجلات المحاكم... وما إلى ذلك. وما يصعب إيجاده أشدّ الصعوبة في مثل هذه الرؤى هو الاهتمام الشديد بالمستقبل. لكن ذلك كلّ لم يلبث أن تغيّر بصورة جذرية مع مجيء القومية إلى العالم أواخر القرن الثامن عشر. ذلك أن السرعة المتزايدة التي سيطر بها التغيير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي، مدفوعًا بالثورة الصناعية ووسائل الاتصال الحديثة، جعلت الأمة أول نموذج سياسي أخلاقي يستند بقوة إلى فكرة التقدم. وهذا هو السبب أيضًا في أن ابتداء مفهوم الـ genocide <الإبادة الجماعية> لم يحصل إلا مؤخرًا، على الرغم من إشارة السجلات القديمة إلى أسماء آلاف الجماعات التي اختفت بهدوء على مرّ العصور من دون أن يلاحظ أحد ذلك أو يهتم به حقًا إلا في

ما ندر. كما كان لسرعة التغيير وقوة المستقبل أثرهما في تغيير أفكار البشر عن الماضي تغييرًا جوهريًا.

حاولتُ، في الجماعات المتخيَّلة، أن ألقى الضوء على طبيعة هذا التغيير مقارنة بما نواجهه من مصاعب حين يرينا أحد صورًا التَّقَطُّت لنا ونحن لا نزال رَضَعًا. هذه المصاعب ما كانت لتحدث لولا الذاكرة الصناعية، متَّخذةً هيئة صور فوتوغرافية. يؤكِّد آباؤنا أنَّ هؤلاء الأطفال هم نحن، أمَّا نحن أنفسنا فلا نتذكَّر أننا تصورنا، ولا نستطيع أن نتخيَّل ما كنَّا عليه في السنة الأولى من أعمارنا، وما كنَّا لنعرف أنفسنا من دون مساعدة آبائنا. وما يجري في الواقع هو إنه على الرغم من وجود عدد لا يحصى من آثار الماضي التي تحيط بنا - معالم أثرية ومعابد وسجلات مكتوبة وأضرحة ومنتجات يدوية... وهلمجرًا - فإن هذا الماضي يصعب الوصول إليه ويغدو خارجيًا على نحو متزايد بالنسبة إلينا. وفي الوقت ذاته، ثمة أسباب كثيرة تدفعنا إلى أن نشعر بأننا في حاجة إلى هذا الماضي، ولو كنوع من المرساة فحسب. لكنَّ ذلك يعني أنَّ علاقتنا بالماضي هي اليوم سياسية وأيديولوجية ومحلّ نزاع ومتشظية، بل وانتهازية أكثر بكثير ممَّا كانت عليه في العصور الماضية.

هذه ظاهرة عالمية النطاق، وأساسية بالنسبة إلى القومية. لكن البرّ الصيني الرئيس يوفّر مرة أخرى تلك الأمثلة الأكثر إثارة، وسوف يظلّ كذلك. تقيم الحكومة، مرة كلّ عام، عرضًا تلفزيونيًا ضخماً، يتواصل ساعات عدة ويحظى بشعبية كبيرة، ويُظهِر مختلف الشعوب التي يتكوّن منها سكان جمهورية الصين الشعبية. الشيء البارز أشدّ البروز في هذا العرض الطويل هو التمييز الحاد بين شعب الهان العظيم ومختلف الأقليات. عادةً ما يُراد للأقليات أن تظهر في أزيائها التقليدية صارخة الألوان، ما يخلق مشهداً رائعاً بالفعل. أمَّا الهان أنفسهم فلا يمكنهم أن يظهرُوا بلباسهم التقليدي، مع أننا نعلم من الرسوم وغيرها من السجلات التاريخية كم كانت أزيائهم زاهية الألوان وجميلة بالفعل. هكذا يظهر الرجال، مثلاً، ببزات العمل، المستمدة من الطُّرُز الإيطالية والفرنسية، التي ليس فيها أيّ شيء هانيّ على الإطلاق. وبذلك يظهر الهان باعتبارهم المستقبل، وتظهر الأقليات بوصفها الماضي،

في لوحة سياسية تمامًا، وإن لم يكن ذلك واعيًا تمامًا. هذا الماضي، الذي تمثل الأقليات علامته الواضحة، هو أيضًا جزء من ماضٍ كبير يتم من خلاله إضفاء الشرعية على رقعة الأرض التي تقوم عليها الدولة الصينية. وهذا ما يجعله ماضيًا صينيًا بطبيعة الحال.

من الطبيعي في مثل هذا النوع من الخطاب الرسمي أن يكون الماضي أفضل كلما كان أقدم. ويمكن أن نرمق هذه الظاهرة بنظرة مستطلعة إذا ما تأملنا بعض أوجه الآثار التي ترعاها الدولة. كان أحد أغرب هذه الأوجه قد برز كردة فعل على النظرية التي تلقى قبولًا واسعًا ومفادها أن الجنس البشري المميّز ظهر على الأرجح في ما يعرف اليوم بشرق أفريقيا. ومن الواضح أنها ليست بالفكرة اللطيفة في الدوائر الرسمية أن يكون أسلاف شعب الهان العظيم الأصليون، وأسلاف جميع الشعوب الأخرى، عاشوا في أفريقيا، وليس في الصين، فلا يكاد يمكن وصفهم بأنهم صينيون. لذلك خُصِّصَت أموال ضخمة للبحث في داخل حدود الصين الحالية عن بعض البقايا المادية تكون أقدم من أي شيء في أفريقيا، ومتميزة منه كل التميّز في الوقت ذاته. ليس في نيتي هنا أن أسخر من بيجين، مع أن ذلك يسير إلى أبعد حدّ، بل أن أوّكد إمكانية مقارنتها بسواها. وأسهل طريقة لتبيان ذلك هي أن أخبركم أنني حين كنت صغيرًا، أترعرع في أيرلندا، وجدت لي والدتي، في مكتبة تباع الكتب المستعملة، مجلدًا ضخماً، كُتِبَ للأطفال، عنوانه تاريخ الأدب الإنكليزي. كان قد نُشِرَ في الأصل في نهاية القرن التاسع عشر عندما كانت أيرلندا لا تزال جزءًا من مملكة بريطانيا العظمى وأيرلندا المتحدة. ويظهر الفصل الافتتاحي الطويل لندن وهي تبحث عن ماضٍ مغرق في القدم بالطريقة ذاتها التي وجدناها لدى بيجين. ويناقد هذا الفصل ملحمة شفوية باللغة الغيلية، تُدعى كتاب البقرة السمراء (أو البنية)، دُوِّنت في القرن الحادي عشر، حين لم يكن وجودٌ بعد للغة الإنكليزية كما نعرفها. وحين كبرتُ وجدتُ بمحض المصادفة طبعة لاحقة من الكتاب ذاته، نُشرت في ثلاثينيات القرن العشرين. وكان معظم أيرلندا قد استقلّ في ذلك الحين، ولا عجب إذاً أن الفصل الذي يدور حول البقرة البنية اختفى، كأنه لم يكن قطّ.

معركة الألسن

دعوني ألفت أخيرًا إلى شكل آخر من القومية، هو شكل أوروبي الأصل على نحو واضح كما أعلم، لأتساءل هل يمكن القول إنه لا يزال شكلًا غريبًا بأي معنى مفيد من المعاني؟ أدعو هذا الشكل بالقومية اللغوية التي كانت قد بدأت بالظهور في بداية القرن التاسع عشر في إمبراطوريات أوروبا السلالية، ووجدت أسسها الفلسفية في نظريات هيردر وروسو. وكان الاعتقاد الأساس لدى هذه القومية اللغوية أن كل أمة حقّة تتسم بلغتها الخاصة وثقافتها الأدبية المميزة اللتين تعبّران معًا عن عبقرية ذلك الشعب التاريخية. ومن هنا تلك الطاقة الهائلة التي كُرّست لوضع معاجم كثير من اللغات التي لم يكن لها مثل هذه المعاجم في ذلك الوقت، مثل التشيكية والهنغارية والأوكرانية والصربية والبولندية والنرويجية... وغيرها. ومع التزايد البطيء في معرفة الشعب القراءة، راحت التقاليد الأدبية الشفوية تُدوّن وتُنشر مطبوعةً. واستُخدمت هذه المنتجات في مقارنة سيطرة اللغات الكبرى، لغات الإمبراطوريات السلالية، مثل لغة العثمانيين والألمانية الرفيعة والفرنسية الباريسية وإنكليزية الملك، وأخيرًا الروسية الموسكوفية أيضًا. نجحت هذه الحملات في بعض الأحيان، وأخفقت في أحيان أخرى، لأن النتيجة كانت تتحدد سياسيًا في كل حالة. والنجاحات معروفة إلى حدّ بعيد ولا حاجة بنا لأن نتوقف عندها. أمّا الإخفاقات فمجهولة ومثيرة للاهتمام. على سبيل المثال، نجحت باريس، في القرن التاسع عشر، ومن خلال السيطرة على نظام المدرسة ومعظم النشر، في أن تختزل لغات كثيرة كانت مستخدمة فعليًا في فرنسا إلى مستوى اللهجات أو اللغة العامية. ولم تحرز مدريد النجاح ذاته في تحويل اللغات الكثيرة التي كانت مستخدمة في إسبانيا (مثل الكاتالونية والغاليسية) إلى مجرد لهجات من اللغة القشتالية. أمّا لندن فدنّت كثيرًا من القضاء التام على اللغة الغيلية باعتبارها لغة حيّة، لكنها اليوم بصدد عودة واسعة.

لو انتقلنا إلى آسيا فسنجد تشكيلة ضخمة من محاولات القومية اللغوية المفيدة للغاية في الدراسة المقارنة. وتؤكد هذه التشكيلة ذاتها صعوبة الدفاع عن الفكرة التي مفادها وجود شكل واحد للقومية الآسيوية. إذ اتّبع حكّام مييجي مثال باريس، وفرضوا نطق طوكيو على بقية البلاد، واختزلوا الأشكال

الأخرى كلها إلى مجرد لهجات هامشية، في وقت لم تكن لغة كيوشو المنطوقة مفهومة في هونشو، فما بالك بلغة جزر ريوكيو. ونحن على دراية بالعملية التي أدت إلى اختزال الكانتونية والهوكينية والهاكّا وسواها - وهي لغات بحدّ ذاتها على نحو واضح، وترتبط بعضها ببعض ذلك الارتباط المهلهل كما الرومانية والإيطالية والإسبانية - إلى لهجات أدنى من اللغة الماندرينية الوطنية الجديدة. وفي تايلند، سيطرت تايلندية بانكوك على ما دعت لهجات شمال البلاد وشماله الشرقي وجنوبه، تلك اللهجات التي لا يفهمها أهل بانكوك في العادة. وتمثل فيتنام وإندونيسيا حالتين هجيتين لافتتين. في الحالة الأولى كان المستعمرون الفرنسيون قد عزموا على كسر الثقافة الماندرينية الصينية الطراز، بفرض الأحرف اللاتينية على اللغة الفيتنامية في المدارس ودور النشر التي كانوا يرعونها. وفي عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته راح القوميون الفيتناميون يتقبلون هذه الثورة على نحو متزايد، ويتوسعون بها، مقيمين الأساس لمعرفة القراءة والكتابة بالفيتنامية على نطاق واسع، إنما مع قطع الصلة المباشرة الجوهرية مع التقليد الأدبي الصيني الطابع الذي عرفته القرون السابقة. أمّا في جزر الهند الشرقية الهولندية فعملت الحكومة الاستعمارية - الشديدة التشكك بما للهولندية من قيمة عالمية، والشديدة الشحّ في ما يتعلق بإنفاق الأموال اللازمة لنشر الهولندية في الأرخيل الضخم - من خلال شكل موحد من اللغة القديمة المشتركة بين الجزر، هي الملاوية. وفي أواخر عشرينيات القرن العشرين، كان القوميون الإندونيسيون قد قرروا أن هذه اللغة التي باتت الآن تُدعى الإندونيسية، هي اللغة القومية الحقّة؛ ليتحول بعد ذلك كثير من اللغات الكبرى، مثل الجاوية والسوندية والمادورية والبوغينية، إلى مجرد لغات إقليمية، على الرغم من أن معظمها أقدم من الملاوية، ول بعضها تقاليد أدبية أشدّ وقَعًا من تقاليد الملاوية.

أخفقت كلّ من الهند والفيليبين - إذا جاز التعبير - في خلق لغة قومية مقبولة عمومًا. ولا تزال اللغة الكولونiale - الإنكليزية والأميركية - اللغة الفاعلة لدى الدولة والنخبة الوطنية. وثمة في المكانين ثقافة أدبية قوية باللغة الإنكليزية - وقومية - متكيفة مع ثقافات هندية وبنغالية وتاميلية وتاغالوغية وسيبوانية لا تقلّ قوة. وكانت باكستان القديمة قد قُسمت إلى دولتين منفصلتين جزئيًا بسبب قمع كراتشي اللغة البنغالية التي غدت في بنغلادش المحرك لقومية

لغوية شديدة الشبه بالقوميات اللغوية الأبر في اليونان والنرويج وتشيكوسلوفاكيا السابقة. أما تيمور الشرقية، الدولة الأمة الأحدث في آسيا، المشتملة على الرغم من صغر حجمها على أكثر من عشرين جماعة إثنية لغوية، فاختارت البرتغالية لغةً لدولتها، واختارت لغةً مشتركةً بسيطةً (هي التيتومية) لغةً للوحدة الوطنية.

من العسير القول إنَّ القومية الهندية، أو قومية تيمور الشرقية، أو القومية الإندونيسية، أو القومية التايوانية هي اليوم أقلَّ جديةً وخطرًا من القومية الصينية، أو القومية التايلندية، أو القومية اليابانية، أو القومية الكورية، على التوالي. وحين يُطرح السؤال: ما الذي يجعل الأمر على هذا النحو، اليوم خصوصًا؟ فإن التفسير يبقى مستحيلًا من دون التفكير في دور وسائل الإعلام الإلكترونية التي تمارس اليوم لدى معظم البشر ما يفوق الدور الذي مارسه الطباعة، أمَّ القومية الحقّة. ذلك أن التلفزيون يمكن من بثّ الصور والرموز ذاتها في التوّ واللحظة بلغات مختلفة وإيصالها حتى إلى الصّغار وإلى من لا يكاد يعرف القراءة. وعلاوة على ذلك، فإن مزيدًا من البشر يعتادون، بدرجات شتّى من المهارة، استخدام شتّى اللغات، في السياقات المختلفة، من دون أن يحدث ذلك أيّ تغيير جذّي في هويتهم القومية.

بل إنّه يمكن القول، كما فعلتُ في سياق آخر، إنَّ الاتصالات الإلكترونية، متضافرةً مع الهجرات الضخمة التي خلقها النظام الاقتصادي العالمي الحالي، تخلق شكلًا جديدًا عتيًا من القومية، أدعوه قومية المسافات البعيدة: قومية لم تعد تعتمد كما كانت على موقع إقليمي أو أرض في وطن. ذلك أن بعض أعنف القوميين السيخ هم أستراليون، وبعض أعنف القوميين الكروات هم كنديون؛ وبعض أعنف الوطنيين الجزائريين هم فرنسيون، وبعض أعنف القوميين الصينيين هم أميركيون. ويتيح الإنترنت والخدمات المصرفية الإلكترونية والسفر الدولي الرخيص لمثل هؤلاء الناس أن يؤثروا في سياسة بلدانهم الأصلية تأثيرًا شديدًا، حتى لو لم تعد لديهم النية في العيش هناك. وهذه واحدة من العواقب الرئيسة والمنطوية على مفارقة المترتبة على تلك السيرورات التي اشتهرت باسم العولمة؛ وهذا سبب آخر للاعتقاد بأنَّ أيّ تمييز حاد وقاطع بين القومية الآسيوية والقومية الأوروبية إنما تعوزه الصّحة.

ترحالٌ وتجارة: في السيرة الجغرافية لكتاب الجماعات المتخيلة⁽¹⁾

يبدو من الممكن الآن، وقد مرَّ ما يقارب ربع القرن على نشر الجماعات المتخيلة أول مرة، أن نرسم الخطوط العريضة لتاريخ ترحاله اللاحق في ضوء بعض موضوعاته الرئيسة: رأسمالية الطباعة، القرصنة بمعناها الاستعاري الإيجابي، إضفاء الطابع اللغوي المحلي، واقتران القومية بالأممية ذلك الاقتران الذي لا طلاق فيه.

بوجه عام، لا تزال الدراسات التي تتناول انتشار الكتب عبر الأمم نادرة تمامًا، ما عدا دراسة هذا الانتشار في حقل التاريخ الأدبي حيث يشكّل فرانكو موريتي^(*) ذلك المثال الاستثنائي. لكن المادة تبقى متاحة لإجراء بعض التأملات المقارنة الأولية. فمع نهاية عام 2007، سيكون هذا الكتاب (الذي سيشار إليه من الآن وصاعدًا بـ ج م) قد نُشر في ثلاثة وثلاثين بلدًا وفي تسع وعشرين لغة⁽²⁾. وهو انتشار لا يعود إلى خصائص هذا الكتاب بقدر ما يعود إلى نشره الأصلي في لندن، باللغة الإنكليزية التي تعمل الآن كنوع من اللاتينية ما بعد

(1) ما كان يمكن كتابة هذا التذييل لولا المساعدة الكريمة التي قدّمها قبل أيّ أحد آخر أخوي بيري، وكذلك تشوي سونغ يون، ويانا غينوفا، وبوثيتي هانزارولا، وجويل كورتي، وأنطونيس لياكوس، وسيلفا ميزناريتش، وغوران ثيربورن، وتوني وود الذين أودّ أن أعبرَ لهم جميعًا عن أعمق الشكر.

(*) فرانكو موريتي، (Franco Moretti) أكاديمي ومنظر أدبيّ إيطالي له عدد من الكتب المهمة، منها أطلس الرواية الأوروبية 1800 - 1900، وملحمة حديثة: النظام - العالم من غوته إلى غارثيا ماركيز، والبرجوازي بين التاريخ والأدب، وسبق للمترجم أن ترجم إلى العربية كتابه الأول علامات أخذت على أنها أعاجيب: في سوسولوجيا الأشكال الأدبية وبعض المقالات الأخرى.

(2) علاوة على مزايا الاختصار، فإنّ ج م يسدّ الطريق على نحو مريح أمام زوج من الكلمات يكاد مصاصو الدماء المبتذلون أن يكونوا قد امتصّوا منه كلّ الدم إلى الآن.

الإكليركية، ذات الهيمنة العالمية (ولو أنَّ ج م ظهر أصلاً في تيرانا في ألبانيا، أو في مدينة هوشي منه في فيتنام، أو حتى في ملبورن في أستراليا، لما كان من المحتمل أن يَزَحَل بعيداً). ومن جهة أخرى، فإن ما تشير إليه هذه الكثرة من الترجمات هو أنَّ إضفاء الطابع اللغوي المحلي الذي كان له في النهاية، وبالتحالف مع رأسمالية الطباعة، أن يدمر هيمنة اللاتينية الكنسية ويؤدي في ولادة القومية دور القابلة، لا يزال قوياً بعد مرور نصف ألفية من السنين.

ما أقترح القيام به هو أن أسرد ما كنت قد تمكّنت من اكتشافه في شأن هذه الترجمات، بفضل العون الكريم الذي قدّمه كثير من الزملاء والرفاق والأصدقاء: ما عُنِيَ به الناشرون، وبأيّ بواعث واستراتيجيات، وفي أيّ سياقات سياسية، محلية ودولية على السواء. وذلك كي أحاول في النهاية أن أستخلص بضعة من النتائج المترددة وغير النهائية.

لكنه من الضروري أن أبدأ بقول بضعة أشياء عن مقاصدي الأصلية، السجالية بلا شك، ذلك أنّها أثّرت، بطرائق غير متوقّعة في الأغلب، على استقبال الكتاب وترجماته. أولاً، ولأسباب أعقد من أن أعرضها هنا، كانت المملكة المتحدة البلد الوحيد في العالم الذي جرى فيه، خلال ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، وعبر أقنية منفصلة، عمل رفيع عن طبيعة القومية وأصولها بالمعنى العام، على أيدي أربعة من المفكرين اليهود النافذين - هم المؤرّخ المحافظ إيلي خدوري، والفيلسوف وعالم الاجتماع الليبرالي المتنوّر إرنست غلنر، والمؤرّخ الماركسي آنثد إريك هوبسباوم، والمؤرّخ التقليدي أنطوني سميث. لكنه لم يجرِ جدال عام حقيقي قبل عام 1977، حين نشر القومي والماركسي الاسكتلندي توم نايرن كتابه الذي شكّل خرقاً تفكّك بريطانيا⁽³⁾. ووصف هذا القومي

(3) جاء خدوري من بغداد، وغلنر من براغ، في حين جاءت والدته هوبسباوم من فيينا. واهتمّ خدوري، ربما بسبب أصله، بالشرق الأدنى، وأبعد منه. وصدر كتابه عن القومية في آسيا وأفريقيا في عام 1970. وكانت مقالة غلنر الأولى في قضايا القومية، من ناحية ما، بمنزلة ردّ على خدوري. ولم يصدر كتاب هوبسباوم الكبير في القومية حتى عام 1990، لكنه كان قد هاجم أطروحة نايرن في مجلة الـ *New Left Review* في خريف عام 1977، وأدّى دوراً كبيراً في تعريف العالم الأنكلوساكسوني بعمل ميروسلاف هروتش المقارن المتبحّر عن الحركات القومية في وسط أوروبا وشرقها.

الاسكتلندي المملكة المتحدة - التي يرتبط بها بقوة كل من غلنر وهوبسباوم وسميث - بأنها ذلك الأثر المتداعي المتبقي من عصر ما قبل قومي، ما قبل جمهوري والمُقَدَّر لها تالياً أن تشاطر هنغاريا النمساوية مصيرها. ووجه هذا المراجع أو التحريفي الماركسي بنادقه إلى ما رأى أنها معالجة ضحلة أو مراوغة عالجت بها الماركسية التقليدية ما للقومية بمعناها الواسع من أهمية تاريخية - سياسية. وكانت عواطف في الجدل الذي تلا ذلك في صف نايرن إلى حد بعيد.

هكذا تمثل واحد من مقاصد ج م السجالية المهمة في تأييد موقف نايرن («نقدياً» بالطبع). وتتجلى آثار ذلك واضحة بما يكفي في الحيز الكبير الذي خصصت به المملكة المتحدة والإمبراطورية البريطانية وحتى اسكتلندا (ربما لأنني أعيش وأعمل في الولايات المتحدة منذ عام 1958): الأمر الذي يتجلى في وفرة من المقبوسات من الأدب «الإنكليزي» والإلماعات إليه التي يمكن أن تكون كريمة بالنسبة إلى كثير من القراء الذين لم يتعلموا في المملكة المتحدة؛ كما يتجلى في استفزازات إقليمية الطابع جمهورية الروح (مثل أن جميع حكام المملكة المتحدة قد سُمُّوا كما لو أنهم جيران قريون [آن ستيوارت]، في حين لُقِّبَ الحكام الأجانب على الطريقة التقليدية [لويس الرابع عشر]؛ وفي بعض الإشارات إلى خصم نايرن في الجدل إريك هوبسباوم آسف لخلوها من المجاملة.

تمثل مقصد ثانٍ في توسيع مدى انتقادات نايرن النظرية التي استهدفت الماركسية التقليدية على نحو يكاد يكون حصرياً. إذ بدا لي أن «إخفاق» الماركسية في أن تُمسك بتلابيب القومية ذلك الإمساك العميق ليس مقتصرًا على الماركسية بأي حال من الأحوال. ويمكن، بل يجب، توجيه النقد ذاته إلى الليبرالية التقليدية، وعلى الهامش إلى النزعة المحافظة التقليدية (وهذا هو السبب في أن ج م يسخر من عدم معقولية وجود ضريح للماركسي المجهول أو نُصب تذكاري للبراليين الذين لقوا مصرعهم). ولا بد من وجود سبب مشترك لهذا القصور العام، مع فارق يتمثل في أن الماركسية تبدو قياساً بالليبرالية مكاناً أفضل للبحث عن ذاك السبب. ولأن هذا هو الإطار الذي أحاط بالكتاب، أمكن له أن يثير اهتمام كل من الماركسيين النقديين والليبراليين النقديين، بإشارته إلى هذين الفريقين أن ثمة حاجة إلى قدر كبير من التفكير

والبحث الجديدين حقًا. لذلك لم أحزن مطلقًا حين عمّد أحد المراجعين المؤيدين عمومًا إلى وصف الكتاب بأنه ماركسي كثيرًا بالنسبة إلى ليبرالي، وليبرالي كثيرًا بالنسبة إلى ماركسي.

تمثّل المقصد السجاليّ الثالث في نزع الصفة الأوروبية عن الدراسة النظرية التي تتناول القومية. وهذا الدافع لا علاقة له بنايرن، بل هو مستمدّ من انغماس طويل في مجتمعي إندونيسيا وتايلند/سيام اللذين كانا آثذ بعيدتين تمامًا، وفي ثقافتيهما، ولغتيهما. ذلك أنّه على الرغم من المدى الواسع المثير للإعجاب الذي ميّز العمل متعدّد اللغات الذي قام به كل من غلنر وهوبسباوم وسميث، إلا أنهم بدوا، من وجهة نظر جاكارتا وبانكوك، أصحاب نزعة مركزية أوروبية على نحوٍ لا علاج له. بل إن غلنر كان قد أجرى بحثًا عن المغرب، لكن إدوارد سعيد ربما كان محقًا في مهاجمته لجهله بالعربية، مع أنّ حدة حوارهما العامة لم تكن بالسموّ اللازم⁽⁴⁾. كانت المشكلة كيف الإبحار بين سكيلا وشاربيديس^(*)، سكيلا ما عرفته أوروبا القرن التاسع عشر من تهويمات رومانسية في شأن الأمم الصينية واليابانية والفيتنامية... إلخ، بأعمارها التي تبلغ آلافًا كثيرة من السنين، وشاربيديس الاتهام الساخط الذي وجهه بارتا تشاترجي إلى القوميات كلها المناهضة للكولونيالية خارج أوروبا بأنّها «خطابات مُشتَقّة». وكان أنّ هبّت إلى نجدتي في هذا المأزق تلك الدول القومية المتعددة التي خُلِقَت في أميركا الجنوبية والوسطى خلال المرحلة 1810 - 1838 (مع أنّه لم يكن بمقدوري في عام 1983 قراءة الإسبانية أو البرتغالية). كان التعدد هنا حاسمًا شأنه شأن الأسبقية التاريخية في الحدوث. ذلك أنّ «الثورتين» في الولايات المتحدة وهايتي سبقتا الحركات القومية في بلدان أميركا الإسبانية، في حين برزت البرازيل القومية بعد ذلك بكثير، ولكل تجربة من هذه التجارب شواذاتها الخاصة التي تميّزها عن سواها. (منذ بضعة أيام مضت، أشارت صحيفتي المحلية في بانكوك بسخرية إلى الولايات

(4) لا شكّ في أن خدوري كان على ألفة بالعربية، لكنّ عمله لا يُظهر ذلك على نحوٍ واضح. وكتابه في عام 1970 هو بصورة أساسية أنطولوجيا نصوص كتبها مفكّرون قوميون في آسيا وأفريقيا، مع مقدّمة مُشَبَّهة ولاذعة قدّم بها لهذه النصوص.

(*) سكيلا وشاربيديس وحشان بحريان في الأساطير اليونانية يقفان متقابلين على جانبي مضيق مسينا بين صقلية وإيطاليا. وكانا قريبين بما يكفي لأن يمثّلا للبحارة ذلك الخطر الذي يصعب الفرار منه.

المتحدة على أنها أرض [الأنانية] الحرّة). لكن ذلك لا يحول مطلقاً دون إمكانية المقارنة الواضحة بين هذه البلدان وبلدان أميركا الإسبانية التي خاضت، مثلها، سنوات دموية كثيرة من أجل بناء جمهوريات مستقلة عديدة، على الرغم من أنها تشاطر إسبانيا الإمبراطورية اللغة ذاتها والدين ذاته، وذلك قبل وقت طويل من قيام الماچيار والتشيك والنرويجيين والاسكتلنديين والطلّيان بالشيء ذاته.

وفرت أميركا الإسبانية حججاً مثلى ضدّ كلّ من الفرادة القومية والمركزية الأوروبية. وأتاحت لي أن أنظر إلى الولايات المتحدة الأميركية الباكّة، في السياق الأميركي الجامع، بوصفها مجرد دولة ثورية كريولية أخرى، لكنها أكثر رجعية من أخواتها الجنوبيات من بعض النواحي (بخلاف جورج واشنطن، المحرّر الذي لم يضع حدّاً للرقّ إلا بصورة تدريجية، وبخلاف توماس جيفرسون، فإنّ سان مارتين لم يتكلّم على سكّان بلده الأصليين كهمجّيين، بل دعاهم لأن يصبحوا مواطنين بيروفيين). وانطباعي أنّ ما ينطوي عليه كتابي من نزع للطابع الأوروبي لم يترك كبير أثر في أوروبا ذاتها، لكنه جعل ج م أشدّ جاذبية للقراء في الجنوب العالمي.

تمثّل المقصد السجالي الأخير بالولايات المتحدة. ولم يكن ذلك مجرد عداءٍ للتدخلات الإمبريالية الأميركية الدموية في أميركا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، ولا مجرد ردّة فعل على الحقيقة الغريبة التي مفادها أنّه حين كان كتاب ج م على وشك أن يُنشر لم يكن في الجامعات الأميركية أيّ مناهج دراسية عن القومية، فما بالك بالقومية الأميركية التي كانت تُعتبر بمنزلة ضلالة من ضلالات «القدر البين»(*) الذي ساد في أواخر القرن التاسع عشر. والأحرى

(*) القدر البين (Manifest Destiny)، هو الاعتقاد الذي ساد في أربعينيات القرن التاسع عشر بأنّ من المُقدّر على الولايات المتحدة أن تتوسّع من سواحل الأطلسي باتجاه المحيط الهادئ، بل وفُسر في بعض الأحيان على أنّه يعني استيعاب أميركا الشمالية كلّها: كندا، المكسيك، كوبا، أميركا الوسطى. وبحسب المدافعين عن هذا الاعتقاد، فإنّ التوسّع ليس أمراً حسناً فحسب، بل بين ومؤكد (مثل القدر). وفي تسعينيات القرن التاسع عشر جرى إحياء هذا الاعتقاد كي يبرّر التوسّع أبعد من أميركا الشمالية. ومع أنّ صنّاع السياسة الأميركيين كفّوا في أوائل القرن العشرين عن استخدام هذا المفهوم، إلا أنّه ظلّ يظهر لدى بعض الكتاب الذين يرون أنّ بعض أوجه «القدر البين» لا تزال تمارس تأثيرها في الأيديولوجية السياسية الأميركية، خصوصاً الاعتقاد بأنّ لأميركا «رسالة» في تعزيز الديمقراطية والدفاع عنها.

أنه كان ردّة فعل على الذاتية اللافتة التي لا تزال مرئية اليوم حتى في النيويورك تايمز الليبرالية، وعلى تحيّز «البلد الكبير» الواضح لقراء النيويورك ريفيو أوف بوكس. (لاحقًا، وجدتُ المحلية ذاتها لدى «البلدان الكبيرة» الأخرى، مثل الهند والصين وروسيا وإندونيسيا والبرازيل). وكان قول كارل دويتش^(*) الساخر: «ليس على القوة أن تصغي»، يرنّ في أذني. ومن هنا تلك الاستراتيجية السجالية التي اتبعها ج م في إبراز «البلدان الصغيرة» وإعطائها مكان الصدارة: هنغاريا، تايلند، سويسرا، فيتنام، اسكتلندا، والفيليبين.

لهذه الأسباب، وسواها، حظيت الطبعة الأصلية التي نُشرت في كلّ من لندن ونيويورك في آنٍ معًا، باستقبالين مختلفين تمامًا في هذين البلدين. في تلك الأيام البعيدة، كان لا يزال لدى المملكة المتحدة «صحافة نوعية»، وسرعان ما قام بمراجعة ج م كل من إدموند ليتش، وكونور كروز أوبراين، ونيل أسكيرسون، والماركسي الجامايكي ونستون جيمس. أمّا في الولايات المتحدة التي لم تمتلك قطّ «صحافة نوعية» فقلما انتبه إلى الكتاب. وهذا ما يصحّ على المجلات الأكاديمية كلها. ولم يتغيّر هذا الوضع إلا في أوائل تسعينيات القرن العشرين، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وتفكك يوغسلافيا العنيف، والتصاعد السريع في سياسات الهوية على الجبهة الداخلية.

ظهرت أول طبعة أجنبية من ج م في طوكيو في عام 1987، بعنوان سوزو نو كيودوتاى. وكانت الترجمة من عمل طالبين سابقين موهوبين من طلابي، هما تاكاشي وسايا شيراشي اللذان اعتقدا أنها يمكن أن تؤدي دورًا على الصعيد التعليمي في ذلك الصراع الدائم ضد العزلة اليابانية، وضدّ الرأي المحافظ الذي مفاده أن من غير الممكن أو من غير الضروري مقارنة تاريخ البلد وثقافته مع تواريخ البلدان الأخرى وثقافتها. وكانت الترجمة ذاتها مبتكرة وغير عادية، حيث حافظت على ما في الطبعة اللندنية من تعطّش

(*) كارل دويتش (1912 - 1992)، هو عالم اجتماع وسياسة تشيكي من عائلة تتكلّم اللغة الألمانية. تركز أعماله على دراسة الحرب والسلام والقومية والتعاون والاتصال. عُرف باهتمامه في إدخال المناهج الكمية وتحليل النظم الشكلي ونماذج التفكير في مجال العلوم السياسية والاجتماعية، ويعدّ واحدًا من أشهر علماء الاجتماع في القرن العشرين.

للسّجال من دون أن تتمسّك بحرفيّتها. وبرع المترجمان في إحلال «مقابلات» يابانية محلّ كثير من إحالات الأصل إلى الأدبيات الإنكليزية، أو مقبوساته منها. وعلى سبيل المثال، فإنّ الاقتباس الطويل من توماس براون >في الفصل الثامن< حلّ محله اقتباس من حكاية هيكي اليابانية. أمّا بالنسبة إلى دار النشر في طوكيو، ليروبورت التي هي من يسار الوسط نوعاً ما، فكتب لي تاكاشي مؤخراً: «مالك الشركة، تسوتسومي، هو ابن ملك من ملوك المال، تمرّد على والده، واختار أن يكون شاعراً وكاتباً، لكنه سرعان ما وجد نفسه وريثاً لجزء من أعمال أبيه عندما مات هذا الأخير. لذلك قال للمحررين لديه أن ينشروا كتباً جيدة من دون اهتمام لأمر الربح... وهذا هو السبب في إفلاس الدار في تسعينيات القرن العشرين». لكنها بقيت بما يكفي لأن ترى ج م يغدو كتاباً أساسياً في المقرّرات المتقدّمة عن القومية في أفضل جامعات اليابان.

خلال الأعوام الأربع الفاصلة بين طبعة دار النشر Verso الأولى وطبعتها الثانية المُنقّحة والموسّعة كثيراً، ظهرت طبعات من الكتاب بالألمانية والبرتغالية والصربية - الكرواتية. صدرت الطبعة الألمانية الممتازة (*Die Erfindung der Nation*) في فرانكفورت في عام 1988، مع غلاف لافت عليه صورة تمثال هيرمان الضخم في الغابة السوداء، ذلك النُصب الذي أُقيم في القرن التاسع عشر احتفاءً بأرمينوس، «الجرماني» الذي هزم الإمبراطورين الرومانيين أغسطس وتايبيريوس^(*). وكانت دار النشر المستقلة التي نشرت الكتاب Campus Verlag قد أسّست في عام 1975، وسرعان ما حظيت بسمعة حسنة بسبب كتبها الجادّة في التاريخ والسياسة. ولعلّ أحد الأسباب وراء ظهور ترجمة ألمانية على هذا النحو الباكر أنّ صحيفة فرانكفورتر زيتونغ «النوعية» كانت قد رصدت عن كثب مراجعات الكتاب في «الصحافة النوعية» في المملكة المتحدة⁽⁵⁾. أمّا

(*) نُقشَ على سيف هذا التمثال الذي يبلغ طوله 7 أمتار: «الوحدة الألمانية هي قوتي، قوتي هي جبروت ألمانيا».

(5) في عام 1998 أصدرت (Campus Verlag) طبعة جديدة، استبدلت بتمثال هيرمان صورة صارخة لتمرّد شعبي: بيوت تحترق، بشر مذعورون، إضرام نيران. وفي عام 2005 قرر الناشر أن يُعيد إصدار الكتاب في سلسلة «الكلاسيكيات» التي يصدرها، مع غلاف سميك من دون ملامح مميزة. وشملت هذه الطبعة Nachwort >تذيلاً< مُسهباً كتبه توماس ميرغل، وكُرس جزءاً منه لتأملات في استقبال ج م، فضلاً عن مادة مثيرة بعض الشيء في شأن حياته اللاحقة في فضاء إلكتروني.

الترجمة إلى البرتغالية في عام 1989 (*Nação y Consciência nacional*)، فلم تُنشر في لشبونة، بل في ساو باولو، لدى Ática. ولهذه الدار تاريخ مثير للاهتمام على نحوٍ غير عادي. وبحسب موقعها الإلكتروني الحالي فإن أصولها تعود إلى عام 1956، عندما بادرت مجموعة من المثقفين والباحثين التقدميين، من بينهم أندرسون فيرنانديز دياز، وفاسكو فيرنانديز دياز فيلهو، وأنطونيو نارفايس فيلهو إلى إقامة مؤسسة Curso de Madureza Santa Inês، لتعليم الكبار. كان ذلك زمن التفاؤل العظيم والإبداع في الحياة الثقافية والسياسية البرازيلية: زمن موسيقى الـ bossa nova >الاتجاه الجديد>، والـ Cinema Nova >السينما الجديدة>، وبينالي برازيليا الأول. وفي عام 1962 أدّت الزيادة الكثيفة في عدد المسجلين في هذه المؤسسة وما يتمتع به أساتذتها من نفوذ فكري واسع إلى إقامة الـ Sociedade Editora do Santo Inês. وبعد سنتين من ذلك، وقريبًا من زمن الانقلاب العسكري ضدّ الرئيس غولار، تقرّر بمبادرة من أندرسون فيرنانديز دياز إقامة دار للنشر نقدية يديرها محترفون، وتُسمّى على اسم Ática، مهد الحضارة الإغريقية القديمة. وفي عام 1965 نشرت Ática كتبها الأولى، وتدبّرت على نحوٍ ما أن تواصل وجودها طوال عقدين من الدكتاتورية العسكرية القمعية. وفي عام 1999 اشتراها تكتّل إديتورا أبريل البرازيلي وتكتّل فيفيندي الفرنسي المتّحدين معًا؛ وبعد خمسة أعوام، وصراع طويل، غدا تكتّل أبريل - المستورد الأصلي لرسوم ديزني، وناشر الطبعات البرازيلية من التايم والبلاي بوي - مالكا لأغلبية الأسهم. لكن أتيكا لا تزال تبدو كأنّ لها استقلالية معينة.

في صيف عام 1989 تلقيت دعوة من إيفو باناك في جامعة بيل كي أقوم بدور المعلق «المُقارن» في مؤتمر في دوبروفنيك عن موضوع القومية في البلقان وأوروبا الشرقية. وهناك التقيت سيلفا ميزناريتش وخضت نقاشات حيوية معها، وهي التي تحملت لاحقًا مسؤولية الترجمة الصربية - الكرواتية (*Nacija: Zamišljena zajednica*) في عام 1990، وكتبت لها مقدّمة خاصة. كانت سيلفا قد تلقت تعليمها في كلية الحقوق في جامعة زغرب، وفي جامعة شيكاغو، وحصلت على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع في عام 1984 من جامعة ليوبليانا؛ كما كانت في تلك السنة ذاتها زميلة في مركز وودرو ويلسون، حيث يمكن أن تكون قد وقعت على ج م لأول مرّة. وكتبت إليّ مؤخرًا أنها كانت تحسب أنّها أنثى أن ترجمت للكتاب قد تساعد في الوقوف في وجه ذلك

المد المتصاعد من التعصب القومي والجنون الأسطوري الكرواتي والصربي؛ ما يساعد في إبقاء يوغسلافيا موحدة. لكن هذا الأمل لم يلبث أن خاب، للأسف، في ربيع العام التالي. وكانت دار النشر Školska knjiga آنثذ داراً ضخمة تملكها الدولة. وبعد انهيار يوغسلافيا، جرت خصخصتها وعمدت مؤخرًا إلى شراء أكبر دار صربية لنشر الكتب المدرسية⁽⁶⁾.

مع أن طبعة كورية موسعة من ج م كانت قد صدرت في عام 1991 إلا أن دار النشر الكورية نامان أصدرت في السنة التالية ترجمة مقررصة (سانغ سانغ أوي كونغدونغ شي) تستند إلى النص الأصلي المنشور في عام 1983. وكانت نامان قد أسست في عام 1979 على يد شو سانغهو الذي تعود أصوله إلى مقاطعة كوانغجو «المنشقة» التي خرج منها كثير من المثقفين اليساريين المناضلين، مع أن سانغهو نفسه لم يكن مناضلاً. وفي ثمانينيات القرن العشرين وأوائل تسعينياته ازدهرت نامان كناشر للنصوص الاجتماعية «الشعبية» ذات الميل اليساري؛ ثم انزاحت بعد ذلك، مائلة مع اتجاهات السوق، صوب الكتب الليبرالية الجديدة والمحافظة. ويبدو أن ج م قد نجا من المد الجديد، حيث أصدرت الشركة في عام 2002 (أي بعد عشرة أعوام) طبعة غير مقررصة، تقوم على طبعة عام 1991 الموسعة. (لعله من المميز أن غلاف هذه الطبعة هو صورة ملونة لجمهور غفير من الشباب الذين يلوحون بالأعلام، ربما كانوا من مشجعي منتخب كرة القدم الكوري الذي حقق نجاحاً باهراً في مباريات كأس العالم التي جرت في حزيران/ يونيو 2002). وتحظى نامان لدى كثير من الكتاب والناشرين الجاديين بصيت واسع بسبب إنتاجها الضخم والسريع الذي يتميز في بعض الأحيان بتحريره البائس وترجماته الخرقاء. كما أنها تستمد شهرتها من عدم دفعها حقوق كثير من المؤلفين⁽⁷⁾.

(6) تابعت ميزناريتش لتؤسس وتدير بين عامي 1992 و 1996، مشروع مجموعة الخبراء الإنسانيين في شأن الهجرة القسرية؛ واليوم هي في الهيئة التعليمية في جامعة ليوبليانا وهي من كبار المستشارين في معهد زغرب للبحث في قضايا الهجرة والإثنية.

(7) أشكر شوي سنغ يون على هذه المعلومات. وكان لوالدها تجربة سيئة تمثلت في إصدار نامان اثنين من كتبه.

لعلّ من الممكن تفسير إصدار نامان التي باتت الآن محافظة، طبعةً جديدة من الكتاب بتنبّوها إلى النجاح التجاري الذي حققته ترجمة تاكاشي وسايا شيراشي اليابانية. وكان لي خلال زيارة قصيرة إلى سيئول في عام 2005 حظّ أن ألتقي البروفسورة الساحرة والمتواضعة يون هيونغ سوك التي قامت بالترجمة. وأسرفت في الاعتذار عن نوعية الطبعة المُقرّصنة، وقالت إن موعدًا نهائيًا قاسيًا كان قد فرض عليها كي تنجز العمل.

إذا ما كانت الترجمات حتى عام 1992 تبدو عشوائيةً من الناحية الجغرافية - طوكيو، فرانكفورت، ساو باولو، زغرب، وسيئول - فإنّ الحال لم يكن كذلك على الإطلاق خلال بقية العقد. ومن بين الخمس عشرة ترجمة المعنيّة، تمّت إحدى عشرة في أوروبا بين عامي 1995 و 1999. لكن ذلك سبقه صدور طبعة في مكسيكو (*Comunidades imaginadas*) عن دار النشر Ciudad México وأخرى في استانبول (*Hayali Cemaatler*) في عام 1993.

كان الاقتصادي والدبلوماسي دانييل سوسيو فيليغاس قد أسّس في عام 1934 The Fondo de Cultura Económica، وكان ذلك في البداية بغرض تقديم نصوص باللغة الإسبانية لكلية الاقتصاد الوطنية المؤسّسة حديثًا، لكنه سرعان ما توسّع ليغطي التاريخ والثقافة والأدب وما إلى ذلك. ولأنّ الدولة كانت تديره منذ البداية، فقد بقي جزءًا من البيروقراطية الثقافية الرسمية (في تسعينيات القرن العشرين كان يرأسه الرئيس السابق ميغيل دي لا مدريد). وبعد الحرب العالمية الثانية، وسّع «إمبراطوريته» إلى الأرجنتين وكولومبيا والولايات المتحدة (سان دييغو) وغواتيمالا والبيرو وفنزويلا. وفي تسعينيات القرن العشرين كان إنتاجه هائلًا: 2300 عنوان جديد و 5000 من إعادة الطبع. ولعلّ الحافز وراء هذه الترجمة أتى من ذلك العدد الكبير من الباحثين والمثقفين المكسيكيين الذين درسوا أو درّسوا في الجامعات الأميركية، التي كان ج م يُستخدم فيها على نطاق واسع كمقرّر في أقسام التاريخ والأنثروبولوجيا والأدب المقارن. وفي عام 1986 دُعيتُ إلى مؤتمر ضخم عن القومية المكسيكية في زامورا، وأذهلني أنّ الأجنبي الآخر الوحيد المُشارك في المؤتمر كان ديفيد برادنج، مؤرّخ المكسيك والبيرو المتبحّر، ثم مؤرّخ أميركا الإسبانية بشكل عام. ومع أنّه أربكني أن أكون المُشارك الوحيد الذي لا يعرف

الإسبانية مطلقاً، فإنَّ إنريكي كراوزي، الساعد الأيمن الشاب لأوكتافيو باث الذي يجيد أكثر من لغة ولطالما كان له نفوذه الفكري الكبير في الـ Fondo، تَلَطَّف وأخذني تحت جناحه.

أمَّا دار النشر التركية Metis Yayinlari في استانبول فأمرٌ مختلفٌ تماماً. وكانت قد أسَّستها في الأصل موفي غرسوي سوكمين، «وكيلة» Verso في تركيا، مع قلة من الأصدقاء اليساريين. وبغية تفادي خطر اعتقال الفريق بأكمله، سُجِّلَت Metis قانونياً باسم فرد واحد، يمكنه أن يقضي أيَّ مدَّة اعتقال يفرضها النظام. ومن هذه البداية المزعزعة، حققت الدار نجاحاً كبيراً في تسعينيات القرن العشرين الأكثر انفتاحاً، فنشرت أعمالاً قصصية تركية ومُترجمة (من تولكين إلى بيريك)، وفلسفة (أدورنو، بنيامين، لوكاش)، ونظرية سياسية ونسوية (باديو، أريغي، ماكينون)، وقضايا راهنة (أوليفر روي)، ومؤخراً نصوصاً في مناهضة العولمة والحركات المناهضة لحرب العراق. ويبدو نجاح Metis مستمداً من ثلاثة عوامل مستقلة: سكان البلاد الشباب الذين يتلقون تعليماً حسناً على نحوٍ متزايد، وكثير منهم من أنصار انضمام أنقرة إلى الاتحاد الأوروبي؛ علاقات الدار الودية طويلة الأمد مع الإسلاميين؛ والسياسات الثقافية للبنوك الكبرى التي تحكم على أداء الناشرين الذين تدعمهم من خلال المراجعات التي تُكتب عن كتبهم لا من هوامش ربحها، وتقنع إذا ما كانت كلفة تسيير هذه الدور أقل مما يمكن أن تتطلبه الدعاية⁽⁸⁾. ولعله يجدر بي أن أضيف أنه خلال أواخر تسعينيات القرن العشرين تعرّفت بالمصادفة على طلاب من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق الناطقة بالتركية، قالوا إنهم قرأوا ج م أولاً في ترجمة Metis.

نأتي إلى أوروبا على وجه التحديد: السويد (1993)؛ هولندا (1995)؛ النرويج وفرنسا وإيطاليا (1996)؛ اليونان وبولندا (1997)؛ بلغاريا وسلوفينيا ومقدونيا وصربيا (1998). إذ نُشِرَت الترجمة السويدية (*Den Föreställda gemen - skapen*) في غوتبورغ لدى دار النشر Daidalos التي أسست في عام 1982، وهي دار نشر يسارية مستقلة صغيرة، لكنها محترمة، نشأت في الأصل

(8) أشكر توني رود على هذه المعلومات المتعلقة بتاريخ Metis.

عن الحركة الطلابية، وتتميّز بجديتها، وينشرها الرسائل العلمية (بتمويل من الحكومة)، فضلاً عن سيرتها الفلسفية القوية: من الكلاسيكيات إلى آرندت، غادامير، هبرماس، هيدغر، راولز، وتايلور. أمّا في التاريخ والتحليل الاجتماعي فنشرت ماركس، بومان، بورديو، كاستيلس، وغيدنز⁽⁹⁾.

أمّا الترجمة الهولندية (*Verbeelde gemeenschappen*) فتلفت الانتباه لسببين مختلفين أشدّ الاختلاف. فحتى عام 1995 كانت أغلفة الترجمات بسيطة عموماً، كي لا نقول مفتقرةً إلى أيّ خصائص تميّزها. (وحدها الترجمة اليابانية استخدمت الصورة الإندونيسية المخادعة التي تعود إلى العهد الكولونيالي وكنت قد فرضتها على طبعة Verso). الاستثناء الوحيد كان غلاف الترجمة الألمانية التي صدرت عن Campus Verlag وعليه صورة تمثال هيرمان التي لا شكّ في أنها كانت مقصودة على نحوٍ فيه مفارقة ساخرة. لكن الاتجاه راح ينحو بعد ذلك نحو تصميم أغلفة «قومية»؛ فالغلاف الهولندي، مثلاً، كان استنساخاً جميلاً لحفر على الخشب يُظهر داخل مطبعة هولندية قديمة. والشيء اللافت الثاني هو الطريقة التي تمّت بها الترجمة. ففي فترة من سبعينيات القرن العشرين بدأت مراسلةً منتظمة مع سويرجونو، وهو شيوعي إندونيسي قديم، صلب وطريف وغريب الأطوار كان يقيم آنئذٍ في موسكو. وكان سويرجونو من الناشطين في أثناء ثورة بلاده (1945 - 1949)، وبعد تحقيق الاستقلال عمل في صحيفة الحزب، هاريان راجات [يومية الشعب]. لكنه راح يُزاح جانباً شيئاً فشيئاً، ربما بسبب فردانيته الزائدة، وربما بسبب هفوة جنسية ما. لكنه كان محظوظاً بما يكفي لأن يكون في زيارةٍ إلى الصين عندما جرت «محاولة انقلاب» 1 تشرين الأول/أكتوبر 1965 التي دُمّر الحزب بعدها، حيث دُبح مئات آلاف الأعضاء أو سجنوا لأعوام طويلة من دون محاكمة. وإذ نُقِر سويرجونو مما رآه من ثورة ماو الثقافية، وأزعجه الصراع الداخلي بين زمر المنفيين الشيوعيين الإندونيسيين، وجد سبيلاً للانتقال إلى موسكو، حيث عمل مترجماً لسنوات. لكنه وقع ضحية زمرة من المنفيين ترعاهم وتديرهم الـ KGB، وتلقّى ضربة شديدة لم يُشف منها على الإطلاق، وأمضى فترات طويلة في مشافٍ قديمة كثيبة خارج موسكو. وفي

(9) أشكر غوران ثربورن على هذه المعلومات.

النهاية، أنقذته جماعة صغيرة من اليساريين الهولنديين لهم صلاتهم بالعاصمة السوفياتية، وأتوا به إلى أمستردام. وهناك استقر في بيتٍ للمسنين قديم على أطراف المدينة، حيث زرتة في عدد من المناسبات. وهناك أيضًا قابلتُ الناشر المستقل جان ميتس الذي كان صديقًا وزائرًا منتظمًا لذاك العاجز الذي تحمّل المصاعب بروح لم تنكسر حتى مماته. لكن قرار ترجمة ج م لم يكن لفئة عاطفية. كان ميتس يدرك تمام الإدراك ما حققه الكتاب في لندن من نجاح تجاري نسبي. وكانت الترجمة الهولندية أول تجربة لي في التورط المباشر في عملية الترجمة. ذلك أن قراءتي الهولندية بصورة جيدة جدًا دفعتني إلى أن ألحّ على معاينة الترجمة قبل الطباعة. ووافق الناشر على مضض، ونبّهني إلى أن إنكليزية المترجم أفضل بكثير من هولنديتي. لكنني وجدت، في الصفحة الأولى، أن كلمة «train» (بمعنى «fuse» <فتيل>) في الجملة «But, having traced the nationalist explosions that destroyed the vast polyglot and polyethnic realms which were ruled from Vienna, London, Constantinople, Paris, and Madrid, I could not see that the train was laid at least far as Moscow»^(*)، قد تُرجمت بصورة غير منطقية بمعنى «line - railway» <السكة الحديد>. وقد قُبِلَ في النهاية بعضٌ من تصويباتي، إن لم يكن كلّها، ولو من دون حماسة.

لعلّ الترجمة النرويجية (*Forestilte fellesskap*) تكون قد نجمت عن صداقتي مع هارولد بوكمان، عالم الصينيات المتميز المتخصص بأقليات جمهورية الصين الشعبية على طول الحدود مع جنوب شرق آسيا، والذي قضى سنتين زميلًا زائرًا في جامعة كورنيل. وهو رجل يتمتع بحس فكاهة عظيم، وهدوء مثير للإعجاب، وموقف غير عاطفي تجاه النظام الماوي وخلفائه. وعلى أيّ حال، صدر الكتاب عن Spartacus Vorlag، وهي دار نشر صغيرة (تصدر 20 - 30 كتابًا في العام) أسست في عام 1989، ولبوكمان علاقات شخصية طيبة معها. وتمّ تصميم الغلاف على اتجاه جديد: صورة جميلة ملونة لعرض العيد الوطني للنرويج حيث يظهر أطفال صغار لطيفون

(*) لكنني، وقد تتبعتُ الانفجارات القومية التي دمّرت تلك الممالك الشاسعة متعددة اللغات والإثنيات، والتي كانت تُحكّم من فيينا ولندن والقسطنطينية وباريس ومدريد، لم أستطع أن أرى أن الفتيل يمكن أن يصل موسكو ذاتها.

بالأزياء الوطنية. وحين سألت بوكمان عمّا يقف وراء الحاجة إلى طبعة نرويجية - في بلد عدد سكانه قليل، ولا يجد معظمهم مشكلة في قراءة الترجمة السويدية - ضحك وقال: «أنت تعلم كيف نشعر تجاه السويديين والسويدية. من الأفضل أن نقرأ الأصل الإنكليزي وليس الطبعة السويدية. لكن الأفضل بكثير هو طبعة بلغتنا القومية».

أمّا الترجمة الإيطالية (*Comunità immaginate*) فلعلها نجمت عن فرصة لقائي مع ماركو ديرامو في شيكاغو، حيث دُعيت لإلقاء سلسلة من المحاضرات. وماركو ديرامو هو ذلك المثقف المميز من روما والصحفي الذي يعمل مع *Il Manifesto*، الصحيفة اليسارية الراديكالية النوعية في إيطاليا (الأخيرة في أوروبا؟)، والذي كان يمضي فترة في جامعة شيكاغو كي يضع كتابًا عن تاريخ المدينة، وهو الكتاب الذي نشرته Verso في عام 2002. وبتنا صديقين حميمين خلال وقت قصير جدًا. هكذا نُشرت ترجمة ج م الإيطالية في روما لدى Manifestolibri التي أسست في عام 1991 بالارتباط مع صحيفة *Il Manifesto*، وهي دار لا تصدر أكثر من 40 عنوانًا في العام، لكن إلحاحها على النوعية ودعمها الكتاب الشباب الموهوبين هما بمنزلة ضمان لاستخدام كتبها على نطاق واسع في التعليم الجامعي. ويبدو الغلاف البهيج لهذه الطبعة كما لو أنه أُخذ من أحد أفلام فيليني الأخيرة، حيث يمكن اعتباره «قوميًا»، لكنني أفضل اعتباره منطويًا على مفارقة ساخرة بالروح ذاتها التي للغلاف الألماني الذي عليه تمثال هيرمان.

صدرت الترجمة الفرنسية (*Liminaire national*) عن دار النشر La Découverte التي يُديرها فرانسوا جيز، وهي دار نشر «يسارية مستقلة» متوسطة الحجم (80 - 100 عنوان في السنة) تبدي اهتمامًا جديًا بالترجمات. وكانت قد خرجت من دار النشر الشهيرة Éditions François Maspero التي أسست في عام 1959. وحين سلّم ماسبيرو زمام الأمور إلى جيز في عام 1983 طلب منه أن يغيّر اسم المشروع أيضًا. وفي عام 1996، مع ظهور الترجمة الفرنسية من ج م، اندمجت الشركة مع Éditions Syros التي أسست في عام 1974 وكانت لاعبًا ناشطًا في النضال من أجل تجديد اليسار الفرنسي سياسيًا واجتماعيًا. أمّا غلاف الكتاب فصورة بسيطة

لجزء من مبني باريس من الطراز الكلاسيكي الجديد، يبدو كما لو أنَّ مالرو(*) قد نظّفه للتو. مفارقة ساخرة؟ ربما، لكنها مفارقة ساخرة فرنسية ناعمة. وكانت هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي تورطت فيها مباشرة، وبرغبة كاملة، في عملية الترجمة في أثناء إنجازها. ولم يقتصر ما قدمه بيير إيمانويل دوزا، وهو واحد من أفضل المترجمين الفرنسيين، على إنجاز نصّ هو في أماكن كثيرة تحسين للنصّ الإنكليزي الأصلي، بل تعدّى ذلك إلى تفحص المراجع الفرنسية كلها، ولَفّت انتباهي إلى عدد من الأخطاء. وبفضله، قمتُ باكتشاف لافت، ذلك أنني حين عبّرت عن تحفظاتي على العنوان *L'imaginaire national*، ردّ عليّ أنَّ اللغة الفرنسية ليس لديها مكافئ للكلمة الإنكليزية «community»، بما تنطوي عليه من نبرات الدفء الاجتماعي والتضامن. أمّا كلمة «Communauté» (كما في *Communauté Européenne*) فتشير شعورًا باردًا، بيروقراطيًا لا مفرّ منه (كتب إليّ ماركو ديرامو مازحًا أنَّ «comunità» الإيطالية تعني بالعامية مكانًا لاجتماع المدمنين السابقين على المخدرات).

ظهرت الترجمتان البولندية (*Wspólnotny wyobrażone*) واليونانية (*Phantasiakés Koinótites*) في عام 1997، حيث نشرت الطبعة البولندية في كراكوف (وليس في وارسو) لدى Spoleczny Instytut Wydawniczy Zank. ولا أعلم عن هذه المؤسسة ما يتعدّى أنّها دار نشر مُعتبرة في ما يتعلق بالأبحاث العلمية والأدب القصصي على حدّ سواء.

أمّا الترجمة اليونانية (*Phantasiakes Koinotites*) فمسألة أخرى. ذلك أنَّ دار النشر Nepheli كان قد أقامها الراحل يانيس دوفيتساس، وهو مثقف من اليسار الليبرالي، بعد بضع سنوات من سقوط نظام بابادوبولوس - إيوانيديس العسكري، أي بعد عام 1974. وهذه الدار الصغيرة إنّما المميّزة تخصصت أساسًا بالأدب القصصي والترجمات المدروسة جيدًا في العلوم الإنسانية

(*) أندريه مالرو (1901 - 1976)، روائي ومفكّر ومؤرّخ للفن ووزير ثقافة فرنسي. عيّنه شارل ديغول وزيرًا للإعلام بين عامي 1945 و 1946 ثمّ وزيرًا للثقافة في أثناء رئاسته بين عامي 1959 و 1969. نشأ عصاميًا ومغامرًا، سافر إلى الهند الصينية في عشرينيات القرن العشرين وشارك هناك في النضال ضد الاستعمار الفرنسي. من أهم أعماله الشرط الإنساني وإغواء الغرب واللامذكرات والأمل.

والاجتماعية. وهي تنشر، إلى جانب الكتب، ثلاث مجلات: *Poiesis* (للشعر)، و *Cogito* (للفلسفة) و *Historein* (للتاريخ، وهي تُطبع بالإنكليزية). والروح الموجّهة لـ *Historein* البروفسور أنطونيس لياكوس من جامعة أثينا، كان قد درس في سالونيك، ثم في روما (حيث أجرى بحثاً عن إعادة توحيد إيطاليا) وأخيراً في برمنغهام حوالى عام 1989، حيث انضم إلى جماعة المادية التاريخية. وفي ذلك الوقت كانت دراسة القومية على جدول أعمال هذه الجماعة بسبب النجاح الذي أحرزته التاتشيرية. ونشرت Nepheli أيضاً أعمالاً لكارلو غينزبورغ(*) و ناتالي زيمون ديفيز(**) وآخرين. وكان الهدف الأساس لتلك الكتب هو الطلاب والباحثين الشباب في العلوم الإنسانية والاجتماعية. لكن *Historein*، وكما يشير عنوانها الفرعي الساخر، (History, A Review of the Past and Other Stories!) <التاريخ: مراجعة للماضي وقصص أخرى!>، كانت لها أهداف سياسية واضحة أيضاً، أن «تبذر الاضطراب في الأيديولوجيا الراسخة للأمة اليونانية التي يبلغ عمرها 3000 سنة»⁽¹⁰⁾.

تبعاً للمترجمة، بوثيتي هانتزارولا⁽¹¹⁾، فإن فكرة ترجمة ج م طرأت زمن المسيرات القومية في أوائل تسعينيات القرن العشرين، تلك المسيرات التي طالبت بأن يطلق اسم مقدونيا على اليونان. وكان القصد من نشر الكتاب تكريس صوت معارض وأسلوب بديل في التفكير في شأن الطريقة التي قامت بها الأمة. وفي حين أَرْضَى الكتاب أذواق الرأي العام، إلا أنه كان يستهدف بصورة أساسية طلاب الجامعات حيث كانت دراسة التاريخ لا تزال شديدة التأثير برومانسية القرن التاسع عشر⁽¹²⁾.

(*) كارلو غينزبورغ (1939 -)، مؤرخ إيطالي بارز، من أنصار ما يُدعى بالتاريخ الأصغري. عُرف بكتابه الجبنة والدود: عالم طحّان فريولي من القرن السادس عشر (1976) الذي يتفحص معتقدات مهرطق إيطالي.

(**) ناتالي زيمون ديفيز (1928 -)، مؤرخة كندية وأميركية وأستاذة جامعية موضوعها أوائل المرحلة الحديثة. تركّز عملها على فرنسا في البداية، ثم توسّع ليشمل أوروبا وأميركا الشمالية والكاريبّي. وعلى سبيل المثال، فإن كتابها أسفار الألبان (2006) يستطلع كلاً من إيطاليا وإسبانيا والمغرب وغيرها من أصقاع شمال أفريقيا بعيني ليون الإفريقي.

(10) أشكر أنطونيس لياكوس على هذه المعلومات.

(11) وصفها لي لياكوس بأنها «باحثة مدققة، وضعت كتاباً، بالإنكليزية، لم ينشر بعد، عن صناعة

الإخضاع: خدم المنازل في اليونان 1900 - 1950.

(12) أشكر بوثيتي هانتزارولا على هذه المعلومات.

ومما له دلالة أن ما كانت *Historein* تضعه نصب أعينها لم يكن اليمين اليوناني التقليدي، بل أحزاب اليسار الأساسية التي تزايد إعلانها عن نفسها، منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين على الأقل، أنها المدافعة عن أمة يونانية عمرها 3000 سنة، بل وعن الأرثوذكسية أيضًا. ويلاحظ البروفسور لياكوس أنه في حالة ج م، جرى اتهام *Historein* بترويج، ونشر، وتدريس كتاب مُترع بالمعلومات الخاطئة عن التاريخ اليوناني، وبالاتجاهات المثالية التي لا تفسح مجالًا كافيًا للتحويلات الاقتصادية التي أنتجت الأمة الحديثة⁽¹³⁾.

يمكن القول إن «حقبة» انتهت مع هذه الترجمة اليونانية وبدأت أخرى. ففي أواسط تسعينيات القرن العشرين جمع جورج سوروس مجموعة من الباحثين وأمناء المكتبات، وطلب منهم أن يضعوا قائمة بعناوين أهم 100 كتاب (حديث الصدور) في العلوم الإنسانية والاجتماعية⁽¹⁴⁾ (ومن حسن الحظ أو سوءه، أن ج م كان بين الاختيارات النهائية). وكانت خطة سوروس أن يقدم معونة جزئية لناشرين في دول أوروبا الشرقية الشيوعية السابقة والجمهوريات التي ظهرت إلى حيز الوجود مع انهيار الاتحاد السوفياتي كي يتولوا أمر ترجمة هذه الأعمال.

من هذا الجهد العابر للقوميات والممول جيدًا أتت ترجمات ج م إلى السلوفينية *Zamišljene skupnosti*، والمقدونية (*Zamisleni zayednisti*)، والصربية (*Natsia: Zamislenja zayednitsa*)، والبلغارية (*Vobrazenije obshchnosti*) في عام 1998، والرومانية (*Comunități imăginate*)، والروسية (*Voobrazhayemie*) (*Soobshchestva*)، والأوكرانية (*Uyavleni spilnoti*) في عام 2001، والليتوانية (*Isivaizduojamos bendruomenės*) في عام 2002.

بلغ هذا الإجراء في مداه حدًا أنه شكّل قطعة مع التراتب الزمني الذي كان سائدًا حتى ذلك الحين.

(13) انتزعت هذه المعلومات من رسالة وصلتني مؤخرًا من لياكوس.

(14) ليس لديّ سوى قائمة جزئية بهذه العناوين. واللافت أن الكتب التي وضعها أميركيون ليست لها السيطرة مطلقًا. فالمؤلفون الألمان هم الأكثر عددًا، يتلوهم الفرنسيون ثم الأميركيون، ثم حفنة من البريطانيين، وتجد هنا وهناك إيطالي، سلوفيني، بلجيكي... وهلم جرا.

شاء الحظّ أن تكون يانا غينوفا التي سبق لها أن قامت بترجمة ج م إلى البلغارية، منسّق مشروع الترجمات لدى معهد المجتمع المفتوح التابع لسوروس، وبلغ بها اللطف حدّ أنّها روت لي مؤخرًا أنّ:

«مشروع الترجمة في معهد المجتمع المفتوح... بدأ حوالي عام 1994 بهدف توفير الحدّ الأدنى على الأقل من النصوص الأساسية في العلوم الاجتماعية الضرورية لتجديد التعليم العالي وتوفير الأساس لنقاش عام مثقّف في شأن القضايا الاجتماعية والسياسية وذلك باللغات المحلية. وجرت أولى المنافسات على المنح في عام 1995 في رومانيا وبلغاريا، لتتلوها البلدان الأخرى بسرعة في السنوات التي تلت. وقد انفق معهد المجتمع المفتوح ما يقارب 5000000 دولار أميركي مقابل ما يقارب 2000 طبعة. وقائمة العناوين المزكّاة... قصّد منها أن تكون أمرًا مرجعيًا للناشرين، إذ كان بمقدورهم أيضًا أن يقدّموا عناوين أخرى في العلوم الإنسانية... وغطّت المنح 30 - 80 في المئة من تكاليف النشر الإجمالية بحسب البلد. وتنوّع تأثير المشروع من بلد إلى آخر حيث تنوّع عدد العناوين المنشورة كثيرًا ولم يُدرّ جيدًا في كلّ مكان. لكنه بمقدوري القول بثقة كاملة إنّ المشروع كان له أثر كبير في الطريقة التي درّست بها العلوم الإنسانية والاجتماعية وتُدّرّس الآن في المنطقة. وعلى سبيل المثال، فإنّ الترجمات التي دعمها المشروع تشكّل 40 في المئة من مجموع العناوين الموجودة على قوائم القراءة في أحد عشر فرعًا في الجامعات الكبرى في بلغاريا وأوكرانيا... الدور كلها [التي نشرت كتابك] كانت قد أسست في أوائل تسعينيات القرن العشرين كمؤسسات مستقلة، صغيرة (2 - 10 مُستخدّمين). وهي تنشر الكتب الأكاديمية وتعيش إلى حدّ بعيد على المنح التي يقدّمها المانحون الأفراد مثل سوروس والوكالات الحكومية الأجنبية مثل المركز الثقافي الفرنسي ومؤخرًا برامج الاتحاد الأوروبي الثقافية.

ليس لديّ في شأن هذه الطبعات كلها سوى معلومات قليلة زيادة على ما قدّمته يانا غينوفا بكرمها وسخائها: فالناشر السلوفيني هو Studia Humanitatis،

والمقدوني Kultura، والصربي Biblioteka Epistem Plato، والبلغاري Kritika i Humanizm، والروماني Integral، والروسي Press - Kanon، والأوكراني Kritika، والليتواني Baltos Lankos. وليس لديّ في شأن هؤلاء الناشرين سوى معلومات قليلة. إذ أسست Kritika I Humanizm في صوفيا في عام 1991 كشركة مستقلة، وغدت دار النشر البلغارية الوحيدة المتخصصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية. وهدفها الأساس هو نشر كثير من الترجمات (لمؤلفين فرنسيين في المقام الأول كما يبدو) بغية دعم «المناخ التعددي في هذه العلوم». ولأن الطبعة الصربية هي توسعة واضحة، بالكتابة الكيريلية، للترجمة الصربية - الكرواتية المنشورة في زغرب في عام 1990، يبدو أن هناك صلة مالية أو سواها بين الناشرين. أما الترجمة الروسية فلها تاريخ مثير للانتباه. ففي عام 1998 صدرت ترجمة رديئة جداً، ربما مُقرّصنة، كجزء من سلسلة تُدعى Conditio Humana أطلقها مركز علم الاجتماع الأساسي في موسكو الذي نشر أيضاً نصوصاً لمونتسكيو وبورك وماركس وفير وبرغسون وشميت. لكنه تُرجمَ كاملاً بعد ذلك، وعلى نحو احترافي، ونُشرَ بصورة قانونية في عام 2001 لدى Kanon (بدعم من معهد المجتمع المفتوح في إطار مشروع «مكتبة بوشكين»).

يجدر بنا أن نضيف أن أغلفة ترجمات «سوروس» هذه كلها هي أغلفة بسيطة واضحة، من دون أيّ تنازلات للتسويق التجاري أو المخيلة القومية الصريحة.

جاءت أوائل القرن العشرين، في أوروبا الغربية، ببعض التنوعات اللافتة. ففي عام 2001 ظهرت ترجمة دانماركية (*Forestillede fællesskaber*) نشرتها Roskilde Universitetsforlog، مع غلاف «ما بعد حدثي» غامض ذلك الغموض اللافت. وكانت هذه أول ترجمة لج م تنشرها مطبعة جامعية. وحين سألت المترجم، البروفسور الشاب النشيط لارس ينسن، عن السبب الذي يدعو إلى وجود طبعة دانماركية، نظرًا إلى توفر كل من الطبعتين النرويجية والسويدية، كان ردّه مماثلاً إلى هذا الحدّ أو ذاك لردّ هارولد بوكمان من قبل: «أجل، بمقدورنا أن نقرأ هاتين الترجمتين، غير أنه يجب أن تكون لدينا ترجمتنا القومية الخاصة». وفي عام 2003 عمد ميروسلاف هروتش إلى تضمين كتابه التدريسي التجميعي المعنون *Pohledy na narod a nacionalismus* (آراء في الأمة

والقومية) الذي نُشر في براغ لدى دار Plon «السوسيولوجية» ترجمتين تشيكييتين لأول فصلين من ج م، وفي عام 2005 ظهرت طبعة كاتالانية (Comunitats imaginades) نشرتها دار Editorial Afers بالتعاون مع جامعة فالينسيا. وفي العام نفسه نشرت دار Edições 70، في لشبونة، ترجمة ممتازة، بعد ستة عشر عامًا من الترجمة البرتغالية الأولى التي ظهرت في ساو باولو ولم تكن جيدة تمامًا. لكن السياسة الجمركية البرازيلية فاقدة العقل المفروضة على الكتب «الأجنبية» جعلت هذه الطبعة الجديدة غير متوافرة للبرازيليين إلا مقابل سعر هائل. ومؤخرًا جدًّا، في عام 2007 صدرت ترجمة جويل كوتي الفنلندية (Kuvitellut Yhteisöt)، لدى دار النشر الفكرية المستقلة Vastapaino.

لا يبقى سوى أن نعرض بإيجاز قصة سبعة ترجمات نُشرت إلى الشرق من أوروبا بعد عام 1998. ففي عام 1999 ظهرت طبعات في تايبيه وتل أبيب والقاهرة. ومترجم طبعة تايبيه (هسيانغ - هسيانغ تي كونغ - تونغ تي) هو وو روي رين، بطلٌ شاب من أبطال النضال ضد دكتاتورية الكومنتانغ، وقومي تايواني صلب لكنه ذو عقل منفتح، وصاحب أطروحة في جامعة شيكاغو عن أصول القومية التايوانية المعقدة وتطورها هي أطروحة ألمعية وتنطوي على خرق. وهو يسير على خطا تاكاشي وسايا شيراشي في تحويل «السجل البريطاني» الأصلي إلى شيء يهمّ الشباب التايواني اليوم، عبر إضافة عدد من الهوامش الشارحة ومقدمة أكاديمية مسهبة. أمّا الناشر China Times فأكبر ناشر تجاري في تايوان، من دون أن يكون لديه، للأسف، وكما سنرى، ولو ذرة من التزام روي رين أو نزاهته.

ظهرت الترجمة العبرية (كيهيلوت مادوماينوت) برعاية من جامعة إسرائيل المفتوحة، وقُصدَ منها أن تكون تدخلًا نقديًا ضدَّ الأرثوذكسية الصهيونية الليكودية. وشملت تقديمًا لعزمي بشارة، السياسي الفلسطيني - الإسرائيلي البارز، والباحث في ماركس وهيغل الذي نال شهادة الدكتوراه من جامعة بينا حين كانت جمهورية ألمانية الديمقراطية لا تزال قائمة. ومن اللافت بما يكفي أن تصميم الغلاف يبدو أشبه بمنظر في فيرمونت الثلجة في عيد الميلاد. أمّا الترجمة العربية (الجماعات المتخيلة) فلها أصل وقصد مختلفين تمامًا. ففي عام 1995 ربما استجابةً لتقارير الأمم المتحدة التي ترى أن «العالم العربي»

يترجم أقل بكثير مما تترجمه أي منطقة كبرى على ظهر هذا الكوكب، قام المجلس الأعلى للثقافة، التابع لوزارة الثقافة المصرية، بإطلاق مشروع ضخيم للترجمة بإدارة جابر عصفور. وخلال العقد التالي نشر هذا المشروع ما لا يقل عن ألف ترجمة (عادةً في ألف نسخة لكل منها)، من بينها أعمال لـ/ عن نيرودا وروسو وتروتسكي وبيسوا وكافكا وإيليوت وهيغل وسارتر ووولف وفوكو وكافافي وتشومسكي وفرويد. وكانت معظم العناوين الأولى مُقرَّصنة، بما في ذلك ج م (رقمه 81). وهذه الكتب تباع بأسعار مخفضة، مدعومة، وتوزع بصورة تكاد تكون كاملة في مصر. وكان هذا المشروع ناجحًا بما يكفي لأن يغدو قريبًا مركزًا مستقلًا*).

بعد انهيار نظام سوهارتو الذي دام طويلًا في إندونيسيا (في أيار/ مايو 1998) ألغيت الرقابة إلى حدٍّ بعيد. وتكاثرت كالفطر عشرات دور النشر الجدية والرديئة، تفرَّغ كثير منها لنشر الكتب التي مُنعت طويلًا أو أتيح لها أن تنفذ بصورة مقصودة. وما إن سُمح لي بالعودة إلى إندونيسيا لأول مرة خلال سبعة وعشرين عامًا، حتى اكتشفت أن ثمة ترجمة مُقرَّصنة ومتسرَّعة لـ ج م صادرة عن بستاكا بيلاجار، وهي دار نشر في جوقجاكرتا مشهورة بصيتها السيئ وخلقها من الضمير، تقتات على فضول طلاب هذه المدينة الجامعية وجهلهم. وتمكنتُ من أن أفرض سحب الكتاب، ليس لأسباب مالية، بل بسبب نوعية الترجمة الرهيبة حقًا. كما تمكنتُ، بمساعدة عدد من طلابي السابقين، وبمعمونة من مكتب مؤسسة فورد في جاكرتا من أنشر أخيرًا في عام 2001 طبعة جديدة تمامًا (Komunitas-Komunitas Terbayang)، حيث أضفت، بإشارة من وو روي رين كثيرًا من الهوامش بالعامية الإندونيسية لمساعدة الطلاب على فهم كثير من إشارات الكتاب وإحالاته التي يجدها قراء الإنكليزية سهلة يسيرة. وكان الناشر هذه المرة هو INSIST، وهو منظمة غير حكومية تقدمية متخصصة بحرية المعلومات، وهي اليوم، للأسف، مشرفة على الموت بسبب صراعاتها الداخلية.

(*) انتقل المشروع القومي للترجمة من المجلس الأعلى للثقافة إلى المركز القومي للترجمة الذي كان على رأسه جابر عصفور أيضًا في سنواته الأولى. وما دام المؤلف لم يعلق على هذه الترجمة العربية الأولى للكتاب فسوف أمتنع أنا أيضًا عن التعليق تاركًا للقارئ المهتم وباحث الترجمة أمر المقارنة بينها وبين ترجمتي هذه، عساه يدرك ضرورتها الملحة.

يبقى ذو دلالة أنني حين عرضتُ أن أقوم بالشيء ذاته بالنسبة إلى الطبعة الإنكليزية الرخيصة المنشورة في الفيليبين في عام 2003 لدى Anvil، وهو أفضل ناشر شعبي في مانيللا، رُفِضَ العرض باستياء وسخط. طبعًا، فالطلاب الفيليبينيون الذين يتلقون تعليمهم بالإنكليزية، لديهم المراجع كلها!

أخيرًا، هنالك طبعتان شاذتان أشدّ الشذوذ، نُشرت أولاهما في شنغهاي في عام 2003، والأخرى في بانكوك أواخر في عام 2006. وكان الناشر في جمهورية الصين الشعبية هو دار الشعب للنشر في شنغهاي، وهي مؤسسة ضخمة تملكها الدولة. وتبين أن هذه الطبعة من ج م كانت نتيجة صفقة سرية مع China Times في تايبيه التي لم تتواطأ فحسب مع ما كان في جوهره قرصنة سلبية، بل أتاحت أيضًا لشريكها في شنغهاي أن يراقب نصّ وو روي رين كما يحلو له. وتمثلت إحدى النتائج البارزة في حذف الفصل التاسع بأكمله، ذلك الفصل الذي شمل بعض التعليقات الساخرة على هيلمزمان العظيم^(*) وما قام به الحزب مؤخرًا من استثمار «القومية الرسمية» المكيفيلية. وقال صديق صيني بابتسامة مأكرة: «يجب أن تعتبر ذلك بمنزلة الشناء، فهم لم يسبق لهم قط أن حذفوا فصولًا كاملة من كتاب ينوون نشره. انظر إلى كتاب هيلاري كلينتون، مثلًا، الحذوفات هي جُمْلٌ هنا وهناك ليس غير!» كما حُذِفَت مقدمة روي رين أيضًا من دون معرفته أو رضاه، مع أنها كانت وصفًا محترسًا وعلميًا لخلفيتي الشخصية، والسياق السياسي والفكري الذي كُتِبَ فيه ج م وملامحه الأساسية مقارنة مع كتابي غيلنر وسميث، والانتقادات التي وجهها عالم الصينيات براسنجيت دوارا وبارتا شاترجي. ولعل خاتمة هذه المقدمة التي تبتهل لتايوان بوصفها الجزيرة «الجميلة إنما المبتذلة، الشغوفة إنما المعادية للفكر»، والتي يبقى مستقبلها أبعد ما يكون عن اليقين، هي التي قررت مصيرها لدى رقباء بيجين⁽¹⁵⁾.

تقارب الطبعة التايلندية الآن على الانتهاء بصورة مخطوط أعدّه فريق من الأساتذة التقدميين النقديين، كان عدد منهم بين طلابي في السابق. ولدى تقليبي فصول المسودة كان ثمة ما أدهشني أشدّ الإدهاش. فهالة الملكية

(*) يقصد ماو تسي تونغ.

(15) أشكر وانغ شاو هوا على هذا الوصف للمقدمة.

التايلندية هي إلى الحدّ الذي جعلني أتوقع أن يستخدم المترجمون معجمًا «إقطاعيًا» خاصًا يقتضيه وصف أيّ نشاط يقوم به الملوك التايلنديون الآن أو في الماضي. وما لم أتوقعه هو أن المعجم الخاص ذاته قد طُبّق على الملوك الأجانب جميعهم أيضًا، بما في ذلك شخصيات غير ودودة مثل وليم الفاتح في لندن وفرانسوا الأول في باريس وفرانز الثاني في فيينا وفيلهم الثاني في برلين... وهلمجرًا. وعندما اعترضت أن روح ج م بأكملها هي روح جمهورية، وأن جميع الملوك تقريبًا يجري التعامل معهم بسخرية وعداء، سرعان ما أزيح الاعتراض جانبًا. «أنت لا تفهم تقاليدنا ووضعنا». وبمزيج من الضحك والخشية تطلعت إلى ما قد يُعتبر أول ترجمة «ملكية» لـ ج م!

ما الاستنتاجات الأولية التي تبدو مبرّرة، على أساس هذه الأدلة المتشظية؟

- التوزّع الجغرافي: باستثناء برامج الترجمة التي نسّقها معهد المجتمع المفتوح لأوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي السابق، والتي أُطلقت في النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين، ثمة أدلة قليلة على تراتبية زمنية متدرجة تبدأ في «الغرب»، وتنتهي، بعد ذلك، في العالم الذي كان ci - devant <سابقًا> عالمًا ثالثًا. ففي العقد الأول بعد صدور ج م في طبعته الأصلية نجد طبعتين أوروبيتين غربيّتين (الألمانية والسويدية)، وطبعة أوروبية شرقية (اليوغسلافية)، وطبعتين أميركيتين لاتينيتين (البرازيلية والمكسيكية)، وطبعتين آسيويتين (اليابانية والكورية)، وطبعة في الشرق الأدنى (التركية). ولم تبدأ فورة الترجمات باللغات الأوروبية إلا في النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين. وبقدر ما أعلم، فإن الترجمات كلها قامت على الأصل الإنكليزي، لا على ترجمات سابقة إلى لغات إقليمية أو إلى لغة المستعمر السابق، ما يُظهر الصعود العالمي الاستثنائي الذي تصعده الإنكليزية.

في الوقت ذاته، ثمة ضروب من الغياب اللافت حين يفكّر المرء بتلك اللغات ذات العدد الكبير من الناطقين، ومن القراء الذين تتفاوت أعدادهم من لغة إلى أخرى. والمثال الأوضح هو «شبه القارة» التي تشمل ملايين البشر الذين يقرأون بالأوردية والهندية والبنغالية والتاميلية، وما إلى ذلك. والسبب

وراء هذه الفجوة لا بدّ من أن يكون الإرث الكولونيالي البريطاني الذي عمل بصورة ربما تكون مدهشة على جعل الإنكليزية حتى اليوم لغة التعليم المسيطرة «على المستوى القومي» ولغة الخطاب الفكري. والمثال الثاني هو أفريقيا (إذا ما وضع المرء مصر في الشرق الأدنى). فما من ترجمات إلى اللغة السواحلية مثلاً، أو الأمهرية أو الولوفية أو الهوسا. وقد يحاول المرء أن يفسّر ذلك بالإشارة إلى مكانة اللغات الكولونيالية السابقة (الفرنسية والإنكليزية والبرتغالية) باعتبارها لغات الدولة والتعليم العالي في شطر كبير من أفريقيا. لكن هذه السيطرة تحتاج إلى تفسير في الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المضطربة للمقارّة بعد تحقيق استقلالها الوطنية. وقد يكون غياب طبعة فيتنامية مسألة وقت، حيث يبرز بلد يتطور بسرعة من العزلة الفكرية النسبية التي فرضتها ثلاثة عقود من الحرب الرهيبة. والحالة الأغرب هي إسبانيا الأم التي لا يزال عليها أن ترسم خطا قرار البرتغال في أن تلحق بمستعمراتها الأميركية العملاقة بعد انتظار خمسة عشر عامًا. ومن جهة أخرى، فإن إسبانيا هي البلد الوحيد التي ظهرت فيها ترجمة إلى لغة «قومية فرعية» (هي الكاتالانية).

- الناشرون والقراء: تكشف المعطيات غير المكتملة المتاحة لي بعض النماذج اللافتة جدًا. وفي المقام الأول، ليس ثمة سوى دار نشر واحدة (هي الـ Fondo المكسيكية) لها تاريخ يعود إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، أمّا الأغلبية العظمى فكانت قد أسست خلال العقود الثلاثة السابقة أو، بعبارة أفضل، في أعقاب «ستينيات القرن العشرين الطويلة» المضطربة عالميًا. وفي المقام الثاني، فإنّ أغلبية واضحة من دور النشر هذه هي دور صغيرة إلى متوسطة في حجمها، ومستقلة في طابعها بدرجات متفاوتة. وهذا الاستقلال يجب النظر إليه من زوايا ثلاث. إذ كان الناشرون مؤسسات تابعة للدولة في أربع حالات فقط هي المكسيك ويوغوسلافيا ومصر وجمهورية الصين الشعبية (وكلها دول سلطوية يحكمها حزب واحد زمن نشر ج م). ومن جهة أخرى، لم يكن ثمة ناشر تجاري خاص ضخم سوى في حالة تايوان، وليس هناك أيّ حالة تدّخل من تكتلات عابرة للقوميات عملاقة. ولعل المدهش أكثر، نظرًا إلى طبيعة قراء ج م (الذي نجد المزيد عنهم أدناه) هو ذاك الغياب النسبي للمطابع الجامعية: حيث تقتصر الحالات التي نجدها فيها على جامعة إسرائيل المفتوحة وجامعة روسكيلد وجامعة

فالنسب، وربما زانك كراكوف. وفي المقام الثالث، نجد أن توجهات الناشرين السياسية، حيث أمكن تحديدها، تمتد بالدرجة الأولى من اليسار الليبرالي (بالمعنى السياسي) إلى أنماط شتى من اليسار المستقل. ويمكن القول نظرًا إلى مواقف Verso السياسية وميولي السياسية الخاصة، أن هذا النموذج ليس مدهشًا.

كما سبقت الإشارة، فإن ج م، في شكله الأصلي، كان قد استهدف جمهورًا عامًا، حسن التعليم، في المملكة المتحدة بالدرجة الأولى، وفي الولايات المتحدة بالدرجة الثانية. ولذلك لم يُكتب انطلاقًا من فرعي الأكاديمي الخاص («العلوم السياسية»، كما يُفترض بي القول)، أو لأجل هذا الفرع، أو أي فرع آخر. وبذلت ما بوسعي أيضًا كي أتأكد من خلوه من الرطانة الأكاديمية. وآخر شيء كان يمكن أن يخطر لي آنئذ هو أن يغدو كتابًا مدرسيًا للمستوى الجامعي. لكن ذلك كان قدره، بوجه عام، سواء في نصه الإنكليزي أم في ترجماته. بيد أن هذا المصير ينبغي ألا يُفهم بطريقة أنكلوساكسونية زائدة. ففي أجزاء كثيرة من العالم يؤدي الطلاب وأساتذتهم دورًا سياسيًا واجتماعيًا أكثر أهمية من الدور الذي يقوم به نظراؤهم في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وهو إلى حد ما دور معارض مميز. لكن هذا الدور هو من أصل حديث تمامًا (أوائل القرن العشرين)، وهذا أحد الأسباب التي تجعل «الطلاب» لا يظهرون إلا لماء في ج م ذاته.

في محاولة الإحاطة بالأسباب التي انتهت بج م لأن يُترجم على شكل «كتاب مدرسي» على هذا النطاق الواسع، وبهذه السرعة الزائدة، يبدو أن الإجابات الأكثر احتمالًا تتعلق، في المقام الأول، بما تكشف عنه دوافعه السجالية من جاذبية واسعة غير متوقعة. وفي ثمانينيات القرن العشرين كان ج م الدراسة المقارنة الوحيدة التي تتناول تاريخ القومية على نحو قصِد منه مقارنة المركزية الأوروبية، والإفادة من المصادر اللغوية غير الأوروبية. كما كان الدراسة الوحيدة التي تبدي انحيازًا واضحًا إلى «البلدان الصغيرة» (من حيث الجغرافيا أو السكان، أو النفوذ السياسي العالمي). يضاف إلى ذلك أن الأساتذة والطلاب، إذا ما كانت لديهم أي التزامات سياسية غالبًا ما يكونون يساريين في ميولهم، أو يساريين ليبراليين تطاولهم أجندة ج م. وربما كان من

بين العوامل أيضًا أن الكتاب، مع أنه مكتوب بالإنكليزية كان قد استهدف الإمبريالية البريطانية والأميركية أيضًا وعلى نحوٍ ما. لكن تلك الأسباب تعود، في المقام الثاني، إلى ما يقوم به ج م بطرحه مفهوم «الجماعة المتخيّلة»، من تقريب فيه مفارقة بين نوع من الـ *gemeinschaft* <الجماعة> يجذب جميع القوميين وشيء غير محدد تمامًا، شيء ليس «خياليًا» كما هو «الحصان الخرافي وحيد القرن»، ولا «واقعيًا» تمامًا مثل «جهاز تلفزيون»، بل أشبه بمدام بوفاري وكويكوج هاتين الشخصيتين اللتين لم تبرزتا إلى الوجود إلا منذ اللحظة التي تخيلهما بها فلوير وميلفل (*). ومثل هذه الصيغة تفتح الباب واسعًا أمام التقويم النقدي لذلك النوع من القومية «القديمة» التي تكاثرت في معظم الدول المعاصرة عبر وسائل الاتصال الجماهيري ومؤسسات التعليم التي تسيطر عليها الدولة. وكان ج م، بالطريقة المتناقضة ذاتها، متعاطفًا ذلك التعاطف الواضح مع كثير من أشكال القومية وتعمّد في الوقت ذاته أن يبيد من الاهتمام بالأساطير القومية الخاصة العزيزة على قلوب القوميين أقل من الاهتمام الذي أبداه بالشكل العام للوعي القومي. وأخيرًا، حاول الكتاب أن يجمع نوعًا من المادية التاريخية إلى ما دُعي لاحقًا باسم تحليل الخطاب؛ أي أن يقرن حدثًا ماركسيًا إلى ما بعد حدث *avant la letter* <لم تكن قد وُلدت>. واعتقادي أن ذلك يساعد في تفسير الأيقونات القومية على أغلفة شتى ترجمت ج م بعد عام 1995، التي يمكن قراءتها في العادة على أنها إما ساذجة أو ساخرة (النرويج مقابل إيطاليا؟).

من المزايا التعليمية الأخرى في ج م ما قد يجده الأساتذة التواقون إلى تطوير وعي طلابهم المدني بطريقة تقدمية ونقدية من أسلوب غير عادي تتميز به المقارنات التي يعقدها: مثل التقريب بين الولايات المتحدة وفنزويلا بدلًا من بريطانيا، ووضع اليابان في مواجهة روسيا القيصرية وأوكرانيا الإمبراطورية وليس إزاء جيرانها الآسيويين الكونفوشيين، ومضاهاة إندونيسيا بسويسرا وليس بماليزيا. ومثل هذه المقارنات تهمّ الأساتذة المعنيين بتفكيك الاستثنائية القومية الساذجة، والصيغ «الثقافية - الإقليمية» المبتذلة مثل «القيم الآسيوية» سيئة الصيت.

(*) من الواضح أن الإشارة هنا إلى شخصيتين روائيتين في عملي مدام بوفاري لغوستاف فلوير وموبي ديك لهرمان ميلفل على التوالي.

- الدوافع: لم يكن من اليسير، في عدد من الحالات، تتبع الدوافع الأصلية التي وقفت وراء الترجمة. والواضح أن Verso لم تقم بأي جهد لتشجيع الترجمات، وأن تلك التي قام بها طلابي القدامى (اليابانية، الإندونيسية، التايلندية) تمت بمبادرة منهم، وليس مني. ويبدو هذا النموذج، على نحو ضيق، كما لو أنه مصادقة على استخدام ج م الاستعاري لـ «القرصنة»، ملحقًا على المبادرة المحلية، وليس على القسر الخارجي أو المحاكاة العبودية، في وصفه سيرورات انتشار القومية السريع بأشكال مختلفة في أرجاء الكوكب. أمّا في الحالات التي يمكن فيها تبين دوافع واضحة، فإن حملة معهد المجتمع المفتوح الواسعة لتغيير الثقافات السياسية في أوروبا الشرقية ودول الاتحاد السوفياتي السابق باتجاه ليبرالي وتعددي، هي الأوضح والأبرز. ومن المؤكد أن الأساتذة والطلاب الذين أمضوا فترة في الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة حيث جرى تجنيس ج م ككتاب مدرسي منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين، قد أدوا دورًا. لكن الحالات الأشد دلالة هي تلك التي كان فيها لدى المترجمين والناشرين دوافع تتعدى الدوافع التعليمية المباشرة. فالطبعة الصربية - الكرواتية في عام 1990 أتت من أمل سيلفا ميزناريتش ومساعدتها أن يساعد الكتاب في الكفاح لإنقاذ «يوغسلافيا» من دمار ذاتي دموي. وطبعة وو روي رين قُصد منها أن تهدئ أعصاب القومية التايوانية بأن تفسر على نحو مقارن ظهورها المتأخر، وتقوّض مطالبة بيجين بالجزيرة ليس على أساس القومية الصينية فحسب، بل أيضًا على أساس «التقليد السلالي» المورث من ملوك المانشو. أمّا الترجمة اليونانية، كما رأينا، فكانت جزءًا من إجراء يرمي إلى الحد من شوفينية محلية فاقدة للعقل راحت تنادي بـ «مقدونيا»، ولانتقاد أحزاب اليسار على تبنيها الجبان أو غير المدقق لمواقف قومية يمينية في جوهرها. وبالمثل، فإن الترجمة العبرية التي صدرت عن جامعة إسرائيل المفتوحة، مع مقدمة لفلسطيني إسرائيلي معروف، كانت جزءًا من محاولة لمقاومة انزلاق قديم نحو الفصل العنصري في الدولة التي يحكمها الليكود. ولا شك في أن الطبعة الكاتالانية قُصد منها أيضًا أن تساعد كاتالونيا في بلوغ أقصى استقلال ممكن في ما دُعِيَ مرّة على نحو لطيف Las Españas.

- التحول: من الأقوال المأثورة أن الكاتب يفقد كتابه لحظة نشره ودخوله المجال العام. لكنك كي تشعر بكل القوة المحزنة التي ينطوي

عليها هذا القول المأثور، لا شيء يضاهي مواجعتك ترجمةً لكتابك إلى لغة لا تفهمها. عندئذٍ، يمكن أن تتكوّن لديك فكرة بسيطة عمّا جرى للكتاب: أسواء فهم وتشويهاً وضروب من الحرفيّة وإضافات وحذوفات أو: تعديلات إبداعية وإعادةات قراءة مغرية وتبديل في مواضع الإلحاح ونثر أجمل من الأصل. لذلك أزعجني بعض الشيء أن المترجمين الألمان والمكسيكي لم يتصلا بي على الإطلاق، وأن الترجمة الهولندية لم تُرسل إليّ إلا في اللحظة الأخيرة. واعتقدت أن الكتاب كان لا يزال «كتابي»، ونسيت القول المأثور الساخر traduttori traditori: الترجمة هي بالضرورة خيانة نافعة. وتعلمت درسًا في سياق مراسلة طويلة ودافئة مع بير إيمانويل دوزا. ذلك أنه على الرغم من حقيقة أن إنكلترا وفرنسا جارتان قريبتان جدًّا، فإن مصاعب تحويل الفرنسية إلى الإنكليزية وبالعكس هي تلك المصاعب الشهيرة. وحوّت الطبعة الفرنسية ضروبًا من الأناقة لم أحلم بها مع ضروب من إعادة الترتيب أتاحت لي أن أرى ما قصدته «حقًا»، لكنني لم أستطع أن أعبر عنه على النحو الملائم. وهذه المراسلة كانت بحّد ذاتها نوعًا من التعليم يرمز له اكتشاف أن لاتينية كلمة «community» أخفت على نحوٍ سهل اكتشافه قرابةً مع كلمة gemeinschaft الألمانية، وأن كلمة imaginé لا يمكنها أن تنقل المعاني الحافّة التي تنطوي عليها كلمة «imagined». وأتى الدرس الأخير مع الترجمة الإندونيسية الأولى المسروقة، حيث تُعدّ الإندونيسية اللغة الوحيدة غير الإنكليزية التي أتقنها تمامًا الإتيقان. وسرعان ما وجدت أن هناك مقاطع كثيرة مستغلقة تمامًا، فاستغرقت في عمل كثيف طوال شهرين أو ثلاثة لـ «تصويبها» سطرًا بعد سطر. وكانت النتيجة طبعةً سهلة على الطلاب الإندونيسيين أن يفهموها، لكنها تبقى خالية من الحياة، لأنني لم أحن الأصل بما فيه الكفاية. ذلك أن نظام تصريف الأفعال المتقن والمرهف في الإنكليزية، وإلحاحه النمطي على الصوت الفاعل، «الإمبراطوري»، غريب على الإندونيسية اللبقة التي تفصل المبني للمجهول، والتي وُهبّت السابقة - ter - التي تدخل على الفعل، فيختفي الفاعل في غيمة دلالية ضمنية تشكّل المصادفة بطانتها الفضية. والنثر الإندونيسي الجميل لا يزال محبوبًا بشفوية اختفت من الإنكليزية الرسمية منذ زمن بعيد؛ وهذا هو السبب في أن الكتابة الأكاديمية الإندونيسية إنكليزية الطابع هي أكثر

بشاعة، إذا جاز القول من مقابلاتها البريطانية أو الأميركية. ومن هنا، ما شعرتُ به في البداية من لَذَّةٍ في إضافة هوامش شارحة جديدة بلغةٍ عادية يومية تورّط القراء، ولا تزعجهم أو تربكهم أو ترهبهم. لكنني أدركت، في النهاية، أنني كنت أقلّد شخصًا إندونيسيًا، وأقارع «قَرَصَنَةً» كبرى بقرصنة ذاتية صغرى، من دون كبير جدوى. وقلت لنفسي: «ما كان يجب أن أفعل ذلك، هذه مجرد غمغة سياسية، ودفاع غير تجاري عن الإلحاح الأميركي السخيف على حقوق الملكية «الفكرية»!». وهذا هو السبب في أنني قررت، وأنا أتفحص ترجمة ج م التايلندية «الملكية»، أن أكون خائنًا ترجميًا. لم يَعدْ ج م كتابي البتّة.

ثبت المصطلحات

Amnesia	نسيان
Anomaly	خروج على القياس
Atavistic fantasizing	تهويم العودة إلى الأسلاف والأصول
Concubinage	تَسْرِي
Contingency	عَرَضِيَّة
Conversion	هداية
Eurocentricism	مركزية أوروبية
Europeanization	إضفاء الطابع الأوروبي
—— De - Europeanization	نزع الطابع الأوروبي
Excommunication	حرمان كنسي
Fantasy	تهويم
Fatality	قَدَر، قَدَرِيَّة
Fratricide	قتل الأخوة
Hierarchy	تراتب

Homogeneous, empty time	زمن فارغ، متجانس
Humanism	إنسانية
Humanist	إنسانيّ
Identity categories	بيانات الهوية، خانات الهوية
Ideograph	رمز تصويري
Imagined Communities	جماعات مُتَخَيَّلَة
Instrumental Rationality	عقلانية أداتية
Internationalism	أممية
Language - of - state	لغة دولة
Local colonial state	دولة كولونيالية محلية
Logoization	تحويل إلى لوغو (أو إلى رمز وشعار)
Mechanical Reproduction	الاستنساخ الآلي، إعادة الإنتاج الآلية
Messianic	مسيانيّ، خلاصيّ
Metropole	حاضرة، متروبول
Miscegenation	تمازج أجناس
Nation	أمة، وطن
National	قوميّ (كصفة عادية عامة)
Nationality	انتماء قومي، هويّة قومية، جنسيّة
Nationalism	قوميّة (فكر ومذهب ونزوع)
—— Anticolonial nationalism	قومية مناهضة للكولونيالية، قومية مناهضة للاستعمار

—— Colonial nationalism	قومية كولونيالية
—— Ethnolinguistic nationalism	قومية إثنية لغوية
—— Linguistic nationalism	قومية لغوية
—— Long - distance nationalis	قومية المسافات البعيدة
—— Official Nationalism	قومية رسمية
—— Popular nationalism	قومية شعبية
Nationalist	قوميّ (الفكر والمذهب والنزوع)
ness - Nation	انتماء إلى أمة ووطن
Naturalization	تجنيس
Official language	لغة رسمية
Particularity	خصوصية
Patriotism	وطنية
Populist	شعبيّ
Prenational dynastic states	دول ملكية سلالية ما قبل قومية
Print - capitalism	رأسمالية الطباعة
Print - languages	لغات طباعية
Provincialism	محلية
Quantification	تكميم
Racism	عنصرية
Religious Community	جماعة دينية

Representation	تمثيل
Serialization	سلسلة
Simultaneity	تآين، تزامن
Solipsism	ذاتوية
Syllabary	أبجدية مقطعية
Territorializationoffaiths	إضفاء الطابع الإقليمي على العقائد الدينية
Universality	كونية
Vernacular	لغة محلية
—— Administrative Vernaculars	اللغات المحلية الإدارية
Xenophobia	رهاب الأجانب

المراجع

1 - العربية

كتب

بشارة، عزمي. المجتمع المدني: دراسة نقدية (مع إشارة إلى المجتمع المدني العربي). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998.

2 - الأجنبية

Books

'3349' [pseudonym for Phetsarath Ratanavongsa]. *Iron Man of Laos: Prince Phetsarath Ratanavongsa*. Trans. John B. Murdoch. Ed. David K. Wyatt. Ithaca: Cornell University, Southeast Asia Program. 1978. (Data Paper; 110)

Alers, Henri J. *Om een rode of groene Merdeka. Tien jaren binnenlandse politiek. Indonesie, 1943-53*. Eindhoven: Vulkaan, 1956.

Ambler, John Steward. *The French Army in Politics, 1945-1962*. Columbus: Ohio State University Press, 1966.

Anderson, Benedict R. O'Gorman. *Language and Power: Exploring Political Cultures in Indonesia*. Ithaca: Cornell University Press, 1990.

Armstrong, John A. *Nations Before Nationalism*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1982.

Auerbach, Erich. *Mimesis. The Representation of Reality in Western Literature*. Translated by Willard Trask. Garden City, N.Y.: Doubleday Anchor, 1957.

- Ayal, Eliezer B. (ed.). *The State of Thai Studies: Analyses of Knowledge, Approaches, and Prospects in Anthropology, Art History, Economics, History and Political Science*. Athens, Ohio: Ohio University, Center for International Studies, Southeast Asia Program, 1979.
- Baltazar [Balagtas], Francisco. *Florante at Laura*. Manila: Florentino, 1973.
- Barthes, Roland. *Michelet par lui-meme*. Bourges: Editions du Seuil, 1954.
- Bauer, Otto. *Werkausgabe*. Vienna: Europaverlag, 1975.
- Benda, Harry J. *The Crescent and the Rising Sun: Indonesian Islam under the Japanese Occupation*. The Hague; Bandung: van Hoeve, 1958.
- _____. and John A. Larkin (eds.). *The World of Southeast Asia: Selected Historical Readings*. New York: Harper and Row, 1967.
- Benjamin, Walter. *Illuminations*. London: Fontana. 1973.
- Berlin, Isaiah. *Against the Current: Essays on History of Ideas*. Harmondsworth; Middelsex, NY: Penguin, 1979.
- Bloch, Marc. *Feudal Society*. Translated by I. A. Manyon. Chicago: University of Chicago Press, 1961. 2 vols.
- _____. *Les RoisThaumaturges*. Strasbourg: Librairie Istra, 1924.
- Boxer, Charles R. *The Portuguese Seaborne Empire, 1415-1825*. New York: Knopf, 1969.
- Braudel, Fernand. *La Mediterranee et le Monde Meditteraneen a l'Epoque de Philippe II*. Paris: Armand Colin, 1966.
- Breuilly, John. *Nationalism and the State*. Chicago: University of Chicago Press, 1982.
- Browne, Thomas. *Hydriotaphia, Urne-Buriall, or a Discourse of the Sepulchrall Urnes lately found in Norfolk*. London: Noel Douglas Replicas, 1927.
- Cambodge, Ministere du Plan et Institut National de la Statistique et des Recherches Economiques. *Resultats Finals du Recensement General de la Population*, 1962. Phnom Penh: [s. p.], 1966.
- Canny, Nicholas and Anthony Pagden (eds.). *Colonial Identity in the Atlantic World, 1500-1800*. Princeton: Princeton University Press, 1987.
- Chatterjee, Partha. *Nationalist Thought and the Colonial World*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1986.

- Cooper, James Fenimore. *The Pathfinder*. New York: Signet Classics, 1961.
- Craig, Albert M. *Chōshū in the Meiji Restoration*. Cambridge, Ma: Harvard University Press, 1967.
- Craig, Gordon A. *The Politics of the Prussian Army, 1640-1945*. New York; Oxford: Oxford University Press, 1956.
- Defoe, Daniel. *Selected Poetry and Prose of Daniel Defoe*. Edited by Michael F. Shugrue. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1968.
- Djilas, Milovan. *Tito, The Story from inside*. Translated by Vasilije Kojac and Richard Hayes. London: Weidenfeld and Nicolson, 1980.
- Fall, Bernard B. *Hell is a Very Small Place. The Siege of Dien Bien Phu*. New York: Vintage, 1968.
- Elliott, David W. p. (ed.). *The Third Indochina Conflict*. Boulder: Westview Press, 1981. (Reprinted from Institute of Southeast Asian Studies, ed., *Southeast Asian Affairs* [London: Heinemann Educational Books, 1979]).
- Febvre, Lucien et Henri-Jean Martin. *L'Apparition du Livre*. Paris: Albin Michel, 1958.
- _____. *The Coming of the Book. The Impact of Printing, 1450-1800*. London: New Left Books, 1976.
- Fiedler, Leslie. *Love and Death in the American Novel*. New York: Stein and Day, 1966.
- Fields, Rona M. *The Portuguese Revolution and the Armed Forces Movement*. New York; Washington; London: Praeger, 1975.
- Franco, Jean. *An Introduction to Spanish-American Literature*. Cambridge: Cambridge University Press, 1969.
- Gellner, Ernest. *Nations and Nationalism*. Ithaca, NY: Cornell University, 1983.
- _____. *Thought and Change*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1964.
- Gilmore, Robert L. *Caudillism and Militarism in Venezuela, 1810-1919*. Athens, Ohio: Ohio University Press, 1964.
- Groslier, Bernard Philippe. *Indochina*. Cleveland; New York: The World Publishing Company, 1966.
- Higham, Charles. *The Archaeology of Mainland Southeast Asia*. New York; Cambridge: Cambridge University Press, 1989.

- Hobsbawm, Eric. *The Age of Revolution, 1789-1848*. New York: Mentor, 1964.
- _____. *Nations and Nationalism since 1780*. Cambridge: Cambridge University Press, 1990.
- _____. *On Empire*. New York: Pantheon Books, 2008.
- Hodgson, Marshall G. *The Venture if Islam*. Chicago: Chicago University Press, 1974. 3 vols.
- Hroch, Miroslav. *Social Preconditions of National Revival in Europe*. New York: Cambridge University Press, 1985.
- Hughes, Christopher. *Switzerland*. New York: Praeger, 1975.
- Ignotus, Paul. *Hungary*. New York; Washington, DC: Praeger, 1972.
- Ileto, Reynaldo Clemena. *Pasyon and Revolution: Popular Movements in the Philippines, 1840-1910*. Manila: Ateneo Press, 1979.
- Jaszi, Oscar. *The Dissolution of the Habsburg Monarchy*. Chicago: University of Chicago Press, 1929.
- Joaquin, Nick. *A Question of Heroes*. Manila: Ayala Museum, 1977.
- Kahin, George McTurnan. *Nationalism and Revolution in Indonesia*. Ithaca: Cornell University Press, 1952.
- Katzenstein, Peter J. *Disjoined Partners. Austria and Germany since 1815*. Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1976.
- Kedourie, Elie. *Nationalism*. 3rd ed. London: Hutchinson University Library, 1966.
- _____. (ed. and intro). *Nationalism in Asia and Africa*. New York: Meridian, 1970.
- Kemilainen, Aira. *Nationalism: Problems Concerning the Word, the Concept and Classification*. Jyväskylä: Kustantajat, 1964.
- Kempers, A. J. Bernet. *Ancient Indonesian Art*. Amsterdam: van der Peet, 1959.
- Kirk-Greene, Anthony H. M. *Crisis and Conflict in Nigeria: A Documentary Source Book*. London: Oxford University Press, 1971.
- Koeus, Ieu. *Pheasa Khmer. La Langue Cambodgienne (Un Essai d'étude raisonnée)*. Phnom Penh: [n. p.], 1964.
- Kohn, Hans. *The Age of Nationalism*. New York: Harper, 1962.

- Krom, N. J. *Inleiding tot de Hindoe-Javaansche Kunst*. 2nd Rev. ed. The Hague: Nijhoff, 1923.
- Lafont, Pierre-Bernard and Denys Lombard (eds.). *Litteratures contemporaines de l'asie du sud-est*. Paris: L'Asiatheque, 1974.
- Landes, David S. *Revolution in Time: Clocks and the Making of the Modern World*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1983.
- Leemans, C. *Boro-Boudour*. Leiden: Brill, 1874.
- Luckham, Robin. *The Nigerian Military: A Sociological Analysis of Authority and Revolt, 1960-67*. Cambridge: Cambridge University Press, 1971.
- Lumbera, Bienvenido L. *Tagalog Poetry 1570-1898. Tradition and Influences in its Development*. Quezon City: Ateneo de Manila Press, 1986.
- Lyautey, Louis-Hubert-Gonzalve. *Lettres du Tonkin et de Madagascar (1894-1899)*. Paris: Librairie Armand Colin, 1946.
- Lynch, John. *The Spanish-American Revolutions, 1808-1826*. New York: Norton, 1973.
- Mabry, Bevars D. *The Development of Labor Institutions in Thailand*. Ithaca: Cornell University, Southeast Asia Program, 1979. (Data Paper no. 112)
- MacArthur, Douglas. *A Soldier Speaks. Public Papers and Speeches of General of the Army Douglas MacArthur*. New York: Praeger, 1965.
- McLuhan, Marshall. *The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man*. Toronto: University of Toronto Press, 1962.
- Maki, John M. *Japanese Militarism, Its Cause and Cure*. New York: Knopf, 1945.
- Marr, David G. *Vietnamese Tradition on Trial, 1920-1945*. Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1981.
- Marx, Karl and Friedrich Engels. *Selected Works*. Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1958.
- Masao, Maruyama. *Thought and Behaviour in Modern Japanese Politics*. London; Oxford: Oxford University Press, 1963.
- Masur, Gerhard. *Simon Bolivar*. Albuquerque: University of New Mexico Press, 1948.
- Melville, Herman. *Moby Dick*. London; Toronto: Cassell, 1930.
- Michelet, Jules. *Oeuvres Completes*, edited by Paul Viallaneix. Paris: Flammarion, 1982.

- Montesquieu, Henri de. *Persian Letters*. Translated by C. J. Betts. Harmondsworth: Penguin, 1973.
- Moore, Barrington. *Social Origins of Dictatorship and Democracy. Lord and Peasant in the Making of the Modern World*. Boston: Beacon Press, 1966.
- Morgenthau, Ruth Schachter. *Political Parties in French-Speaking West Africa*. Oxford: Clarendon Press, 1964.
- Morris-Suzuki, Tessa. *Re-Inventing Japan: Time, Space, Nation*. New York: Armonk, 1998.
- Moumouni, Abdou. *L'Education en Afrique*. Paris: Maspero, 1964.
- Muir, Richard. *Modern Political Geography*. New York: Macmillan, 1975.
- Musil, Robert. *The Man Without Qualities*. Translated by Eithne Wilkins and Ernst Kaiser. New York: Howard McCann, 1953.
- Nairn, Tom. *The Break-up of Britain*. London: New Left Books, 1977.
- Nijs, E. Breton de. *Tempo Doeloe*. Amsterdam: Querido, 1973.
- Norman, E. Herbert. *Soldier and Peasant in Japan. The Origins of Conscription*. New York: Institute of Pacific Relations, 1943.
- Orwell, George. *The Orwell Reader*. New York: Harcourt-Brace-Jovanovich, 1956.
- Osborne, Robin. *Indonesia's Secret War, The Guerrilla Struggle in Irian Jaya*. Sydney: Allen and Unwin, 1985.
- Pal, Bipin Chandra. *Memories of my Life and Times*. Calcutta: Bipin Chandra Pal Institute, 1973.
- Polo, Marco. *The Travels of Marco Polo*. Trans. and ed. by William Marsden. London; New York: Everyman's Library, 1946.
- Reid, Anthony J. S. *The Indonesian National Revolution, 1945-50*. Hawthorn, Victoria: Longman, 1974.
- Renan, Ernest. *Oeuvres Completes*. Paris: Calmann-Levy, 1947-1961.
- Rizal, José. *The Lost Eden. Noli Me Tangere*. Trans. by Leon Ma. Guerrero. Bloomington: Indiana University Press, 1961.
- Rizal, José. *Noli Me Tangere*. Manila: Instituto Nacional de Historia, 1978.

- Roff, William R. *The Origins of Malay Nationalism*. New Haven; London: Yale University Press, 1967.
- Said, Edward. *Orientalism*. New York: Pantheon, 1978.
- Scherer, Savitri. «Harmony and Dissonance. Early Nationalist Thought in Java.» M.A. Thesis, Cornell University, 1975.
- Scott, William Henry. *Cracks in the Parchment Curtain*. Manila: New Day, 1982.
- Seton-Watson, Hugh. *Nations and States. An Enquiry into the Origins of Nations and the Politics of Nationalism*. Boulder, Co: Westview Press, 1977.
- Shiraishi, Takashi. *An Age in Motion: Popular Radicalism in java, 1912-1926*. Ithaca: Cornell University Press, 1990.
- Sitorus, Lintong Mulia. *Sedjarah Pergerakan Kebangsaan Indonesia*. Jakarta: PustakaRakjat, 1951.
- Skinner, G. William. *Chinese Society in Thailand*. Ithaca: Cornell University Press, 1957.
- Smith, Anthony D. *The Ethnic Origins of Nations*. Oxford: Blackwell Publishers, 1986.
- Smith, Donald Eugene. *India as a Secular State*. Princeton: Princeton University Press, 1963.
- Spear, Percival. *India, Pakistan and the West*. London; New York; Toronto: Oxford University Press, 1949.
- Steinberg, S.H. *Five Hundred Years of Printing*. Rev. ed. Harmondsworth: Penguin, 1966.
- Storry, Richard. *The Double Patriots. A Study of japanese Nationalism*. London: Chatto and Windus, 1957.
- Strong, Charles Frederick. *Modern Political Constitutions*. 8th Rev. ed. London: Sedgwick and Jackson, 1972.
- Taylor, Robert H. *The State in Burma*. London: C. Hurst & Co, 1987.
- Tickell, Paul. *Three Early Indonesian Short Stories by Mas Marco Kartodikromo (c. 1890-1932)*. Melbourne: Monash University, Centre of Southeast Asian Studies, 1981. (Working Paper; 23)
- Timpanaro, Sebastiano. *The Freudian Slip*. London: New Left Books, 1976.

- _____. *On Materialism*. London: New Left Books, 1975.
- Toer, Pramoedya Ananta. *Bumi Manusia*. Jakarta: Hasta Mitra, 1980.
- _____. *RumahKaca*. Jakarta: Hasta Mitra, 1988.
- _____. *Tjeritadari Blora*. Jakarta: BalaiPustaka, 1952.
- Toye, Hugh. *Laos: Buffer State or Battleground*. London: Oxford University Press, 1968.
- Turner, Victor. *Dramas, Fields and Metaphors. Symbolic Action in Human Society*. Ithaca: Cornell University Press, 1974.
- _____. *The Forest of Symbols. Aspects of Ndembu Ritual*. Ithaca: Cornell University Press, 1967.
- Vagts, Alfred. *A History of Militarism, Civilian and Military*. Rev. ed. New York: The Free Press, 1959.
- Vandenbosch, Amry. *The Dutch East Indies: Its Government, Problems, and Politics*. Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1944.
- Vella, Walter F. *Chaiyo! King Vajiravudh and the Development of Thai Nationalism*. Honolulu: University of Hawaii Press, 1978.
- Veyra, Jaime de. *El 'Ultimo Adios' de Rizal: estudiocritico-expositivo*. Manila: Bureau of Printing, 1946.
- White, Hayden. *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe*. Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1973.
- Wickberg, Edgar. *The Chinese in Philippine Life, 1850-1898*. New Haven: Yale University Press, 1965.
- Wills, Gary. *Inventing America: Jefferson's Declaration of Independence*. New York: Doubleday, 1978.
- Wolfe, Charles. *The Poems of Charles Wolfe*. London: Bullen, 1903.
- Wolters, O. W. *The Fall of Srivijaya in Malay History*. Ithaca: Cornell University Press, 1970.
- Woodside, Alexander B. *Vietnam and the Chinese Model. A Comparative Study of Vietnamese and Chinese Government in the First Half of the Nineteenth Century*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971.
- Zasloff, Joseph J. *The Pathet LAO: Leadership and Organization*. Lexington, MA: Lexington Books, 1973.

Periodicals

- Barnett, Anthony. «Inter-Communist Conflicts and Vietnam.» *Bulletin of Concerned Asian Scholars*: vol. 11, no. 4, October-December 1979.
- Berlin, Isaiah. «Two Concepts of Nationalism, An Interview with Fardels.» *New York Review of Books*: November 1991.
- Carvalho, José Murilo de. «Political Elites and State Building: The Case of Nineteenth-Century Brazil.» *Comparative Studies in Society and History*: vol. 24, no. 3, 1982.
- Debray, Régis. «Marxism and the National Question.» *New Left Review*: no. 105, September-October 1977.
- Eisenstein, Elizabeth L. «Some Conjectures about the Impact of Printing on Western Society and Thought: A Preliminary Report.» *Journal of Modern History*: vol. 40, no. 1, March 1968.
- Hirschman, Charles. «The Making of Race in Colonial Malaya: Political Economy and Racial Ideology.» *Sociological Forum*: vol. 1, no. 2, Spring 1986.
- Hirschman, Charles. «The Meaning and Measurement of Ethnicity in Malaysia: An Analysis of Census Classifications.» *Journal of Asian Studies*: vol. 46, no. 3, August 1987.
- Hobsbawm, Eric. «Some Reflections on 'The Break-up of Britain'.» *New Left Review*: no. 105, September-October 1977.
- Hoffman, John. «A Foreign Investment: Indies Malay to 1901.» *Indonesia*: vol. 27, April 1979.
- Kumar, Ann. «Diponegoro (1778?-1855).» *Indonesia*: no. 13, April 1972.
- Morgan, Edward S. «The Heart of Jefferson.» *New York Review of Books*: 17 August 1978.
- Nairn, Tom. «The Modern Janus.» *New Left Review*: no. 94, November-December 1975.
- Summers, Laura. «In Matters of War and Socialism, Anthony Barnett would Shame and Honour Kampuchea Too Much.» *Bulletin of Concerned Asian Scholars*: vol. 11, no. 4, October-December 1979.
- Williams, Raymond. «Timpanaro's Materialist Challenge.» *New Left Review*: no. 109, May-June 1978.

Studies

Battye, Noel A. «The Military, Government and Society in Siam, 1868-1910. Politics and Military Reform in the Reign of King Chulalongkorn.» Phd. Thesis, Cornell University, 1974.

Greene, Stephen. «Thai Government and Administration in the Reign of Rama VI (1910-1925).» Phd. Thesis, University of London, 1971.

Kelly, Gail Paradise. «Franco-Vietnamese Schools, 1918 to 1938.» Phd. Thesis, University of Wisconsin, 1975.

Winichakul, Thongchai. «Siam Mapped: A History of the Geo-Body of Siam.» Phd. Thesis, University of Sydney, 1988.

فهرس عام

- أ-
 آب، أرنولد: 273-272
 آرثر، جوزيف: 237
 الآستانة: 32
 آسيا: 29، 121، 128-129، 193، 220، 255-256، 283، 309-310، 312، 314، 329
 آل برنادوت: 183
 آل بوربون: 81، 155، 170
 آل رومانوف: 31، 108، 155، 157، 189، 159
 آل عثمان: 32، 143، 157، 189، 212
 آل نوردوم: 208
 آل هابسبورغ: 16، 32، 35، 80، 108، 143، 150، 155-156، 170، 182، 184، 189، 212، 306
 آل هانوفر: 155، 157
 آل هوينزولرن: 32، 155، 157، 183، 189
 ابن السماء (لقب الإمبراطور في الصين): 74، 81، 247
 الاتحاد السوفياتي: 7، 10، 51-52، 58، 112، 184، 249-250، 302، 330، 335، 341، 347، 351
 اتحاد شباب الملايو (1938): 196
 أبيدجان: 209
 أثينا: 90، 340
 الأحرف الصينية: 71، 203
 أدلر، فيكتور: 182
 أديسون، توماس: 81
 الأرثوذكسية: 31، 143، 159، 341
 الأرجنتين: 72، 122، 134، 284، 314، 334
 أرخبيل سولو: 71
 الأردن: 38
 الأرستقراطية: 18، 27، 31، 38، 40-42، 64، 89، 186-187، 236-241، 238
 أرمسترونغ، جون ألكسندر: 52
 أرمينيا: 76
 الأرواحيون: 197
 إسبانيا: 27-28، 37، 116-117، 126-127، 131، 133، 148، 155، 256، 285، 311، 321، 329، 348

الأسبنة: 159	إليزابيث (ملكة إنكلترا): 18
أستراليا: 18، 167، 173، 213، 283، 310-311، 314، 326	الإمبراطورية الرومانية الغربية: 24، 106، 126، 217، 233
إستوريل: 186	الإمبراطورية العثمانية: 143، 262، 287، 310، 314
إسرائيل: 306	الإمبريالية: 72، 115، 164، 186-187، 190، 193، 220، 224، 256، 309، 311، 317
اسكتلندا: 33، 107، 161-163، 285، 310	الأمركة: 25
الإسلام: 68، 71، 98، 113، 262-263، أسن، إيفار: 146-147	الأمم المتحدة: 9، 59، 318، 344
إعلان الاستقلال الأميركي (1776): 134، 161، 290، 298	أميركا: 18، 29، 121، 131-134
إغناطيوس، بول: 144، 178	أميركا الشمالية: 17، 27، 131، 289
أفريقيا: 29، 113، 121، 128، 172، 193، 201، 220، 255-256، 283، 310، 314، 320، 329، 348	أميركا اللاتينية: 17، 26، 28، 54، 116، 289، 298، 310-312، 328-329
أفغانستان: 57	إنتراموروس: 88
أكابولكو: 121	الانتليجنسيا: 15، 22، 25-26، 30، 41، 75، 78، 103، 116، 152، 161، 178، 190، 192-193، 196، 221، 249، 294
أكرا: 191	أندراسي، جيولا: 179
الإكليروس: 15، 42، 75، 83	أندرسن، بيرى: 49
الإكوادور: 122، 135	إندونيسيا: 16، 34-37، 197-198، 201، 207، 211، 229، 240، 242، 259، 269-270، 272- 273، 278، 280، 322، 328، 345، 350
إكي، كيتا: 172	الإنديو: 87
ألبانيا: 58، 89، 246، 310	الإنسانويون: 103، 138
ألكسندر الثالث: 31-32، 160	الأنظمة الماركسية: 58
ألكوين (رجل دين وشاعر): 162	أنغار، إيستا: 49
ألمانيا: 23، 32، 35-36، 104، 157، 169، 174، 183، 195، 219، 314-315	إنغلز، فريدريك: 31
الألمنة: 16، 32، 156، 219، 314	
الإلونغو: 73	
إيريا: 80	

أوكراينا: 31	أنغولا: 195
أوكلاند: 62	الإنكا: 139
الأوليغارشية: 169-172، 181، 217	الأنكلية: 32-33، 163، 165، 167، 314
إيبين: 76	الأنكلوساكسونية: 26، 30، 107، 113، 125، 161-162، 349
إيبيريا: 259	إنوسنت الثالث: 299
إيران: 112	أوبفالدن: 215
إيرلندا الشمالية: 58، 107، 150، 152، 163، 184، 196، 310، 312، 320، 314	أوتاوا: 167
إيطاليا: 36، 219، 335، 340، 350	أوتو الفريزنجي (الأسقف): 84
انتفاضة وارسو (1943): 306	الأوتوقراطية: 31-32، 159-160
إيفان غروزني (الرهيب): 251	أورباخ، إريك: 49، 84-85، 138
إيو كويوس (أحمد زعماء الخمير): 209-210	أوروبا: 7، 15-16، 22، 24، 29، 34، 36، 39، 54، 75، 82-83، 86، 95-96، 102-105، 107، 110-111، 112، 118، 124-125، 128، 130، 137-142، 147، 149، 151، 155-159، 170-172، 174-175، 185-186، 195-196، 196، 210، 214-215، 218، 220، 223، 237، 239، 241، 247، 255، 289، 292-293، 300، 310، 312، 314، 328-329، 334-335، 344
- ب -	أوروبا الشرقية: 7، 58، 151، 165، 347، 351
البابوية: 74	أوروبا الغربية: 69، 77، 99، 106، 119، 300
باتافيا: 175، 193، 198-199، 205، 211	أوروغواي: 122، 135، 242
باتامبانغ: 210	أوفاروف، سيرغي: 31، 159، 164، 190، 250
باخ: 179	
باراغواي: 71، 122، 135، 295	
بارتوك، بيلا: 147	
بارنيت، أنطوني: 49	
باريس: 52، 76-77، 97، 108، 125، 143، 209، 263، 291، 300، 321، 347	
باسكال، بليز: 78	
بافاريا: 155	
بافون، خوسيه ماريا موريلوس إي: 291	
باكوفو: 167، 169-170	

352-349، 331-330، 327	بال، بيبين شاندراف: 167-165
بسمارك، أوتو فون: 32	بالاغتاس، فرانثيسكو: 90-89
بسنابي، جورججي: 144	باندونغ: 205، 199
بشارة، عزمي: 344	بانكوك: 346، 328، 266، 210، 175
البصرة: 288	باور، أوتو: 183، 54
بطرس (القديس): 77	بتوفي، شاندراف: 178
البلاشفة: 302، 246	البرازيل: 120، 115-114، 72، 26
البلاط الإنكليزي: 24	130، 213، 311، 313-314، 328
بلجيكا: 195، 148	براون، توماس: 331، 233-232
البلدان الأميركية: 137، 149-150،	البربر: 123، 72-71
154، 191، 214، 288، 292،	البرتغال: 28، 120، 129-130، 189،
302، 297، 294	195، 256، 348
البلطيق: 160	البرجوازية: 8، 32، 60، 148، 183،
بلغاريا: 30	187، 220، 245، 302
البلقان: 16، 30، 145	برلين: 82
بلوخ، مارك: 108، 161	برلين، أشعيا: 9، 18
البندقية: 75	البروتستانتية: 105-106، 131، 134،
البنغال: 140، 155، 164، 257	197، 218، 300
بنوم بنه: 34، 207، 209-210، 278	بروديل، فيرنان: 306-307
بنيامين، فالتر: 49، 50، 101، 253	بروسيا: 32، 155، 180، 183
بوب، ألكسندر: 81	برولي، جون: 52
بوت، بول: 249، 278	البروليتاريا: 10، 22، 60، 102، 173،
بودابست: 144	185
البوذية: 68، 197، 203، 262، 277	بريانغان: 199
بورغاندي: 83	بريطانيا: 10، 18، 32-33، 41، 56،
بوركهارت: 296	58، 82، 107، 147-148، 150،
بورما: 33، 174، 196، 238، 260،	160-162، 165-166، 169،
276، 280، 281	172-175، 181، 184-185،
بوسطن: 143	195، 217، 228، 245-246،
بوغوتا: 132	256، 284-285، 291، 301،
بوكسر، تشارلز: 129	310، 313، 315-316، 320،

ترکیا: 112-113	بولس (الرسول): 84
ترنافا: 144	بولندا: 30-31، 314
ترنر، فيكتور: 49، 122	بوليفار، سيمون: 27، 117-118، 122، 153
تروتسكي، ليون: 250، 345	بوليفيا: 122
تسوية عام 1867: 182	بومبال، سباستيا جوزيه: 130
تشارلز الخامس: 233	بوهيميا: 80، 144، 294
تشن شيه هوانغ تي: 251	بوينس آيرس: 121، 132-133
تشوشو: 168	بيجين: 203، 247-248، 287، 306
تشيكوسلوفاكيا: 57، 323	320، 346، 351
تشيكييا: 147	بيدرو الأول: 120
تشيلي: 120	بيديه (راهب بندكتي): 162
تكساس: 134	بيركليس: 143
تل أبيب: 7، 344	بيرو: 27، 116، 118، 134، 139
تنزانيا: 35، 213	334، 291
توباك أمارو: 116، 242	بيكون، فرانسيس: 101، 139
توسكانيا: 80، 83	بينارس: 123
تونكين: 203-204، 239-240	بينوندو: 88
توير، برامويديا أنانتا: 234، 280	
توين، مارك: 304	
تيتو، جوزيف بروز: 251	- ت -
تيدور: 270	تاسيني، جان دو لاطر دو: 240
تيرانا: 8	تاكاشي، شيراشي: 49
تيسا، اشتفان: 179، 183	تايلند: 16، 34، 36، 56، 81-82، 148
تيسا، كالمان: 179-180	173، 175، 187، 203، 219
تيمور الشرقية البرتغالية: 198، 323	256، 264-266، 281، 287
التينو: 169، 172	322، 328
- ث -	تاوان: 33، 171، 311-315، 318
ثورة 1905 الروسية: 32، 160، 183	346، 348
الثورة الأميركية: 122	التريك: 16، 32، 157
الثورة الإنكليزية: 245	التدخلات العسكرية السوفياتية في ألمانيا (1953): 57

- الثورة الصينية: 9
الثورة الفرنسية: 10، 137، 152-153، 246، 290-291
- الجمهورية الهلنستية: 216
جنوب أفريقيا: 167، 313
جنوب شرق آسيا: 26، 49، 56، 139، 219، 256، 258، 262، 264، 266، 268، 273، 276-277، 281، 283، 286-288، 310-311
جنيف: 106، 216
جورج الأول: 185
جورج الثالث: 303
جورجتاون: 191
جورجيا: 76
جوزيف الثاني: 145، 156، 177
جون البلانتاجيني: 195
جونز، وليم: 140، 273
جيا لونغ: 247-249
الجيش الأحمر: 58
الجيش البريطاني: 42
الجيش الجمهوري الفرنسي: 42
جيفرسون، توماس: 27، 117، 329
جيمس الأول: 112
- ج -
حرب الانفصال: 134
الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865): 18، 29، 168، 304
الحرب الباردة: 311
الحرب العالمية الأولى: 181، 189، 306
الحرب العالمية الثانية: 13، 34، 58، 189، 209، 216، 270، 306، 348
- جاكرتا: 273
جامعة إسرائيل المفتوحة: 344، 348، 351
الجامعة الأميركية في بيروت: 146
جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت: 146، 25
جامعة برلين: 292
جامعة بودابست: 144
جامعة خاركوف: 145
جامعة دوربات: 160
جامعة سوربون: 292
جامعة ماليزيا الإسلامية الدولية: 47
جانوس (الإله الروماني): 190
جاوة: 64، 257، 260، 306
الجزائر: 187
جزر رياو: 35، 212
جزر الهند الشرقية: 174، 272، 274
جزر الهند الهولندية: 175، 196، 211، 270، 272-273، 275، 277، 281، 322
الجزويت: 130، 204، 295
الجمعية الطبية الأميركية: 227
الجمهوريات الأميركية: 15، 121
جمهورية الصين الشعبية: 58، 245، 250، 337، 346، 348
جمهورية ماكاريو ساكاي: 42، 242

الحرب الفيتنامية: 236

حرب المحيط الهادئ: 173

حرب المئة عام: 163

حركات الاستقلال الأميركية اللاتينية: 118

الحركات القومية: 155، 159، 214،

218، 252، 293-294

الحركة الإليرية: 145

حركة إندونيسيا الفتاة: 35، 212

حركة إيرلندا الفتاة: 196، 312

حركة إيطاليا الفتاة: 196

حركة تركيا الفتاة: 32

الحروف العربية: 113

الحروف الكيريلية السلافية: 113، 143

الحروف اللاتينية: 113

الحزب الديمقراطي (الخميري): 209

الحزب الشيوعي السوفياتي: 250

الحزب الشيوعي الصيني: 250، 317

حزب العمال (بريطانيا): 184

حضارة الأزتيك: 27، 139، 242

حضارة المايا: 242

حضر موت: 287

حقوق الإنسان: 42

حملة نابليون على مصر: 140

- خ -

الخان الأعظم: 75

خدوري، إيلي: 8

الخطاب الستاليني: 13

الخمير الأحمر: 207-211، 249، 252

الخميني، روح الله الموسوي: 77

خه تشينغ: 286-287

- د -

الداروينية: 40

داكار: 201، 209، 311

الدانمارك: 82

دبلن: 167

دستور جمهورية كاتاغالوغان: 42، 242

دفورجاك، أنتونين: 147

دلمايا: 80

دنبر، وليم: 162

دوبروفسكي، جوزيف: 144، 147

دوبريه، ريجيس: 195

الدول الاشتراكية: 7، 51، 250، 253

الدول الأميركية الجديدة: 115

الدول الماركسية: 59

ديفو، نايل: 50

ديكارت، رينيه: 78

الديمقراطية: 21، 42، 116، 302

الديمقراطية الأهلية: 11

- ر -

رابطة الشباب البوذية: 196

رابطة الشباب المسيحي: 196

رابطة المسلمين الشباب: 196

راج (الحكم البريطاني في الهند): 166، 174

راجانوفاب، دامرونغ: 266-267

رأس المال: 22

الرأسمالية: 15-17، 22-23، 33،

101-103، 105، 109-110،

112-113، 133، 155، 157،

179، 191، 220-221، 238،

246، 280

- ز -	الرأسمالية البرجوازية: 41
زامبيا: 35، 213	الرأسمالية الصناعية: 22، 191، 220، 247
زنجبار: 288	رأسمالية الطباعة: 16، 77، 104، 106، 110-112، 118، 141، 148، 212، 218، 246، 266، 277
زيمبابوي: 95	326-325، 305، 284
زيوريخ: 170	رافليس، توماس ستامفورد: 273
- س -	راما الخامس (شولالونكورن): 82، 174-266، 175
ساتسوما: 168	راما الرابع: 264
ساحل العاج: 201	راما السادس: 82
سالومي: 92	رانغون: 191، 196، 199
الساموراي: 168-169	الروسنة: 31-32، 113، 158، 160-161، 165، 189-191، 220، 237-238، 314
السامية: 41، 84	روسو، جان جاك: 130، 140، 321، 345
سان بطرسبورغ: 31، 82، 159، 161، 165	روسيا: 13، 31، 41، 82، 147-148، 161، 172، 242، 247، 310، 330
سان مارتين، خوسيه دي: 27، 118، 120، 153-154، 229، 250، 293، 329	روما: 104، 123، 340
سانتياغو: 121	رومانيا: 155
سايفون: 34، 205، 207، 209-210	ريزال، خوسيه: 53، 87، 89، 92، 224، 226
ستالين، جوزيف: 8، 113، 251	ريكا (الرحالة الفارسي): 76
ستيفن (القديس): 185	رينان، إرنست: 15، 55، 63، 298-300، 304، 306
ستيوارت، آن: 81، 327	رينر، كارل: 183
ستيوارت، تشارلز: 81	ريو دي لابلاتا: 122، 133، 135
سراقوسة: 126	
سرجانغرات، سواردي (كي حجر ديوانتارا): 193-194	
سريافرمان الثاني: 252	
سريلانكا: 71	
سعيد، إدوارد: 328	
سعيد بن سلطان: 288	
سقراط: 143	
سكوت، وليم هنري: 258-259	

- سلوفينيا: 80
 سمرز، لورا: 49
 سميتانا، بيدريخ: 147
 سميث، أنطوني: 8، 52، 326-328، 346
 السنة النبوية: 21
 سنغافورا: 175، 199، 212
 السنغال: 201
 سوجومباركان: 76
 سورية: 38
 سوكارنو، أحمد: 271
 سومطرة: 198، 211، 257، 270
 سون فونيساي: 209
 سون نغوك ثانه: 209
 سوهارتو، أحمد: 198، 345
 السويد: 82، 335
 سويسرا: 26، 35-36، 215-217، 219، 330، 350
 سوفيت، جوناثان: 139
 سيام انظر تايلند
 سيبيريا الشرقية: 173
 سيتن - واتسون، هيو: 10، 32، 59، 145، 158-160، 186، 314
 السيخ: 257، 323
 سيسموندي، جون شارل لينارد دي: 215
 سيسوات يو تيفونغ: 209
 سيغل، جم: 49
 سيهانوك، نور دوم: 278
 - ش -
 شاترجي، ب.: 52
 شارل التاسع: 299
 شارنهورست، غرهارد فون: 82
 شامبليون: 140
 شانغ كاي شيك: 250، 311
 شبه الجزيرة الكورية: 71
 شبه جزيرة الملايو: 198، 256
 شبه القارة الهندية: 139
 شتاين، غرتروود: 62
 الشرق الأدنى: 288، 310، 347-348
 الشرق الأوسط: 310
 شركة الهند الشرقية: 163-164، 167، 260-261، 263
 الشريعة الإسلامية: 21، 263
 شعار سونو جوي: 168
 شفيتس: 215
 شكسبير، وليم: 78
 شمباس، محمد: 49
 شوفر، بيتر: 96
 شيشرون: 103
 شيفشينكو، تاراس: 145
 شيكاغو: 302، 332
 الشيوعية: 33، 92
 - ص -
 الصراع الطبقي: 173
 صن يات صن: 203
 الصين: 11، 33، 57-58، 106، 139، 171، 175، 203-204، 207، 211، 246، 248-249، 251-252، 260، 266، 286، 311، 316-320، 330، 336
 - ش -
 شاترجي، ب.: 52

- ط -

الطبقة الوسطى: 30، 41، 116، 144،
148، 152، 165، 215
طوكيو: 170، 174، 321، 330-331،
334

- ع -

العالم الاشتراكي: 53، 59
العالم البوذي: 71
العالم الثالث: 55
العالم العربي: 47، 314
العالم القديم: 137، 290، 293، 298،
295
العالم المسيحي: 71، 74، 83، 109،
139، 214
العراق: 95، 112
العربية الفصحى: 71
عصبة الأمم: 189
عصر الإمبراطوريات: 16
العصر الحديث: 8-9، 162، 300
العصر الفيكتوري: 18، 164، 175
عصر القومية: 9، 69، 137، 163
عصفور، جابر: 344
العصور الوسطى: 75، 83، 96، 138،
158، 259، 294، 300
العلمانية: 20، 40، 69، 85، 97، 124،
276، 305-306
العلمنة: 20، 36
العولمة: 25، 323

- غ -

غاليسيا: 80
گران كولومبيا: 122، 135
غروتوس، هوغو: 171
غرينفالد، بيلا: 177
الغزو الفيتنامي لكمبوديا (1978-1979):
57
غلنر، إرنست: 8، 15، 18، 30، 52، 63،
326-328، 346
غنيسينو: 82
غوينو، جوزيف آرثر دو: 41، 237
غوريرو، ليون ماريا: 53-54
غولد كوست: 166
غينيا: 201، 270-272

- ف -

الفايكان: 23، 105
فارغاس، بيدرو فيرمين دي: 72، 164،
298
الفاشية: 11، 63، 235
فالي: 216
فاليغناتو، أليساندرو: 129
الفايكنغ: 162
فرانز الثاني: 183، 347
فرانسيا، خوسيه غاسبار رودريغيز دو: 295
الفرانسييسكان: 129
فرانكلين، بنجامين: 131، 161
فرجينيا: 27، 117
فرنسا: 35-36، 56، 81، 107-108،
147-148، 150، 155، 175

- 207، 209، 216، 219، 246،
249، 256، 314، 321، 335،
352
فرنسوا الأول: 105، 108، 347
فريدريك الأكبر: 82
فريدريك فيلهلم الثالث: 82
فلسطين: 38
فلوران: 90
فلوريدا: 302
فيدلر، ليزلي: 302
فتزويلا: 27، 116-117، 120، 122،
134-135، 290، 313، 334،
350
فنلندا: 146
فوست، يوهان: 96
فوسيلي، هنري: 215
الفولابك: 74
فولتير، فرانسوا ماري أرويه: 78، 140
فير، ماكس: 62
فيتنام: 34، 57-58، 211، 245، 247-
248، 251-252، 318، 322،
326، 330
فيفر، لوسيان: 77، 101، 111، 131
فيكتوريا (فيكتوريا فون ساكس كوبرج
غوتا): 32، 160، 163
فيكو، جيامباتيستا: 140
فيلادلفيا: 134، 290، 298
فيلهلم الثاني: 157، 347
فيلون، فرنسوا: 111-112
فيليب الثاني: 37، 258، 306
الفيليبين: 33، 37، 89، 199، 258-
259، 281، 310، 322، 346
فيتيان: 209
فيينا: 32، 52، 144، 163، 178-179،
181، 347
- ق -
القاهرة: 263، 344
قبلاي خان: 76
القدس: 80
القرآن الكريم: 21، 73
قرطاجنة: 121، 126
القسطنطينية: 52
القومية الرسمية: 30، 33-34، 39، 41،
158-159، 161، 167، 169،
171، 173-174، 176، 181-
182، 186-187، 189-190،
214، 219-221، 237، 250-
251، 255، 314، 317-318،
346
القومية الشعبية: 30، 34، 41، 178،
186، 189-190، 214، 237،
252، 255، 314، 317-318
القيصرية الروسية: 31، 146، 158-160،
165، 171، 179-180، 184،
250، 294، 314، 350
- ك -
كاتزنشتين، بيتر: 49
الكاثوليكية: 103، 152، 197، 218،
300، 313
كاراكاس: 132، 263

- كارتوديكرومو، ماس ماركو: 92، 94
 كارلوس الثالث: 119
 كازينسكي، فيرنيك: 144، 147
 كاستري، كريستيان دو لا كروا دو: 240
 كالفن، جان: 106
 كاليفورنيا: 134، 311
 كانبالو: 75
 كانبيرا: 167
 كانغ شي: 287
 كانغ يو وي: 203
 الكتاب المقدس: 24، 92، 98، 104،
 107، 138
 كتابة الـ «كواك نغو»: 204
 الكرملين: 250
 كرواتيا: 80
 كلاوسفيتز، كارل فون: 82
 كمال، مصطفى (أتاتورك): 113
 كمبودج: 203، 207-210
 كمبوديا: 11، 34، 57، 245، 247-
 278
 كندا: 134، 167، 312
 الكنيسة: 8، 22، 73، 103، 144
 كوالا لامبور: 47
 كوبا: 246، 310
 كوبر، جيمس: 302
 كوتلاريفسكي، إيفان: 145
 كوتونو: 209
 كوتيريه، فيليه: 108
 كورايس، أدامانتوس: 143، 293
 كوريا: 33، 171، 311، 315، 318، 332
 الكوزموبوليتانيون: 62، 223
 الكوزموغراف: 264-265
 كوشوت، لايش: 178-179
 كوفمان، أنجيليكا: 215
 كولومبس، كريستوفر: 290، 298
 كولومبو: 191
 كولومبيا: 122، 334
 الكولونيلية: 41، 42، 55، 94، 116،
 118، 121، 126، 128، 132،
 134، 174-175، 190-194،
 196-199، 202، 204-206،
 210-211، 218، 220، 235،
 237-239، 241، 252، 255-
 259، 261-263، 266-271،
 273-281، 285، 328، 336
 كونراد، جوزيف: 270
 كونستان، بنيامين: 215
 الكونغو: 195
 الكونغوشية: 71، 203-204، 206-
 207
 كويتو: 117
 كيتاون: 167
 كيبيك: 155
 كيوتو: 170
 كيوشو: 170
 كيف: 145
 - ل -
 اللاتينية (لغة): 8، 15، 21، 23-25، 71،
 73، 75، 77-78، 83، 102-103،
 105-109، 111، 124-125،
 141، 144-146، 149-150

156، 171، 177، 207، 294،

326

لاهائي: 193، 270

لاوس: 34، 203، 207-208

لبنان: 38

لشبونة: 130، 332، 344

اللغات السامية: 26، 140

لغة الإسبرانتو: 74

لندن: 28، 52، 81-82، 108-109،

163، 165، 269، 283، 285،

288، 311، 314، 320-321،

325، 330، 347

لوثر، مارتن: 23-24، 104-105

لودوميريا: 80

لوس أنجلوس: 86

لوس سانتوس، سانتياغو دي: 88

لوفرتور، توسان: 117

لومبيرا، بيانفينيدو ل.: 90

لويس الخامس عشر: 81

لويس الرابع عشر: 139

لويس السادس عشر: 81

ليانغ شي شاو: 203

الليبرالية: 11، 19-20، 39، 60، 63،

68، 72، 135، 178، 327، 330،

332، 349، 351

ليشاردي، خوسيه خواكين فيرنانديز دي:

91-92

ليشتنشتاين: 217

ليما: 126، 131

ليوتي، لويس - هوبرت غونزالفيه: 239

ليون: 149

-م-

ماتزيني، جوزيبي: 190

الماتورانغوس: 166

ماجنداناو: 71

الماجيار: 144، 156، 177

مارتن، هنري - جان: 77، 101، 111،

131

ماركس، كارل: 10، 19، 31، 60، 62،

220، 296، 343

الماركسية: 10، 13-14، 19-20، 39،

57، 59-60، 68-69، 228، 246،

252، 302، 327، 350

الماركسيون: 10-11، 13، 59

ماركو بولو: 75-77

ماريا تيريزا (إمبراطورة النمسا): 144

الماغنا كارتا: 18، 195

ماكولي، توماس بابنغتن: 164، 166،

173، 250

مالي: 95، 201

ماليزيا: 242، 256، 350

الماندارين: 72، 203

مانشستر: 167

المانشو ابن السماء: 74، 247-248،

250، 286، 315-317، 351

مانويل الأول: 129

مانبلا: 88-89، 199، 261، 263، 346

ماو تسي تونغ: 247، 251

المجتمع الصناعي: 8

محمد رضا بهلوي (شاه إيران): 158

محمد علي باشا: 26

المحيط الأطلسي: 127، 284، 294

- المحيط الهادئ: 286
مدام دو ستايل: 215
مدير: 27-28، 116-117، 119-
121، 126، 132، 285
مرسوم سان مارتين (1821): 291
مسقط: 288
المسيحية: 68، 98، 103، 123، 128
المسيحيون: 25، 75-76، 123، 142،
164، 178
المشروع الصهيوني: 25
مصر: 26، 233، 310، 345، 348
معاداة السامية: 41، 235، 237
معركة كورونا: 230
معركة كونيفراتز (1866): 179
المغرب: 71، 328
مفهوم «السلانت»: 40
مكة: 71، 123، 263
المكسيك: 91-92، 116، 119-120،
126، 132-133، 139، 291،
334، 348
مكسيكو سيتي: 131-132
المملكة المتحدة انظر بريطانيا
المملكة الوسطى: 71، 73، 260
ميشيل، جول: 296-298، 302، 304-
305
منظمة العفو الدولية: 227
مؤتمر الشبيبة القومي (1928): 196
مؤتمر برلين (1885): 172، 189
مور، توماس: 139
مور، جون: 230، 232
مورتايمر، ريكس: 49
موزمبيق: 35، 195، 213، 218
موسكو: 52، 250، 263، 317، 336،
343
موسى (النبي): 76
موك، هوبرتوس فان: 211
مولمين: 238
مولهرن، فرانسيس: 49
مونت كارلو: 186
مونتسكيو، شارل لوي دي سيكوندا: 76-
77، 140
موير، ريتشارد: 265
ميتران، فرانسوا: 95
الميثولوجيا: 20
ميجي: 174، 310، 315، 321
- ن -
نابوليون بوناپرت: 31، 116، 120، 140،
153، 159، 292، 301
النازية: 41، 236
نايرن، توم: 10، 49، 59، 62، 152،
161، 163، 235، 245-246،
326-328
النرويج: 146-147، 323، 337، 350
النزاعات الحدودية الصينية السوفياتية
(1969): 57
نظام «شوغنية توكوغاوا»: 168
نظام الهان الإقطاعي: 169
نغوين (سلالة): 210
النمسا: 41، 80، 148، 183-184
نهر السين: 108
نورثمبريا: 161

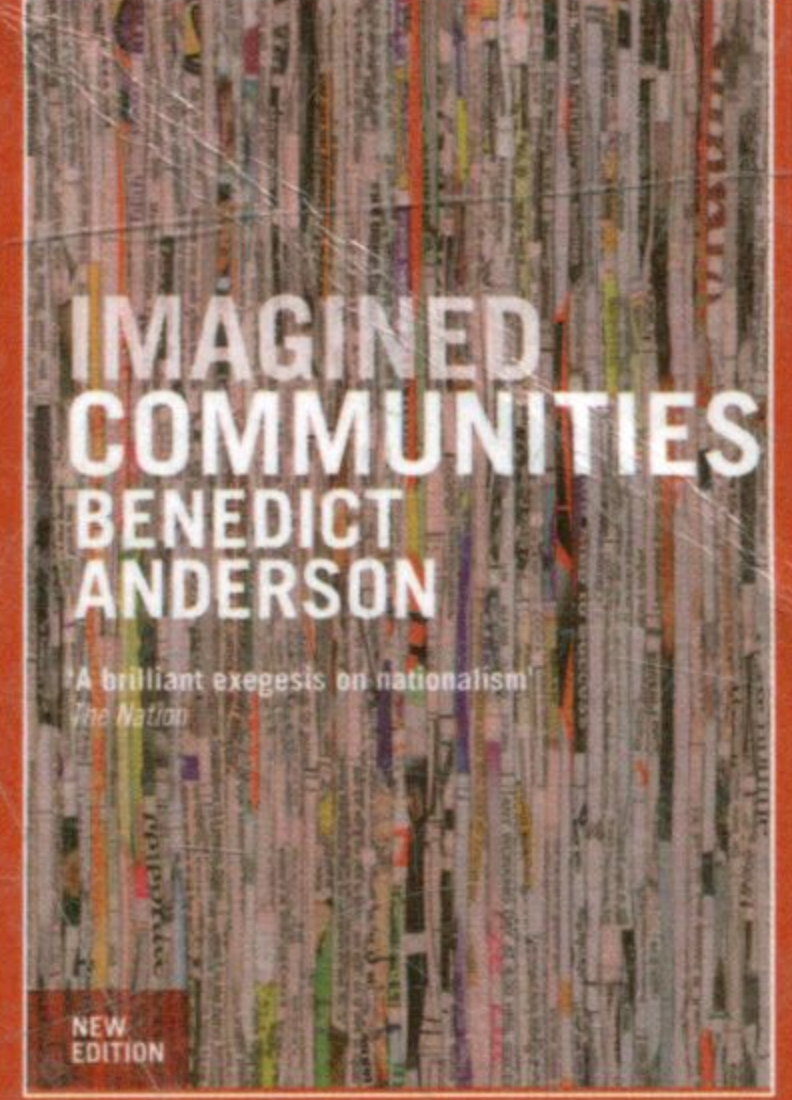
- نوبا ليسبوا: 283
نوبا ليون: 283
نوفيل أورليانز: 283
نوي أمستردام: 283
نيدفالدن: 215
نينغارت، كي أريا مارتا: 260
نيو شاتل: 216
نيوزلندا: 314-313، 283، 167، 310
نيويورك: 283، 229، 134
- ه -
- هاريسون، جون: 266
هانوي: 8، 34، 205، 207، 210-209
هتلر، أدولف: 305، 301
هروتش، ميروسلاف: 52
الهند: 32-33، 35-36، 160، 163-
164، 166، 213، 257، 310
318، 322، 330
الهند الصينية: 7، 16، 34، 51، 57
174، 201-210
هندنبرغ: 246
هنري الثامن: 18
هنريسن، روبرت: 162
هنغاريا: 30، 57، 80، 147، 150-151،
173، 179-180، 184-185
هنغاريا النمساوية: 150، 156، 173
هوبز، توماس: 19، 62، 78
هوبسباوم، إريك: 8، 52، 59، 141-
142، 152، 161، 246، 326-
328
هودلي، ماسون: 259
- هولندا: 148، 193، 195، 200، 212،
256، 335
هوليوود: 18
هونشو: 170، 173
هونغ كونغ: 166
هوي كانثول: 209
هيدر، ستيف: 49
هيردر، جوهان غوتفرد فون: 130، 321
هيرشمان، تشارلز: 256-257
الهيروغليفية: 140
هيجل، غيورغ فيلهلم فريدريش: 97، 116،
345
هيو: 210
هيوز، كريستوفر: 215-216، 218-219
هيوم، ديفيد: 161
هيئة الأركان العامة البروسية: 239
- و -
- واشيروت: 175-176
وايت، هايدن: 295
وبستر، نوح: 295
الولايات المتحدة الأمريكية: 72، 115،
134، 148، 153، 184، 195
246، 256، 290، 312-313
327-330، 334، 349-351
ولايات النمسا العظمى المتحدة: 184-
185
وليم الفاتح: 18، 161، 185، 301، 347
وولف، تشارلز: 230
ووهان (مدينة): 288
الويتسلباخ: 155

اليهود: 40، 236	ويتنبرغ: 23، 104
يهودا: 233	ويكليف، جون: 107
يوحنا المعمدان: 92	ويلز: 107
يوركشاير: 162	وينيشاكول، ثونغشاي: 267-264
يوغوسلافيا: 58، 251، 330، 332، 351، 348	- ي -
اليونان: 82، 143، 155، 233، 323، 340، 335	اليابان: 33، 71، 82، 139، 167، 169- 173، 187، 210، 310-311، 331، 318
يونغ لو: 286	ياسي، أوسكار: 54، 80، 180
يونغمان، جوزيف: 144	ياناتشيك، ليوش: 147
اليبنة: 33، 173	

هذا الكتاب

يُعرّف بندكت أندرسن الأمة بأنها "جماعة سياسية مُتخيلة". وبذلك، ينقل دراسة المسألة القومية إلى مستوى غير مسبوق، ويغيّر المنظور والوسائل التي كان يُعالج بها هذا الموضوع، فاتحاً عهداً جديداً في النظر إليه ومدشّناً حقولاً بحثية تكاد تكون جديدة تماماً في مقاربته.

هكذا، تنطلق رحلة هذا الكتاب من التعريف الجديد لتعود إلى تتبع جذوره الثقافية قبل أن تواصل دراسة اللغة والطباعة، وحركة الموظفين والطلاب بأمدائها وحدودها، والثورات المعجمية والفيلولوجية التي رفعت من شأن اللغات القومية، واضطرار الأباطرة إلى الظهور بإهاب قومي خشية القوميات الشعبية الناهضة، والقوميات المعادية للاستعمار، وصولاً إلى دراسة المتحف والتعداد والخريطة والذاكرة... بوصف ذلك كله أدلة على بروز زمن جديد فارغ متجانس هو زمن الأمة.



المؤلف

بندكت أندرسن (1936 - ...)، أكاديمي متخصص في الدراسات الدولية والآسيوية. اشتهر بكتابه هذا، الجماعات المُتخيلة، الذي نُشرت طبعته الأولى عام 1983. وُلد أندرسن في كونمنغ، في الصين، لأب إنكليزي - إيرلندي وأم إنكليزية. وتنقّل مع الأسرة إلى كاليفورنيا وإيرلندا. حاز إجازته من جامعة كيمبرج، وحاز الدكتوراه من جامعة كورنل عن أطروحة تناولت إندونيسيا الحديثة. وهو شقيق المفكر والمؤرخ الشهير بيرني أندرسن. من مؤلفاته أيضاً:

- Religion and Social Ethos in Indonesia (1977)
- In the Mirror: Literature and Politics in Siam in the American Era (1985)
- Under Three Flags: Anarchism and the Anti-Colonial Imagination (2005)

المترجم

ثائر ديب (1962 - ...) مترجم وكاتب سوري، ساهم في تحرير عدد من المجلات الثقافية والفكرية. يعمل في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. وسبق أن عمل في الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة. ترجم عشرات الكتب من الإنكليزية إلى العربية، منها:

- موقع الثقافة، هومي ك. بابا، المجلس الأعلى للثقافة-القاهرة، 2004
- ثقافة الطائفية: الطائفة والتاريخ والعنف في لبنان القرن التاسع عشر، مؤسسة مقاصد، بيروت، 2004
- نظرية الأدب، تيري إيغلتن، وزارة الثقافة، دمشق، 1995

فلسفة وفكر

اقتصاد وتنمية

لسانيات

آداب وفنون

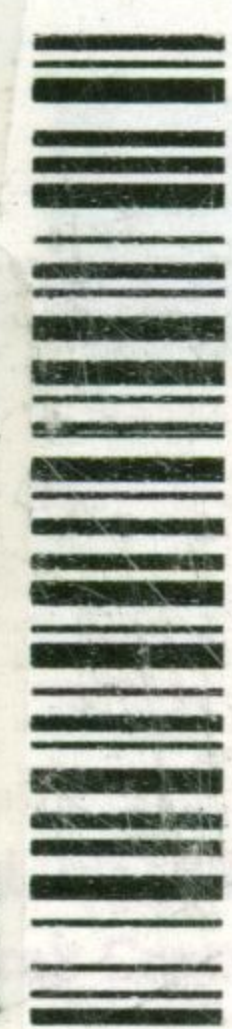
تاريخ

علم اجتماع وأنتروبولوجيا

أديان ودراسات إسلامية

علوم سياسية
وعلاقات دولية

Biblioteca Alexandrina



1240339



المركز العربي للأبحاث ودراسة
Research & Policy Studies

السعر: 14 دولاراً

ISBN: 978-9953-0-3011-1

